مُصطفى صادق الرّافعي

وحي القلم

الجُزءُ الثّاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة
تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو
برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة
الناشر خطياً.

Exclusive Rights by
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah *Beirut - Lebanon*

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah *Beyrouth - Liban*

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ . ١١ بيروت . لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3028-5
90000>
9782745130280

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإشراقُ الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلعُ الشمسُ بأنوارِها فتُفجّرُ ينبوعَ الضوءِ المسمَّى النهار، يولَد النبيُّ فيوجدُ في الإنسانية ينبوعَ النور المسمَّى بالدين. وليس النهار إلا يقظةَ الحياة تُحقِّقُ أعمالَها، وليس الدينُ إلا يقظةَ النفس تحقق فضائلَها.

والشمسُ خلقها الله حاملةً طابَعَه الإلهيَّ، في عملِها للمادة تُحَوِّلُ به وتُغيِّر، والنبيُّ يرسله الله حاملاً مثلَ ذلك الطابعَ في عملِه تترقَّى فيه وتسمو.

وَرَعَشاتُ الضوء من الشمس هي قصةُ الهداية لِلكون في كلام من النور، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون نورٍ من الكلام.

والعاملُ الإلهيُّ العظيم يعملُ في نظامِ النفسِ والأرضِ بأداتيْن متشابهتينِ: أجرامِ النور من الشموس والكواكب، وأجرامِ العقل من الرُّسُلِ والأنبياء.

فليس النبيُّ إنساناً من العظماءِ يُقرأ تاريخُه بالفكر معه المنطق، ومع المنطقِ الشكّ، ثم يُدْرَسُ بكلِّ ذلك على أصولِ الطبيعة البشرية العامة، ولكنَّهُ إنسانٌ نجميٌّ يُقرأ بمثلِ «التلسكوب» في الدقة، معه العِلْم، ومع العِلْمِ الإيمان، ثم يُدْرسُ بكلِّ ذلك على أصولِ طبيعتِه النورانية وحدَها.

والحياةُ تُنشِيءُ عِلمَ التاريخ، ولكنَّ هذه الطريقةَ في درسِ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ عليهم ـ تجعلُ التاريخَ هو يُنشىءُ عِلْمَ الحياة، فإنَّما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية، يُقَوِّمها في فلكِها الأخلاقيّ، ويجذبُها إلى الكمالِ في نظامٍ هو بعينِه صورةٌ لِقانون الجاذبية في الكواكبِ.

ويجيءُ النبيُّ فتجيءُ الحقيقةُ الإلهيةُ معه في مثلِ بلاغة الفنِّ البيانيّ، لِتَكُونَ أقوى أثراً، وأيسرَ فَهْماً، وأبدعَ تمثيلاً، وليس عليها خِلافٌ من الحِسِّ. وهذا هو الأسلوبُ الذي يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ الناسِ جميعاً، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغةٍ بأكملِها، هوَ الشخصُ المفسِّرُ إذا تعسَّفَ الناسُ الحياةَ لا يدرونَ أين يؤُمُّونَ منها،

ولا كيف يتهدَّون فيها، فتضطربُ الملايينُ من البشرية اضطرابَها فيما تنقبضُ عنه وتتهالكُ فيه من أطماع الدنيا، ثم يُخْلقُ رجلٌ واحد لِيكونَ هو التفسيرَ لِمَا مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائقُ الآدابِ العالية في قالبِ من الإنسانِ العاملِ المرئيِّ، أبلغَ مِمّا تظهرُ في قصةٍ متكلِّمةٍ مروية.

وما الشهادةُ لِلنبوّة إلَّا أن تكونَ نفسُ النبيّ أبلغَ نفوسِ قومِه، حتى لهُوَ في طباعِه وشمائِلِه طبيعةٌ قائمةٌ وحدَها، كأنَّها الوضعُ النفسانيُّ الدقيقُ الذي يُنصَبُ لِتصحيحِ الوضعِ المغلوطِ لِلبشرية في عالمِ المادة وتنازعِ البقاء. وكأنَّ الحقيقةَ الساميةَ في هذا النبيّ تُنادي الناس: أن قَابِلوا على هذا الأصلِ وصحِّحوا ما اعترى أنفسَكم من غلطِ الحياة وتحريفِ الإنسانية.

* * *

ومن ثَمَّ فنبيُّ البشرية كلِّها مَن بُعِثَ بالدين أعمالاً مفصَّلةً على النفسِ أدقَّ تفصيلٍ وأوفاهُ بمصلحتِها، فهو يُعطي الحياةَ في كلِّ عصرٍ عقلها العمليَّ الثابتَ المستقرَّ تُنظِّم به أحوال النفسِ على مَيْزةٍ وبَصيرة، ويَدَعُ لِلحياة عقلها العِلْميَّ المتجدد المتغيرَ تنظِّم به أحوال الطبيعة على قصْدٍ وهُدًى، وهذه هي حقيقةُ الإسلام في أخصِّ معانيه، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدِّي تأديتَهُ في هذه الحاجةَ أدبٌ ولا عِلْمٌ ولا فلسفة، كأنَّما هُوَ نَبعٌ في الأرضِ لِمعاني النور، بإزاءِ الشمسِ نبع النورِ في السماء.

وكلُّ ذلك تراهُ في نفس محمدٍ ﷺ، فهي في مجموعِها أبلغُ الأنفسِ قاطبة، لا يُمكنُ أن تعرفَ الأرضُ أكمل منها، ولوِ اجتمعت فضائلُ الحكماءِ والفلاسفة والمتألِّهينَ وجُعِلتْ في نِصَابٍ واحد ـ ما بلغَتْ أن يجيءَ منها مثلُ نفسه ﷺ. ولكأنَّما خرَجتْ هذه النفسُ من صيغةٍ كصيغة الدُّرَّة في محارتها، أو تركيب كتركيب الماس في منجمه، أو صفة كصفة الذهب في عِرْقِه. وهي النفسُ الاجتماعيةُ الكبرى، من أين تدبَّرْتَها رأيْتَها على الإنسانية كالشمسِ في الأفقِ الأعلى تنبسطُ وتَضْحَى.

وتلك هي الشهادةُ له ﷺ بأنَّهُ خاتم الأنبياء، وأنَّ دينَه هو دينُ الإنسانية الأخير، فهذا الدينُ في مجموعِه إن هو إلَّا صورةُ تلك النفسِ العظيمة في مجموعها: صلابتُهُ بمقدارِ الحقِّ الإنسانيِّ الثابتِ، لا بمقدارِ الإنسان المتغيِّرِ الذي يكون عند سَببٍ جَبلاً صَلْداً يَشْمَخ، وعند سببٍ آخرَ ماءً عذْباً يجري.

وهو دينٌ يعلو بِالقوة ويدعو إليها، ويُريدُ إخضَاعَ الدنيا وحُكْمَ العالم، ويستفرغُ همَّهُ في ذلك، لا لإعزازِ الأقوى وإذلالِ الأضعف، ولكن لِلارتفاع

بالأضعفِ إلى الأقوى، وفرقٌ ما بينَ شريعتِه وشرائعِ القوة، أنَّ هذه إنَّما هي قوةُ سيادة الطبيعة وتحكُّمِها، أمَّا هو فقوةُ سيادة الفضيلة وتغلُّبها، وتلك تعملُ لِلتفريق، وهو يعملُ لِلمساواة، وسيادةُ الطبيعة وعملُها لِلتفريقِ هما أساسُ العبودية، وغلبةُ الفضيلة وعملُها لِلمساواة هما أعظم وسائِل الحريَّة.

ومن هنا كان طبيعيًا في الإسلامِ ما جاءَ به مِن أنهُ لا فضيلةَ إلَّا وهو يطبعُ عليها صورةَ الجنة بنعيمِها الخالد، ولا رذيلةَ إلَّا وهو يضعُ عليها صورةَ النارِ الأبديَّة وَقُودُها الناسُ والحجارة، فلا تنظُر العينُ المسلمةُ إلى أسبابِ الحياة نظرةَ الفكرِ المنازع: يحرَصُ على ما يكون له ويَشْرَهُ إلى ما ليس له، ويمكُرُ الحيلةَ، ويُبدعُ وسائل الخِداع، ويَزيدُ بِكلِّ ذلك في تعقيد الدنيا ـ بلْ نظرةُ القلبِ المسالم: يَخلعُ الدنيا ويَسخو بكلِّ مضنونٍ فيها، فيعفُّ عن كثير، ويعرفُ الإنسانيةَ ويطمعُ في غاياتِها العُلْيا، فيعفو عن كثير، ويُدرِكُ أنَّ الحلال وإن حلَّ فوراءَهُ حسابُه، وأنَّ الحرامَ وإن غرَّ ليس إلَّا تَعلُّل ساعةٍ ذاهبةٍ ثم من ورائِه عِقابُ الأبد.

ويخرجُ من ذلك أن يكونَ أكبرُ أغراضِ الإسلام هو أن يجعل من خشية الله ـ تعالى ـ قانونَ وجودِ الإنسان على الأرض، فمن أيّ عِطْفيه التفتَ هذا الإنسانُ وجدَ على يَمْنتِه ويَسْرتِه مَلكَين مِن ملائكة اللهِ يكتبان أعمالهُ بخيرِها وشرِّها، فهو كالمتَّهَمِ المستراب به في سياسة النفس: لا يمشي خُطوةً إلَّا بين جاسوسَيْنَ يُحصيانِ عليه حتى أسبابَ النِّية، ويَجمعان منهُ حتى نَزَواتِ الكبِد، ويُترجمان عنه حتى معانيَ النظر.

وإذا قامَتْ هذه المحكمةُ الملائكيَّةُ وتقرَرتْ في اعتبارِ النفس، قامَ منها على النفسِ شرعٌ نافذٌ هو قانونُ الإرادة المميِّزة، تُريدُ الحسناتِ وتعملُ لها، وتخشَى السيئاتِ وتَنفرُ منها، فإذا معاني الجسدِ يحكم بعضُها بعضاً، لا لتحقيقِ الحكومة والسلطة، ولكن لِتحقيقِ الخيرِ والمصلحة، وإذا نواميسُ الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهَضَتْ إلى جانبها نواميسُ الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كلُّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في النفسِ هي من صاحبها مادةُ تُهمةٍ عند قاضيها في محكمتِها، وإذا كلُّ ما في الإنسان وما حول الإنسان، لا يُرادُ منه إلَّا سلام النفسِ في عاقبتِها؛ وإذا معنى السلامِ هو المعنى الغالبُ المتصرِّفُ بالإنسانية في دنياها.

وكلُّ أعمالِ الإسلام وأخلاقِه وآدابه، فتلك هي غايتُها، وهذه هي فلسفتُها؛ لا يُقررُها لِلإنسانية حَسْبُ، بل يَغرسُها في الوراثة غرساً بالاعتيادِ والمِران الدائم، لِتكونَ عِلماً وعملاً، فتُمكِّنَ لِسلام النفسِ بين الأسلحة المسدَّدة إليها من ضروراتِ الحياة، في أيدي الأعداءِ المتألِّبة عليها من شَهَواتِ الغريزة.

فليس يعمُّ السلام إلّا إذا عمَّ هذا الدينُ بأخلاقه فشَمل الأرضَ أو أكثرَها؛ فإنَّ قانونَ العالمِ حينئذٍ يُصبحُ منتزَعاً من طبيعة التراحُم، فإمَّا انتسخَ به قانونُ التنازع الطبيعيّ، وإمّا كَسَرَ من شِرّته؛ ويُولدُ المولودُ يومئذٍ وتُولدُ معه الأخلاقُ الإنسانية.

* * *

تقريرُ معنى الدوامِ لِكلِّ أعمالِ النفسِ حتى مثقالِ الذَّرة من الخيرِ والشرّ، وضبطُ ذلك برياضةٍ عمليةٍ دائمةٍ مفروضةٍ على الناسِ جميعاً ـ هذا هو أساسُ العقيدة الإسلامية؛ ولا صلاحَ لِلإنسانية بغيرِه يردُّها إلى سبيلِ قَصْدِها، فإنَّ من ذلك تكونُ الصفةُ العقليةُ التي تَغْلِبُ على المجتمع، وتُجانِسُ بين أفرادِه، فتوجِّهُ الإنسانيةَ كلَّها نحوَ الممكن من كمالِها، ولا تزالُ تَوجِّهُها نحوَ ما هو أعلى، وتحكم فاسدَها بصالِحها، وتأخُذُ عاصيَها بمطِيعِها، وتجعلُ الشرفَ الإنسانيَّ غرضَها الأول، لأنَّ الله الحقَّ غرضُها الأخير؛ فيُصبحُ المرء ـ وهذا دينُه ـ كلّما تقدَّمَ به العمرُ كَمل فيه اثنان: الإنسان، والشريعة. ولا يعودُ طالبُ السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراءَ ظلِّه لِيُمسِكَه؛ فلا يُدركُ في الآخرِ شيئاً غيرَ معرفتِه أنَّهُ كان في عملٍ باطلٍ وسعيٍ ضائع.

والإسلام يحرصُ أشدَّ الحِرْصِ وأبلغَهُ على تقريرِ ذلك المعنى الإلهيِّ العظيم، لا بالمنطق، ولكن بالعملِ؛ ثمَّ في النفسِ وعواطفِها، لا في العقلِ وآرائه؛ ثم على وجه التعميم، دونَ الاستثناءِ والخصوص؛ وذلك هو سِرُّ مشقَّتِه على النفسِ بما يفرضُهُ عليها؛ فإنَّ فلسفتَهُ أنَّ هذه النفسَ هي أساسُ العالم، وأنَّ النظامَ الخُلقيَّ هو أساسُ النفس، وأنَّ العمل الدَّائمَ هو أساسُ النظام، وأنَّ روحَ العملِ الدائم تكونُ فيما يشُقُّ بعضَ المشَقة ولا يبلغُ العُسْرَ والحَرَج، كما تكونُ فيما يَسْهُلُ بعَضَ السهولة ولا يبلغُ الكَسَل والإهمال.

ولِلنفسُ وجهان: ما تُعلِن، وما تسِرّ؛ ولا صدقَ لإعلانِها حتى يصدقَ ضميرُها، ولا صلاحَ لِجَهْرَها حتى يصلُحَ السرُّ فيها، ولا يكون الإنسانُ الاجتماعيُّ فاضلاً بمَشْهَدِه حتى يكونَ كذلك بغَيْبِه.

ولِلعالم كذلك وجهان: حاضِرُهُ الذي يمرُّ فيه، وآتيه الذي يمتدُّ لهُ؛ ولا يُفلِحُ حاضرٌ منقطعٌ لا يُوَرِّثُ ما بعدَهُ كما وَرِثَ ما قبلَه، وما حاضرُ الإنسانية إلّا جزءٌ من عملِ الناسِ في استمرارِ فضائلِهم باقيةً ناميَّة.

ولِلنظامِ أيضاً وجهان: نظام الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها، ونظام الرغبة

على الخشية والنَّفْرة منها. ولا يستقيم شأنٌ ليس أساسُهُ الطاعةَ في النفس، ولا يستمرُ نظامٌ عليه خِلافٌ من فِكْرِ العاملِ به.

ولِلعملِ الدائم طريقتان: إحداهما طريقةُ الجادِّ يعملُ للعاقبة يستَيْقِنُها، فلا يجدُ مِمَّا يشقُّ عليه إلَّا لذةَ المغالبة لِلنصر: كلُّ مرارةٍ من قِبلِه هي حلاوةٌ فيه من بَعد، ولا يعرفُ لِلمِحْنة يُبتلى بها إلّا معناها الحقيقيَّ وهو إيقاظُ نفسِه، فيُصبحُ الصبرُ عندَهُ كصبرِ المحبِّ على أشياءَ مِمَنْ تُحبُّه؛ صبرٌ فيه من السحرِ ما يكسو الحِرْمانَ في بعضِ الأحيان خيال الاستمتاع، ويُذيقُ النفسَ في العجزِ عن بعضِ أغراضِها ـ لذةً كلذة إدراكِه.

* * *

تلك هي فلسفةُ الإسلام؛ لا قِوامَ لِلأمرِ فيها ولا مِساكَ له إلَّا بتقريرِ معنى الدوامِ لِكلِّ أعمالِ النفس، ووضع طَابَع الجنَّة على أعمالِ الجنَّة، وطابع النارِ على أعمالِ النارِ ـ وحياطة كلِّ فردٍ من الناسِ حياطةً رياضيةً عمليَّةً بين الساعةَ والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلَّفُ من أعمالِ جسمِه وحواسِّه، ثم أعمالِ قلبِه ونيتِه ـ وتعظيم الشخصية الروحيَّة دونَ الشخصية المادية، فلا يحاولُ كلُّ إنسانٍ أن يجعل بطنَهُ في حجْم مملكةٍ أو مدينةٍ أو قرية، بما ينتقِصُ من حقوقِ غيرِه؛ بل تتَّسعُ ذاتيةُ كلِّ فَردٍ بما يجبُ له على المجتمع من الواجباتِ الإنسانيَّة؛ وبهذا لا بغيرِه تتعيَّنُ مقاييسُ الأخلاقِ في الأرض: بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقعُ الخطأ ولا التزوير، وتنحلُّ المشكلةُ الاجتماعيةُ ما دامَتِ الحياةُ لا تجدُ من أهلِها كلَّ ساعةٍ عُقَداً فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقلِ والعاطفة هو وحدَهُ الطريقةُ لإنشاءِ طبيعة الخيرِ في الناسِ على نَسَقِها الطبيعيّ، كما أنَّهُ هو وحدَهُ الطريقةُ لِتطهيرِ التاريخِ الإنسانيِّ من أوبائِه الاقتصادية، التي جعلتْهُ كأنَّما هو تاريخُ الأسنان والأضراس، وتركَتِ الناسَ يهدم بعضُهُم بعضاً، كما يهدُم الجارُ حائطَ جارِه لِيوسِّعَ بيتَه.

وأساسُ العملِ في الإسلام إخضاعُ الحياة لِلعقيدة، فتجعلُها العقيدةُ أقوى من الحاجة، فيكون الفقيرُ معْدَماً ويتعفَّف، ويكون الغنيُّ موسَراً ويتصدَّق، ويكون الشَّرِهُ طامعاً ويُمْسِك، ويكون القويُّ قادراً ويُحْجِم، وكما قال العربَ في تحقيقِ ناموسِ الأنَفة والحميَّة وغلبتِه على الناموسِ الاقتصاديّ: «تجوعُ الحرةُ ولا تأكلُ بثَدْيِيهَا».

* * *

تُريدُ الإنسانيةُ امتداداً غيرَ امتدادِها التجاريِّ في الأرض، وتحتاجُ إلى معنًى يقودُ إنسانَها غيرَ الحيوان الذي فيه؛ وإذا قادَ الغرابُ قوماً فإنَّما هو ـ كما قال شاعرُنا ـ يمرُّ بهم على جِيَفِ الكلاب. . . والإنسانيةُ اليومَ في مثلِ ليلٍ حَوْشيٍّ مظلم اختلطَ بعضُهُ في بعض، وليسَتْ معاني الإسلام إلَّا الإشراقَ الإلٰهيَّ على هذه الكَثَافَة المادية المتراكِمة، وإذا رُفِعَ المِصباحُ لم تجدِ الظلامَ إلَّا وراءَ الحدودِ التي تنتهي إليها أشعتُه.

وقد علِمْنا من طبيعة النفس أنَّ إنسانيةَ الفردِ لا تعظُم وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحَها الصادقَ وتحزنُ حزنَها السَّامي ـ إلَّا أن تعيشَ في محبوب؛ فإنسانيةُ العالم لا تكونُ مثل ذلك إلَّا إذا عاشَتْ في نبيِّها الطَّبيعيّ، نبيٍّ أخلاقِها الصحيحة وآدَابِها العالية ونظامِها الدقيق؛ وأين تجدُ هذا المحبوبَ الأعظمَ إلَّا في محمدٍ ودين محمد؟

وعجيبٌ أن يجهل المسلمونَ حِكْمةَ ذكرِ النبيِّ العظيم خمسَ مرات في الأذان كلَّ يوم، يُنادَى باسمِه الشريفِ ملْءَ الجوِّ؛ ثم حكمةَ ذكرِه في كلِّ صلاةٍ من الفريضة والسُّنَّة والنافلة، يُهْمَسُ باسمِه الكريم ملْءَ النفس! وهلِ الحكمةُ من ذلك إلَّا الفرضُ عليهم ألَّا ينقطعوا من نبيِّهم ولاَ يوماً واحداً من التاريخ، ولا جزءاً واحداً من اليوم؛ فيمتدُّ الزمنُ مهما امتدَّ والإسلام كأنَّه على أوَّله، وكأنَّهُ في يومِه لا في دهرٍ بعيد؛ والمسلم كأنَّهُ مع نبيِّه بين يديه تبعثُهُ روحُ الرسالة، ويسطعُ في نفسِه إشراقُ النبوَّة، فيكون دائماً في أمرِه كالمسلم الأولِ الذي غيَّر وجهَ الأرض؛ ويظهرُ هذا المسلم الأولُ بأخلاقِه وفضائله وحَمِيَّتِه في كلِّ بقعةٍ من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإنَّ كلَّ أرضٍ إسلاميَّةٍ يكادُ لا يظهرُ فيها إلَّا إنسانُها التاريخيُّ بجهلِه وخُرافاتِه وما وَرِثَ من القِدَم؛ فهنا المسلم الفرعونيّ، وفي ناحيةِ المسلم الوثنيّ، وفي بلدِ المسلم المجوسيّ، وفي جهةِ المسلم المعطِّل. . . وما يُريدُ الإسلام إلَّا نفسَ المسلمِ الإنسانيّ.

أيُّها المسلم!

لا تنقطعْ من نبيِّكَ العظيم، وعِشْ فيه أبداً، واجعلْهُ مثلكَ الأعلى؛ وحينَ تذكُرُهُ في كلِّ وقت فكُن كأنَّكَ بين يديه؛ كُن دائماً كالمسلمِ الأول؛ كُن دائماً ابنَ المعْجِزة.

حقيقة المسلم (*)

لا يعرفُ التاريخُ غيرَ محمدٍ ﷺ رجلاً أفرغَ الله وجودَهُ في الوجودِ الإنسانيّ كلِّه؛ كما تنصبُّ المادّةُ في المادة، لِتمتزجَ بها فتُحوّلها، فتُحْدثَ منها الجديد، فإذا الإنسانيةُ تتحوَّلُ به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها فما تبرحُ هذه الإنسانيّةُ تنمو به وتتحوَّل.

كان المعنى الآدميُّ في هذه الإنسانيَّة كأنَّما وَهَنَ من طولِ الدهرِ عليه، يَتَحيَّفُهُ ويمحُوهُ ويتَعَاوَرُهُ بالشرِّ والمنكرَ؛ فابْتَعثَ الله تاريخَ العقلِ بآدمَ جديدٍ بدأتْ به الدنيا في تَطَوُّرِها الأعلى من حيثُ يرتفعُ الإنسانُ على ذاتِه، كما بدأتْ من حيثُ يُوجَدُ الإنسانُ في ذاتِه؛ فكانَتِ الإنسانيَّةُ دهرَها بين اثنين: أحدُهما فَتحَ لها طريقَ المجيءِ من الجنة، والثاني فَتحَ لها طريقَ العوْدة إليها: كان في آدمَ سرُّ وجودِ الإنسانيَّة، وكان في محمدٍ سرُّ كمالِها.

* * *

ولهذا سُمِّي الدينُ (بالإسلام)؛ لأنَّهُ إسلام النفسِ إلى واجبِها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعيَّة؛ كأنَّ المسلمَ يُنكِرُ ذاتَهُ فيُسْلِمها إلى الإنسانية تُصرِّفُها وتَعْتَمِلُها في كمالِها ومعاليها؛ فلا حظَّ له هو من نفسِه يُمسِكُها على شهواتِه ومنافعِه، ولكن لِلإنسانية بها الحظّ.

وما الإسلام في جملتِه إلّا هذا المبدأ: مبدأ إنكارِ الذاتِ و(إسلامُها) طائعةً على الْمَنشَطِ والمَكْره لِفُروضِها وواجباتِها؛ وكلَّما نكَصَتْ إلى منزَعِها الحيوانيّ، أسلمَها صاحبُها إلى وازعِها الإلهيّ؛ وهو أبداً يَرُوضُها على هذه الحركة ما دامَ حيًّا؛ فينتزعُها كلَّ يوم من أوهامِ دنياها، لِيضعَها ما بين يَدَيْ حقيقتِها الإلهيَّة: يروضُها على ذلك كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مرّات مسماةٍ في اللغة خَمْسَ صلوات، لا

(*) كتبها لجماعة الكشاف المسلم في بيروت في ذكرى المولد النبوي الشريف. وانظر «فترة جمام» و«عود على بدء» من كتاب حياة الرافعي.

يكون الإسلام إسلاماً بغيرِها؛ فلا غَرْوَ كانَتِ الصلاةُ بهذا المعنى كما وصفَها النبيُّ ﷺ هي عِمادَ الدين.

* * *

بين ساعات وساعات في كلِّ مطلع شمسٍ من حياة المسلمِ صلاة، أيْ إسلام النفسِ إلى الإرادة الاجتماعيَّة الشاملة[1] القائمة على الطاعةَ لِلفرْضِ الإلهيّ، وإنكارٌ لِمعانيها الذاتيَّة الفانية التي هي مادةُ الشرِّ في الأرض، وإقرارُها لحظات في حَيِّزِ الخيرِ المحضِ البعيدِ عن الدنيا وشهواتِها وآثامِها ومنكَراتِها. ومعنى ذلك كلّه تحقيقُ المسلمِ لِوجودِ روحِه؛ إذْ كانَت أعمالُ الدنيا في جملتِهَا طُرُقاً تتشتَّتُ فيها الأرواحُ وتتبعثَر، حتى تَضِلَّ روحُ الأخِ عن روحِ أخيه فتُنكرُها ولا تعرفُها!

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ الحالة العقليَّة التي جاءَ الإسلام لِيَهْديَ الإنسانيَّةَ إليها: حالة السلامِ الروحانيِّ الذي يجعلُ حربَ الدنيا المهلكةَ حرباً في خارجِ النفس لا في داخلِها، ويجعلُ ثروةَ الإنسان مقَدَّرةً بما يعاملُ الله والإنسانيةُ عليه؛ فلا يكون ذهبُه وفِضّتُه ما كتَبتْ عليه الدول: «ضُرِبَ في مملكة كذا»، ولكن ما يراهُ هو قد كُتِبَ عليه: «صُنِعَ في مملكة نفسي»؛ ومن ثَمّ لا يكون وجودُهُ الاجتماعيُّ لِلأخذِ حَسْبُ، بلْ لِلعطاءِ أيضاً، فإنَّ قانونَ المالِ هو الجمع، أمّا قانونُ العملِ فهو البذل.

بالانصرافِ إلى الصلاة وجَمْع النيَّة عليها، يستشعرُ المسلم أنَّهُ قد حطَّمَ الحدودَ الأرضيةَ المحيطةَ بنفسِه من الزمان والمكان، وخَرَج منها إلى رُوحانيَّةٍ لا يُحدُّ فيها إلّا بالله وحدَه.

وبالقيام في الصلاة، يُحقِّقُ المسلم لِذاتِه معنى إفراغ الفكرِ الساميِ على الجسمِ كلِّه، لِيمتَزجَ بجلالِ الكون ووقارِه، كأنَّهُ كائنٌ منتصبٌ مع الكائناتِ يسبِّحُ بحمدِه.

وبالتولِّي شَطْرَ القِبلة في سَمْتِها الذي لا يتغيَّرُ على اختلافِ أوضاع الأرض، يَعرفُ المسلم حقيقةَ الرمزِ لِلمركزِ الثابتِ في روحانيَّة الحياة؛ فيَحملُ قلبُهُ معنى الاطمئنان والاستقرارِ على جاذبيَّة الدنيا وقَلقها.

وبالركوع والسجودِ بين يَدَي الله، يُشْعِرُ المسلم نفسَهُ معنى السموِّ والرّفعة على كلِّ ما عدا الخالقَ من وجودِ الكون.

---

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها.

وبالجلسة في الصلاة وقراءة التحيَّاتِ الطيِّبات، يكون المسلم جالساً فوقَ الدنيا يحمَدُ الله ويُسلِّم على نبيِّه وملائكتِه ويشهَدُ ويدعو.

وبالتسليمِ الذي يَخرجُ به من الصلاة، يُقْبِلُ المسلم على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً: من جهتَي السلامِ والرحمة.

هي لحظَاتٌ من الحياة كلَّ يوم في غير أشياءِ هذه الدنيا؛ لِجمع الشهواتِ وتقييدِها بين وقت وآخرَ بسلاسلِها وأغلالِها من حركاتِ الصلاة، ولِتمزَيقِ الفنَاءِ خمسَ مرات كلَّ يومٍ عن النفس؛ فيرَى المسلم من ورائِه حقيقةَ الخلود، فتشعرُ الروحُ أنَّها تنمو وتتَّسع.

هي خمسُ صَلوات، وهي كذلك خمسُ مرَّات يَفْرَغُ فيها القلبُ مِمَّا امتلأ به من الدنيا، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قوله ﷺ: «جُعِلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»[1].

* * *

لم يكن الإسلام في حقيقتِه إلَّا إبداعاً لِلصِّيغة العمليَّة التي تنتظم الإنسانيةُ فيها؛ ولهذا كانتْ آدابُهُ كلُّها حُرَّاساً على القلبِ المؤمن، كأنَّها ملائكةٌ من المعاني؛ وكان الإسلام بها عملاً إصلاحياً وقَعَ به التطوُّرُ في عالم الغريزة، فنَقلهُ إلى عالم الخُلُق، ثُمَّ ارتقى بالخُلُقِ إلى الحقِّ، ثم سمَا بالحقِّ إلى الخَيرِ العامِّ؛ فهو سموٌّ فوقَ الحياة بثلاثة طبقَات، وتدرُّجٌ إلى الكمالِ في ثلاثِ منازل، وابتعادٌ عن الأوهامِ بمسافة ثلاثِ حقائقٍ.

وبتلك الأعمالِ والآدابِ كانتِ الدنيا المسْلمةُ التي أسَّسها النبيُّ ﷺ دنيا أسلمَتْ طبيعتُها، فأصبحَتْ على ما أرادَ المسلمونَ لا ما أرادَتْ هي؛ وكأنَّها قائمةٌ بنواميس من أهليها، لا على أهليها؛ وكان الظاهرُ أنَّ الإسلامَ يغزو الأممَ بالعربِ ويفتَتِحُها، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ إقليماً من الدنيا كان يُحاربُ سائرَ أقاليمِ الأرضِ بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لِهذا الدين.

وكأنَّ الله ـ تعالى ـ ألقى في رمالِ الجزيرة روحَ البحر، وبعثَها بَعْثَهُ الإلهيَّ لِأمرِه، فكان النبيُّ ﷺ هو نقطةَ المدِّ التي يفُورُ البحرُ منها، وكان المسلمونَ أمواجَهُ التي غُسِلتْ بها الدنيا...

---

(١) كان محمد (ﷺ) يستبطىء الصلاة وقد جاء وقتها، من شدة شوقه إليها فيقول: «أرِحْنا بها يا بلال» ولا أفصح ولا أدق في تصوير نفسيته (ﷺ) وأشواق روحه العالية من قوله: أرحنا بها. فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه.

لهذا سمع المسلمونَ الأوّلونَ كلامَ الله ـ تعالى ـ في كتابه، وكلامَ رسولِه ﷺ، لا كما يسمعونَ القول، ولكن كما يتلقَّوْنَ الحكمَ النافذَ المقْضيّ؛ ولم يجدوا فيهِ البلاغةَ وحدَها، بل رَوْعةَ أمرِ السماءِ في بلاغة؛ واتَّصلوا بنبيِّهم، ثم بعضُهم ببعض، لا كما يتَّصلُ إنسانٌ بإنسان، بل كما تتصلُ الأمواجُ بقوة المدّ، ثم كما يُمِدُّ بعضُها بعضاً في قوةٍ واحدة.

وحقَّقوا في كمالِه ﷺ وجودَهُم النفسيّ؛ فكانوا من زَخارِفِ الحياة وباطلِها في موضع الحقيقة الذي يُرى فيه الشيءُ لا شيء.

ورأوْا في إرادتِه ﷺ النقطةَ الثابتةَ فيما يَتضَاربُ من خيالاتِ النفس؛ فكانوا أكبرَ علماءِ الأخلاقِ على الأرض، لا من كُتُبٍ ولا عِلْمٍ ولا فلسفة، بل من قلبِ نبيِّهم وحدَه.

وعرفوا به ﷺ تمامَ الرجولة؛ ومتى تمَّتْ هذه الرجولةُ تمامَها في إنسان، رجعَتْ له الطفولةُ في رُوحِه، وامتلكَ تلكَ الطبيعةَ التي لا يملِكُها إلَّا أعظَم الفلاسفة والحكماءِ فأصبحَ كأنَّما يمشي في الحياة إلى الجنة بخُطُوات مسدَّدةٍ لا تَزيغُ ولا تنحرف، فلا شرَّ ولا رذيلة؛ ودنياهُ هي الدنيا كلُّها بشمسِها وقمرِها، يملكُها وإن لم يملكْ منها شيئاً، ما دامَتْ في قلبِه طبيعةُ السرور، فلا فقرَ ولا غِنَى ممَّا يَشعُرُ الناسُ بمعانيه، بلْ كلُّ ما أمكنَ فهو غِنَى كامل، إذْ لم تَعُدِ القوةُ في المادة تزيدُ بزيادتِها وتنقصُ بنقصِها، بل القوةُ في الروحِ التي تَتَصرفُ بطبيعة الوجود، وتَدفعُ قُوَى الجسمِ بمثلِ دوافع الطفولة النامية المتغلِّبة، حتى لتجعلُ من النورِ والهواءِ ما يُؤتَدَم به مع الخبزِ القَفَار، كما يؤتَدَم باللحمِ وأطايبِ الأطعمة(١).

وبذلك لا تتسلَّطُ ضرورةٌ على الجِسْم ـ كالجوع والفقرِ والألم ونحوِها ـ إلَّا كان تَسلُّطُها كأنَّهُ أمرٌ من قوّةٍ في الوجودِ إلى قوّةٍ في هذا الجسم: أَن تَظْهَرَ لِتعمل عملها المعْجِزَ في إبطالِ هذه الضرورة. وهذا الجِنسُ من الناسِ كالأزهارِ على

---

(١) عن ابن عباس قال: دخل رسول الله (ﷺ) يوم فتح مكة على (أم هانىء) وكان جائعاً، فقال لها: «أعندك طعام آكله؟» فقالت: «إن عندي لكسراً يابسة، وإني لأستحيي أن أقدمها إليك» فقال: «هلميها!»، فكسرها في ماء، وجاءته بملح، فقال: «ما من إدام؟» فقالت: «ما عندي إلا شيء من خل». فقال «هلميه!» فلما جاءت به صبه على طعامه فأكل منه، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «نعم الإدام الخل يا أم هانىء، لا يقفر بيت فيه خل» اهـ.

أغصانِها الخُضر؛ لو قالتْ شيئاً لقالتْ: إنَّ ثروتي في الحياة هي الحياةُ نفسُها، فليس لي فقرٌ ولا غِنًى، بلْ طبيعةٌ أوْلا طبيعة.

* * *

ولقدْ كان المسلم يُضْربُ بالسيفِ في سبيلِ الله، فتقَعُ ضَرباتُ السيوفِ على جسمِه فتُمَزِّقُه؛ فما يُحِسُّها إلَّا كأنَّها قُبَلُ أصدقاءَ من الملائكة يَلْقَوْنَهُ ويعانقونَه!

وكان يُبْتَلى في نفسِه ومالِه، فلا يشعرُ في ذلك أنَّهُ المُرَزَّأ المبْتَلى يُعْرَفُ فيه الحُزنُ والانكسار، بلْ تَظهرُ فيه الإنسانيةُ المنتصرةُ كَمَا يَظهرُ التاريخُ الظافِرُ في بطلِه العظيمِ أصيبَ في كلِّ موضعٍ من جسمِه بجراح، فهي جِراحٌ وتشويهٌ وألم، وهي شهادةُ النصر!

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياهُ أثقالاً على نفسِه، بل كانَتْ له أسبابَ قوةٍ وسموّ؛ كالنَّسْرِ المخلوقِ لِطبقَاتِ الجوِّ العُليا، ويحملُ دائماً من أجلِ هذه الطبقَاتِ ثِقْل جناحيه العظيمين.

وكانَتِ الحقيقةُ التي جعلها النبيُّ ﷺ مَثَلهم الأعلى، وأقرَّها في أنفسِهم بجميعِ أخلاقِه وأعمالِه ـ أنَّ الفضائل كلَّها واجبةٌ على كلِّ مسلم لِنفسِه، إذْ إنَّها واجبةٌ بِكلِّ مسلم على غيره، فلا تكونُ في الأمَّة إلَّا إرادةٌ واحدةٌ متعاونة، تجعلُ المسلمَ وما هو روحَ أمتِه تعملُ به أعمالها هي لا أعمالَهُ وحدَها.

المسلم إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعِه في معناهُ الاجتماعيِّ حول أمته كلِّها، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمِعٌ حول نفسِه بهذه المنافع؛ وهو من غيرِه في صدقِ المعاملة الاجتماعية كالتاجرِ من التاجر؛ تقولُ الأمانةُ لِكليهما: لا قيمةَ لِميزانِكَ إلَّا أن يُصَدِّقَهُ ميزانُ أخيك.

ولن يكونَ الإسلام صحيحاً تامًّا حتى يجعلَ حاملهُ مثَلاً من نبيِّه في أخلاقِ الله؛ فما هو بشخصٍ يضبِطُ طبيعتَه: يَقْهرُها مرةً وتقهرُهُ مِراراً؛ ولكن طبيعةٌ تضبِطُ شخصَها فهي قانونُ وجودِه.

لا يضطربُ من شيء، وكيف يضطربُ ومعه الاستقرار؟

لا يخافُ من شيء، وكيفَ يخافُ ومعه الطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيفَ يخشى ومعه الله؟

أيُّها الأسد، هل أنت بجملتِكَ إلَّا في طبيعة مَخَالِبك وأنيابك...؟

وحيُ الهجرة(*)

إنَّ التاريخَ ليتكلَّم بلغةٍ أوسعَ من ألفاظِه إذا قرأهُ مَن يقرؤهُ على أنَّهُ بعضُ نواميسِ الوجود، صُوِّرَتْ فيها النفسُ الإنسانيةُ كيفَ اعْتَوَرَتْ أغراضَها، وكيف مدَّت في نَسَقِها، وكيف تغلغَلتْ في مسالكِها، وما تأتَّى لها فَجَرَتْ به مَجراها، وما دفَعَها فانحدرتْ منه إلى مَقَارِّها؛ فهو ليس بكلام تستقبلُه تقرأ فيه، ولكنَّهُ أحوالٌ من الوجودِ تعترضُها فتُغيِّرُ عليكَ حِسَّكَ بإلهامِهَا وأحلامِها، وتتناولُها من ناحيةٍ فتتناولُك من الأخرى؛ فإذا الكلمةُ من ورائِها معنًى، من ورائِه طبيعةٌ، من ورائِها سببٌ وحِكْمة؛ وإذا كلُّ حادثةٍ فيها إنسانيتُها وإلهيَّتُها معاً، وإذا الوجودُ في ذهنِك كالساعة ترسم لك حدَّ الثانية بخَطْرتين، وحدَّ الدقيقة من عددٍ محدودٍ من الثواني، وحدَّ الساعة إلى حدِّ اليوم؛ وإذا البيانُ في نفسِك من كلِّ هذه الحواشي، وإذا التاريخُ فيما تقرؤُهُ مفنَّنٌ في ظاهرِه وباطِنِه يَفِيءُ عليكَ من ألفاظِه ومعانيه بظلالٍ هي صِلتُكَ أنتَ أيُّهَا الحيُّ الموجودُ بأسرارِ ما كان موجوداً من قبل.

كذلك قرأتُ بالأمسِ تاريخَ الهجرة النبوية في كتابِ أبي جعفرٍ الطَّبريِّ لِأكتبَ عنهُ هذه الكلمة، فلم أكُن ـ علِمَ الله ـ في كتابٍ ولا في حِكاية، بلْ في عالم انبثقَ في نفسي مخلوقاً تامًّا بأهلِه، وحوادثِ أهلِه، وأسرارِ أهلِه جميعاً؛ كمَا يرى المحبُّ حبيبَه: لا يكون الجميلُ في محلٍّ إلَّا امتلأ مكانَهُ بعَاشِقِه، فهو مكانٌ من النفس، لا من الدنيا وحدَها، وفيه الحياةُ كما هي في الوجودِ بمظهرِ المادة، وكما هي في الحُبِّ بمظهرِ الروح.

وتلك حالةٌ من القراءة بالروحِ والكتابة بالروح، متى أنت سَمَوْتَ إليها رأيْتَ فيها غيرَ المعنى يُخرجُ معنًى، ومِن لا شيءَ تُخلقُ أشياء، لأنَّك منها اتصلْتَ بأسرارِ نفسِك، ومن نفسِك اتصلْتَ بأسرارٍ فوقَها؛ فيُصبِحُ التاريخُ معك فنَّ الوجودِ الإنسانيِّ على الوجه الذي أفضَتْ به الحِكْمةُ إلى الحياة لِتستمرَّ بالنفسِ الإنسانية،

(*) أولى مقالاته في الرسالة، أنشأها للعدد السنوي الخاص بالهجرة.

لا فنَّ عِلْمِ الناسِ على الوجه الذي أفضَتْ به الحوادثُ مِمَّا بين الحياة والموت.

* * *

نشأ النبيُّ ﷺ في مكة، واستُنبِىءَ على رأسِ الأربعينَ من سِنّه، وغَبَرَ ثلاثَ عشْرَةَ سنةً يدعو إلى الله قبل أن يُهاجرَ إلى المدينة؛ فلم يكن في الإسلامِ أول بَدْأتِه إلَّا رجلٌ وامرأةٌ وغلام: أما الرجلُ فهو هو ﷺ، وأما المرأةُ فزوجُهُ خديجة، وأما الغلام فعليّ ابْنُ عمِّه أبي طالب.

ثم كان أولُ النموِّ في الإسلام بحُرٍّ وعبد: أمَّا الحرُّ فأبو بكر، وأمَّا العبدُ فبِلال، ثم اتَّسقَ النموُّ قليلاً قليلاً بِبُطءِ الهموم في سيرِها، وصبرِ الحُرِّ في تجلّدِه؛ وكأنَّ التاريخَ واقفٌ لا يتزحزح، ضيقٌ لا يتَّسِعُ، جامدٌ لا ينمو؛ وكأنَّ النبيَّ ﷺ أخو الشمس: يطلُعُ كلاهما وحدَهُ كلَّ يوم. حتى إذا كانتِ الهجرةُ من بَعدُ، فانتقل الرسولُ إلى المدينة، بدأتِ الدنيا تَتَقَلْقَل، كأنَّما مرَّ بقدمِه على مركزِها فحرَّكَها؛ وكانَتْ خطواتُهُ في هجرتِه تَخطُّ في الأرض، ومعانيها تخطُّ في التاريخ؛ وكانَتِ المسافةُ بين مكةَ والمدينة، ومعناها بين المشرقِ والمغرب.

لقد كان في مكةَ يَعْرِضُ الإسلامَ على العربِ كما يُعْرَضُ الذهبُ على المتوحشين: يَرونَهُ بَريقاً وشُعاعاً ثُمَّ لا قيمةَ له، وما بهم حاجةٌ إليه، وهو حاجةُ بني آدمَ إلَّا المتوحشين، وكانوا في المحادَّة والمخالفة الحمقاء، والبلوغ بدعوتِه مبلغَ الأوهام والأساطير ـ كما يكون المريضُ بذاتِ صدرِه مع الذي يدعوهُ في ليلةٍ قارَّةٍ إلى مداواة جسمِه بأشعة الكواكب؛ وكانَتْ مكةُ هذه صخراً جغرافيًّا يتحطَّم ولا يلين، وكأنَّ الشيطانَ نفسَهُ وضعَ هذا الصخرَ في مجرى الزمن لِيصدَّ به التاريخَ الإسلاميَّ عن الدنيا وأهلِها.

وأوذِيَ رسولُ الله ﷺ، وكُذِّبَ وأهين، ورَجَفَ به الوادِي يخطو فيه على زَلازل تتقلَّب، ونابذَهُ قومهُ وتذَامَروا فيه، وحضَّ بعضُهم بعضاً عليه، وانصَفَقَ عنهُ عامةُ الناسِ وتركُوه إلَّا مَن حفِظَ الله منهم؛ فأُصيبَ كبيراً باليُتْمِ من قومِه، كما أُصيبَ صغيراً باليُتْمِ من أبويه.

وكان لا يسمعُ بقادمٍ يقدُم من العربِ له اسمٌ وشرفٌ، إلَّا تصدَّى له فدعاهُ إلى الله وعرضَ نفسَهُ عليه؛ ومع ذلك بقيَتِ الدعوةُ تلوحُ وتختفي كما يَشُقُّ البرقُ من سحابةٍ على السماء: ليس إلَّا أن يُرَى ثم لا شيءَ بعدَ أن يُرى!

* * *

فهذا تاريخُ ما قبل الهجرة في جملة معناه، غيرَ أنّي لم أقرأهُ تاريخاً، بلْ قرأتُ فيه فصلاً رائعاً من حِكْمةٍ إلهية، وضَعَهُ الله كالمقدِّمة لِتاريخِ الإسلام في الأرض؛ مقدِّمةٌ من الحوادثِ والأيامِ تحيا وتمرُّ في نَسَقِ الرواية الإلهية المنطوية على رموزِها وأسرارِها، وتظهرُ فيها رحمَةُ الله تعملُ بقسوة، وحِكمةُ الله تتجلَّى في غُموض؛ فلو أنت حققْتَ النظرَ لرأيْتَ تاريخَ الإسلام يتألَّهُ في هذه الحِقْبة، بحيثُ لا تقرؤُهُ النفسُ المؤمنةُ إلَّا خاشعةً كأنَّها تُصلِّي، ولا تتدبَّرُهُ إلَّا خاضعةً كأنَّها تتعبَّد.

بدأ الإسلام في رجلٍ وامرأةٍ وغلام، ثم زاد حرًّا وعبداً؛ أليسَتْ هذه الخمسُ هي كلَّ أطوارِ البشرية في وجودِها، مخلوقةً في الإنسانية والطبيعة، ومصنوعةً في السياسة والاجتماع؛ فهاهنا مطلعُ القصيدة، وأولُ الرمزِ في شعرِ التاريخ.

ولبثَ النبيُّ ﷺ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً لا يَبْغيه قومهُ إلَّا شرًّا، على أنَّهُ دائبٌ يطلبُ ثُمَّ لا يجد، ويَعْرِضُ ثُمَّ لا يُقبَلُ منه، ويُخْفِقُ ثُمَّ لا يَعتريه اليأس، ويَجْهَدُ ثُمَّ لا يتخوَّنُهُ الملل، ويستمرُّ ماضياً لا يتحرَّف، ومعتزماً لا يتحوَّل؛ أليسَتْ هذه هي أسمى معاني التربية الإنسانيَّة أظهرَها الله كلَّها في نبيِّه، فَعمِلَ بها وثَبَت عليها، وكانَتْ ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في هذا المعنى كعمرِ طفلٍ وُلِدَ ونشأ وأحكمَ تهذيبَهُ بالحوادث، حتى تسلَّمتْهُ الرجولةُ الكاملةُ بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلِها؟

أفليس هذا فصلاً فلسفيًّا دقيقاً يعلِّم المسلمينَ كيف يجبُ أن ينشأ المسلم: غِنَاهُ في قلبِه، وقوّتُهُ في إيمانِه، وموضِعُهُ في الحياة موضعُ النافع قبل المنتفِع، والمصلِحِ قبل المقلِّد؛ وفي نفسِه من قوة الحياة ما يموتُ به في هذه النفسِ أكثرُ ما في الأرض والناسِ من شهوات ومطامع؟

ثم أليسَتْ تلكَ العواملُ الأخلاقيَّةُ هي هي التي ألْقِيَتْ في منبع التاريخِ الإسلاميِّ ليعُبَّ منها تيَّارُه؛ فتدفعُهُ في مجراهُ بين الأمم، وتجعلُ من أخصِّ الخصائصِ الإسلامية في هذه الدنيا ـ الثباتَ على الخُطْوة المتقدمة وإن لم تتقدَّم، وعلى الحقِّ وإن لم يتحقَّق؛ والتبرُؤَ من الأثرة وإن شَحَّتْ عليها النفس، واحتقارَ الضعفِ وإن حَكَمَ وتسلَّط، ومقاومةَ الباطلِ وإن سادَ وغلب، وحمْلَ الناسِ على مَحْضِ الخيرِ وإن رَدُّوا بالشرّ، والعمل لِلعملِ وإن لم يأتِ بشيء، والواجبَ لِلواجبِ وإن لم يكُن فيه كبيرُ فائدة، وبقاءَ الرجلِ رجلاً وإن حطَّمَهُ كلُّ ما حوله؟

ثمَّ هي هي البُرهاناتُ القائمةُ لِلدهرِ قيامَ المنارة في الساحل ـ على نبوَّة محمدٍ ﷺ تثبت ببرهان الفلسفة وعلومِ النفسِ أنَّهُ رُوحٌ وغاياتُها المحتومَة بِالقدَر،

لا جسمٌ ووسائلُهُ المتغلِّبةُ بالطبيعة؛ ولو كان رجلاً ابتعثتْهُ نفسُه، لتمحَّل الحِيَلَ لِسياستِه، ولأحْدَثَ طَمعاً من كلِّ مَطمع، ولركَدَ مَعَ الحوادِث وهَبَّ، ولما استمرَّ طوال هذه المدة لا يتَّجِهُ وهو فردٌ إلا اتجاهَ الإنسانية كلِّها كأنَّما هو هي.

ولو هو كان رجل المُلكِ أو رجل السياسة، لاستقامَ والْتَوَى، ولأدركَ ما يبتغي في سَنوات قليلةٍ، ولأوْجَدَ الحوادثَ يتعلَّقُ عليها، ولمَا أفْلتَ ما كان موجوداً منهُ يتعلَّقُ به، ولمَا انتزعَ نفسَهُ من محلِه في قومِه وكان واسطةً فيهم، ولا تركَ عوامل الزمن تُبعدُهُ وهي كانتْ تُدنيه.

قالوا: إنَّ عَمَّهُ أبا طالبٍ بعثَ إليه حينَ كلَّمته قُريش فقال له: يا ابنَ أخي، إنَّ قومَك قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تُحمِّلْني من الأمرِ ما لا أطيق. فظنَّ رسولُ الله ﷺ أنَّهُ قد بدا لِعمِّه فيه بَدَاء[1]، وأنَّهُ خاذِلُهُ ومُسْلِمُه، وأنَّهُ قد ضَعُفَ عنْ نُصرتِه والقيام معه، فقال: يا عمَّاه، لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أنْ أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهِرَهُ الله أو أهلِكَ فيه ما تركْتُه. ثم استعبرَ ﷺ فبكى!

يا دموعَ النبوَّة! لقدْ أثْبَتِّ أنَّ النفسَ العظيمةَ لنْ تتَعزَّى عن شيءٍ منها بشيءٍ من غيرِها كائناً ما كان، لا من ذهبِ الأرضِ وفِضَّتِها، ولا من ذهبِ السماءِ وفِضتِها إذا وُضِعَتِ الشمسُ في يدٍ والقمرُ في الأخرى.

وكلُّ حوادثِ المدة قِبل الهجرة على طولِها ليسَتْ إلَّا دليلَ ذلك الزمن على أنَّهُ زمنُ نبيٍّ، لا زمنُ مَلِكٍ أو سياسيٍّ أو زعيم؛ ودليلَ الحقيقة على أنَّ هذا اليقينَ الثابتَ ليس يقينَ الإنسان الاجتماعيِّ من جهة قوّتِه، بل يقينُ الإنسان الإلهيِّ من جهة قلبِه؛ ودليلَ الحِكْمة على أنَّ هذا الدينَ ليس من العقائدِ الموضوعة التي تنشُرُها عَدْوى النفسِ لِلنفس؛ فها هو ذا لا يبلغُ أهلُهُ في ثلاثَ عشرة سنةً أكثرَ مِمَّا تبلغُ أسرةٌ تتوالدُ في هذه الحِقْبة؛ ودليلَ الإنسانية على أنَّهُ وحْيُ الله بإيجادِ الإخاءِ العالميِّ والوحدة الإنسانيَّة. أفلمْ يكُنْ خروجُهُ عن موطنِه هو تحقُّقَهُ في العالم؟

ثلاثَ عشْرَةَ سنة، كانَتْ ثلاثة عَشَرَ دليلاً تُثبتُ أنَّ النبيَّ ﷺ ليس رجل مُلْك، ولا سياسة، ولا زَعامة؛ ولو كان واحداً من هؤلاءِ لأدركَ في قليل؛ وليس مبتدِعَ شريعةٍ من نفسِه، وإلَّا لَمَا غَبَر في قومِه وكأنَّهُ لم يجذْهم وهم حوله؛ وليس

---

(١) أي نشأ له رأي جديد فيه، وهذا كما يقولون: رجع عن رأيه.

صاحبَ فِكرةٍ تعملُ أساليبُ النفسِ في انتشارِها؛ ولو كانَهُ لحملهم على مَخْضِها وممزوجِها؛ وليس رجلاً متعلّقاً بالمصادفاتِ الاجتماعيَّة، ولو هو كان لجعل إيمانَ يومِ كُفْرَ يوم؛ وليس مُصْلِحَ عشيرةٍ يهذّبُ منها على قَدْرِ ما تقبلُ منهُ سياسةً ومُخادعة، ولا رجل وطنِه تكونُ غايتُهُ أنْ يشمخَ في أرضِه شُموخَ جبلٍ فيها، دونَ أنْ يُحاول ما بلغَ إليه من إطلالِه على الدنيا إطلال السماءِ على الأرض، ولا رجل حاضِره إذْ كان واثقاً دائماً أنَّ معه الغدَ وآتِيَه، وإنْ أدبرَ عنهُ اليومُ وذاهبُه؛ ولا رجل طبيعتِه البشريَّة يلتمسُ لها ما يلتمسُ الجائعُ لِبطنِه، ولا رجل شخصيتِه يستهوِي بها ويسحر، ولا رجل بطشِه يغلبُ به ويتسلّط، ولا رجل الأرضِ في الأرض، ولكنْ رجل السماءِ في الأرض.

هذه هي حِكمةُ الله في تدبيرِه لنبيِّه قبل الهِجرة: قبضَ عنه أطرافَ الزمن، وحصَرَهُ من ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في مثلِ سنةٍ واحدة، لا تَصدُرُ به الأمورُ مَصَادرَها كي تُثبِتَ أنها لا تَصدُرُ بِهِ، ولا تستحقُّ به الحقيقةُ لِتدلَّ على أنَّها ليسَتْ من قوتِه وعملِه.

وكان ﷺ على ذلك ـ وهو في حدودِ نفسِه وضِيقِ مكانِه ـ يتَّسعُ في الزمن من حيثُ لا يَرَى ذلك أحدٌ ولا يعلمُهُ، وكأنَّما كانَتْ شمسُ اليومِ الذي سينتصرُ فيه ـ قبل أنْ تُشرِقَ على الدنيا بثلاثَ عشْرَةَ سنةً ـ مشرقةً في قلبِه ﷺ

والفصلُ من السنة لا يقدّمُهُ الناسُ ولا يؤخرونه، لأنَّهُ من سَيْرِ الكوْن كلِّه؛ والسحابةُ لا يُشعِلونَ برقَها بالمصابيح، ومع النبيِّ من مثلِ ذلك برهانُ الله على رسالتِه، إلى أنْ نزل قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] فحلَّ الفصلُ، وانطلقتِ الصاعقة، وكانَتِ الهِجرة.

تلك هي المقدمةُ الإلهيَّةُ لِلتاريخ، وكان طبيعيًّا أنْ يطَّرِدَ التاريخُ بعدَها، حتى قال الرشيدُ لِلسحابة وقدْ مرَّتْ به: أمطري حيثُ شِئْتِ فسيأتيني خَراجُك!

فلسفةُ قصة(*)

ماتَتْ خديجةُ زوجُ النبيِّ ﷺ وماتَ عمُّهُ أبو طالبٍ في عامٍ واحد، في السنة العاشرة من النبوَّة، فعظُمَتِ المصيبةُ فيهما عليه، إذْ كان عمُّهُ هَذا يمنُعُهُ من أذى قريش، ويقومُ دونَهُ فلا يخلُصونَ إليه بمكروه؛ وكان أبو طالبٍ من قُريشٍ كالعقيدة السياسية: هي بطبيعتِها قوةٌ نافذةٌ على قوة القبيلة؛ فمِنْ ثمَّ كان هو وحدَه المشكلةَ النفسيةَ المعقَّدةَ التي تعملُ قريشٌ جاهدةً في حلّها، وقامَتِ المعركةُ الإسلاميةُ الأولى بين إرادتِهم وإرادتِه، وهم أمَّةٌ تحكمُهُمُ الكلمةُ الاجتماعيَّةُ التي تَسِيرُ عنهم في القبائل؛ وتاريخُهم ما يُقالُ في الألسنة من معاني المدحِ والذمّ، فيخشَوْنَ المقالةَ أكثرَ مِمَّا يخشَوْنَ الغارة، وقد لا يُبالونَ بالقَتْلى والجرحى منهم، ولكنَّهم يبالونَ بالكلماتِ المجروحة.

فكان مِنْ لَطيفِ صنْع الله للإسلام، وعجيبِ تدبيرِه في حِماية نبيِّه ﷺ - وضْعُ هذه القوة النفسية في أولِ تاريخ النبوَّة، تشتغلُ بها سخافاتُ قريش، وتكونُ عملاً لِفراغِهِمُ الرُّوحيّ، وتُثِيرُ فيهمُ الإشكالَ السياسيَّ الذي يُعطِّلُ قانونَهُمُ الوحشيَّ إلى أنْ يتمَّ عملُ الأسبابِ الخفيَّة التي تكْسِرُ هذا القانون، فإنَّ المصنعَ الإلهيَّ لا يُخْرِجُ أعمالهُ التامَّةَ العظيمةَ إلَّا من أجزاءٍ دقيقة.

أمَّا خديجةُ زوجُ النبيِّ ﷺ فكانَتْ في هذه المِحْنة قلباً مع قلبِه العظيم، وكانَتْ لِنفسِه كقولِ (نَعم) لِلكلمة الصادقة التي يقولُ لها كلُّ الناسِ (لا)؛ وما زَالتِ المرأةُ الكاملةُ المحبوبةُ هيَ التي تُعطِي الرجل ما نقصَ من معاني الحياة، وتَلِدُ له المسراتِ من عواطفِها كما تَلِدُ من أحشائِها، فالوجودُ يعملُ بها عملين عظيمين: أحدهُما زيادةُ الحياة في الأجسام، والآخرُ إتمامُ نقْصِها في المعاني.

وبموتِ أبي طالبٍ وخديجةَ، أفْرَدَ النبيُّ ﷺ بجسمِه وقلبِه، لِيتجرَّدَ من الحالة التي يَغْلِبُ فيها الحِسُّ، إلى الحالة التي تَغلبُ فيها الإرادة، ثُمَّ ليخرجَ من أيامِ

(*) أنشأها لعدد الهجرة سنة ١٣٥٥هـ.

الاستقرارِ في أرضِهِ، إلى الأيامِ المتحركة به في هِجرتهِ، ثُمَّ لِينتهِيَ بذلك إلى غَاية قوميَّتِه الصغيرة المحدودة، فيتصل من ذلك بأولِ عالميَّتِه الكُبرى.

وأرادَ الله ـ تعالى ـ أنْ يبدأ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خِلالِ الجلالِ والعظَمة، لِيكونَ أولُ أمرِه شهادةً بكمالِهِ، فكانَتِ الحسنةُ فيه بشهادة السيِّئة من قومِهِ، فحِلْمُهُ بشهادة رُعُونتِهم، وأناتُهُ بدليلِ طَيْشهم، وحِكمتُهُ ببرهان سفَاهتِهم؛ وبذلك ظهرَ الروحانيُّ روحانيًّا في المادة.

قالوا: فنالتْ منه قريش، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصِلُونَ إليه في حياة عمِّه، حتى نثَرَ بعضُهُمُ الترابَ على رأسِه، كأنَّما يُعلِمونَهُ أنَّهُ أهونُ عليهم من أنْ يكونَ حُرًّا، فضلاً عنْ أنْ يكونَ عزيزاً، فضلاً عنْ أنْ يكونَ نبيًّا؛ قالوا: فدخل رَسولُ اللهِ ﷺ بيتَهُ والترابُ على رأسِه، فقامَتْ إليه إحدى بناتِه تغسلُ عنهُ الترابَ وهي تبكي!

كانَتْ تبكي إذْ لا تعلمُ أنّ هذا الترابَ على رأسِ النبيّ العظيم هو شُذوذُ الحياة الأرضيَّة الدنيئة، في مقابَلة إنسانِها الشاذ المنفرد. هذه القَبْضَةُ من الترابِ الأرضيِّ قبضةٌ سفيهةٌ، تُحاولُ ردَّ الممالكِ الإسلامية العظيمة أنْ تَنشأ نشأتَها وتعمل عمَلها في التاريخ، فهي في مقدارِها وسخافتِها ومحاولتِها، كعقلِ قُريشٍ حينئذٍ في مقدارِه وسخافتِه ومحاولتِه.

أمَّا النبيُّ ﷺ فقال لِبنتِه: «يا بنيّةُ لا تبكي، فإنَّ الله مانعٌ أباك». حسِبَتْ ذلك هَواناً وضَيْعةً، فأعلمَها أنَّ قبضةً من الترابِ لا تَطْمُرُ النَّجْم، وأنَّ هذه الحَثْوَةَ الترابيةَ لا تُسمَّى معركةً أثارتْها الخيلُ فجاءتْ بنتيجة، وأنَّ ساعةً من الحزن في يوم، لا يُحكَمُ بها على الزمن كلِّه، وأنَّ هذه النَّزوةَ التي تحركَتِ الآنَ هي حمقُ الغباوة: قوّتُها نهايتُها.

«يا بنيَّةُ لا تبكي فإنَّ الله مانعٌ أباك». أي ليس لِلنبيِّ كبرياءُ ينالُها الناسُ أو يَغُضُّونَ عنها فيأتي الدمعُ مترجِماً عن المعنى الإنسانيِّ الناقصِ مُثبتاً أنَّهُ ناقص، إنَّما هي النبوَّةُ: قانونُها غيرُ ما اعتادَتِ النفسُ من أفراح وأحزان، وهي النبوّة: تجعلُ المختارَ لها غيرَ محدود بجسده الضعيف، بل حدودُهُ الحقائقُ التي فيها قوّتُها، فهو في مَنَعَة الواقعِ الذي لا بدَّ أنْ يقَع، فلو أمكنَ أنْ يُحذَفَ يومٌ من الزمن أو يؤخَّرَ عن وقتِه، أمكنَ أنْ يؤخَّرَ النبيُّ أو يُحذَف.

«يا بنيةُ لا تبكي إنَّ الله مانعٌ أباك». لا ـ واللهِ ـ ما يقولُ هذه الكلمَة إلَّا نبيٌّ

وَسعَ التاريخَ في نفسِه الكبيرة قبل أنْ يُوجَدَ هذا التاريخُ في الدنيا، فكلمتُهُ هي الإيمانُ والثقةُ إذْ يتكلمُ عن موجود.

ترابٌ ينثُرهُ سفيهٌ على رأسِ النبيّ! ويحكِ يا حقَارَةَ المادة؛ إنَّ ارتفاعَكِ لعنة، إنَّ ارتفاعَكِ لعنة.

* * *

قالوا: وخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ وحدَهُ إلى الطائف، يلتمسُ من ثَقيفٍ النصرَ والمنعَةَ له من قومِه، فلمَّا انتهى إلى الطائف عَمدَ إلى نفرٍ من ثقيفٍ هم يومئذٍ سادتُهم وأشرافُهم، فجلسَ إليهم فدعاهم إلى اللهِ وكلَّمُهم بما جاءَهم له من نُصرتِهِ والقيامِ معه في الإسلامِ على مَنْ خالفَهُ من قومِهِ، فلم يفعلوا وأغرَوْا به سُفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونَهُ ويصيحونَ به، حتى اجتمع عليه الناسُ وألجأوهُ إلى حائطٍ[1] لِعُتْبَةَ ابن ربيعَة وشَيبةَ بْن ربيعةَ وهما فيه. ورجَع عنه مَنْ سفهاءِ ثَقيفٍ من كان يتبعُه، فعمدَ ﷺ إلى ظلِّ حُبْلةٍ من عِنَبٍ فجلسَ فيه، وابنا ربيعةَ ينظران إليه ويريان ما لقِي من السفهاء.

فلمَّا اطمأنَّ ﷺ في مجلِسِه قال: «اللهمَّ إليك أشكو ضعفَ قوّتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناس؛ يا أرحمَ الراحمين، أنتَ ربُّ المستَضْعَفِينَ وأنت ربّي، إلى مَنْ تكِلُني، إلى بعيدٍ يتَجهَّمُني، أو إلى عدوٍّ ملَّكْتَهُ أمري، إنْ لم يكُنْ بك عليّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنّ عافيَتَك هي أوسعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهِكَ الذي أشرقَتْ له الظّلُماتُ، وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، من أنْ ينزل بي غضبُك، أو يحلَّ عَليَّ سخَطُك، لكَ العُتْبَى حتى ترضى، لا حول ولا قوةَ إلّا بك!».

* * *

ألا ما أكمل هذه الإنسانيةَ التي تُثبِتُ أنَّ قوةَ الخُلقِ هي درجةٌ أرفعُ من الخُلق نفسِه، فهذا فنُّ الصبرِ لا الصبرُ فقط، وفنُّ الحِلْم لا الحِلمُ وحدَه.

قوةُ الخُلقِ هي التي تجعلُ الرجل العظيمَ ثابتاً في مركزِ تاريخه لا متقلْقِلاً في تواريخِ الناس، محدوداً بعظائمِ شخصيتِه الخالدة لا بمصالحِ شخصه الفاني، ناظراً في الحَياة إلى الوضع الثابتِ لِلحَقيقة لا إلى الوضعِ المتغيِّرِ لِلمنفعة.

وما كان أولئك الأشرافُ وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلّا معانيَ الظلْم، والشرّ،

---

(١) الحائط: البستان، وجمعه حوائط.

والضعف، تقولُ لِلنبي العظيمِ الذي جاءَ يمحوها ويُدِيلُ منها: إننا أشياءُ ثابتةٌ في البشريَّة.

لم يكنْ منهمُ الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ، بلْ كان منهمُ العَسْفُ، والرِّق، والطَّيش، تَسْخَرُ ثلاثتُها من نبيِّ العدْل، والحريَّة، والعقل، فما تَسْخَرُ إلّا من نفسِها.

صغائرُ الحياة قد أحاطَتْ بمجدِ الحياة، لِتُثبِتَ الصغائرُ أنَّها الصغائر، ولِيُثْبِتَ المجدُ أنَّهُ المجد.

كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديَتين أبداً على الأرض: إحداهما عِشْ لِتأكل وتستمتِعَ وإنْ أهلكْت، والأخرى عِشْ لِتعمل وتنفعَ الناسَ وإنْ هلكْت.

كانَتِ الأقدارُ تُبادي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحِ الضيق، لِينطلقَ الواسعُ من مكانِه ويستقبِلَ الدنيا التي عليه أنْ يُنشِئها. فأولئك الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ إن هم إلّا الضيقُ، والركودُ، وذلُّ العيش، حول السَّعة الروحية، والسموّ، وطَهارة الحياة.

وقفَ المعنى السماويُّ بين معاني الأرض، ولكنَّ نورَ الشمسِ ينبسطُ على الترابِ فلا يُعفِّرُهُ التراب، وما هو بنورٍ يُضيءُ أكثرَ مِمَّا هو قوةٌ تعملُ بالعناصرِ التي من طبيعتِها أنْ تحوّل، في العناصرِ التي من شأنِهَا أنْ تتحوَّل.

وكان بين النبيّ ﷺ وبين أولئكَ المستهزِئينَ قوةٌ أخرى، هي القدرةُ التي تعملُ بهذا النبيِّ لِلعالم كلِّه، وبهذه القدرة لم ينظرِ النبيُّ إلى قريشٍ وصَوْلَتِهِم عليه إلَّا كما ينظرُ إلى شيءٍ انقضى، فكان الوجودُ الذي يُحيطُ به غيرَ موجود، وكانَتْ حقيقةُ الزمن الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة.

وإلى هذه القدرة توجَّهَ النبيُّ ﷺ بذلك الدعاءِ البليغ الخالد، يشكو أنَّهُ إنسانٌ فيه الضعفُ وقِلَّةُ الحِيلة، فينطِقُ الإنسانيُّ فيه بالشَّطرِ الأولِ من الدعاءِ يذكرُ انفرادَهُ وَآثارَ انفرادِه، ويتوجَّعُ لِمَا بينَهُ وبين إنسانية قومِه، ثم ينطقُ الروحانيُّ فيه بعدَ ذلك إلى آخِرِ الدعاءِ متوجِّهاً إلى مصدَرِه الإلهيِّ قائلاً اول ما يقول: إنْ لم يكُنْ بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي.

ولعمري لو نطَقتِ الشمسُ تدعو الله لمَا خرجَتْ عن هذا المعنى ولا زادتْ على قولِهِ: «أعوذُ بنورِ وجهِك»، تلتمسُ من مصدرِ النورِ الأزليِّ حِياطةَ وجودِها الكامل.

* * *

ولقد هزئوا من قبلُ بِالمسيحِ (عليه السلام) فقال لِلساخرينَ منه: ليس نبيٌّ بلا كرامةٍ إلَّا في وطنِه وفي بيتِه. وبهذا ردَّ عليهم ردَّ مَن انسلخَ منهم، وقال لهم قول

مَنْ ليس له حكمٌ فيهم، وأخذَهم بالشريعة الأدبيَّة لا العمليَّة؛ إذْ كان (عليه السلام) كالحكمة الطائفة ليسَتْ لِكلِّ قلْبٍ ولا لِكلِّ عقْل، ولكنَّها لِمَنْ أعدَّ لها؛ وشريعتُهُ أكثرُها في التعبيرِ وأقلُّها في العمل، ولم تجِىءْ بالقوة العاملة فلم يكُنْ بدٌّ من أنْ تَضَعَ الموعِظةَ في مكان السيف، وأنْ تكونَ قائمةً على النهي أكثرَ مِمَّا هي قائمةٌ على الأمر، وأنْ تكونَ كشمسِ الشتاءِ الجميلة: لا تَغْلِي بها الأرض، وإنَّما عملُها أنْ تمهِّدَ هذه الأرضَ لِفصلٍ آخر.

أمَّا نبيُّنا ﷺ فلم يُجِبِ المستهزئين، إذْ كانَتِ القوةُ الكامنةُ في بلادِ العربِ كلِّها كامنةً فيه، وكان صدرُه العظيمُ يحملُ لِلدنيا كلمةً جديدةً لا تقبلُ الدنيا أنْ تُعاملهُ عليها إلَّا بطريقتِها الحربيَّة؛ فلم يردَّ ردَّ الشاعرِ الذي يُريدُ من الكلمة معناها البليغَ، ولكنَّهُ سكَتَ سكوتَ المشتَرِعِ الذي لا يُريدُ من الكلمة إلَّا عملها حين يتكلَّم؛ وكان في سكوتِه كلامٌ كثيرٌ في فلسفة الإرادة والحريَّة والتطوّر، وأنْ لا بدَّ أنْ يتحوَّل القومُ، وأنْ لا بدَّ أنْ يتفطَّرَ هذا الشجرُ الأجْرَدُ عن وَرَقٍ جديدٍ أخضرَ ينمو بِالحياة.

لم يتَسخَّطْ ولم يقلْ شيئاً، وكان كالصانعِ الذي لا يردُّ على خطأ الآلة بسخْطٍ ولا يأس، بل بإرسالِ يدِه في إصلاحِها.

* * *

قالوا: ورأى ابنا ربيعةَ، عُتْبةُ وشيبةُ ما لقي النبيُّ ﷺ من السفهاء، فتحركَتْ له رَحِمُهُما، فدَعَوا غلاماً لهما نَصرانيًّا يُقالُ له عَدَّاس، فقالا له: خِذْ قِطْفاً من هذا العنبِ وضعْهُ في ذلك الطبق، ثمَّ اذهبْ به إلى ذلك الرجلِ فقلْ له يأكلُ منه. ففعل عدَّاسٌ ثم أقبل به حتى وضَعَهُ بين يدي رسولِ الله ﷺ فلمَّا وضَعَ يدَه قال: «بسم الله» ثمَّ أكل؛ فنظرَ عدَّاسٌ إلى وجهِه ثم قال: ـ والله ـ إنَّ هذا لكلامٌ ما يقولُهُ أهلُ هذه البلدة.

فقال له رسول الله ﷺ: ومِن أهلِ أيِّ البلادِ أنت يا عدَّاسُ وما دينُك؟

قال: أنا نَصرانيٌّ وأنا رجلٌ من أهلِ نينَوَى. فقال له رسولُ الله ﷺ: من قرية الرجلِ الصالح يُونسَ بن متَّى؟ قال: وما يُدريكَ ما يونسُ بْنُ متى؟ قال ﷺ ذاكَ أخي: كان نبيًّا وأنا نبيّ.

فأكبَّ عدَّاسٌ على رسولِ الله ﷺ يقبلُ رأسَهُ ويديه ورجليه.

* * *

يا عجباً لِرموزِ القدَرِ في هذه القصة!

لقدْ أسرعَ الخيرُ والكرامةُ والإجلالُ فأقبَلتْ تعتذرُ عن الشرِّ والسفاهة والطيْش، وجاءتِ القُبُلاتُ بعدَ كلماتِ العداوة.

وكان ابنا ربيعةَ من ألدِّ أعداءِ الإسلام، وممَنْ مَشَوْا إلى أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ من أشراف قريشٍ يسألونه أنْ يكفَّهُ عنهم أو يُخلِّيَ بينَهم وبينَه، أو يُنازِلُوهُ وإيَّاهُ حتى يهلكَ أحدُ الفريقين، فانقلبَتِ الغريزةُ الوحشيةُ إلى معناها الإنسانيِّ الذي جاءَ به الدين، لأنّ المستقبل الدينيَّ لِلفكرِ لا لِلغريزة.

وجاءَتِ النصرانيَّةُ تُعانقُ الإسلامَ وتُعزُّه، إذِ الدينُ الصحيحُ من الدين الصحيح كالأخِ من أخيه، غيرَ أنَّ نَسَبَ الإخْوة الدمُ ونسبَ الأديان العقل.

ثُمَّ أتمَّ القدرُ رمزَهُ في هذه القصة، بقَطْف العنبِ سائغاً عَذْباً مملوءاً حَلاوة؛ فباسم الله كان قِطْفُ العنبِ رمزاً لِهذا العنقودِ الإسلاميّ العظيمِ الذي امتلأَ حبًّا كلُّ حبةٍ فيه مملكة.

فوق الآدمية(*)

الإسراءُ والمعراج

من أعجبِ ما اتَّفقَ لي أنِّي فرغتُ من تسويدِ هذا المقالِ ثمَّ أردتُ نقله، فتعَسَّرَ عليَّ وصُرِفْتُ عنه بألم شديدِ اعتراني، ونالني منه ثَقْلةٌ في الدماغ؛ ثم كشفَهُ الله بعدَ يومٍ فراجعْتُ الكتابةَ، فإذا قلمي ينبعثُ بهذه الكلمات:

كيف يَسْتَوْطِىءُ المسلمونَ العجزَ، وفي أولِ دينِهم تسخيرُ الطبيعة؟

كيف يَسْتَمْهِدُونَ الراحة، وفي صَدْرِ تاريخِهم عملُ المعجزة الكبرى؟

كيف يَرْكَنُونَ إلى الجهل، وأولُ أمرِهم آخِرُ غاياتِ العِلْم؟

كيف لا يحملونَ النورَ لِلعالَمَ ونبيُّهُم هو الكائنُ النورانيُّ الأعظم؟

* * *

قصةُ الإسراءِ والمِعراجِ هيَ من خصائصِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ هذا النجمُ الإنسانيُّ العظيم؛ وهو النورُ المتجسِّدُ لِهداية العالمِ في حَيْرة ظُلماتِه النفسيَّة؛ فإنَّ سماءَ الإنسان تُظلِمُ وتُضيءُ من داخلِه بأغراضِه ومعانيه. والله ـ تعالى ـ قد خلقَ لِلعالمِ الأرضيِّ شمساً واحدةً تُنيرُهُ وتُحييه وتتقلَّبُ عليه بليلِه ونهارِه، بيدَ أنَّهُ تركَ لِكلِّ إنسانٍ أنْ يصنعَ لِنفسِه شمسَ قلبِه وغَمَامَها وسحائبَها وما تُسفِرُ به وما تُظلمُ فيه. ولِهذا سُمِّيَ القرآنُ نوراً لِعملِ آدابِه في النفس، ووُصِفَ المؤمنونَ بأنَّهم ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، وكان أثرُ الإيمان والتقوى في تعبيرِ القرآن الكريمِ أنْ يجعل الله لِلمؤمنينَ نوراً يمشُون بهِ.

وقد حارَ المفسِّرونَ في حكمة ذكرِ «الليل» في آية «الإسراء» من قولِه ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]. فإنَّ السُّرَى في لغة العربِ لا يكون إلَّا ليلاً.

(*) أنشأها برأي صديقه الأستاذ محمود أبو ريه.

والحِكمةُ هي الإشارةُ إلى أنَّ القصةَ قصةُ (النجم) الإنسانيِّ العظيم الذي تحوَّل من إنسانيتِه إلى نورِه السماويِّ في هذه المعجزة، ويُتَمِمُ هذه العجيبةَ أنَّ آيات «المِعراجِ» لم تجيءْ إلّا في سورة: «والنَّجم».

وعلى تأويلِ أنّ ذكرَ (الليلِ) إشارةٌ إلى قصة النجم، تكونُ الآيةُ برهانَ نفسِها، وتكونُ في نَسَقِها قد جاءَتْ معجزةً من المعجزاتِ البيانيّة؛ فإذا قيل إنَّ نجماً دارَ في السماءِ، أو قطَعَ ما تقطَعُهُ النجومُ منَ المسافاتِ التي تُعْجِزُ الحساب، فهل في ذلك من عجيب؟ وهلْ فيه شكٌّ أو نظرٌ أو تردُّد؟ وهل هو إلَّا من بعض ما يُسَبِّحُ الله بذكرِه؟ وهل يكون إلَّا آيةً اتصلتْ بالآياتِ التي نَرَاها اتصال الوجودِ بعضِه ببعض؟

وأنا ما يكادُ ينقضي عجَبي من قولِه تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]. مع أنَّ الألفاظَ كما ترى مكشوفةٌ واضحة، يُخيِّلُ إليك أنْ ليس وراءَها شيء، ووراءَها السرُّ الأكبر؛ فإنَّها بهذه العِبارة نصٌّ على إشراف النبيّ ﷺ فوقَ الزمانِ والمكان يرى بغير حِجابِ الحواسِّ مِمَّا مَرْجِعُهُ إلى قُدرة الله لا قدرة نفسِه؛ بخِلاف ما لو كانتِ العبارةُ: «**ليرى من آياتنا**» فإن هذا يجعلُهُ لِنفسِه في حُدود قوتِها وحواسِّها وزمانِها ومكانِها، فيضطربُ الكلام، ويتطرَّقُ إليه الاعتراضُ ولا تكونُ ثَمَّ معجزة.

وتحويلُ فعلِ (الرؤية) من صِيغةٍ إلى صِيغةٍ كما رأيْتَ، هو بعينِه إشارةٌ إلى تحويلِ الرائِي من شكلٍ إلى شكلٍ كما ستعرفُه، وهذه معجزةٌ أخرى يسجدُ لها العقلُ؛ فتبارَكَ الله مُنزِلُ هذا الكلام!

وإذا كان ﷺ نَجماً إنسانيًا في نوره، فلنْ يأتيَ هذا إلّا من غَلبةِ روحانيتِه على مادتِه؛ وإذا غلبَتْ روحانيتُهُ كانَتْ قواهُ النفسيةُ مهيَّأةً في الدنيا لِمثلِ حالتِها في الأخرى؛ فهو في هذه المعجزة أشبهُ بالهواءِ المتحرِّك. فقُلِ الآن: أيُعترَضُ على الهواءِ إذا ارتفعَ بأنَّهُ لم يرتفعْ في طيَّارة. . .؟

ومن ثَمَّ كان الإنسانُ إذا سما درجةً واحدةً في ثباتِ قواهُ الروحيَّة، سما بها دَرجات فوقَ الدنيا وما فيها، وسُخِّرَتْ له المعاني التي تُسَخِّرُ غيرَهُ من الناس، ونشأتْ له نواميسُ أخلاقيَّةٌ غيرُ النواميسِ التي تتسلَّطُ بها الأهواء. ومتى وُجدَ الشيءُ من الأشياءِ كانَتْ طبائعُ وجودِه هي نواميسَه؛ فالنارُ مثلاً إذا هي تضرَّمتْ أوجدَتِ الإحراق فيما يحترق، فإنْ وُضعَ فيها ما لا يحترقُ أبطل نواميسَها وغلبَ عليها.

وكلُّ معجزةٍ تَحدُثُ فهذا هو سبيلُها في إيجادِ النواميسِ الخاصة بها وإبطالِ النواميسِ المألوفة، وبهذا يُقال: إنَّها خَرَقَتِ العادة. ومنَ النور نورٌ لا يَشِفُّ له غيرُ الهواء، ومنه أشعةُ (رونتجن) التي تشفُّ لها الجدرانُ والحُجُب؛ فهذه معجزةٌ في ذاك.

* * *

والنبيُّ لا يكون نبيًّا حتى يكونَ في إنسانِه إنسانٌ آخرُ بنواميس تجعلُهُ أقربَ إلى الملائكة في روحانيَّتها، وما ينزلُ إنسانُهُ الظاهرُ من الإنسان الباطن فيه إلَّا منزلةَ مَنْ يتلقَّى مِمَنْ يُعطِي؛ فذاك الباطنُ هو لِلحقائقِ التي لا تحملُها الدنيا، وهذا الظاهرُ لِمَا يُمكنُ أنْ يبلغَ إليه الكمالُ في المَثل الإنسانيّ الأعلى، ولولا ذلك الباطنُ ما استطاعَ نبيٌّ من الأنبياءِ أنْ يحمِل همومَ أمّةٍ كاملةٍ لا تُضْنِيه ولا تُغيّرُهُ ولا تُعجِزُه.

فحقيقةُ النبوَّة أنَّها قوةٌ من الوجودِ في إنسانٍ مختارٍ جاءَتْ تُصْلِحُ الوجودَ الإنسانيَّ به لتُقِرَّ في هذه الحيوانيَّة المهذَّبة مَثَلها الأعلى، بدلالتِها على طريقِها النفسيِّ مع طريقِها الطبيعيّ؛ فيكون مع الانحطاطِ الرقيُّ، ومع النقصِ الكمالُ، ومع حُكْمِ الغريزة التحكّمُ في الغريزة، ومع الظلمة الماديَّة الإشراقُ الروحانيُّ.

وما المعجزاتُ إلَّا شأنُ تلكِ القوة الباطنة لا شأنُ إنسانِها الظاهر، ومَن الذي يُنكرُ أنَّ قُوى الوجودِ هي في نفسِها إعجازٌ لِلعقلِ البشريّ؟ وهلْ يُنكرُ اليومَ أحدٌ شأنَ هذه القوة في (الراديو) حينَ مَسَّتْهُ فجعلتِ الكلمةَ التي تُرسَلُ بين الشرقِ والغرب، كالكلمة بين اثنين يتحدثان في مجلسٍ واحد؟

ونحن نرى معجزاتِ التنويم المغناطيسي وما يُبصِرُهُ النائمُ وما يسمعُهُ، وما ينكشفُ له مِمَّا وراءَ الزمان والمكانِ؛ وليس التنويمُ شيئاً إلَّا تسليطَ الذاتِ الباطنة بقواها الروحيَّة العجيبة، على الذاتِ الظاهرة المقيَّدة بحواسِّها المحدودة، فتَطْغَى عليها، فتُصْبِحُ الحواسُّ مطلقةً شائعةً في الوجودِ بمِقدارِ ما فيها من قواهُ لا بمقدارِ ما فيها من قوة شخصِها.

وعلى نحو من ذلك يتصلُ الرجلُ الروحانيُّ بذاتِه الباطنة، فيوقعُ شخصَه الظاهرَ في الاستهواء، فينكشفُ له الوجودُ، ويُبصرُ ما يقعُ على البعد، ويرى ما هو آت قبل أنْ يأتي؛ وما الكونُ في هذه الحالة إلَّا كالمعشوقِ يقولُ لِعاشقِه الذي وقعَ في قلبِه الحُبّ: قدْ آتيْتُكَ نوراً تنظرُ به جمالي.

* * *

وفي علماءِ عصرِنا من يفكّرُ في الصعود إلى القمر، وفيهم مَنْ يعملُ

لِلمخاطبة مع الأفلاك، وفيهم مَنْ تقعُ له العجائبُ في استحضارِ الأرواحِ وتسخيرِها؛ وكلُّ ذلك أولُ البرهان الكونيِّ الذي سَيُلْزِمُ العِلْمَ فيُضطرُّهُ في يومٍ ما إلى الإقرارِ بصحة الإسراءِ والمِعراج.

ونحن قبل أن نُبديَ رأينا في القصة نُلمُّ بها إلمامةً موجزَة؛ فقدِ اختلفَتْ فيها الأحاديثُ ووقعَ فيها تخليطٌ كثير، فجاءَتْ فُنوناً وأنواعاً من طُرُقٍ شتَّى، حتى جمعها بعضُهم في جزأين[1]، وما تحتملُ كلَّ ذلك ولا بعضَه، ولكنَّ روحَ الرواية في ذلك الزمن كانَتْ كروحِ الصّحافة في هذا العصر: متى فارتْ فَوْرَها استحدثَتْ من كلِّ عبارةٍ عبارةً أخرى، وعلى هذه الطريقة تخرجُ من العبارتين عبارةٌ ثالثة، فيكون الأصلُ معنًى واحداً وإذا هو يَمُدُّ من يمينِه ويسارِه.

ولا يَرَونَ بذلك بأساً؛ فإنَّهم يَشدُّون به الرأيَ، ويُضاعِفُونَ منهُ اليقين، ويزيدون ضوءاً في نورِ المعنى، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه، فلا حَرَجَ أنْ يؤيِّدَ القولُ بعضُه بعضاً، باجتهادٍ في عبارة، واستنباطٍ من أخرى، وزيادةٍ في الثالثة مِمَّا هو بسبيل منها، على نحو ما نرى من فنِّ الرواية القصصيَّة؛ إذْ تتعددُ الأساليبُ والعِبارات مختلفةً متنوِّعة، وليس تحتها إلَّا حقيقةٌ واحدةٌ لا تختلف. والقَصصُ الدينيُّ في هذه اللغة العربية فنٌّ كاملٌ قائمٌ بنفسِه، لا يُبدعُ العقلُ والخيالُ والعاطفةُ أقوى منه ولا أعجبَ ولا أغرب.

هذا في مَتْنِ القصة، أمَّا في واقعتِها فقدِ اختلفوا اختلافاً آخر: هل كان الإسراءُ والمِعراجُ يقظةً أو مناماً؟ وبالروح وحدَها، أو بالروح والجسم معاً: وإنَّما ذكرْنا هذا الخِلافَ لأنَّهُ الدليلُ القاطعُ على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُخْبِرْ بشيءٍ من ذلك، فلم يعيِّنْ لهم وجهاً من هذه الأوجُهِ. والحكمةُ في ذلك أنَّ عقولهم لم تكنْ تحتملُ الإدراكَ العِلْميَّ الذي أساسُهُ ما عُرِفَ اليومَ من أمرِ الكهرباءِ والأثير...

والخلاصةُ التي تتأدّى من القصة: أنَّهُ ﷺ كان مضْطَجِعاً، فأتاهُ جبريلُ، فأخرجَه من المسجد، فأركبَهُ البُراقَ، فأتى بيتَ المقدس، ثُمَّ دخل المسجدَ فصلّى فيه، ثم عُرِجَ به إلى السموات، فاستفتحَها جبريلُ واحدةً واحدة، فرأى فيها من آياتِ ربِّهِ، واجتمع بالأنبياء ـ صلواتُ الله عليهم ـ، وصعَد في سماءٍ بعدَ سماءٍ إلى سِدْرة المنتَهى، فغَشِيَها من أمرِ الله ما غشيَها، فرأى ﷺ مظهرَ الجمالِ الأزليّ، ثم زُجَّ به في النورِ فأوحَى الله إليه ما أوحى.

---

(١) قال الذهبي: إن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الإسراء في جزأين.

أمَّا وَشْيُ القصة وطِرازُها فبابٌ عجيبٌ من الرموزِ الفلسفية الإنسانيَّة التي يُرمَزُ بها إلى تجسيدِ الأعمالِ في هذه الحياة: تكونُ تَعَباً وتقعُ فائدة، أو تُلْتَمَسُ منفعةً وشهوةً وتقعُ مُضَرَّةً وحماقة، ثم تفنَى من هذه وتلك الصُّوَرُ الزمنيَّةُ التي توهَّمَها أصحابُها، وتخلدُ الصورُ الأبديَّةُ التي جاءَتْ بها حقائقُها.

ومن هذه الرموزِ البديعة قولُه: فجاءَني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبن، فأخذْتُ اللبن، فقال جبريل: أَخَذْتَ الفِطرة. وأنَّهُ مرَّ على قوم يزرعون ويحصُدونَ في كلِّ يوم، كلَّمَا حصدوا عادَ كما كان؛ فسأل ما هذا؟ قال جبريلُ: هؤلاءِ المجاهدونَ في سبيلِ الله، تُضاعَفُ لهمُ الحسنةُ سبعمائة ضِعْف. ثم أتى على قوم تُرْضَخُ رؤوسُهم بِالصخر، كلَّما رُضِخَتْ عادَتْ كما كانَتْ ولا يُفتَّرُ عنهم من ذلكَ شيء؛ فقال ما هذا؟ قال جبريل: هؤلاءِ الذين تتثاقلُ رؤوسُهم عن الصلاة. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ في قِدْر، ولحمٌ آخرُ نيءٌ في قِدْرٍ خبيث، فجعلوا يأكلونَ من النيءِ الخبيثِ ويَدَعُونَ النضيج؛ فقال ما هؤلاء؟ قال جبريل: هذا الرجلُ تكونُ عندَهُ المرأةُ الحلالُ الطيِّبُ فيأتي امرأةً خبيثة، والمرأةُ تقومُ من عندِ زوجِها حلالاً طيِّباً فتأتي رجلاً خبيثاً. ثم أتى على رجلٍ قد جمع حزمةً عظيمةً لا يستطيعُ حملها وهو يزيدُ عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجلُ تكونُ عليه أماناتُ الناسِ لا يقدرُ على أدائِها وهو يُريدُ أنْ يَحمِلَ عليها. ثم رأى نساءً معلَّقات بثديهِنّ؛ فسأل، فقال جبريل: هؤلاءِ اللاتي أدخلْنَ على الرجالِ من ليس من أولادِهم.

* * *

ونحن على الرأي الذي عليه جمهورُ العلماء: من أنَّ الإسراءَ والمِعراجَ كانا بالجسم والروح معاً على التأويلِ الذي سنُبيِّنُه؛ ويُثبِتُ ذلك قولُهُ ـ تعالى ـ في سورة (والنَّجم): ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]. فلا يكون البصرُ يزيغُ ويطغى إلَّا في الجسم، ولا ينتفي عنهُ ذلك إلَّا وهو في الجسم. ولم يتنبهْ أحدٌ من المفسرينَ إلى المعنى المعجزِ العجيبِ في قولِهِ: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]: فذلك نصٌّ على أنَّهُ كان يرى بجسم قد تحوَّل عن الطبيعة الآدميَّة المحدودة فليس فيه منها شيءٌ؛ إذْ لا يكون طغيانُ البصرِ إلَّا من تَسلّطِ الخيالِ عليه بأهواءِ الجسم التي لا يستقيمُ بها حكمٌ على حقيقتِه، فما زاغَ البصرُ بكونِه مقيَّدَ الحاسة، ولا طغَى بكونِه مُطْلَقَ الخيال، بلْ كان كما يُريه الله من آياتِه، أيْ كان حقيقةً كونيَّةً في غير حالتِها الأرضيَّة الناقصة.

والذين قالوا إنَّ الإسراءَ والمِعراجَ كانا رؤيا رآها النبيُّ ﷺ احتجّوا لِذلك بقولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. وقد خلطَ المفسرونَ في هذا أيضاً، وإنَّما كان التعبيرُ بلفظِ «الرؤيا» ـ وهي التي تكونُ مناماً ـ لنفي تأثيرِ الحواسِّ على الرائي، وإثباتِ أنَّ الطبيعةَ الآدميةَ بجملتِها كانَتْ فيه كالنائمة عنْ حياتِها الأرضيَّة بحقائِقها وأخْيلتِها معاً، فليس نائماً كالنائم، ولا مستيقظاً كالمستيقظ.

وفي أساسِ القصة جبريلُ والبُراق، وهما القوَّةُ الملائكية والقوَّةُ الطِبيعيَّة، أوِ الروحُ الملائكيُّ والروحُ الطبيعيُّ؛ ولم يُوصف البراقُ بأنّه دابةٌ إلّا رمزاً، إذْ لا يأتي لِلعربِ أنْ يفهموا ما يُرادُ منه؛ وعندنا أنَّهُ سُمِّيَ البُراقَ من البَرْق، وما البَرقُ إلّا الكهربائيَّة، وهذا هو المُرادُ منه؛ فتلك قوةٌ كهربائيةٌ متى نَبَضَتْ جمعتْ أول العالمِ بآخرِه؛ وهذه هي الحِكْمةُ في أنَّ آيةَ الإسراءِ لم تذكُرْ أنَّهُ كان محمولاً على شيء، إذا لم يكنْ محمولاً إلّا على روحِ الأثير.

وما دامَتِ القوَّةُ الملائكيَّةُ والقوَّةُ الطبيعيَّةُ قد سُخِّرتا له ﷺ فلا معنى لِأنْ يكونَ ذلك لِلروح دونَ الجسم، بَلِ اجتماعُهما معاً في القصة دليلٌ على أنَّ سِرَّ المعجزة إنَّما كان في تيسيرِ ملاءمة جسمِه الشريف لِهاتين الحالتين؛ فيتحولُ في صورةٍ كونيةٍ ملائكيةٍ بين سرِّ الملكِ وسرِّ الطبيعة، وحينئذٍ لا تجري عليه أحكامُ الحواسِّ ولا أحكامُ المادة.

ومنَ الممكن أنْ تتحوّل الأجسامُ إلى حالتِها الأثيريَّة في بعضِ الأحوالِ الخارقة، وبهذا يُعلَّلُ طَيُّ الأرضِ لِبعضِ الروحانيِّين، وتُعللُ خوارقُ كثيرةٌ مِمَّا يَحدُثُ في استحضارِ الأرواحِ لِهذا العهْد، ومِمَّا يأتيه فقراءُ الهند، ومِمَّا كان يصنعُهُ «هوديني» الأمريكيّ: إذْ كانوا يغلِّلونَهُ بالسلاسلِ والقيودِ ثِمَّ يرونَهُ طليقاً؛ ويحبسونَهُ في السجون المحصَّنة يقومُ عليها الحراسُ وتُمسِكُهُ فيها الأبوابُ والجُدرانُ ثُمَّ يجدونَهُ في بعضِ الفنادقِ.

وليس لِلعقلِ أنْ يُنكِرَ شيئاً من هذه ونحوِه، فإنَّ تركيبَ الطبيعة ردٌّ عليه، ونقصُهُ هو ردٌّ على نفسِه، والمستحيلُ على الأعمى هو أيسرُ الممكناتِ على المبصِر.

فأنت ترى أنّ ذكرَ البُراقِ والملكِ في أساسِ قصة الإسراءِ والمِعراجِ هو صلةُ القصة بالمعجزة، وهو عينُهُ صِلتُها بِالبرهان؛ ولو لم يكونا فيها لمَا كان لها تفسير.

* * *

والقصةُ بعدَ ذلك تُثبِتُ أنَّ هذا الوجودَ يرقُّ وينكشفُ ويستضيءُ كلَّما سما الإنسانُ بروحِه، ويغلُظُ ويتكاثَفُ ويتحجَّبُ كلَّما نزل بها، وهي من ناحية النبيِّ ﷺ قصةٌ تَصِفُهُ بمظهرِه الكونيِّ في عظَمتِه الخالدة كما رأى ذاتَهُ الكاملةَ في ملكوتِ الله، ومن ناحية كلِّ مسلم من أتباعِه هيَ كالدرسِ في أنْ يكونَ لِقلبِ المؤمن مِعراجٌ سماويّ فوقَ هذه الدنيا، لِيشهَدَ ببصيرتِه أنوارَ الحقّ، وجمال الخير، وتجسُّدَ الأعمالِ الإنسانية في صورِها الخالدة؛ فيكون بتدبُّره القصةَ كأنَّما يصعَدُ إلى السماءِ وينزل؛ فيستريحُ إلى الحقائقِ الأساسيَّة لِهذه الحياة، فيدفعُ عن نفسِه بذلك تعقُّدَ الأخيلة الذي هو أساسُ البلاءِ على الروح.

ومتى استنارَ القلبُ كان حيًّا في صاحبه، وكان حيًّا في الوجودِ كلّه. ومتى سَلِمَتِ الحياةُ من تعقيدِ الخيالِ الفاسدِ لم يكنْ بين الإنسان وبين الله إلَّا حياةٌ هيَ الحقُّ والخير، ولم يكنْ بينَهُ وبين الناسِ إلَّا حياةٌ هي الرحمةُ والحُبّ.

الإنسانية العليا(*)

من أوصاف النبيّ ﷺ أنَّهُ كان متواصِل الأحزانِ، دائمَ الفكرة، ليسَتْ له راحة، طويل السَّكْت، لا يتكلمُ في غير حاجة، ليس بالجافِي ولا المَهِين، يُعظِّمُ النعمةَ وإنْ دقَّتْ لا يذمُّ منها شيئاً، ولا تُغضبُهُ الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تُعُدِّيَ الحقُّ لم يقمْ لِغضبِهِ شيءٌ حتى ينتصرَ له، ولا يغضبُ لِنفسِه ولا ينتصرُ لها؛ وكان خافِضَ الطَّرْف، نظرُهُ إلى الأرض أطولُ من نظرِهِ إلى السماء، مَنْ رآهُ بديهةً هابَه، ومَنْ خالطَهُ مَعْرفةً أحبَّه، لا يَحسِبُ جليسُهُ أنّ أحداً أكرمُ عليه منه، ولا يَطْوي عن أحدٍ من الناسِ بِشْرَهُ، قد وسَعَ الناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه، فصارَ لهم أباً، وصاروا عندَهُ في الحقِّ سواء؛ يُحسِّنُ الحسَنَ ويقوّيه، ويُقبِّحُ القبيحَ ويُوهِيه، معتدلُ الأمرِ غيرُ مختلِف؛ وكان أشدَّ الناسِ حياء، لا يثبُتُ بصَرَهُ في وجه أحد، له نورٌ يَعلوهُ كأنَّ الشمسَ تجري في وجهِهِ، لا يُؤيِسُ راجيَه، ولا يُخيِّبُ عافيَه، ومَنْ سألهُ حاجةً لم يردَّهُ إلَّا بها أو بمَيْسُورٍ من القول؛ أجودُ الناسِ بالخير(١).

* * *

صلى الله وسلَّمَ على صاحبِ هذه الصفاتِ التي لا يجدُ الكَمالُ الإنسانيُّ مذهباً عنها ولا عن شيءٍ منها، ولا يجدُ النقصُ البشريُّ مَسَاغاً إليها ولا إلى شيءٍ منها؛ ففيها المعنى التامُّ لِلإنسانيَّة، كما أنَّ فيها المعنى التامَّ لِلحقّ، ومن اجتماعِ هذين يكون فيها المعنى التامُّ لِلإيمان.

هي صفاتُ إنسانِها العظيم، وقدِ اجتمعت له لِتأخذَ عنهُ الحياةُ إنسانيتَها العالية؛ فهي بذلك من بُرهاناتِ نبوّتِه ورسالتِهِ.

ولو جمعْتَ كلَّ أوصافِه ﷺ ونظمْتَها بعضَها إلى بعض، واعتبرْتَها بأسرارِها العِلميَّة ـ لرأيْتَ منها كَوْناً معنويًّا دقيقاً قائماً بهذا الإنسان الأعظم، كما يقومُ هذا

(*) انظر صفحة ٢٤١ من حياة الرافعي.

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة، وجعلناها كالحديث الواحد.

الكونُ الكبيرُ بسُنَنِه وأصولِ الحِكمة فيه، ولأيقنْتَ أنَّ هذا النبيَّ الكريمَ إنْ هو إلَّا مُعْجَمٌ نفسيٌّ حيٌّ أَلَّفَتْهُ الحِكمةُ الإلهيةُ بعلْم من عِلْمِها، وقوةٍ من قوَّتِها، لِتتخرَّجَ به الأمةُ التي تُبدعُ العالَمَ إبداعاً جديداً، وتُنشِئَهُ النشأةَ المحفوظةَ له في أطوارِ كمالِه.

ولنْ ترى في الإنسانيّة أسمى مِن اجتماعِ هذه الصفاتِ بعضِها إلى بعضٍ وإنِّي لأكادُ كلَّما تأملْتُها أحسبُ هذا السموَّ قضاءً وقَدراً بإنسانٍ على الإنسانيَّة كلِّها. وهي دليلٌ على أنَّهُ الإنسانُ الذي خُلِقَ لِلدنيا لا لِنفسِه؛ فهو لا ينمو بما يكون على الناسِ من الحقّ، ولكنْ بما يكون لِلناسِ عليه من الواجبات، كأنَّما هو حقيقةٌ كونيَّةٌ تعيشُ عيشَها، فما تكونُ في الوجودِ إلَّا لِتقرِّرَ وجودَها هي، ولا تنتهي حينَ تنتهي بذاتِها إلَّا لِتبدأ معانِيها في غيرِها، فهو ﷺ إنسانٌ غُرِسَ في التاريخِ غرْساً لِيكونَ حدًّا لِزمنٍ وأوَّلاً لِزمنٍ بعدَهُ، وما كانَتْ حياتُهُ تلك إلَّا طريقةَ غَرْسِهِ، وهو أبداً قائم في مكانه الاجتماعي، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد في إثباته، وقد أصبحَ في الدنيا كأنَّهُ جهةٌ من الجِهاتِ لا إنسانٌ من الناس، فلنْ يتغيرَ أو يُمْحَى إلَّا إذا تغيَّرَ أو مُحيَ المشرقُ والمغرب.

ونحن حينَ نقرأ تلك الصفاتِ وما فاضَتْ به كُتبُ الشمائلِ من أمثالِها، لا نقرؤها أوصافاً ولا حِلْية، بل نراها صفحةً إلهيَّةً مصَنَّفَةً أبدعَ تصنيفٍ وأدقَّه، ومِن وراءِ تأليفِها تفسيرٌ طويلٌ لا يتهدَّى الفكرُ البشريُّ لِأحسنَ منه ولا أصحَّ ولا أكمل؛ فقدِ اجتمعت تلك الصفاتُ في إنسانِها اجتماعَ الأجزاءِ في المسألة الرياضيَّة: لا ينبغي أنْ تزيدَ أو تنقُص، إذْ كان في مجموعِها ما وُجِدَ له مجموعُها.

ويكادُ الارتباطُ بين أجزاءِ المسألة يكون هو بعينِه صورةً لِلارتباطِ بين أجزاءِ تلكَ الصفاتِ الشريفة؛ فإنَّ كلَّ جزءٍ منها موضوعٌ وضْعاً لا يتمُّ الكلُّ إلَّا بهِ، حتى لا موضِعَ فيها لِقلَّةٍ أو كثرة؛ وهذا معنى قولِه ﷺ «أدَّبني ربّي فأحسنَ تأديبي»، وأنتَ إذا دقَّقتَ في هذا الحديثِ أدركْتَ من مَعْنَاتِه أنَّ هناك طبيعةً أخلاقيَّةً مفردةً تَجري على قانونِها الذي وضعَهُ الله لها وأحكمَها به.

وأعجبُ ما يُدهِشُنا من مجموعِ صِفاتِه ﷺ أنَّ فيها دليلاً بيِّناً على أنَّهُ مخلوقٌ خِلْقةً متميزةً بنفسِهَا، كخلقة القلْبِ الإنسانيّ: نظامُهُ حياتُهُ وحياتُه نظامُه، وكأنَّما اعترَتْهُ حالةٌ نفسيَّةٌ كالتي تعتري القلْبَ في استشعارِ الخطرِ فتُخرجُهُ من طبيعتِه إلى أقوى منها، فلا يزالُ يُمِدُّ أعضاءَ الجسم بمَدَدٍ لا ينفَدُ من القوَّة والصبر، يجعلُ الحياةَ فيها على أضعافِها كأنَّها حياةٌ كانَتْ مخبوءةً وظهرَتْ بغتة؛ وفي هذه الحالة تتَّجِهُ غرائزُ النفسِ كلُّها إلى جهةٍ واحدةٍ كأنَّها مقدَّرةٌ بميزان، مضبوطةٌ بقياس؛

فترجعُ على تناقُضِها واختلافِها مُتعاوِنةً يُؤَازِرُ بعضُها بعضاً، وكان قانونُها الطبيعيُّ أنْ تَتَجاذَبَ وتتساقَطَ وتُفسِّرَ الواحدةُ منها عمل الأخرى، فيجيءُ بها الشيءُ وضدُّه معاً: كالصدقِ والكذب، والطمعِ والقناعة، والشهواتِ الثائرة والخمودِ الساكن، إلى آخر ما تعدُّ من هذه الغرائزَ؛ ولكنَّها في استشعارِ الخطرِ تكونُ كالأشباه لا كالأضداد، فيشدُّ بعضُها بعضاً، ويُتممُ النَّقِيضُ منها نقيضَه، وتجري كلُّها في قانونٍ واحد: هو الدفاعُ بأجزائِها عن مجموعِها؛ فترى النازعَ منها وإنَّهُ لمستقرٌّ في أشدَّ منَ القيد، وكأنَّ فيه غيرَ طبيعتِه.

وهل يُنبئُكَ مجموعُ صفاته ﷺ إلّا أنَّهُ يعيشُ معيشةَ القلْبِ إذا اختلفَ ما حولَهُ وفجأتْهُ بغتَاتُ الوجودِ فتَجَاوَزَ أنْ يكونَ منبعاً لِلحياة إلى أنْ يكونَ حافظاً لِلحياة في منبعِها؟

وتلك الحالةُ ـ كما مرَّ بك ـ تجعلُ وجودَ الإنسان هو وجودَ إرادتِه وعقلِه، لا وجودَ شهواتِه وغرائزِه؛ وكذلك عاشَ نبيُّنا ﷺ فهو مدةَ حياتِه في وجودِ إرادتِه لا غيرِها، حتى ليس عليه سبيلٌ لِغَميزةٍ أو لائمة، كأنَّهُ خُلُقٌ تَشُدُّهُ نيَّةٌ مستيقِظةٌ قد نبَّهَها ما يُنبِّهُ النفسَ من الغَرَرِ والخطَر. ولعلَّ هذا الشعورَ في نفسِه ﷺ هوَ التفسيرُ لِقولهِ: «نِيَّةُ المؤمن خيرٌ من عملِه». إلى أحاديثَ كثيرةٍ مِمَّا يجرِي في معنى هذه الكلمة الجامعة؛ يُريدُ بها: أنَّ نِيَّةَ المؤمن لا تنطوي إلَّا على الخيرِ الكامل، فهو ـ ما دامَتْ نِيَّتُهُ على صَلاحِها وسِرُّهُ على إخلاصِه ـ لا يَعُدُّ اليسيرَ من الشرِّ يسيراً، ولا يرى الكثيرَ من الخيرِ كثيراً؛ فالأصلُ القائمُ في تلك النيَّة المؤمنة ألّا يبدأ الشرُّ كي لا يوجدَ، وألَّا ينتهيَ الخيرُ كي لا يفْنَى؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخيرِ والكمالِ أبداً، في حين أنَّ عملهُ بطبيعتِه الإنسانيَّة يتناولُ الخيرَ والشرَّ جميعاً، ثم لا يكون إلَّا عملاً إنسانيًا على نقصٍ واضطرابٍ والتواء.

وقد لا يستطيعُ المؤمنُ أنْ يأتيَ الخيرَ في بعضِ أحوالِه، ولكنَّهُ يستطيعُ دائماً أنْ يَنويَهُ ويرغَبَ فيه ويَعْزِمَ عليه، لِيُحقِّقَ ضميرَهُ في كلِّ ما يَهُمُّ به؛ ويَحصِرَ أفكارَهُ في قانون نِيَّتِه المؤمنة. وهذا هوَ الأساسُ في عِلْمِ الأخلاق، لا أساسَ من دونِه.

والنِّيَّةُ من بعدُ هي حارسُ العمل؛ فكلُّ إنسانٍ يستطيعُ أنْ يُذْعِنَ وأنْ يأبَى، ومن ثَمَّ تكونُ هذه النيةُ ردًا ومدافعَةً من ناحية، واستجابةً ومُطاوَعةً من الناحية الأخرى؛ فهي على الحقيقة متى صلُحَتْ كانَتِ استقلالاً تامًا لِلإرادة، وكانَتْ مع ذلك ضبطاً لِهذه الإرادة على حالٍ واحدةٍ هي التي ينتظمُ بها قانونُ المبدأ السامي.

ثُمَّ إنَّهُ لا ضابطَ لِصحة العملِ واستقامتِه إلَّا النيّةُ الصحيحةُ المستقيمة؛ فالتزويرُ والتلبيسُ كِلاهما سهلٌ ميسورٌ في الأعمال، ولكنَّهما مستحيلان في النيَّة إذا خَلُصَتْ.

وهي كذلك ضابطٌ لِلفضائلِ تُوجِّهُ القلوبَ على اختلافِها وتَفاوُتِها اتجاهاً واحداً لا يختلف؛ فيكون طريقُ ما بين الإنسان والإنسان، من ناحية الطريقِ ما بين الإنسان وبين الله.

وأشواقُ الروح بطبيعتِها لا تنتهي، فيُعارضُها الجسمُ بجعلِ حاجاتِه غيرَ منتهية؛ يُحاولُ أنْ يَطْمِسَ بهذه على تلك، وأنْ يُغلِّبَ الحيوانيّةَ على الروحانيَّة، فإذا كانَتِ النيةُ مستيقظةً كفَّتْهُ وأماتَتْ أكثرَ نزعاتِه، ووضعَتْ لِكُلِّ حاجةٍ حدًّا ونِهاية؛ وبذلك ترجعُ النيَّةُ إلى أنْ تكونَ قوَّةً في النفسِ يخرجُ بها الإنسانُ عن كثيرٍ مِمّا يَحُدُّهُ من جِسمِه، لِيخرجَ بذلك عن كثيرٍ مِمَّا يحدُّهُ من معاني الأرض. . .

وهي بعدَ هذا كلِّه تحملُ الإنسانَ أنْ ينظرَ إلى واجبِه كأنَّهُ رقيبٌ حيٌّ في قلبِه، لا يُرائيه ولا يُجامِلُه، ولا يُخدَعُ من تأويل، ولا يُغَرُّ بفلسفةٍ ولا تزيينٍ، ولا يُسكِتُهُ ما تُسَوِّلُ النفس، ولا يزالُ دائماً يقولُ لِلإنسان في قلبِه: إنَّ الخطأَ أكبرَ الخطأ أنْ تنظِّمَ الحياةَ من حولِك وتتركَ الفَوْضَى في قلبِك.

وجملةُ القولِ في معاني النيّة أنّها قوةٌ تجعلُ باطنَ الجِسم مُتَساوقاً مع ظاهرِه، فتتعاونُ الغرائزُ المختلفةُ في النفسِ تعاوُناً سهْلاً طبيعيًّا مطَّرِداً، كما تتعاونُ أعضاءُ الجِسم على اختلافِها في اطِّرادٍ وسهولةٍ وطبيعة.

* * *

وكلُّ صفاتِ النبيِّ ﷺ ـ مِمَّا ذكرْناهُ وما لم نذكُره ـ متى اعتُبِرتْ بذلك الأصلِ الذي بيَّناهُ انتظَمها جميعاً، فجاءَ بعضُها تماماً على بعضٍ في نَسَقٍ رياضيٍّ عجيب، وظهَرَتْ حِكمةُ كلٍّ منها واضحةً مكشوفة، ورأيْتَها في مجموعِها تَصِفُ لك عُمراً هندسيًّا دقيقاً قد بلغَ الغايةَ من الكمال والروعة والدقة، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً، بلْ كلُّهُ أجزاؤه، وأجزاؤُهُ كلُّه؛ كالوضعِ الهندسيّ: إمَّا أنْ يكونَ بِكُلِّه، وإمَّا ألَّا تكونَ فيه الهندسةُ كلُّها.

وليس مجموعُ تلك الصفاتِ في معناهُ إلَّا صنعةَ الإنسان صنعةً جديدةً تُخرجُه موجوداً من ذاتِ نفسِه، وتكْسِرُ القالبَ الأرضِيَّ الذي صُبَّ فيه وتُفرِغُهُ في مثْلِ قالبِ الكَوْن، فإذا هو غيرُ هذا الإنسان الضيِّقِ المنحصِر في جسمِهِ ودَواعِي

جسمِه، فلا تُخضِعُهُ المادة، ولا يُؤتى من سُوءِ نظرِه لِنفسِه، ولا تغرُّهُ الدنيا، ولا يُمسكُهُ الزمان؛ إذْ كانَتْ هذه هي صفاتِ المستعبدِ بأهوائِه لا الحُرِّ فيها، والخاضع بنفسِه لا المستقلِّ بها، والمقبورِ في إنسانيتِه لا الحيِّ فوقَ إنسانيتِه؛ ومثلُ هذا المُسْتَعْبَدِ الخاضع المقبورِ لا وجودَ له إلَّا في حُكْم حواسّه، فعملُهُ ما يعيشُ به لا ما يعيشُ من أجلِه؛ ويتَّصلُ بكلِّ شيءٍ اتِّصالاً مبتوراً ينتهي في هوًى من أهواء الحيوان الذي فيه.

ومنَ المقابلة العجيبة أنْ يكونَ في الإنسان الاجتماعيِّ حيوانٌ، تُقابلُهُ الحِكمةُ في الحيوان الأليف بإنسان، وحُكمُها واحدٌ ومنطقُهما لا يختلف. فلو أنَّكَ سألْتَ حيوانَ الأعصابِ عن صاحبه الإنسان لقال لك: هو غلَّتي ومَزْرعتي. ولو سألْتَ كلباً عن حُبّه صاحبَهُ ومبلغِ هذا الحُبِّ في نفسِه لمَا زادَ في جوابِه على أنه يُحبّهُ حُبَّ اللقمة والعظْمة..

ومتى كان الإنسانُ في حكم حواسّه لم تَعُدِ الأشياءُ عندَهُ كما هي في نفسِها بمعانيها الطبيعية المحدودة، وانقلبَتْ كما هي في وهْمِه بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربة، فلا يشعرُ المرءُ بِائتلاف الوجودِ وتعاونِه، ولكنْ بِاختلافِه وتناقُضِه، فمِنْ ثَمَّ لا تكونُ أسبابُ اللذة إلَّا من أسبابِ الألم، ويدخلُ في كلِّ حُبٍّ بغضٌ، وفي كلِّ رغبةٍ طمعٌ، وفي كلِّ خيرٍ شرٌّ، وفي كلِّ صريحٍ خِبْيء، وهلمَّ جرًّا؛ إذْ لا بدَّ من هذا كلِّه متى غَلبَ الفاني على الباقي، ولا بدَّ من كلِّ هذا في تمثيلِ رواية الحواسِّ الخادعة التي أساسُها التغيّرُ والتقلّب، حتى لكَأنَّ النفسَ إنَّما تعيشُ بها في ظاهرٍ من الحياة لا في الحياة نفسِها.

وهذا الخِداعُ جاعِلٌ كلَّ شِيءٍ من أشياءِ النفسِ لا يبدأ إلَّا لِينتهيَ، ثُمَّ لا ينتهي إلَّا لِيبدأ؛ فما تزالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تنالُه، ولا يزالُ من ذلك مصدرٌ لِآلامِها الحِسيَّة؛ ثم إذا هي نالتْ مَنالتَها سَئِمَتْ، فلا يزالُ من ذلك مصدرٌ آخرُ لِآلامِها المعنويَّة. ولن يجيءَ الصحيحُ من غير الصحيح؛ فالكونُ كلُّهُ ليس إلَّا كَذِباً في النفسِ الكاذبة بحواسِّها.

ولذا كان أخصُّ أوصافِه ﷺ راجعاً إلى خروجِه من سلطان نفسِه، فلا يغضبُ لها، ولا يُطْلِقُها من الدنيا فيما تذمُّهُ أو تمدحُهُ، ولا يُحبُّ فيها، ولا يُبغِضُ من أجلِها، ولا يُهاوِنُها، ولا يَستلينُ لها في مأكلٍ ولا ملبس، ولا يأخذُها إلَّا من ناحية الإيمان بِالله والإيمان بالإنسانيَّة؛ فأفراحُها أحزانُها، وآمالُها أشواقُها، وأملاكُها

أعمالُها، وحِسابُها في طبيعتِها، وحوادثُها من العقلِ لا من الحواسّ، وعظَمتُها إثباتُ ذاتِها في غيرِها، لا إثباتُ غيرِها في ذاتِها؛ وغايتُها في الباقي لا الزائل، وفي الخالدِ لا الفاني، وما دامَ الحاضرُ متحرِّكاً فهو طارىءٌ عابرٌ أوْشَكُ أمورِ الدنيا زوالاً، والعملُ له على مقدارِه في قِلَّة لُبْثِهِ وهَوان أمرِه، والاهتمامُ أبداً بِمَا وراءَهُ لا به.

فأولُ النفسِ النيَّةُ العاملةُ لِآخرتِها، وآخرُ النفسِ ما تُؤدّي إليه أعمالُ هذه النِّيَّة؛ فليس في إنسان الدنيا إلا إنسانُ العالم الآخر؛ وبهذا يُقدَّرُ صمتُهُ وكلامُه، وحركتُهُ وسكونُه، وما يأتي وما يَدَع، وما يُحبُّ وما يكرَه، إذْ كلُّ شيءٍ منه على ذلك الاعتبارِ إنَّما هو صورةُ الحقيقة العاملة فيه.

وجماعُ الأمرِ ألَّا يكونَ مستقبلُ الإنسان علامةَ استهزاءٍ بجانبِ ماضيه، ولا علامةَ استفهام، ولا علامةَ إنكار.

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبيِّ ﷺ باجتماعِها وتَساوُقِها على حقيقةٍ عظمى لم يتنبهْ إليها أحد؛ وهي أنَّ جميعَ خصائصِه النفسيَّة مُرْهَفَةٌ متيقِّظة، وهذا ممَّا يَنْدُرُ وقوعُهُ وإمكانُه؛ فإنَّ الرجل منَ الناسِ لَيَكونُ حيًّا بِالحياة، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسِه قد طاحَ بها الموت، أو هي مريضةٌ وذلك أولُ الموت؛ أو غافلةٌ وذلك شِبْهُ الموت؛ أمَّا الحيُّ العظيمُ فهو الذي يحيا بأكثرِ خصائص نفسِه، وأمَّا الحيُّ الأعظمُ فهوَ الذي يحيا بجميعِ خصائصِها، تملؤُهُ الحياةُ فيملأُ الحياة، ويتمدّدُ السرُّ فيه لِيُرِيَهُ حقائقَ الأشياءِ ويَهْدِيَهُ ويدُلَّه، فيكون بنفسِه رؤيةً لِلناسِ وهِدايةً ودلالة؛ ومثلُ هذا يعظُمُ ثُمَّ يعظمُ حتى لَيُرَى الفرقُ بينَهُ وبين غيرِه كالفرقِ بين نور لبِسَ اللحمَ والدم، وبين تُرابٍ لبِسَ الدمَ واللحم.

وذلك لا يَكادُ يتَّفقُ إلَّا في مراتبَ أعلاها الامتيازُ في النبوَّة، ثُمَّ تدنو إلى النبوَّة؛ ثُمَّ تنزِلُ إلى الامتيازِ في الحِكْمة؛ ثم تهبطُ إلى عبقرية الشعر. فأكبرُ الشعراءِ قاطبةً كالنبيّ في معناه إلَّا أنَّهُ نبيٌّ صغير، وإلَّا أنَّهُ في حُدودِ قلبِه.

وهذه القوى الثلاثُ هي التي أبدعَتْها الحِكمةُ الإلهيةُ لِتحويلِ الحياة والسموِّ بها؛ فالشاعرُ يستوحي الجمال إذا تألَّهَ الجمالُ في قلبِهِ، والحكيمُ يستوحي الحقيقة إذا تألَّهَتْ في نفسِه، والنَّبيُّ يستوحي الألوهيَّة نفسَها.

«كان ﷺ متواصل الأحزان» ولكنَّها أحزانُ النبوَّة تكسو الحياةَ فرحَ النفسِ الكبيرة؛ وهو فرحٌ كلُّهُ حزنٌ وتأمُّل، وفكرةٌ وخشوع، وطهْرٌ وفضيلة؛ وما فَرَحُ

أعظم الشعراءِ بِطَربِ الوجودِ وجمالِ الموجوداتِ إلّا شيءٌ قليلٌ من حزن النَّبيّ.

«وكان دائمَ الفكرة ليسَتْ له راحة» إذْ هو مكلَّفٌ أنْ يصنعَ الإنسانَ الجديدَ ويُنقِّحَ الآدميَّةَ فيه. وفكرةُ النبيِّ هي معيشتُهُ بنفسِه مَعَ الحقائِق العليا، إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ في الناس، وهي الفرديةُ واستقلالُها وسموُّها؛ لأنَّها إطاقةُ النفسِ الكبيرة لِوحدتِها، بخِلاف الأنفسِ الضعيفة التي لا تُطيقُها، فدأبُها أبداً أنْ تبحَثَ عمّا تَسْتعبِدُ له، أو تنسَى ذَاتَها فيه، أو تستريحُ إليه من ذاتِها. ومتى كانَتِ النفسُ فارغةً كان تفكيرُها مضاعفةً لِفراغِها، فهي تفرُّ منهُ إلى ما يُلهيها عنه؛ ولكنَّ العظيمَ يعيشُ في امتلاءِ نفسِه؛ وعالمُهُ الداخلِيُّ تُسمِّيه اللغةُ أحياناً: الفكرة؛ وتُسميه أحياناً: الصمت.

«وكان ﷺ طويل السَّكْتِ لا يتكلَّمُ في غير حاجة»، ومنَ الصمتِ أنواع: فنَوعٌ يكون طريقةً من طرقِ الفهْم بين المرءِ وبين أسرارِ ما يُحيطُ به؛ ونوعٌ يغشى الإنسانَ العظيمَ لِيكونَ علامةً على رهبة السرِّ الذي في نفسِه العظيمة؛ ونوعٌ ثالثٌ يكون في صاحبِه طريقةً من طُرُقِ الحُكْم على صَمْتِ الناسِ وكلامِهِم؛ ونوعٌ رابعٌ هو كالفصل بين أعمالِ الجسدِ وبين الروحِ في ساعة أعمالِها؛ ونوعٌ خامسٌ يكون صمتاً على دوِيٍّ تحتَهُ يُشبِهُ نوماً ساكناً على أحلام جميلةٍ تتحرك.

* * *

على هذا النَمَط يجب أنْ تُفسَّرَ كلُّ أوصافِه ﷺ؛ فهي بمجموعِها طابَعٌ إلهيٌّ على حياتِه الشريفة، يُثبتُ لِلدنيا بكلِّ برهاناتِ العِلْم والفلسفة أنَّهُ الإنسانُ الأفضل، وأنَّهُ الأقدر، وأنَّهُ الأقوى.

سموُّ الفقرِ (*)

في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم

(١)

كان النبيُّ ﷺ على ما يصفُ التاريخُ من الفقرِ والقِلَّة، ولكنَّهُ كان بطبيعتِه فوقَ الاستغناء، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بالفقر، ولا تنالُهُ المعاني النفسيَّةُ التي تعلو بعَرَضٍ من الدنيا وتنزلُ بعَرض، فما كانَتْ به خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَدْماً في الحياة فيُرَمِّمَها المال، ولا كان يتحرَّكُ في سَعْيٍ يُنْفِقُ فيه من نفسِه الكبيرة لِيجمع من الدنيا، ولا كان يتقلَّبُ بين البعيدِ والقريبِ من طمَعٍ أدركَ أو طمعٍ أخفق، ولا نظرَ لنفسِه في الحِسْبَة والتدبيرِ ليتدبَّرَ معيشَتَهُ فيَحْتلبَها ذَهباً أو فِضة، ولا استقرَّ في قلبه العظيم ما يجعلُ لِلدينارِ معنى الدينار ولا لِلدِّرهم معنى الدرهم؛ فإنَّ المعنى الحيَّ لِهذا المالِ هو إظهارُ النفسِ رابيةً متجسِّمةً في صورةٍ تكْبَرُ في قدرٍ من السَّعَة والغِنى؛ والمعنى الحيُّ لِلفقرِ من المالِ هو إبرازُ النفسِ ضئيلةً منْزَويةً في صورةٍ تصغُرُ على قدرٍ من الضِّيقِ والعُسْرَة.

إنَّ فقرَهُ ﷺ كان من أنَّهُ يتَّسعُ في الكون لا في المال، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاتِه الكبرى التي لم يتنبَّهْ إليها أحدٌ إلى الآن، وهو خاصٌّ به ومن أين تدبَّرْتَهُ رأيتَهُ في حقيقتِه معجزةً تواضعَتْ وغيَّرَتْ اسمَها؛ معجزةً فيها الحقائقُ النفسيَّةُ والاجتماعيةُ الكبرى، وقد سبقَتْ زمنَها بأربعةَ عَشرَ قرناً، وهي اليومَ تُثبتُ بالبرهان معنى قولِه ﷺ في صفة نفسِه: «إنَّما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاة».

نحن في عصرٍ تَكادُ الفضيلةُ الإنسانيَّةُ فيه تَلْحَقُ بالألفاظِ التاريخية التي تدلُّ على ما كان قديماً . . . بل عادَتْ كلمةً من كلماتِ الشعرِ تُرادُ لِتحريكِ النَّسيم اللّغويِّ الراكدِ في الخيال، كما تقول: السحابُ الأزرق، والفجرُ الأبيض، والشفَقُ

(*) انظر صفحتي ٢٣٥، ٢٤١ من حياة الرافعي.

الأحمر، والتَّطاريفُ الورديةُ على ذَيْلِ الشمس. وأصبحَ الناسُ ينظرُ أكثرُهم إلى أكثرِهِم بأعينٍ فيها معنًى وحشيٌّ لو لمسَ لضَرَبَ أو طَعَنَ أو ذَبَح.

وعَمِلتِ المدنيَّةُ أعمالها فلمْ تزدْ على أنْ أخرجَتِ الشكل الشعريَّ لإنسانِها الفَنِّيِّ مُتَهافِتاً تَرَفاً، ونِعْمةً، وافتتاناً بين ذلك من أيسرِ الحلالِ إلى الفظيعِ المُتَفَاحِشِ في الإباحة؛ فكأنَّما وضَعتِ المدنيةُ عقلاً في وحش، فجاءَ وقد زاغتْ فيه الطبيعةُ من ناحيتينِ؛ ثم قابلتْهُ بالشكلِ الوحشيِّ لإنسانِها الفقير، فكأنَّما نَزَعَتْ عقلاً من إنسان، فجاءَ وقد ضَلَّتْ فيه الطبيعةُ من ناحيتين؛ وكان مع الأولِ سَرَفُ الهوى بالطبيعة، وكان مع الثاني بالطبيعة سَرَفُ الحماقة.

وقد أصبحَ من تهكُّم الحياة بأهلِها أنْ يكونَ الفقيرُ فقيراً وهو يعلمُ أنَّ صِناعتَهُ في المدنيّة عَمَلُ الغَنِي لِلأغنياء... وأنْ يكونَ الغنيُّ غنيّاً وهو يعلمُ أنَّ عملهُ في المدنية هو صنعةُ الفقرِ لِضميره!

وخرجَتْ من هذا وذاك مسائلُ جديدةٌ في فلسفة المُعَايَشَة الإنسانيَّة التي يسمونَها «الاجتماع»؛ إلى أسئلةٍ كثيرةٍ لوذهبْنا نعدُّها ونصِفُها لطَال بِنا القول، وكلّها عاملةٌ على نزع الشعورِ العقليِّ من الحياة لِتظهرَ أسخفَ مِمَّا هي، وأقبحَ مِمَنْ كانت؛ حتى أصبحَتِ الشمسُ تَطْلُعُ تمحو ليلاً عن المادة وتُلقِي ليلاً على النفس، في حين أنَّ الدينَ والإنسانيةَ لا يعملان غيرَ بثّ هذا النورِ العقليِّ في الأشياءِ والمعاني لِتظهرَ الحياةُ مضيئةً ملْتَمِعةً، فتُصبحُ أوضحَ مِمَّا هي في نفسِهَا، وأجمل مِمَّا هي في الطبيعة.

في مثلِ هذه النزَعَاتِ المتقاتِلة التي صَعِدَتْ بِالفلسفة ونزلتْ، وجعلتْ من العِلْم في صدرِ الإنسانيَّة ملْءَ سماءٍ من الغُيوم بِسوادِها ورعْدِها وصواعِقِها، وتركَتِ العالَمَ يضجُّ ضجيجهُ المزعجَ في قلْبِ كلِّ حيٍّ حتى لتُذَاعُ الهمومُ إلى قلوبِ الناس إذاعةَ الأصواتِ إلى أسماعِهِم في «الراديو»... في مثلِ هذا البلاءِ الماحقِ تتلفَّتُ الإنسانيَّةُ إلى التاريخ تسألُهُ درساً مِنَ الكمالِ الإنسانيِّ القديم تَطِبُّ منه لهذه الحماقاتِ الجديدة، ولو علمَتْ لعَلِمَتْ أنَّ درسَ هذا العصرِ في عِلاجِ مشاكلِه الإنسانيَّة هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغَ أحدٌ في وصفِه الاجتماعيِّ ما بلغَ هو في قولِه: «إنّما أنا رحمةٌ مُهْدَاة».

* * *

هذا المُصْلِحُ الاجتماعيُّ الأعظمُ يُلقِي فقرُهُ الْيومَ درساً على الدنيا العلميَّة الفلسفيَّة، لا من كتابٍ ولا فكر، ولكنْ بأخلاقِه وعملِه وسيرتِهِ؛ إذْ ليس المصلحُ منْ فكَّرَ وكتب، ووعَظَ وخطب، ولكنَّهُ الحيُّ الْعظيمُ الذي تلتمسُهُ الفكرةُ الْعظيمةُ

لِتحيا فيهِ، وتجعل له عُمراً ذِهنيًا يكون مُصرَّفاً على حكمِها، فيكون تاريخُهُ ووصفُهُ هو وصفَ هذه الفكرة وتاريخَها.

وما كان محمدٌ ﷺ إلّا عمراً ذهنيًا مَحْضاً، تمرُّ فيه المعاني الإلهيةُ لِتظهرَ لِلناسِ إلهيَّةً مفسَّرة. وكلُّ حياتِه ﷺ دروسٌ مفنَّنةٌ مختلفةُ المعاني، ولكنّها في جملتِها تُخاطبُ الإنسانَ على الدَّهرِ بهذِه الجملة: أيُّها الحيُّ، إذا كانتِ الحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك: أي إذا كانَتِ الحياةُ في الحقيقة فلا تكُنْ أنت في الكَذبِ، وإذا كانَتِ الحياةُ في الرجولة البصيرة فلا تكُنْ أنت في الطفولة النَّزِقة، فإنَّ الرجل يَعرِفُ ويُدْرك، فهو بذلك وراءَ الحقيقيّ؛ ولكنَّ الطفلَ يجهلُ ولا يعرفُ الدنيا إلّا بعينيه، فهو وراءَ الوهم، ومن ثَمَّ طيشُهُ ونَزقُهُ، وإيثارُهُ كلَّ عاجلٍ وإنْ قَلّ، وعملُهُ أنْ تكونَ حياتُهُ النفسيَّةُ الضئيلةُ في مثلِ توثُّبِ أعضاءِ جسمِه، حتى كأنَّه أبداً يلعبُ بظاهرِه وباطنِه معاً...

أيُّها الحيّ، إذا كانَتِ الحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك: أي الحياةُ في ذاتِك الداخليَّة وقانون كمالِها، فإذا استطعْتَ أنْ تُخْرِجَ لِلأرضِ معنًى سماويًا من ذاتِك فهذا هوَ الجديدُ دائماً في الإنسانية، وأنت بذلك عائشٌ في القريبِ القريبِ من الروح، وأنت به شيءٌ إلهي؛ وإذا لم تستطعْ وعشْتَ في دَمِك وأعصابِكَ فهذا هو القديمُ دائماً في الحيوانيَّة، وأنت بذلك عائشٌ في البعيدِ البعيدِ من النفس، وأنت به شيءٌ أرضيٌّ كالحجَرِ والتراب.

هنا: أي في الإرادة التي فيك وحدَك. ولا هناك: أي في الخيالِ الذي هو في كلِّ شيء. وهنا، في أخلاقِك وفضائِلكَ التي لا تَدفعُك إلى طريقٍ من طُرُقِ الحياة إلّا إذا كان هو بعينِه طريقاً من طُرُقِ الهِداية والحِكْمة؛ وليس هناك، في أموالِكَ ومَعَايِشِك التي تجعلُكَ كاللصِّ مندفِعاً إلى كلِّ طريقٍ متى كان هو بعينِه طريقاً إلى نَهْبَةٍ أو سرقة. هنا، في الروح، إذْ تشعرُ الروحُ أنَّها موجودةٌ، ثم تعملُ لِتُثْبِتَ أنَّها شاعرةٌ بوجودِها، ماضيةٌ إلى مصيرِها، منتهيةٌ بجسدِها إلى الموتِ الإنسانيِّ على سُنَّة النفسِ الخالدة؛ وليس هناك في الحِسّ، إذْ يتعلقُ الحسُّ بما يتقلَّبُ على الجسم، فهو مهتاجٌ لِشعورِه بوَشْكِ فنَائِه فلا يُحْدِثُ إلّا الألَمَ إنْ نال أو لم ينلْ، وهو منتَهٍ بجسمِه إلى الموتِ الحيوانيِّ بين آكلٍ ومأكولٍ على سُنَّة الطبيعة الفانية.

أيُّها الحيُّ، إذا كانَتِ الحياةُ هنا فلا تكُنْ أنتَ هناك.

* * *

إنَّ الحكيمَ الذي ينظرُ إلى ما وراءِ الأشياءِ فيتعرَّفُ أسرارَها، لا تكونُ له حياةُ الذي يتعلّقُ بظاهرِها ولا أخلاقُهُ ولا نظرتُه؛ هذا الأخيرُ هو في نفسِه شيءٌ من

الأشياءِ له مظهرُ المادة وخِداعُها عن الحقيقة؛ وذلك الأولُ هو نفسُهُ سرٌّ من الأسرارِ له رَوْعَةُ السرِّ وكشفُهُ عن الحقيقة. ولِهذا كان في حياة الأنبياءِ والحكماءِ ما لا يُطيقُهُ الناسُ ولا يَضبِطونَهُ إذا تكلَّفوه، بلْ يَنْخَرِقُ عليهم فيكون منهُ العجزُ والغَلط، ويحدثُ منَ الغلطِ الزَّلل.

ونظرةُ نبيِّنا ﷺ إلى هذا الوجودِ نظرةٌ شاملةٌ مدرِكةٌ لِحقيقة اللانهاية، فيرى بِدايةَ كلِّ شيءٍ ماديٍّ هي نِهايَتَهُ في التوِّ واللحظة، فلا وجودَ له إلا عارِضاً مارًّا، فهو في اعتبارِه موجودٌ غيرُ موجود، مبتدِئٌ مُنْتَه معاً؛ وبذلك تَبطُلُ عندَهُ الأشياءُ الماديةُ وتأثيرُها، فلا تتصلُ بنفسِه العالية إلَّا من أضعف جِهاتِها، ويجدُ لها الناسُ في حياتِهِمُ الشجرةَ والفرْعَ والثمرة، وما لهَا عندَهُ هو جِذْرٌ ولا فرع؛ وبهذا لم يَفْتِنْهُ شيءٌ ولم يتعلقْ به شيء.

وكانَتِ الدنيا تطولُ الناسَ وتتقاصرُ عنه، وكانَتْ منقطعةَ النَّماءِ وهو ذاهبٌ في نموِّه الروحيّ، وكأنَّما هو صورةٌ أخرى من آدمَ (عليه السلام)؛ فكلاهما لمَسَ بنفسِه الحياةَ جديدةً خاليةً مِمَّا جمع فيها الزمنُ وأهلُهُ من طمعٍ وشَرَه، وجاءَ آدمُ لِيُعطِيَ الأرضَ ناسَها من صُلْبِه، وجاءَ محمدٌ لِيُعطِيَ الناسَ قوانِينَهُم من فضائِله؛ فآدمُ بشخصِه هو دنيا بُعِثَتْ لِتتسع، ومحمدٌ بشخصِه هو دنيا بُعثتْ لِتنتظم.

وماذا يُفهَمَ من الفلسفة الأخلاقيَّة النبويّة العظيمة؟ يُفهِمُ منها أنَّ الشهواتِ خُلِقَتْ مع الإنسان تتحكمُ فيه، لِينقلبَ بها إنساناً يتحكَّمُ فيها؛ وأنَّ الإنسانَ الصحيحَ الذي لم تُزَوِّرْهُ الدنيا يجبُ أنْ يكونَ ذا روح يمتدُّ فيَفيضُ عن غاياتِ جسمِه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصبِحَ في حكم النورِ وانطلاقِه وحريتِه، ولا ينكمشُ فيحصرُهُ جسمُهُ في غاياتِه وضروراتِه فيرتدُّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتى يعودَ في حكم الترابِ وأسرِه وعبوديتِه. فالفقرُ وما إليه، والزهدُ وما هو بسبيلٍ منه، والانصرافُ عَن الشهواتِ والرذائل ـ كلُّ ذلك إنْ هو إلَّا تَراجُعُ النفسِ العاليةِ إلى ذاتها النورانية حالاً بعدَ حال، وشيئاً بعدَ شيء، لِتُضيءَ على المادة فتكشفَ حقائقَها الصريحةَ فلا تُباليها ولا تُقيمُ لها وزناً. فبينما الناسُ يَروْنَ الأموالَ والشهواتِ مادةَ حياةٍ وعملٍ وشعور، تراها هي مادةَ بحْثٍ ومعرفةٍ واعتبارٍ ليس غير؛ وبهذا تكونُ النفسُ العظيمةُ في الدنيا كأستاذِ المعمل: تدخلُ المادةُ إلى معملِه وهي مادةٌ وفكرة، وتخرجُ منه وهي حقيقةٌ ومعرفة، وعلى أيِّ أحوالِها فهي إنَّما تُحَسُّ في ذلك المعملِ بأصابعَ علميَّةٍ دقيقةٍ ليس فيها الجمعُ ولا الحِرْص، ولكنْ فيها الذهنُ والفكر؛ وليس لها طبيعةُ الرغبة والغفلة، ولكنْ طبيعةُ الانتباه

والتحرُّز، وليسَتْ في أسْرِ المادة، ولكنَّ المادةَ في أسرِها ما شاءَت.

ولا يسمَّى فقرُهُ ﷺ زُهداً كما يظنُّ الضعفاءُ مِمَنْ يتعلَّقونَ على ظاهرِ التاريخ ولا يُحققونَ أصولهُ النفسيَّة؛ وأكثرُهم يقرأ التاريخَ النبويَّ بأرواح مظلمةٍ تُريهم ما تُرِي العينَ إذا ما اختلطَ الظلامُ ولبِسَ الأشياء فتراءَتْ مُجْمَلةً لا تفصيلَ لها، مُفرَغةً لا تَبْيِينَ فيها؛ وما بها من ذلك شيءٌ، غيرَ أنَّها تتراءى في بقيةٍ من البصرِ لا تَغمرُها.

وهلِ الزهدُ إلَّا أنْ تطردَ الجسمَ عنكَ وهو معك، وتنصرِفَ عنهُ وهو بكَ متعلق؟ فتلك سُخْرِيةٌ ومُثْلة، وفي رأيي تشويهٌ لِلجسم بروحِه، وقد تنعكسُ فتكونُ من تشويه الروحِ بجسمِها؛ فليس يعلمُ إلَّا الله وحدَه: أذاك تفسيرٌ لإنسانية الزاهدِ بالنور، أم هو تفسيرٌ بالتراب...

ولقدْ كان ﷺ يملكُ المال ويَجدُهُ، وكان أجوَدَ به منَ الريحِ المرسَلة، ولكنَّه لا يدعُهُ يتناسلُ عندَهُ، ولا يتركُهُ يَنْبُتُ في عملِه، وإنَّما كان عملُهُ ترجمةً لإحساسِه الروحيّ؛ فهو رسولٌ تعليميّ، قلبُهُ العظِيمُ في القوانين الكثيرة من واجباتِه، وهو يُريدُ إثباتَ وحدة الإنسانيَّة، وأنَّ هذا الإنسانَ مَعَ المادة الصامتةِ العمياءِ مادةٌ مفكِّرةٌ مميِّزة، وأنَّ الدينَ قوةٌ روحيَّةٌ يلقى بها المؤمنُ أحوال الحياة فلا يثبتُ بإزائِها شيءٌ على شيئيَّتِه، إذِ الروحُ خلودٌ وبقاء، والمادةُ فناءٌ وتحوُّل، ومن ثَمَّ تخضعُ الحوادثُ لِلروحِ المؤمنة وتتغيرُ معها، فإنْ لم تخضَعْ لم تُخْضِعْها، وإن لم تتغير الروحُ بها؛ وأساسُ الإيمان أنَّ ما ينتهي لا ينبغي أنْ يتصرَّفَ بما لا ينتهي.

ما قيمةُ العقيدة إلَّا بصدقِها في الحياة، وأكثرُ ما يصنعُ هذا المالُ: إما الكذبَ الصُّرَاحَ في الحياة، وإما شُبهةَ الكذِب؛ ولهذا تنزَّهَ النبيُّ ﷺ عن التعلقِ بهِ، وزادَهُ بُعْداً منه أنَّهُ نبيُّ الإنسانيَّة ومثَلُها الأعلى، فحياتُهُ الشريفةُ ليسَتْ كما نَرى في الناس: إيجاداً لِحلِّ مسائلِ الفردِ وتعقيداً لِمسائلِ غيرِه، ولا توسُّعاً من ناحية وتضييقاً من الناحية الأخرى، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك؛ بلْ كانَتْ حياتُهُ بعدَ الرسالة منصرفةً إلى إقرارِ التوازن في الإنسانية، وتعليم الجميعِ على تفاوتِهم واختلاف مراتِبهم كيف يكون لهم عقلٌ واحدٌ من الكون؛ وبهذا العقلِ الكونيِّ السليم ترى المؤمنَ إذا عَرَضَ له الشيءُ من الدنيا يفْتِنُهُ أو يَصْرِفُهُ عن واجبِه الإنسانيّ ـ أبتْ نفسُهُ العظيمةُ إلَّا أنْ ترتفعَ بطبيعتِها، فإذا هو في قانون السموّ، وإذا المادةُ في قانونِ الثقل؛ فيرتفعُ وتَتَهاوَى ويُصبحُ الذهبُ ـ وإنَّهُ ذهبٌ ـ وليس فيه عند المؤمن إلَّا روحُ التراب.

سموُ الفقرِ
في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم
(٢)

قالتْ عائشةُ (رضيَ الله عنها): لم يمتلىءْ جوفُ النبيِّ ﷺ شِبَعاً قَطّ، وإنَّهُ كان في أهلِه لا يسألُهم طعاماً ولا يتشهّاه؛ إنْ أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقَوْهُ شَرِب.

وقالت: ما شبعَ آلُ محمدٍ من خبزِ الشعيرِ يومين متتابعين حتى قُبضَ رسولُ الله ﷺ.

وعنها: كنّا آل محمدٍ نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ بنار، إنْ هو إلّا التمرُ والماء.

وقالتْ: ما رَفعَ رسولُ الله ﷺ قَطُّ غداءً لِعَشَاء، ولا عَشاءً لِغداءٍ ولا اتَّخذَ من شيءٍ زَوجين؛ لا قميصين، ولا رِداءين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال.

ويُروى عنها، قالت: تُوفيَ رسولُ الله ﷺ وليس عندي شيءٌ يأكلُهُ ذو كَبِد، إلّا شطرُ شعيرٍ في رَفٍّ لي.

وقالتْ: توفيَ رسولُ الله ﷺ ودِرْعُهُ مرهونةٌ عند يهوديّ في ثلاثينَ صاعاً من شعير.

وعن ابن عباس: كان رسولُ الله ﷺ يَبيتُ الليالِيَ المتتابعةَ وأهلهُ طاوياً لا يجدونَ عشاءً، وإنّما كان خبزُهُم الشعير.

وعن الحسن، قال: خطَبَ رسولُ الله ﷺ فقال: «والله ما أمسَى في آلِ محمدٍ صاعٌ من طعام، وإنّها لتِسعةُ أبيات!» والله ما قالها استقلالاً، ولكنْ أرادَ أنْ تتأسّى به أمتُه.

وعن ابن مجير قال: أصابَ النبيَّ ﷺ جُوعٌ يوماً، فعمدَ إلى حجرٍ فوضَعَهُ على بطنِه، ثم قال: «ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٌ عاريةٌ يومَ القِيامة؛ ألا ربَّ مُكرِمٍ نفسَهُ وهو مُهينٌ لها؛ ألا ربَّ مُهينٍ نفسَهُ وهو مكْرِمٌ لها».

وخُيِّرَ ﷺ أنْ يكونَ له مثلُ «أحُدٍ» ذهباً فقال: «لا يا ربِّ؛ أجوعُ يوماً فأدعوك، وأشبَع يوماً فأحمدُك»!.

وكان يقولُ في دعائِه ويُكثِرُ منه: «اللهمَّ أحْيني مِسْكيناً، وأمِتْني مِسكيناً، واحشُرْني في زُمرة المساكين».

* * *

هذا هو سيّدُ الأمة، يُمسِكُهُ في الحياة نبيًّا عظيماً ما يُخْرجُ غيرَه منها ذليلاً محتقَراً، وكأنَّما أشرقَ صفاءُ نفسِه على ترابِ الأرضِ فردَّهُ أشعةَ نور، على حين يُلقي الناسُ على هذا الترابِ من ظلام أنفسِهم فلا يَبْقى تراباً بل يرجعُ ظلاماً، فكأنَّهم إذْ يمشونَ عليه يَطؤونَ المجهول بخَوْفِه ورَوْعتِه؛ ثم لا يستقرُّ ظلاماً بل يرجعُ آلاماً، فكأنَّهم يَنْبُتونَ على المرضِ لا على الحياة؛ ثم لا يثبتُ آلاماً بل يتحوَّلُ فَوْرةً وتوثُّباً تكونُ منه نَزَواتُ الحمقِ والجنون في النفس.

هؤلاء الذين تعيشُ أنفسُهم في التراب، ويتمرَّغون بأخلاقِهم فيه، ينقلبون على الحياة من صنع الترابِ ناساً دُوداً كطبعِ الدُّودِ لا يقعُ في شيءٍ إلَّا أفسدَهُ أو قذَّره؛ أو قوماً سُوساً كطبعِ السُّوسِ لا ينَالُ شيئاً إلَّا نَخرَهُ أو عابَه، فهم يُوقِعُون الخَللَ في نِظام أنفسِهم، فإذا هي طائشةٌ تُخيِّلُ لهم كأنما اختلَّتْ نواميسُ الدنيا، وكأنَّ الله قَبَضَهم وبسطَ غيرَهم، وشَغَلهم وفرَّغَ مَنْ عداهم، وابتلاهم على مُسْكة الرزقِ[1] بالشهوة المسعورة التي لا تتحققُ، فضرَبَهم بالمجاهَدة التي لا تنقطع؛ وأنعَمَ على غيرِهم في بَسْطَة الرزق بالشجرة المسحورة التي لا تُقطَعُ منها ثمرةٌ إلَّا نبتَ غيرُها في مكانِها.

إنَّ ما وصفناهُ من فقرِ النبيِّ ﷺ، وأنَّهُ لم يكنْ له عتيدٌ حاضرٌ، وأنَّهُ لم يجعلْ نفسَهُ في همِّ المال، ولا جعلتْهُ نفسُهُ في همِّ الفقر، وأنَّهُ لقِيَ الحياةَ حاملاً لا محمولاً، واستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً ـ كلُّ ذلك إنما يُثبتُ لِلدنيا أنَّهُ خُلِقَ وبُعِثَ وعاشَ لِيكونَ درساً عمليًّا في حلِّ المشكلاتِ الاجتماعية، يُعلِّمُ الناسَ أنَّها لا تتعقَّدُ بطبيعتِها، ولكنْ بطبائِعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوَّتِها، ولكنْ بإمدادِ قواهم لها؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلتِها، ولكنْ بجزعِهم منها؛ ولا تُعْضِلُ من ذاتِ نفسِها، ولكنْ من سوءِ أثرِهم عليها وسوءِ نظرِهم لِأنفسِهم ولها.

---

(١) مسكة الرزق: ضد بسطة الرزق، أي الضيق والسعة.

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفْناها فلا تقرأها زُهداً وتقلّلاً، ولا فقراً وجُوعاً، ولا اختلالاً وحاجة، كما تُترجِمُها نفسُك أو تُحِسُّها ضرُورتُك؛ بلِ انظرْ فيها واعتَبِرْها بنفسِه هو ﷺ، ثم اقرأها شريعةً اجتماعيَّةً مُفصَّلةً على طبيعة النفس، قائمةً على أنْ تأخذَ نفسُ الإنسان من قُوَى الدنيا عناصرَها الحيويَّة، لِتُعطِيَ الحياةَ من ذلك قوَّةَ عناصرِها.

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياة الوادعة، هما ذكرٌ وأنثى؛ فأمَّا الأولى فهي ما وصَفْنا وحكيْنا، وأمَّا الثانيةُ فهي تغلُّلُ النعمة، وإطلاقُ قانون التناسلِ في المالِ يُنمّي بعضُهُ بعضاً، ويَنْبُتُ بعضُهُ على بعض، ثُمَّ إقامةُ الحياة على الزينة ومُقَوِّماتِها، وقيامُ الزينة على الخِداع وطِباعِه، فيُقْبِلُ المرءُ من دنياهُ على ما هو جديرٌ أنْ يصرِفَهُ عنها، ويُحِبُّ منها ما كان ينبغي أنْ يباغِضَهُ فيها. وكلُّ ما رأيْتَ وعلِمْتَ في رجلٍ، قُوَّتُه القوةُ فهو هناك؛ وكلُّ ما علِمْتَ ورأيْتَ في أنثى، قوتُها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراهُ في فقرِه ﷺ هو السوادُ الحيُّ؛ سوادُ الليلِ حول الروحِ النَّجْمِيّة الساطعة؛ وذلك الترابُ هوَ الترابُ الحيّ؛ ترابُ الزرعِ تحتَ النضرَةِ والخُضرَة؛ وتلك الحاجةُ الجسميَّةُ هي الحاجةُ الحيّةُ الدافعةُ إلى حريَّة النفس؛ وذلك الإقلالُ من فَهْم اللذة هوَ الإقلالُ الحيُّ الذي يزيدُ قوةَ فهْم الجمالِ في السماءِ والأرضِ وما بينهما، وذلك الضيقُ في حَيِّزِ المَتاعِ لِلحاسَّة هو الضيقُ الحيُّ الذي يُوَسِّعُ حَيِّزَ المتاعِ لِلروح. وبالجملة فذلك النقصُ من المادة لم يكنْ إلّا لِنفي النقصِ عن الفضيلة، وذلك الاحتقارُ لِلعَرَضِ الفاني الزائلِ هو المعنى الآخرُ لِتقديسِ الخالدِ الباقي.

فليس هناك خُبزُ الشعير، ولا الجوعُ، ولا رهنُ الدرعِ عند اليهوديّ. كلا، كلا، بل هناك حقيقةٌ نفسيةٌ عقليَّة، ثابتةٌ متّزنة، قائمةٌ بعناصرِها السامية: من اليقين والعقلِ والحِكْمة، إلى الرفقِ والحِلْم والتواضع، تُخبرُ هذه الدنيا العلميَّةَ الفلسفيَّةَ المفكِّرَةَ أنَّ ذلك النبيَّ العظيمَ هو الرجلُ الاجتماعيُّ التامُّ بأخلاقِه وفضائلِه، وهو الذي بُعِثَ لِتنقيحِ غريزة تنازعِ البقاء، وكَسْرِ هذه الحيوانيَّة، وقَمْعِ نزواتِها، وإماتة دَواعِيها، والسموِّ بخواطرِها؛ فهو بنفسِه صورةُ الكمالِ الذي بُعِثَ لِتحقيقِه وإثباتِ أنَّهُ الممكنُ لا الممتنِع، والحقيقيُّ لا الخياليّ.

ليس هناك دِرْعٌ مرهونةٌ في ثلاثينَ صاعاً، ولا الفقرُ ولا خبزُ الشعير. كلا، كلا، بل هناك تقريرُ أنَّ النصرَ في معركة الحياة لا يأتي من المالِ والثَّراءِ والمتاع،

ولكنْ من المعاناة والشدّة والصبر؛ وأنَّ التقدمَ الإنسانيَّ لا يُباعُ بيعاً، ولا يُؤخَذُ هَوْناً؛ بل هو انتزاعٌ من الحوادثِ بالأخلاقِ التي تتغلَّبُ على الأزمَاتِ ولا تتغلبُ الأزمَاتُ عليها، وأنَّ هذا المال وهذه الشهوات ـ في حقائقِ الحياة ومَصَائِرِها ـ ككُنوزِ الأحلام: لا تكونُ كُنوزاً إلّا في مواضعِها من أرضِ الغَفْلة والنوم، فلا لذةَ منها إلّا بمقدارِ خفيفٍ من هذه الغفلة. وليس إلّا الأحمقُ أوِ المخذولُ أوِ الضائعُ هو الذي يقطعُ العمرَ نائماً أبداً لِيظلَّ مالكاً أبداً لِهَذِه الكنوز. وهو يعلمُ أنّهُ لا بدَّ مستيقظ، وأنّهُ متى انتبه في آخرتِه لم يجدْ منها شيئاً «ووجدَ الله عندَهُ فوفّاهُ حِسابَه».

كلا، كلا، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما، بل هناك وَضْعُ هذه الحقيقة: ينبغي أنْ تجدَ نفسَك، وموضِعَ نفسِك، وإيمانَ نفسِك، وعِزَّةَ نفسِك. فإذا أدركْتَ ذلك ورفعْتَ نفسَك إلى موضعِها الحقّ، وأقررْتَها فيه، وحبسْتَها عليه، وَحَدَدْتَها بالإنسانيَّة من ناحيةٍ وبالله منَ الناحية المُقابِلة ـ رأيْتَ إذنْ أنَّ قيمتَك الصحيحةَ في أنْ تكونَ وسيلةً تُعطِي وتعملُ لِتُعطي، لا غايةً تأخذُ وتعملُ لِتأخذ، ومهما ضُيِّقَ عليك فإنَّما أنت كالشجرة الطَيِّبة تأخذُ تراباً وتصنعُ حَلاوة.

وما قطُّ نبتَتْ شجرةٌ في مكانِها لِتأكل وتشربَ وتختَزِنَ السّمادَ والترابَ وتحصِّنَهما وتمنَعَهما عن غيرِها، ولو قد فعلتْ ذلك شجرةٌ لكان هلاكُها فيما تفعل، إذْ تُحاولُ أنْ تُضاعِفَ فائدتَها من قانون العالم، فيكون طمَعُها سريعاً في إفسادِ الصلة بينَهما، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامَه، ومن ثَمَّ لا تجدُ في القانون نظامَها، فيُهلِكُها الذي كان يُحييها، وتستعبدُ لِحظِّ نفسِها، فيُفْقِدُها ذلك حريّةَ الحياة التي كانَتْ لها في نفسِها.

* * *

يقولُ نبيُّنا ﷺ: «إنَّ المؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ نفسَهُ تُنْزَعُ من بين جنبيه وهو يَحمدُ الله عزَّ وجلَّ». فهذا هو أسمى قانونٍ اجتماعيٍّ يُمكنُ أنْ تظفَرَ به الإنسانيَّةُ، وما يأتِي لها ذلك إلّا إذا أصبَحتْ تلك المعاني التي أومأنا إليها شعوراً اجتماعيًّا عامًّا مقرَّراً في النفس، قائماً فيها على إيمانٍ راسخٍ بأنَّ الفردَ هو صورةُ المجتمعِ لا صورةُ نفسِه وحدَها، وأنَّ الناسَ كحبِّ القمحِ في السُّنبلة، ليس لِجميعِه إلّا قانونٌ واحد، فموضِعُ كلِّ حبةٍ من السنبلة هو ثروتُها، عَلتْ أو سَفَلتْ، وكَثُرَ ما تأخذُهُ أو قلَّ؛ وإذا كان أساسُ الحياة في الحبَّة منها أنْ تجدَ قِوامَها وكِفايتَها من مادة الأرض، فتمامُ الحياة فيها أنْ يَغمُرَهَا النورُ مِن حولِها، وأنْ يستمرَّ النورُ من حولِها يغمرُها.

فالحبَّةُ من السُّنبلة بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، وإنَّها لتُنزَعُ وما بها أنَّها نُزِعتْ، ولكنَّها أدَّتْ ما تؤدِّي، وانقطعَتْ من قانونٍ لِتَتَّصِل بقانونٍ غيرِه، وما اغتنَتْ ولا افتقَرتْ، ولا أكثرَتْ ولا أخفَّتْ بل حقَّقتْ موضِعَها، فإنَّها ما نبتَتْ لِتبقَى، وما نَمَتْ إلَّا لِينقطعَ نماؤُها. وكذلكَ المؤمنُ الصحيحُ الإيمانِ، الصادقُ النظرِ في الحياة: هو أبداً في قانون آخرتِه، فهو أبداً في عملِ ضميرِه.

والناسُ في هذه الحياة كحَشْدٍ عظيم يتدفَّقُ من مَضِيقٍ بين جبلين ينفُذُ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنَّهم مُفْضُون إلى هذه النهاية مرُّوا آمنينَ وكان في يقينهمُ السلامة، وفي صبرهمُ الوِقاية، وفي نِظامِهمُ التوفيق، وفي تَعاونهمُ الحياة؛ فهم بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، ما دامَ هذا قانونَ جميعهِم؛ فأيُّما رجلٍ شَذَّ منهم فاضطربَ فطاشَ، هَلكَ وأهلكَ مَنْ حوله، ومَنْ عكَسَ منهم موضِعَهُ ونكَصَ على عَقِبيه، أهلك مَنْ حولهُ وهَلَكَ، والموتُ أشقى الموتِ هنا في هذا المضيقِ بين الجبلين ـ اعتبارُ الحاضِرِ حاضراً فقط، والضجرُ منه، وجعلُ كلِّ إنسانٍ نفسَهُ غاية. والحياةُ أهنأ الحياة ـ اعتبارُ الحاضرِ بِما وراءَه، والصبرُ على شِدَّتِه، وجعلُ الإنسان نفسَه وسيلة.

* * *

فذلك معنى خبزِ الشعير، والقِلّة والضيق، ورهن الدرعِ عند يهوديٍّ من سيِّدِ الخَلْقِ وأكملِهم، ومَنْ لو شاءَ لمشى على أرضٍ من الذهب. فهو ﷺ يُعلِّمُ الإنسانيّةَ أنَّ الرجل العظيمَ النفسِ لا يكون في الحياةِ إلَّا ضيفاً نازلاً على نفسِه.

ومن معاني ذلك الفقرِ العظيم أنَّ خبزَ الشعيرِ هو رَمزٌ من رموزِ الحياة على التحلّلِ من خُلُقِ الأثرَة، والبراءة من هوى التَّرَف؛ ورهنُ الدرعِ رمزٌ آخرُ على التخلُّص من الكِبرياءِ والطمع؛ والعُسرةُ رمزٌ ثالثٌ على مجاهدة المَللِ الحيِّ الذي يُفْسِدُ الحياةَ كما يُفسدُ بعضُ النباتِ النبات. ومجموعُ هذه الرموزِ رمزٌ بحالِه على وجوبِ الإيقاظِ النفسيِّ للأمة العزيزة التي تقودُ أنفسَها بمقاساة الشدائدِ ومُجاهدة الطباع، لِتكونَ في كلِّ فردٍ مادةُ الجيش، ولِيصلُحَ هذا الجيشُ قائداً لِلإنسانيَّة.

على أنَّهُ ﷺ حثَّ على طلبِ اليَسَار، والتغلُّلِ من الأعمالِ الشريفة بالغَلَّة والمال، فقال: «إنك إنْ تَدَعْ عِيالك أغنياء، خيرٌ من أنْ تَدَعَهم عَالةً يتكفَّفُون الناس». ورأى عابداً قدِ انقطعَ لِلعبادة حتى أكلتْ نفسُهُ جسمَه، ووصفوا له مِنْ زُهدِه وعِبادتِه، فقال ﷺ: «مَنْ يعولُه؟» قالوا: كلّنا نعولُه. فقال: «كلّكم خيرٌ

منه! . . . » إلى أحاديثَ كثيرةٍ مرويَّة، هي تمامُ القانون الأدبيّ الاجتماعيُ في الدنيا، تُثبِتُ أنَّ الحيَّ إنْ هو إلَّا عملُ الحيّ.

ولكنْ حينَ يكون سيدُ الأمَّة وصاحبُ شريعتِها رجلاً فقيراً، عاملاً مُجاهداً، يكْدَحُ لِعيشِه، ويجوعُ يوماً ويشبعُ يوماً، فلم يقلِّبْ يدَهُ في تِلَادٍ من المال يرثُه، ولم يجمعْهما على طَريفٍ منه يُوَرِّثُه - فذلك هو ما بيَّناهُ وشرحْناه، وذلك كالأمرِ نافذاً لا رُخْصَةَ فيه، على ألَّا يتَّخذَ الغنيُّ من الفقيرِ عبداً اجتماعيًّا لِفقرِ هذا ولِمالِ ذاك؛ بل هيَ المساواةُ النفسيَّةُ لا غيرُها وإن اختلفَتْ طبقاتُ الاجتماع. والأكرمُ هو الأَتقى لِلَّه بمعنى التقوى، والأقومُ بالواجبِ على معنى الواجب، والأكفأ لِلإنسانيَّة في معاني الإنسانيَّة.

فقرُ ذلك السيّدِ الأعظم ليس فقراً، بل هو كما رأيْت: ضبطُ السلطة الكائنة في طبيعة التملّك، لِقيام التعاوُن الإنسانيِّ على أساسِه العمليّ؛ هو المحاجَزَةُ العادلةُ بين المصالحِ الاقتصاديَّة الطاغية: يمنعُ أنْ تأكل مصلحةٌ مصلحةً فتَهلِكَ بها، ويُوجِبُ أنْ تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لِتحيَا بها.

والنبيُّ الفقيرُ العظيمُ هو في التاريخِ من وراءِ كلِّ هذه المعاني، كالقاضي الجالسِ وراءَ موادِّ القانون. ﷺ.

درسٌ منَ النبوة

قالوا: إنهُ لـمَّا نَصر الله (تعالى) رسولهُ وردَّ عنهُ الأحزابَ وفتَح عليه قُرَيْظَةَ والنَّضِير[1]، ظنَّ أزواجُهُ ﷺ أنَّه اختصَّ بنفائسِ اليهودِ وذخائرِهم؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوة: عائشة، وحَفْصة، وأمَّ حبيبة، وسَوْدة، وأمَّ سَلمة، وصفيّة، وميمونة، وزينب، وجُوَيْرِية؛ فقعدْنَ حولهُ وقلْن: يا رسول الله، بناتُ كِسرى وقَيْصَرَ في الْحلي والحُللِ، والإماءِ والخَوَل، ونحن ما تراهُ منَ الفاقة والضيق. . . وآلَمْنَ قلبَهُ بمطالبتِهنَّ له بتَوْسِعَة الحال، وأنْ يعاملهُنَّ بما تُعامِلُ به الملوكُ وأبناءُ الدنيا أزواجَهم؛ فأمرهُ الله (تعالى) أنْ يتلوَ عليهنَّ ما نزل في أمرهِنَّ من تخييرهِنَّ في فِراقِه، وذلك قولُه ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[2] وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

قالوا: وبدأ ﷺ بعائشةَ ـ وهي أحبُّهن إليه ـ فقال لها: «إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً ما أحبُّ أنْ تعجَلِي فيه حتى تَستأمرِي أبوَيك». قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ أستأمِرُ أبويَّ؟ بلْ أختارُ الله ـ تعالى ـ ورسوله.

ثم تَتَابَعْنَ كلّهن على ذلك، فسمَّاهُنَّ الله «أمَّهات المؤمنين»، تعظيماً لِحقهِنّ، وتأكيداً لِحرمتِهنّ، وتفضيلاً لهُنَّ على سائرِ النساء.

* * *

هذه هي القصةُ كما تُقرأ في التاريخِ وكما ظهرَتْ في الزمان والمكان، فلْنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة، وكما ظهرَتْ في الإنسانيَّة العالية؛ فسنجدُ لها غَوْراً بعيداً، ونعرفُ فيها دَلالةَ سامية، ونتبينُ تحقيقاً فلسفيًا دقيقاً لِلأوهام والحقائق.

---

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة، وكان ذلك في أواخر سنة خمس للهجرة.

(٢) السراح: الطلاق، ومتعة الطلاق ما تعطاه المطلقة ـ وهو ـ يختلف حسب السعة والإقتار.

وهي قبل كلِّ هذا ومع كلِّ هذا تنطوي على حكمةٍ رائعةٍ لم يتنبَّه لها أحد، ومن أجلِها ذُكرتْ في القرآن الكريم، لِتكونَ نصًّا تاريخيًّا قاطعاً يُدَافِعُ به التاريخُ عن هذا النبيِّ العظيم في أمرٍ من أمرِ العقلِ والغريزة، فإنَّ جَهَلَةَ المبشرينَ في زمنِنا هذا، وكثيراً من أهل الزَّيغ والإلحاد، وطائفةً من قِصَارِ النظرِ في التحقيقِ - يزعمونَ أنَّ محمداً ﷺ إنَّمَا استكثرَ من النساءِ لِأهواءِ نفسيةٍ محضةٍ وشهوات كالشهوات؛ ويَتَطرَّقونَ من هذا الزعم إلى الشُّبْهة، ومنَ الشُّبْهة إلى سوءِ الظنِّ، ومن سوءِ الظنِّ إلى قبحِ الرأي؛ وكلّهم غبيٌّ جاهل؛ فلو كان الأمرُ على ذلك أو على قريبٍ منه أو نحوٍ من قريبِه، لمَا كانَتْ هذه القصةُ التي أساسُها نفيُ الزينة وتجريدُ نسائِه جميعاً منها، وتصحيحُ النيَّة بينَهُ وبينهُنَّ على حياةٍ لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحتَ جوٍّ لا يكون أبداً جوَّ الزَّهر. . . . وأمرُهُ من قِبَلِ ربِّه أنْ يُخيِّرَهُنَّ جميعاً بين سراحِهِنَّ فيكُنَّ كالنساءِ ويجدْنَ ما شِئْنَ من دنيا المرأة، وبين إمساكِهِنَّ فلا يكُنَّ معه إلَّا في طبيعةٍ أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتُها.

فالقصةُ نفسُها ردٌّ على زعم الشهوات، إذ ليسَتْ هذه لغةَ الشهوة، ولا سياسةَ معانيها، ولا أسلوبَ غضبِها أو رِضاها. وما هٰهنا تمليقٌ، ولا إطراءٌ، ولا نُعومةٌ، ولا حِرْصٌ على لذة، ولا تعبيرٌ بِلغة الحاسة؛ والقصةُ بعدُ مكشوفةٌ صريحةٌ ليس فيها معنًى ولا شِبْهُ معنًى من حرارة القلب، ولا أثرٌ ولا بقيَّةُ أثرٍ من ميلِ النفس، ولا حرفٌ أو صوتُ حرفٍ من لغة الدم. وهي على منطقٍ آخرَ غير المنطقِ الذي تُستمالُ به المرأة، فلم تقتصرْ على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهُنَّ، بل نَفَتِ الأمَلَ في ذلك أيضاً إلى آخرِ الدهر، وأماتَتْ معناهُ في نفوسِهِنَّ، بقَصْرِ الإرادة منهُنَّ على هذه الثلاثة: الله في أمرِه ونهيه، والرسولُ في شدائدِه ومُكابَدَتِهِ، والدارُ الآخرةُ في تكاليفِها ومَكَارِهِها. فليس هنا ظرفٌ، ولا رقةٌ، ولا عاطفةٌ، ولا سياسةٌ لِطبيعة المرأة، ولا اعتبارٌ لِمزاجِها، ولا زُلْفَى لِأنوثتِها، ثم هو تخييرٌ صريحٌ بين ضِدين لا تتلوَّنُ بينَهما حالةٌ تكونُ منهما معاً، ثم هو عامٌّ لِجميعِ زوجاتِه لا يستثني منهُنَّ واحدةً ولا أكثر.

والحريصُ على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي بشيءٍ من هذا، بل يُخاطبُ في المرأة خيالها أول ما يُخاطب، ويُشبِعُهُ مُبالغةً وتأكيداً، ويُوسِعُهُ رَجاءً وأملاً، ويقرِّبُ له الزمنَ البعيدَ، حتى لو كان في أولِ الليلِ وكان الخِلافُ على الوقت، لحقَّقَ له أنَّ الظهرَ بعدَ ساعة . . .

* * *

وبرهانٌ آخرُ؛ وهو أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتزوَّجْ نساءَهُ لِمتاعٍ مِمَّا يُمتِّعُ الخيالُ بهِ، فلو كان وَضْعُ الأمرِ على ذلك لمَا استقامَ ذلك إلَّا بالزينة وبالفنِّ الناعم في الثوبِ والحِلْية والتشكُّلِ كما نرى في الطبيعة الفنيَّة، فإنَّ المُمثلة لا تمثلُ الرواية إلَّا في المسرحِ المهيأ بمناظرِه وجَوِّه. . . وقد كانَتْ نساؤُهُ ﷺ أعرفَ به؛ وها هو ذا ينفي الزينةَ عنهُنَّ ويُخيرُهُنَّ الطلاقَ إذا أصرَرْن عليها. فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكارِ الشهوة؟ وهل ترى إلَّا الكمال المحض؟ وهل كانَتْ متابعَةُ الزوجاتِ التسعِ إلَّا تسعةَ برُهانات على هذا الكمال؟

وكأنَّ النبيَّ ﷺ يُلقِي بهذه القصة درساً مستفيضاً في فلسفة الخيالِ وسُوءِ أثرِه، على المرأة في أنوثتِها، وعلى الرجل في رجولتِه؛ وأنَّ ذلك تعقيدٌ في الشهواتِ يُقابلُهُ تعقيدٌ في الطبع، وكَذِبٌ في الحقيقة ينشأ عنهُ كذبٌ في الخلقِ، وأنَّه صَرْفٌ لِلمرأة إلى حياة الأحلام والأمانيِّ والطيْشِ والبطَرِ والفراغ، وتعويدُها عادات تُفسِدُ عاطفتَها، وتُضيفُ إليها التصنعَ فتُضعِفُ قوتَها النفسيَّةَ القائمةَ على إبداعِ الجمالِ من حقيقتِها لا من مظهرِها، وتحقيقِ الفائدة من عملِها لا من شكلِها.

وكلُّ محاسن المرأة هي خيالُ متخيِّلٌ ولا حقيقةَ لِشيءٍ منها في الطبيعة، وإنَّما حقيقتُها في العين الناظرة إليها فلا تكونُ امرأةٌ فاتنةً إلَّا لِلمفتون بها ليس غير. ولو ردَّتِ الطبيعةُ على مَنْ يُشَبِّبُ بامرأةٍ جميلةٍ فيقولُ لها: هذه محاسنُكِ وهذه فتنتُكِ وهذا سِحرُكِ وهذا وهذا؛ لقَالتْ له الطبيعة: بل هذه كلُّها شهواتُكَ أنت[1]. . .

وبهذا يختلفُ الجمالُ عند فقدِ النظر؛ فلا يفتنُ الأعمى جمالُ الصورة ولا سِحرُ الشكلِ ولا فَرَاهةُ المنظر، وإنَّما يفتنُهُ صوتُ المرأة ومَجَسَّتُها ورائحتُها.

فلا حقيقةَ في المرأة إلَّا المرأةُ نفسُها؛ ولو أخِذَتْ كلُّ أنثى على حقيقتِها هذه لمَا فسدَ رجلٌ ولا شقيَتِ امرأة، ولا انتظمَتْ حياةُ كلِّ زوجين بأسبابِها التي فيها. وذلك هو المثلُ المضروبُ في القصة.

يُريدُ النبيُّ ﷺ لِيُعلِّمَ أمَّتَهُ أنَّ حَيفَ الغريزة على العقلِ إفسادٌ لِهذا العقل، وأنَّه متى أُخِذَتِ المرأةُ لِحظِّ الغريزة واختيارِها، كانَتْ حياتُها استجابةً لِجنون الرجل، وملأتْها معاني التزيُّدِ والتصنُّع؛ فيُوشِكُ أنْ ينقلها هذا عن طبيعتِها السامية التي

(١) بسطنا هذا المعنى في كثير مما كتبناه، وخاصة في كتاب: (السحاب الأحمر).

أكثرُها في الحِرمان والإيثارِ والصبرِ والاحتمال، ويردُّها إلى أضدادِ هذه الصفات، فيقومُ أمرُها بعدُ على الأثرة والمصلحة والتفادي والضجَرِ والتبرُّم والإلحاحِ والإزعاج، ويُضعفُ معنى السلْبِ الراسخِ في نفسِها من أصلِ الفِطْرَة؛ فيتبدَّلُ حياؤُها، وفي الحياءِ ردُّها عن أشياء؛ ويقلُّ إخلاصُها، وفي الإخلاصِ ردٌّ لها عن أشياءَ أخرى؛ ويكثرُ طمعُها، وفي قناعتِها مُحاجَزَةٌ بينَها وبين الشرّ.

وبهذا ونحوِه يفسدُ ما بين الرجلِ والمرأة المتصنِّعة؛ فإذا كثُرَ المتصنِّعاتِ لا يكون منَ النساءِ مَشَاكلُ فقط، بل تكونُ من حُلولِ المشاكلِ معهُنَّ مشاكلُ أخرى . . .

* * *

ولُبابُ هذه القصة أنَّ النبيَّ ﷺ يجعلُ نفسَهُ في الزواجِ المثَل الشَّعبيَّ الأكمل كما هو دأبُهُ في كلِّ صفاتِه الشريفة، فهو يُريدُ أنْ تكونَ زوجاتُهُ جميعاً كنساءِ فقراءِ المسلمين، لِيكونَ منهنَّ المثَلُ الأعلى لِلمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تَبرَعُ البراعةَ كلَّها في الصبرِ والمجاهدة والإخلاصِ والعِفَّة والصراحة والقناعة، فلا تكونُ المرأةُ زينةً تَطْلُبُ زينةً لِتتمَّ بها في الخيال، ولكنْ إنسانيةً تطلبُ كمالها الإنسانيَّ لِتتمَّ به في الواقع.

وهذه الزينةُ التي تتصنعُ بها المرأةُ تكادُ تكونُ صورةَ المكرِ والخِداعِ والتعقُّد، وكلّما أسرفَتْ في هذِه أسرفَتْ في تلك، بَلِ الزينةُ لِوجه المرأة وجِسمِها سلاحٌ من أسلحة المعاني: كالأظافرِ والمخالبِ والأنياب، غيرَ أنَّ هذه لوحْشِية الطبيعة الحيَّة المفترِسة، وتلك لوحشيةِ الغريزة الحيَّة التي تُريدُ أنْ تفترس. ولا تُنْكِرُ المرأةُ نفسُها أنّ الزينةَ على جسمِها ثرثرةٌ طويلةٌ تقولُ وتقولُ وتقول. . .

* * *

وإنَّما يكون أساسُ الكمالِ الإنسانيّ، في الإنسان العاملِ المُجاهد: لا يحصُرُ نفسَهُ في شيءٍ يُسمَّى متاعاً أو زِينة، ولا يقدّر نفسَهُ بما يجمعُ لها أو بما يجمعُ حولها، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلّا كالتعبيرِ من عملِ الشهواتِ عن الشهوات. ونبيُّنا ﷺ هو الغايةُ في هذا. دخل عليه مرةً عمرُ بْنُ الخطاب، فإذا هو على حَصيرٍ وعليه إزارُهُ وليس عليه غيرُه، وإذا الحصيرُ قد أثَّر في جنبِه. قال عمر: وإذا أنا بقَبْضةٍ من شعيرٍ نحو الصاع، وإذا إهابٌ معلّق[1]، فابتَدَرَتْ عيناي، فقال: ما

(١) كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.

يُبكيك يا ابنَ الخطاب؟ قال: عمر: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبِك، وهذه خزائنُكَ لا أرى فيها إلّا ما أرى، وذاك كسرى وقيصرُ في الثمارِ والأنهارِ وأنت نبيُّ الله وصفوتُهُ وهذه خزائنُك[1]؟

وجاءَ مرة من سفَرٍ فدخل على ابنتِه فاطمةَ (رضيَ الله عنها) فرأى على بابِها سِتْراً وفي يديها قُلبَيْن من فِضَّة[2]، فرجع؛ فدخل عليها أبو رافعٍ وهي تبكي، فأخبرَتْهُ برجوعِ أبيها، فسألهُ في ذلك فقال ﷺ: من أجلِ السترِ والسِّوَارين.

فلمَّا أخبرَها أبو رافعٍ هتكَتِ السترَ[3] ونزَعَتِ السوارين فأرسلتْ بهما بِلالاً إلى النبيّ ﷺ وقالت: قد تَصدَّقْتُ به، فضعْهُ حيثُ ترَى. فقال لِبلال: اذهبْ فبِعْهُ وادفعْهُ إلى أهلِ الصُّفَّة[4]. فباعَ القُلبين بدرهمين ونصفٍ (نحو ثلاثةَ عشرَ قرشاً) وتصدَّقَ به عليهم.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! وأنتِ أيضاً لا يرضى لكِ أبوكِ حِليةً بدرهمين ونصفٍ وإنَّ في المسلمينَ فقراءَ لا يملكونَ مثلها.

أيُّ رجلٍ شَعْبيٍّ على الأرضِ كمحمدٍ ﷺ، فيه لِلأمة كلِّها غريزَةُ الأب، وفيه على كلِّ أحوالِه اليقينُ الذي لا يتحوَّل، وفيه الطبيعةُ التامّةُ التي يكون بها الحقيقيُّ هو الحقيقي.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! إنَّ زينةً بدرهمين ونصف، لا تكونُ زينةً في رأي الحقِّ إذا أمكنَ أنْ تكونَ صَدَقةً بدرهمين ونصف؛ إنَّ فيها حينئذٍ معنًى غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ الجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير؛ وفيها ما ليس بضروريّ قد جارَ على ما هو الضروري؛ وفيها خطأٌ مِنَ الكمالِ إنْ صحَّ في حِسابِ الحلالِ والحرام لم يصحَّ في حسابِ الثوابِ والرحمة.

تعالَوْا أيُّها الاشتراكيُّونَ فاعرِفوا نبيَّكمُ الأعظم؛ إنَّ مذهبَكم ما لم تُحْيه فضائلُ الإسلام وشرائعُه ـ إنَّ مذهبَكم لكالشجرة الذابلة تُعلِّقونَ عليها الأثمارَ تَشُدُّونها بالخيط... كلَّ يومٍ تَحِلُّون، وكلَّ يومٍ تَربطُون، ولا ثمرةَ في الطبيعة.

---

(١) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه (ﷺ)، وقد بسطنا فلسفة هذه المعاني في مقال (سمو الفقر).

(٢) القلب (بالضم): سوار من الفضة غير ملوى، هو الذي يقال له اليوم: (الغويشة) وهو خفيف.

(٣) أي مزقته؛ وكذلك رأى مرة ستراً على باب عائشة (رضي الله عنها) فهتكه وقال: كلما رأيته ذكرت الدنيا. أرسلي به إلى آل فلان.

(٤) الصفة: الغرفة، وأهل الصفة: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه؛ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه.

ليسَتْ قصةُ التخيير هذه مسألةً من مسائلِ الغِنى والفقرِ في معاني المادة، ولكنَّها مسألةٌ من مسائلِ الكمالِ والنقصِ في معاني الروح؛ فهي صريحةٌ في أنَّ النبيَّ ﷺ أستاذُ الإنسانيَّة كلِّها؛ واجبُهُ أنْ يكونَ فضيلةً حيَّةً في كلِّ حياة، وأنْ يكونَ عَزاءً في كلِّ فقْر، وأنْ يكونَ تهذيباً في كلِّ غِنى، ومن ثَمَّ فهو في شخصِه وسيرتِه القانونُ الأدبيُّ لِلجميع.

وكأنَّهُ ﷺ يُريدُ لِيُعلِّمَ الأُمَّةَ بهذه القصة أنَّ الجماعاتِ لا تَصلُحُ بالقوانين والشرائع والأمرِ والنهي، ولكنْ بعملِ عظمائِها في الأمرِ والنهي؛ وأنَّ الحاكمَ على الناسِ لا ينبغي أنْ يحكمَ إلَّا إذا كان في نفسِه وطبيعتِه يُحسُّ فتنةَ الدنيا إحساسَ المتسلِّطِ لا الخاضِع، لِيكونَ أولُ استقلالِه استقلال داخِله.

فليس ذلك فقْراً ولا زُهداً كما ترى في ظاهرِ القصة، ولكنَّها جُرْأةُ النفسِ العُظمَى في تقريرِ حقائقِها العمليَّة.

* * *

وتنتهي القصةُ في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاتِه ﷺ: «أُمَّهات المؤمنين» بعدَ أن اختَرْنَ الله ورسولهُ والدارَ الآخرة؛ وعلماءُ التفسيرِ يقولون: إنّ الله (تعالى) كافأهُنَّ بهذه التسمية؛ وليس ذلك بشيءٍ ولا فيه كبيرُ معنًى، وإنّما تُشعِرُ هذه التسميةُ بمعنًى دقيقٍ هو آيةٌ من آياتِ الإعجاز؛ فإنَّ الزوجةَ الكاملةَ لا تكملُ في الحياة ولا تكملُ الحياةُ بها إلَّا إذا كان وصْفُها مع رجُلِها كوصف الأمّ: ترى ابنَها بالقلْبِ ومعانيه، لا بالغريزة وحُظوظِها؛ فكلُّ حياةٍ حينئذٍ مُمكنةُ السعادة لِهذه الزوجة، وكلُّ شقاءٍ محتمَلٌ بصبر، وكلُّ جِهادٍ فيه لذتُهُ الطبيعيَّة، إذْ يقومُ البيتُ على الحُبِّ الذي هو الحُبُّ الخالصُ لا المنفعة، وتكونُ زينةُ الحياة وجودَ الحيِّ نفسِه لا وجودَ المادة، وتُبْنَى النفسُ على الوفاءِ الطبيعيِّ كوفاءِ الأمّ، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسُرُ عليه في سبيلِ حقيقتِه أنْ يتغلَّبَ على الدنيا وزينتِها.

وآخِرُ ما نستخرجُ من القصة في درسِ النبوَّة هذه الحكمة:

بِحَسْبِ المؤمن إذا دخَل دارَهُ أنْ يجدَ حقيقةَ نفسِه الطيِّبة، وإنْ لم يجدْ حقيقةَ كِسْرى ولا قَيصر.

شهرٌ للثورة(*)

فلسفة الصيام

لم أقرأ لِأحدٍ قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحِكمتِه؛ أمَّا منفعتُهُ لِلجسم، وأنَّهُ نوعٌ من الطبِّ لهُ، وبابٌ من السياسة في تَدبيرِه؛ فقد فرغَ الأطباءُ من تحقيقِ القولِ في ذلك؛ وكأنَّ أيامَ هذا الشهرِ المباركِ إنْ هي إلَّا ثلاثون حبَّةً تؤخَذُ في كلِّ سنةٍ مرةً لِتقوية المَعِدة وتصفية الدم وحِياطة أنسجة الجسم؛ ولكنَّا الآنَ لسْنَا بصَدَدٍ من هذا، وإنَّما نستوحي تلك الحقيقةَ الإسلاميَّةَ الكبرى التي شَرَعَتْ هذا الشرعَ لِسياسة الحقائقِ الأرضيَّة الصغيرة، عاملةً على استمرارِ الفكرة الإنسانيَّة فيها، كي لا تتبدَّل النفسُ على تغير الحوادثِ وتَبَدُّلِها، ولِكيلا تجهل الدنيا معانيَ الترقيعِ إذا أَتَتْ على هذه الدنيا معاني التمزيق.

من معجزاتِ القرآن الكريم أنَّه يدَّخرُ في الألفاظِ المعروفة في كلِّ زمنٍ، حقائقَ غيرَ معروفةٍ لِكلِّ زمن، فيُجلِّيها لِوقتِها حينَ يَضِجُّ الزمانُ العلميُّ في مَتَاهَتِه وحَيْرَتِهِ، فيَشْغَبُ على التاريخِ وأهلِه مُسْتَخِفًّا بالأديان، ويذهبُ يتتبَّعُ الحقائق، ويستقصي في فنون المعرفة، لِيستخلصَ من بين كُفرٍ وإيمانٍ دِيناً طبيعياً سائغاً، يتناولُ الحياةَ أوّل ما يتناولُ فيضبِطُها بأسرارِ العِلْم، ويُوجِّهُها بالعِلْم إلى غايتِها الصحيحة، ويُضاعِفُ قُواها بأساليبِه الطبيعيَّة، لِيُحقِّقَ في إنسانية العالم هذه الشَّيئيَّةَ المجهولةَ التي تتوهَّمُها المذاهبُ الاجتماعيَّةُ ولم يهتد إليها مذهب منها ولا قاربها؛ فما برحت سعادة الاجتماع كالتجربة العلميَّة بين يدي عُلمائها: لم يحققوها ولم ييأسوا منها، وبقيَتْ تلك المذاهبُ كعقاربِ الساعة في دَوْرَتِها: تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهي إلَّا إلى حيثُ تبدأ...

* * *

يضطربُ الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يُحاولُ تغييرَ الإنسان بزيادةٍ ونقصٍ في أعصابِه؛ ولا يزالُ مذهبُهُم في الدنيا مذهبَ كُتُبٍ ورسائل؛ ولو

(*) كتبها في شهر رمضان سنة ١٣٥٣هـ، وانظر «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعي.

أنّهم تدبَّروا حِكمةَ الصوم في الإسلام، لرأوْا هذا الشهرَ نِظاماً عمليًّا من أقوى وأبدعِ الأنظمة الاشتراكيَّة الصحيحة: فهذا الصومُ فَقْرٌ إجباريّ تَفرضُهُ الشريعةُ على الناسِ فَرضاً لِيتساوَى الجميعُ في بواطِنِهم، سواءٌ منهم مَن مَلكَ المليونَ من الدنانير، ومَن ملكَ القِرشَ الواحد، ومَنْ لم يملكْ شيئاً؛ كما يتساوَى الناسُ جميعاً في ذهابِ كِبريائِهِمُ الإنسانيَّة بالصلاة التي يفرضُها الإسلامُ على كلِّ مسلم؛ وفي ذهابِ تَفَاوُتِهِمُ الاجتماعِيِّ بِالحجّ الذي يفرضُهُ على مَن استطاع.

فقرٌ إجباريٌّ يُرادُ به إشعارُ النفسِ الإنسانيَّة بطريقةٍ عمليَّةٍ واضحةٍ كلَّ الوضوح، أنَّ الحياةَ الصحيحةَ وراءَ الحياة لا فيها، وأنَّها إنَّما تكونُ على أتمِّها حين يتساوَى الناسُ في الشعورِ لا حينَ يختلفون، وحينَ يتعاطَفُونَ بإحساسِ الألمِ الواحدِ لا حينَ يتنازَعونَ بإحساسِ الأهواءِ المتعدِّدة.

ولو حقَّقْتَ لرأيْتَ الناسَ لا يختلفونَ في الإنسانيَّة بعقولهم، ولا بأنسابِهم، ولا بمراتبِهم، ولا بما ملكوا؛ وإنَّما يختلفون ببطونِهم وأحكام هذه البطون على العقلِ والعاطفة؛ فمن البطن نكبةُ الإنسانيَّة، وهو العقلُ العمليُّ على الأرض؛ وإذا اختلفَ البطنُ والدماغُ في ضرورةٍ، مدَّ البطنُ مَدَّهُ من قِوَى الهضم فلم يُبقِ ولم يَذَرْ.

ومن هٰهنا يتناولُهُ الصومُ بالتهذيبِ والتأديبِ والتدريب، ويجعلُ الناسَ فيه سواءً: ليس لِجميعِهم إلَّا شعورٌ واحدٌ وحِسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ؛ ويُحْكِمُ الأمرَ فيحولُ بين هذا البطن وبين المادة، ويُبالغُ في إحكامِه فيُمسِكُ حَواشيَهُ العصبيَّةَ في الجسم كلِّه يمنعُها تغذيتَها ولذَّتَها حتى نَفْثَةً من دخينة[1].

وبهذا يضَعُ الإنسانيةَ كلَّها في حالةٍ نفسيَّةٍ واحدةٍ تَتَلبَّسُ بها النفسُ في مشارقِ الأرضِ ومغارِبها، ويُطْلِقُ في هذه الإنسانيَّة كلِّها صوتَ الروح يُعلِّمُ الرحمةَ ويدعو إليها، فيُشْبِعُ فيها بهذا الجوعِ فكرةً معيَّنةً هي كلُّ ما في مذهبِ الاشتراكيَّة من الحقّ، وهي تلك الفكرةُ التي يَكون عنها مساواةُ الغنيّ لِلفقيرِ من طبيعتِهِ، واطمئنانُ الفقيرِ إلى الغنيّ بطبيعتِه؛ ومن هذينِ: (الاطمئنان والمساواة)، يكونُ هدوءُ الحياة بهدوءِ النفسين اللتين هما السَّلْبُ والإيجابُ في هذا الاجتماعِ الإنسانيِّ؛ وإذا أنت نزعْتَ هذه الفكرةَ من الاشتراكيَّة بقي هذا المذهبُ كلُّهُ عَبَثاً من العبَثِ في محاولة جعْلِ التاريخِ الإنسانيِّ تاريخاً لا طبيعةَ له.

* * *

(١) الدخينة كلمة وضعناها للسيجارة، وجمعها دخائن.

من قواعدِ النفسِ أنَّ الرحمةَ تنشأ عن الألم، وهذا بعضُ السرِّ الاجتماعيِّ العظيم في الصوم، إذْ يُبالِغُ أشدَّ المبالغة، ويدقِّقُ كلَّ التدقيق، في منعِ الغِذاء وشبه الغِذاءِ عن البطن وحواشيه مدةً آخرُها آخرُ الطاقة؛ فهذه طريقةٌ عمليَّةٌ لِتربية الرحمة في النفس، ولا طريقةَ غيرُها إلَّا النكباتُ والكوارث؛ فهما طريقتان كما ترى: مُبصِرةٌ وعمياء، وخاصةٌ وعامَّة، وعلى نِظام وعلى فَجْأة.

ومتى تحقَّقتْ رحمةُ الجائعِ الغنيِّ لِلجائعِ الفقير، أصبحَ لِلكلمة الإنسانيَّة الداخليَّة سلطانُها النافذ، وحَكمَ الوازعُ النفسيُّ على المادة؛ فيسمعُ الغنيُّ في ضميرِه صوتَ الفقيرِ يقول: «أعطني». ثُمَّ لا يسمعُ منهُ طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمرِ لا مفرَّ من تلبيتِه والاستجابة لِمعانيه، كما يُواسي المبتَلى مَنْ كان في مثلِ بِلائهِ.

أيةُ معجزةٍ إصلاحيَّةٍ أعجبُ من هذه المعجزة الإسلاميَّة التي تقضي أنْ يُحذَفَ من الإنسانيَّة كلِّها تاريخُ البطن ثلاثينَ يوماً في كلِّ سنة، لِيحِلَّ في محلِّه تاريخُ النفس[1]؟ وأنا مُسْتيقِنٌ أنَّ هناك نسبةً رياضيَّةً هيَ الحِكمةُ في جعلِ هذا الصوم شهراً كاملاً من كلِّ اثني عشرَ شهراً، وأنَّ هذه النسبةَ متحقِّقةٌ في أعمالِ النفسِ لِلجسم، وأعمالِ الجسم لِلنفس؛ كأنَّهُ الشهرُ الصّحيُّ الذي يفرضُهُ الطِّبُّ في كلِّ سنةٍ لِلراحة والاستجمامِ وتغييرِ المعيشة، لإحداثِ الترميم العصبيّ في الجسم، ولعلَّ ذلك آتٍ منَ العلاقة بين دَوْرة الدم في الجسم الإنسانيِّ وبين القمرِ منذُ يكون هِلالاً إلى أنْ يدخل في المُحَاق؛ إذ تنتفخُ العروقُ وتَربو في النصف الأولِ من الشهر، كأنَّها في (مَدّ) من نورِ القمرِ ما دام هذا النورُ إلى زيادة، ثم يُراجِعُها (الجَزْر) في النصف الثاني حتى كأنَّ لِلدم إضاءةً وظلاماً. وإذا ثبَتَ أنَّ لِلقمرِ أثراً في الأمراضِ العصبيَّة، وفي مدِّ الدم وجَزرِهِ[2]، فهذا من أعجبِ الحِكمة في أنْ يكونَ الصيامُ شهراً قمريًا دونَ غيره.

وفي ترائِي الهلالِ ووجوبِ الصوم لِرؤيتِه معنًى دقيقٌ آخر، وهو ـ مع إثباتِ رؤية الهلالِ وإعلانِها ـ إثباتُ الإرادة وإعلانُها، كأنَّما انبعثَ أولُ الشعاعِ السماويِّ في التنبيه الإنسانيِّ العامِّ لِفروضِ الرحمة والإنسانيَّة والبرّ.

---

(١) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه في شهر رمضان، وهم يعوضون البطن في الليل ما منعوه في النهار، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل... ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده.

(٢) قال الجاحظ في (الحيوان): «ولزيادة القمر حتى يصير بدراً، أثر بين في زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات».

وهنا حِكمةٌ كبيرةٌ من حِكَم الصوم، وهي عملُهُ في تربية الإرادة وتقويتِها بهذا الأسلوبِ العمليّ، الذي يُدَرِّبُ الصائمَ على أن يمنعَ باختياره من شهواتِه ولذّة حيوانيتِه، مُصِرًّا على الامتناع، مُتَهيِّئاً له بعزيمتِه، صابراً عليه بأخلاقِ الصبر، مُزاوِلاً في كلِّ ذلك أفضل طريقةٍ نفسيَّةٍ لاِكتسابِ الفكرة الثابتة ترسَخُ لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّل، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة.

وإدراكُ هذه القوَّة من الإرادة العمليَّة منزلةٌ اجتماعيةٌ سامية، هي في الإنسانيَّة فوقَ منزلة الذكاءِ والعِلْم، ففي هذين تعرضُ الفكرةُ مارّةً مُرورَها، ولكنَّها في الإرادة تعرِضُ لِتستقرّ وتتحقَّق. فانظرْ في أي قانونٍ مِن القوانين، وفي أيَّة أمَّةٍ من الأمم، تجدُ ثلاثينَ يوماً من كلِّ سنةٍ قد فُرِضَتْ فرضاً لِتربية إرادة الشعبِ ومزاولتِه فكرةً نفسيَّةً واحدةً بخصائصِها ومُلابساتِها حتى تستقرَّ وترسخَ وتعودَ جزءاً من عملِ الإنسان، لا خيالاً يمرُّ برأسِه مَرًّا.

أليَستْ هذه هي إتاحةَ الفرصة العمليَّة التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة؟ وهل تبلغُ الإرادةُ فيما تبلغ، أعلى من منزلتِها حينَ تجعلُ شهواتِ المرءِ مُذْعِنةً لِفكرِهِ، مُنقادةً لِلوازعِ النفسيّ فيه، مُصَرَّفَةً بِالحسِّ الدينيِّ المسيطِرِ على النفسِ ومشاعِرِها.

أمَا ـ والله ـ لو عمَّ هذا الصومُ الإسلاميُّ أهل الأرضِ جميعاً، لآل معناهُ أنْ يكونَ إجماعاً من الإنسانيَّة كلِّها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة، لِتطهيرِ العالم من رذائله وفسادِه، ومَحْقِ الأثَرَة والبخلِ فيه، وطَرْحِ المسألة النفسيَّة لِيتدَارسَها أهلُ الأرضِ دِراسةً عمليَّةً مدةَ هذا الشهرِ بطولهِ، فيَهبطُ كلُّ رجُلٍ وكلُّ امرأةٍ إلى أعماقِ نفسِه ومَكامِنِها، لِيختبرَ في مصنعِ فكرِه معنى الحاجة ومعنى الفقر، ولِيفهمَ في طبيعة جسمِه ـ لا في الكتب ـ معانيَ الصبرِ والثباتِ والإرادة، ولِيبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانيَّة والمواساة والإحسان؛ فيُحقِّقُ بهذه وتلك معانيَ الإخاءِ والحريَّة والمساواة.

شهرٌ هو أيامٌ قلبيَّةٌ في الزمن؛ متى أشرفَتْ على الدنيا قال الزمنُ لِأهلِه: هذه أيامٌ من أنفسِكم لا من أيامي، ومن طبيعتِكم لا من طبيعتي؛ فيُقْبِلُ العالمُ كلُّهُ على حالةٍ نفسيَّةٍ بالغة السموّ، يتعهَّدُ فيها النفسَ برياضتِها على معالي الأمورِ ومكارم الأخلاق، ويفهمُ الحياةَ على وجهٍ آخرَ غير وجهِها الكالح، ويراها كأنَّما أُجيعَتْ من طعامِها اليوميِّ كما جاعَ هو، وكأنَّما أُفرِغَتْ من خَسائِسِها وشهواتِها كما فَرَغَ هو، وكأنَّما أُلزِمَتْ معانيَ التقوى كما أُلزِمَها هو. وما أجمل وأبدعَ أنْ تَظهرَ الحياةُ

في العالَم كلِّه ـ ولو يوماً واحداً ـ حاملةً في يدِها السُّبْحة. . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كلِّ سنة؟

إنَّها ـ والله ـ طريقةٌ عمليةٌ لِرسوخ فكرة الخيرِ والحقِّ في النفس؛ وتطهيرِ الاجتماعِ من خسائسِ العقلِ الماديّ؛ وردٌّ هذه الطبيعة الحيوانيَّة المحكومة في ظاهرِها بالقوانين، والمحرَّرة من القوانين في باطنِها ـ إلى قانونٍ من باطنِها نفسِه يُطهِّرُ مَشَاعرَها، ويسمو بإحساسِها، ويَصْرِفُها إلى معاني إنسانيَّتِها، ويُهذِّبُ من زياداتِها، ويحذفُ كثيراً من فُضُولها، حتى يرجعَ بها إلى نحوٍ من بَراءة الطفولة، فيجعلها صافيةً مُشْرِقةً بِما يجتذبُ إليها من معاني الخيرِ والصفاءِ والإشراقِ؛ إذْ كان من عملِ الفكرة الثابتة في النفسِ أنْ تدعوَ إليها ما يُلائمُها ويتّصلُ بطبيعتِها من الفِكَرِ الأخرى. والنفسُ في هذا الشهرِ مُحْتَبَسَةٌ في فكرة الخيرِ وحدَها، فهي تبني بناءَها من ذلك ما استطاعَتْ.

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصلٌ نَفسانِيٌّ كفصولِ الطبيعة في دَوَرَانها؛ ولهُوَ ـ والله ـ أشبهُ بفصلِ الشتاءِ في حلوله على الدنيا بالجوِّ الذي من طبيعتِه السحُبُ والغَيث، ومن عملِه إمدادُ الحياة بوسائل لها ما بعدَها إلى آخرِ السنة، ومن رياضتِه أنْ يُكْسِبَها الصلابةَ والانكماشَ والخِفَّة، ومن غايتِه إعدادُ الطبيعة لِلتفتُّحِ عن جمالِ باطنِها في الربيعِ الذي يتلوه.

وعجيبٌ جدًّا أنَّ هذا الشهرَ الذي يَدَّخِرُ فيه الجسمُ من قُواهُ المعنويَّة فيُودِعُها مَصْرِفَ روحانيَّتِه، لِيجدَ منها عند الشدائدِ مَدَدَ الصبرِ والثباتِ والعزم والجَلدِ والخشونة ـ عجيبٌ جدًّا أنَّ هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيام السنة كفائدة $\frac{1}{3}$ ٨ في المائة. . . فكأنَّهُ يُسجِّلُ في أعصابِ المؤمن حسابَ قوَّتِه وربحِه فلهُ في كلِّ سنةٍ زيادة $\frac{1}{3}$ ٨ من قوّتِه المعنويَّة الرُّوحانيَّة.

وسِحْرُ العظائم في هذه الدنيا إنَّما يكون في الأمّة التي تعرفُ كيفَ تَدَّخرُ هذه القوّةَ وتُوفِّرُها لِتستمدّها عند الحاجة، وذلك هو سِرُّ أسلافِنا الأولينَ الذينَ كانوا يجدون على الفقرِ في دِمائِهم وأعصابِهم ما تجدُ الجيوشُ العظمى اليومَ في مخازن العَتَادِ والأسلحة والذخيرة.

* * *

كلُّ ما ذكرْتُهُ في هذا المقالِ من فلسفة الصوم؛ فإنَّما استخرجْتُهُ من هذه الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[البقرة: ١٨٣]. وقد فهمها العلماءُ جميعاً على أنَّها معنى «التقوى»، أمَّا أنا فأوَّلتُها من «الاتِّقاء»؛ فبالصوم يتَّقِي المرءُ على نفسِه أنْ يكونَ كالحيوان الذي شريعتُهُ مَعِدَتُه، وألّا يُعامِلَ الدنيا إلّا بموادِّ هذه الشريعة؛ ويتَّقِي المجتمعُ على إنسانيَّتِه وطبيعتِه مثل ذلك، فلا يكون إنسانٌ مَعَ إنسانٍ كحمارٍ مع إنسانٍ: يبيعُهُ القوَّةَ كلَّها بالقليل من العَلَف.

وبالصوم يتَّقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفَه، فإنَّ ما بين يديه هو الحاضرُ من طباعِه وأخلاقِهِ، وما خَلْفَهُ هوَ الجِيلُ الذي سَيرِثُ من هذه الطبّاعِ والأخلاق، فيعملُ بنفسِه في الحاضر، ويعملُ بِالحاضرِ في الآتي[1].

وكلُّ ما شرحْنَاهُ فهو اتقاءُ ضررٍ لِجلْبِ منفعة، واتقاءُ رذيلةٍ لِجلبِ فضيلة؛ وبهذا التأويلِ تتوجَّهُ الآيةُ الكريمةُ جهةَ فلسفيَّةً عاليَّةً، لا يأتي البيانُ ولا العِلْمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ ولا أكمل من لفظِها؛ ويتوجَّهُ الصيامُ على أنَّهُ شريعةٌ اجتماعيَّةٌ إنسانيَّةٌ عامَّة؛ يتَّقي بها الاجتماعُ شرورَ نفسِه؛ ولنْ يتهذَّبَ العالمُ إلَّا إذا كان له مَعَ القوانين النافذة هذا القانونُ العامُّ الذي اسمُهُ الصومُ، ومعناه «قانونُ البطن». . . .

ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضان! لو عَرَفَكَ العالمُ حقَّ معرفتِكَ لسَمَّاكَ: «مدرسة الثلاثين يوماً».

---

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة (يس): ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون. . .﴾ ويشير إلى هذا التأويل قول النبي (ﷺ): «إنما الصوم جنة (بضم الجيم) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، وإني صائم».
الجنة الوقاية يتقي بها الإنسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقي شر حيوانيته وحواسه، فقوله: «إني صائم، إني صائم»؛ أي إنني غائب عن الفحش والجهل والشر؛ إني في نفسي ولست في حيوانيتي.

ثباتُ الأخلاق

لو أنّني سُئلْتُ أنْ أجمِل فلسفةَ الدين الإسلاميّ كلَّها في لفظين، لقلْتُ: إنَّها ثباتُ الأخلاقِ «ولو سُئل أكبرُ فلاسفة الدنيا أنْ يُوجِزَ علاجَ الإنسانيَّة كلَّهُ في حرفين، لمَا زاد على القول: إنَّهُ ثباتُ الأخلاق. ولوِ اجتمع كلُّ علماءِ أوروبا لِيدرسوا المدنيةَ الأوروبيَّةَ ويَحصُرُوا ما يُعْوِزُها في كلمتين لقالوا: ثباتُ الأخلاق.

فليس ينتظرُ العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مُصلحينَ ولا علماءَ يُبدعونَ له بِدْعاً جديداً؛ وإنَّما هو يترقَّبُ مَنْ يستطيعُ أنْ يفسرَ له الإسلامَ هذا التفسير، ويُثبِتَ لِلدنيا أنَّ كلَّ العِباداتِ الإسلاميَّة هي وسائلُ عمليَّةٌ تمنعُ الأخلاقَ الإنسانيَّةَ أنْ تتبدَّل في الحيّ فيخلعَ منها ويَلبَسَ، إذا تبدلتْ أحوالُ الحياة فصعِدَتْ بإنسانِها أو نزلت؛ وأنَّ الإسلامَ يأبَى على كلِّ مسلم أنْ يكونَ إنسانَ حالتِهِ التي هو فيها من الثروة أو العُلُوم، ومنَ الارتفاعِ أوِ الضَّعَة، ومن خمولِ المنزلة أو نبَاهتِها؛ ويُوجِبُ على كلِّ مسلم أنْ يَكون إنسانَ الدرجة التي انتهى إليها الكونُ في سموِّه وكمالِه، وفي تقلُّبِه على مَنَازلِه بعدَ أنْ صُفِّيَ في شريعةٍ بعدَ شريعة، وتجربةٍ بعدَ تجربة، وعِلْم بعدَ عِلْم.

انتَهتِ المدنيَّةُ إلى تبدُّلِ الأخلاقِ بتبدُّلِ أحوالِ الحياة، فمَنْ كان تقيًّا على الفقرِ والأملاقِ وحَرَمَهُ الإعسارُ فُنونَ اللذة، ثُمَّ أيسرَ من بعدُ؛ جازَ له أنْ يكونَ فاجراً على الغِنَى وأنْ يتسمَّحَ لُفجورِه على مَدِّ ما يتطوَّحُ به المال، وإنْ أصبَحَ في كلِّ دينارٍ من مالِه شقاءُ نفسٍ إنسانيَّةٍ أو فسادُها.

ومَنْ وُلِدَ في بطن كُوخ، أو على ظَهرِ الطريق، وجبَ أنْ يبقى أرضاً إنسانيَّة؛ كأنَّ الله (سبحانَهُ) لم يَبْنِ من عظامِه ولحمِه وأعصابِه إلّا خَرِبةً آدميةً من غير هندسةٍ ولا نظام ولا فنّ... ثُمَّ يُقابلُهُ مَن وُلِدَ في القصرِ أو شبه القصرِ فلهُ حكمٌ آخر، كأنَّ الله (سبحانَه) قد ركَّبَ من عظمِه ودمِه وتكوينِه آيةً هندسيةً وأعجوبةَ فنّ، وطُرْفَةَ تدبير، وشيئاً مع شيء، وطبقةً على طبقة.

ولكنَّ الإسلامَ يُقرِّرُ ثَباتَ الخُلُقِ ويُوجبُهُ ويُنشىءُ النفسَ عليه، ويجعلُهُ في حِياطة المجتمعِ وحِراستِه، لأنَّ هناك حدوداً في الإنسانيَّة تتميزُ بحدودٍ في الحياة،

ولا بدَّ من الضبطِ في هذه وهذه، حتى لا يكونَ وَضعٌ إلّا وراءَهُ تقدير، ولا تقديرٌ إلّا معه حِكمة، ولا حِكمةٌ إلّا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلوَ الحياةُ ولا تنزل إلا بمثلِ ما ترى من كِفّتَيْ ميزانٍ شُدَّتا في عَلاقةٍ تجمعُها وتحرّكُهما معاً، فهي بذاتِها هي التي تنزلُ بالنازلِ لتَدُلَّ عليه، وتَشِيلُ بالعالي لِتبين عنه؛ فالإسلامُ من المدنيَّة هو مدنيَّةُ هذه المدنيَّة.

* * *

إنَّها لنْ تتغيرَ مادةُ العظم واللحم والدم في الإنسان فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه، ولنْ تتبدل السُّنَنُ الإلهيةُ التي تُوجدُها وتُفنيها فهي مُصرِّفةٌ لها قاضيةٌ عليها، وبين عملِ هذه المادة وعملِ قانونِها، فيها تكونُ أسرارُ التكوين: وفي هذه الأسرارِ تجدُ تاريخَ الإنسانيَّة كلَّه سابحاً في الدم.

هي الغرائزُ تعملُ في الإنسانيَّة عمَلها الإلهي، وهي محدَّدةٌ محكمَةٌ على ما يكون من تَعاديها واختلاف بينِها، وكأنها خُلِقَتْ بمجموعِها لِمجموعِها؛ ومن ثَمَّ يكون الخُلُق الصحيحُ في معناهُ قانوناً إلهيًّا على قوةٍ كقوة الكوْن وضبطٍ كضبطِه.

وبهذِه القوة وهذا الضبطِ يستطيعُ الخُلُق أنْ يحوِّل المادةَ التي تُعارضُهُ إذا هوَ اشتدَّ وصَلُب، ولكنَّهُ يتحوَّلُ معها إذا هو لَانَ أو ضعُف. فهو قَدَرٌ إلّا أنَّهُ في طاعتِك، إذْ هو قوةُ الفصْل بين إنسانيتكِ وحيوانيتِك، كما أنَّهُ قوةُ المَزْجِ بينَهما، كما أنَّهُ قوةُ التعديلِ فيهما، وقد سَوَّغَ القُدرة على هذه الأحوالِ جميعاً، ولولا أنَّهُ بهذه المثَابة لعاشَ الإنسانُ طول التاريخِ قبل التاريخ، إذْ لن يكونَ له حينئذٍ كَوْنٌ تؤرِّخُ فضائلَهُ أو رذائلَهُ بمدحٍ أو ذَمّ.

فلا عِبرةَ بمظْهرِ الحياة في الفرد، إذِ الفردُ مقيدٌ في ذاتِ نفسِه بمجموعٍ هو لِلمجموعِ وليس له وحدَه: فإنَّك ترى الغرائزَ دائبةً في إيجادِ هذا الفردِ لِنوعِه بسُننٍ من أعمالِها، ودائبةً كذلك في إهلاكِه في النوعِ نفسِه بسُننٍ أخرى؛ فليس قانونُ الفردِ إلّا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يُمكنُ أنْ يتحوَّل الفردُ على أسبابٍ مختلفة، ثم تبقى الأخلاقُ التي بينَهُ وبين المجموعِ ثابتةً على صورتِها.

فالأخلاقُ على أنَّها في الأفراد، هي في حقيقتِها حُكْمُ المجتمعِ على أفرادِه؛ فقِوامُها بالاعتبارِ الاجتماعيِّ لا غير.

* * *

وحينَ يقعُ الفسادُ في المُجْمَعِ عليه من آدابِ الناسِ، ويلْتوي ما كان

مستقيماً، وتَشْتَبِهُ العاليةُ والسافِلة، وتُطَّرَحُ المبالاةُ بِالضمير الاجتماعيّ، ويقومُ وزنُ الحكم في اجتماعِهِم على القبيحِ والمنكَر، وتجري العِبْرَةُ فيما يعتبرونَهُ بالرذائلِ والمحرَّمات، ولا يُعجِبُ الناسَ إلّا ما يُفسِدُهُم، ويقعُ ذلك منهم بموقعِ القانون ويَحِلُّ في محلِّ العادة؛ فهناك لا مِساكَ لِلخُلُقِ السليم على فرد، ولا بدَّ من تحوُّلِ الفردِ في حقيقتِهِ؛ إذْ كان لا يجيءُ أبداً إلّا مُتَصَدِّعاً في كلِّ مظاهرِه الاجتماعيَّة، فأينما وقعَ من أعمالِ الناسِ جاءَ مكسوراً أو مثلوماً، وكأنَّهُ منتقِلٌ من عالمٍ إلى عالمٍ ثانٍ بغير نواميسِ الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدة إلّا الأنبياءُ وأفرادٌ من الحكماء؛ فأمَّا أولئك فهم قوةُ التحويلِ في تاريخِ الإنسانيَّة: لا يُبعَثُ أحدُهم إلا لِيهَيجَ به الهَيْجُ في التاريخ، ويتطرَّقَ به الناسُ إلى سُبُلٍ جديدةٍ كأنَّما تطردُهُم إليها العواصفُ والزلازلُ والبراكينُ، لا شريعتُهُ ومبادئُهُ وآدابُه؛ وأمَّا الحُكماءُ الناضجونَ فهُم دائماً في هذه الإنسانيَّة أمكنةٌ بشريَّةٌ مُحَصَّنةٌ لِحفظِ كنوزِها وإحرازِها في أنفسِهِم، فلهم في ذاتِ أنفسِهم عِصْمةٌ ومَنَعَةٌ كالجبالِ في ذاتِ الأرض.

* * *

الأخلاقُ في رأيي هي الطريقةُ لِتنظيم الشخصيَّة الفَردَة على مقتضى الواجباتِ العامّة، فالإصلاحُ فيها إنّما يكون من عملِ هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمعِ والقائمينَ على حُكمِه. وعندي أنَّ للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطِنُهُ هو الدينُ الذي يَحكم الفردَ، وظاهِرُهُ هو القانونُ الذي يحكمُ الجميع، ولن يصلُحَ لِلباطن المتصلِ بالغيبِ إلَّا ذلك الحكمُ الدينيُّ المتصِلُ بِالغيبِ مثله؛ ومن هنا تتبيَّنُ مواضعُ الاخْتِلَالِ في المَدنيَّة الأوروبيَّة الجديدة؛ فهي في ظاهرِ الشعبِ دونَ باطنِه، والفردُ فاسِدٌ بها في ذاتِ نفسِه إذا هو تحلَّل من الدين، ولكنَّهُ مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهرِه الاجتماعيِّ بالقوانين وبالآدابِ العامة التي تفرضُها القوانين، فلا يبرحُ هازئاً من الأخلاقِ ساخراً بها؛ لأنَّها غيرُ ثابتةٍ فيه، ثُمَّ لا تكونُ عندَهُ أخلاقاً يَعتَدُّ بها إلّا إذا درَّت بها منافعُه، وإلَّا فهي ضارَّةٌ إذا كانَتْ منها مَضَرَّة، وهي مؤلمةٌ إذا حالتْ دونَ اللذات. ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحولُ لأنَّهُ مطلقٌ في باطنِه غيرُ مقيَّدٍ إلَّا بأهوائِه ونزعاتِه، وكلمَتَا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواءِ والنزَعات؛ إذِ الغايةُ المتاعُ واللذةُ والنجاحُ، ولْيكُنْ السببُ ما هو كائن. . .

وبهذا فلنْ تقومَ القوانينُ في أوروبا إذا فَنِيَ المؤمنونَ بالأديان فيها أو كاثَرهُمُ الملحدون، وهُمُ اليومَ يُبصرونَ بأعينِهم ما فعلتْ عقليةُ الحربِ العظمى في طوائفَ

منهم قد خَرِبَتْ أنفُسُهم من إيمانِهم فتحولوا ذلك التحوُّل الذي أومأنا إليه، فإذا أعصابُهم بعدَ الحربِ ما تزالُ محاربةً مقاتلةً ترمي في كلِّ شيءٍ برُوحِ الدم والأشلاءِ والقبورِ والتعفُّن والبِلى. . . وانتَهتِ الحربُ بين أممٍ وأمم، ولكنها بدأتْ بين أخلاقٍ وأخلاقٍ.

وقديماً حاربَ المسلمون، وفتحوا العالم، ودوَّخوا الأمم؛ فأثبتوا في كلِّ أرضٍ هَدْيَ دينِهم وقوةَ أخلاقِهِمُ الثابتة، وكان من وراءِ أنفسِهم في الحربِ ما هو من ورائِها في السِّلم، وذلك بثباتِ باطنِهم الذي لا يتحوّل، ولا تستخفُّهُ الحياةُ بنزَقِها، ولا تتسفَّهُهُ المدنيَّاتُ فتحملُهُ على الطيش.

ولو كانوا هُمْ أهل هذه الحربِ الأخيرة بكلِّ ما قَذَفَتْ به الدنيا. لبقيَتْ لهمُ العقليةُ المؤمنةُ القويَّة، لأنَّ كلَّ مسلم فإنَّما هو وعقليتُهُ في سلطان باطنِه الثابتِ القارِّ على حدودٍ بيِّنةٍ مُحصَّلةٍ مقسومَةٍ، تحوطُها وتُمسكُها أعمالُ الإيمان التي أحكمَها الإسلامُ أشدَّ إحكام بفَرْضِها على النفوسِ منوَّعةً مكررةً: كالصلاة والصوم والزكاة، لِيمنعَ بها تغيُّراً ويُحدِثَ بها تغيُّراً آخر، ويجعلها كالحارسة لِلإرادة ما تزالُ تمرُّ بها وتتعهدُها بين الساعة والساعة[1].

إنَّما الظاهرُ والباطنُ كالموجِ والساحل؛ فإذا جُنَّ الموجُ فلنْ يَضِيرَهُ ما بقيَ الساحلُ ركيناً هادئاً مشدُوداً بأعْضَادِه في طبقاتِ الأرض. أمَّا إذا ماجَ الساحل. . . فذلك أسلوبٌ آخرُ غيرُ أسلوبِ البحارِ والأعاصير؛ ولا جَرَمَ ألَّا يكونَ إلَّا خَسْفاً بالأرضِ والماءِ وما يتَّصلُ بهما.

* * *

في الكون أصلٌ لا يتغيرُ ولا يتبدَّل، هو قانونُ ضبطِ القوَّة وتصريفِها وتوجيهِها على مُقتضى الحِكْمة. ويُقابلُهُ في الإنسان قانونٌ مثلُهُ لا بدَّ منه لِضبطِ معاني الإنسانِ وتصريفِها وتوجيهِها على مُقتضى الكمال. وكلُّ فروضِ الدين الإسلاميِّ وواجباتُهُ وآدابُه، إنْ هي إلَّا حركةُ هذا القانون في عملِه؛ فما تلك إلَّا طُرُقٌ ثابتةٌ لِخَلْقِ الحِسِّ الأدبيِّ، وتثبيتِه بِالتكرار، وإدخالِه في ناموسٍ طبيعيٍّ بإجرائِه في الأنفُسِ مَجرى العادة، وجعلِه بكلِّ ذلك قوةً في باطنِها، فتُسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضاً دينيَّةً؛ وما هي في الواقعِ إلَّا عناصرُ تكوينِ النفسِ العالية، وتكونُ أوامرَ وهي حقائق[2].

---

(١) فصلنا هذا المعنى في كثير من مقالاتنا: كمقالة (حقيقة المسلم)، و(فلسفة الصوم) وغيرها.

(٢) هذا هو الذي ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه، ومن قلدوه، ومن انخدعوا فيه، ولو =

ومن ذلك أرانا نحنُ الشرقيينَ ـ نمتازُ على الأوروبيينَ بأنّنا أقربُ منهم إلى قوانين الكون؛ ففي أنفسِنا ضوابطُ قويّةٌ متينةٌ إذا نحنُ أقرَرْنا مدنيَّتِهِمْ فيها ـ وهي بطبيعتِها لا تقبلُ إلّا محاسنَ هذه المدنية ـ سبقناهم وتركْنا غبارَ أقدامنا في وجوهِهم، وكنّا الطبقةَ المُصَفّاةَ التي يَنْشُدونَها في إنسانيتِهِمُ الراهنة ولا يجدونَها، ونمتازُ عنهم من جِهةٍ أخرى بأنّنا لم نُنْشِئ هذه المدنيَّةَ ولم تُنشِئْنا، فليس حقًّا علينا أنْ نأخذَ سيئاتِها في حسناتِها، وحماقَتها في حِكمتِها، وتزويرَها في حقيقتِها؛ وأنْ نُسِيغَ منها الحُلوةَ والمُرَّة، والناضجةَ والفجّة؛ وإنّما نحن نُحَصِّلُها ونقتبسُها ونَرتَجِعُ منها الرَّجْعَةَ الحسنةَ؛ فلا نأخذُ إلّا الشيءَ الصالحَ مكان الشيءِ قدْ كان دونَهُ عندَنا ونَدَعُ ما سوى ذلك؛ ثُمَّ لا نأخذُ ولا نَدَعُ إلّا على الأصولِ الضابطة المحكمة في أديانِنا وآدابِنا؛ ولسْنا مثلهُم متصلينَ من حاضرِ مدنيتِهِم بمثلِ ماضيهم، بيَدَ أنَّ العجَبَ الذي ما يفرغُ عَجبي منه، أنَّ الموسومِيْنَ مِنّا بالتجديدِ لا يُحاولونَ أول وَهْلةٍ وآخرَها إلّا هدمَ تلك الضوابطِ التي هي كلُّ ما نمتازُ به، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاجُ إليه أوروبا لِضبطِ مدنيتِها؛ ويسمون ذلك تجديداً، ولهُوَ بِأنْ يسمَّى حماقةً وجَهْلاً أولى وأحقّ.

أقولُ ولا أبالي: إنّنا ابتُلِينا في نهضتِنا هذه بقوم منَ المترجمينَ قدِ احترفوا النقل من لغاتِ أوروبا، ولا عقل إلّا عقلُ ما ينقلونَه: فصَنَعَتْهُمْ الترجمةُ من حيث يدرونَ أو لا يدرونَ صنعةَ تقليدٍ مَحْضٍ ومُتَابَعةٍ مُستعبَدة، وأصبحَ عقلُهم ـ بحكم العادة والطبيعة ـ إذا فكَّر انجذَبَ إلى ذلك الأصلِ لا يخرجُ عليه ولا يتحوَّلُ عنه. وإذا صحَّ أنَّ أعمالنا هي التي تَعملُنا ـ كما يقولُ بعضُ الحُكماءِ ـ فهم بذلك خطَرٌ أيُّ خطرٍ على الشعبِ وقوميتِه وذاتيتِه وخصائصِه، ويُوشِكُ إذا هو أطاعَهم إلى كلِّ ما يدعُون إليه أنْ. . . أنْ يترجمُوه إلى شعبِ آخر. . .

* * *

إنَّ أوروبا ومدنيَّتَها لا تُساوِي عندَنا شيئاً إلّا بمِقدارِ ما تُحقِّقَ فينا من اتساعِ الذاتيَّة بعلومِها وفنونِها، فإنَّما الذاتيَّةُ وحدَها هي أساسُ قوّتِنا في النزاع العالميِّ بكلِّ مظاهرِه أيّها كان؛ ولها وحدَها، وباعتبارِ منها دونَ سواها، نأخذُ ما نَأخذُهُ من مدنيَّة أوروبا ونُهمل ما نُهمل؛ ولا يجوزُ أنْ نتركَ الثبتَ في هذا ولا أنْ نتسامَحَ في دقة المحاسبَة عليه.

= فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسلامي كله، ولكن الرجل غريب عن هذه المعاني قصير النظر، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة. . . !

فالمحافظةُ على الضوابطِ الإنسانيَّة القويَّة التي هي مظاهرُ الأديان فينا، ثُمَّ إدخالُ الواجباتِ الاجتماعيَّة الحديثة في هذه الضوابطِ لِربطِها بالعصرِ وحضارتِه، ثُمَّ تنسيقُ مظهرِ الأمَّة على مُقتضى هذه الواجباتِ والضوابط، ثُمَّ العملُ على اتحادِ المشاعرِ وتمازُجِها لِتقويم هذا المظهرِ الشعبيِّ في جملتِه بتقويم أجزائِه ـ هذه هي الأركانُ الأربعةُ التي لا يقومُ على غيرِها بناءُ الشرق.

والإلحادُ والنزَعاتُ السافلةُ وتخانيثُ المدنيَّة الأوروبيَّة التي لا عمل لها إلَّا أنْ تُظْهِرَ الخَطَرَ في أجملِ أشكالِه. . . ثُمَّ الجهلُ بعلوم القوَّة الحديثة وبأصولِ التدبيرِ وحِياطة الاجتماعِ وما جرى هذا المجرى، ثُمَّ التدليسُ على الأمَّة بآراءِ المُقلِّدينَ والزائفينَ والمستعمرينَ لِمحْقِ الأخلاقِ الشعبيَّة القويَّة وما اتَّصل بذلك، ثُمَّ التخاذلُ والشِّقاقُ وتدابُرُ الطوائف وما كان بسبيلِها ـ تلك هي المَعاوِلُ الأربعةُ التي لا يَهدمُ غيرُها بناءَ الشرق.

فلْيكُنْ دائماً شعارُنا ـ نحن الشرقيينَ ـ هذه الكلمة: أخلاقُنا قبل مدنيَّتِهم.

قُلْتُ لِنفسي
وقالتْ لي...(1)

قُلْتُ لِنفسي: ويحكِ يا نفسُ! ما لي أتحامَلُ عليكِ؛ فإذا وفَيْت بما في وُسْعِكِ أردْتُ منكِ ما فوقَهُ وكلَّفتُكِ أنْ تَسعِي؛ فلا أزالُ أعْنِتُك من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعدَ الحَسَن فيما هو الأحسن؛ وما أنفكُّ أجْهِدُكِ كلَّما راجَعَكِ النشاط، وأضنيكِ كلَّما ثابَتِ القوّة؛ فإن تكُنْ لك هُمومٌ فأنا أكبَرُها، وإذا ساوَرَتْكِ الأحزانُ فأكثرُها مِمَّا أجلِبُ عليك.

أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النَّهْج، وأنا أعتَسِفُ بكِ أريدُ الطيرَانَ لا السَّير، وأبتغي عمل الأعمارِ في عُمْر، وأسْتَحِثُّكِ من كلِّ هَجْعَة راحة بفجرِ تعبٍ جديد، وكأنِّي لكِ زَمنٌ يُمادُّ بعضُهُ بعضاً، فما يبرحُ يَنْبَثِقُ عليكِ من ظلام بنورٍ ومن نورٍ بظلام؛ لِيُهَيِّىءَ لكِ القوَّةَ التي تمتدُّ بكِ في التاريخِ من بَعدُ، فتذهبين حينَ تذهبين ويعيشُ قلبُكِ في العالم سارياً بكلماتِ أفراحِه وأحزانِه.

وقالتْ لِيَ النفس: أمَّا أنا فإنِّي معك دَأباً كالحبيبة الوفيَّة لِمَن تُحبُّهُ: ترى خضوعَها أحياناً هو أحسنَ المقاومَة؛ وأمَّا أنتَ فإذا لم تكنْ تتعبُ ولا تزالُ تتعبُ فكيفَ تُرِيني أنَّكَ تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدّم؟

ليسَتْ دُنياكَ يا صاحبي ما تجدُهُ من غيرِك، بل ما تُوجِدُهُ بنفسِك؛ فإنْ لم تَزِدْ شيئاً على الدنيا كنْتَ أنتَ زائداً على الدنيا؛ وإنْ لم تَدَعْها أحسنَ مِمَّا وجدْتَها فقد وجدْتَها وما وَجَدَتْك؛ وفي نفسِكَ أولُ حدودِ دُنياكَ وآخِرُ حدودِها. وقد تكونُ دنيا بعضِ الناس حانوتاً صغيراً، ودُنيا الآخَرِ كالقَرْية المُلَمْلَمَة(2)، ودنيا بعضِهِم كالمدينة

---

(1) كتبت في ساعة ضجر، من هذه الساعات الطارئة على الروح، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده والعالم كله وحده؛ ذاك في وجود نفسه خاصة، والآخر في وجود الطبيعة كلها.

(2) أي الصغيرة تقوم بالدور القليلة المجتمعة.

الكبيرة؛ أمَّا دنيا العظيم فقارَّةٌ بأكملِها، وإذا انفردَ امتدَّ في الدنيا فكان هوَ الدنيا.

والقوّةُ يا صاحبي تغتذي بالتَعبِ والمُعاناة؛ فما عانيتَهُ اليومَ حركةً من جسمِك، ألفَيْتَهُ غداً في جسمِكَ قوَّةً من قُوَى اللحم والدم. وساعةُ الراحة بعدَ أيام من التعب، هي في لذَّتِها كأيام من الراحة بعدَ تعبِ ساعة. وما أشبهَ الحيَّ في هذِهِ الدنيا ووَشْكِ انقطاعِه منها، بمَنْ خُلِقَ لِيعيشَ ثلاثةَ أيام معدودةً عليه ساعتُها ودقائقُها وثوانيها؛ أفتَراه يَغفُلُ فيُقَدِّرُها ثلاثةَ أعوام، ويذهبُ يُسرِفُ فيها ضُرُوباً من لهْوِه ولَعِبِه ومُجونِه، إلَّا إذا كان أحمقَ أحمقَ إلى نهاية الحُمْق؟

اتعَبْ تعبَكَ يا صاحبي، ففي الناسِ تَعَبٌ مخلوقٌ من عملِه، فهو ليِّنٌ هيِّنٌ مُسَوَّى تسويةً؛ وفيهم تَعَبٌ خالقٌ عمله، فهو جبَّارٌ متمرِّدٌ لَهُ القَهرُ والغَلبة. وأنتَ إنَّما تكدُّ لِتسموَ بروحِكَ إلى هموم الحقيقة العالية، وتسموَ بجسمِكَ إلى مشقاتِ الرُّوحِ العظيمة؛ فذلك يا صاحبي ليس تعباً في حَفْرِ الأرض، ولكنَّهُ تعبٌ في حَفرِ الكنز.

اتعبْ يا صاحبي تعبَكَ؛ فإنَّ عَناءَ الروحِ هو عُمْرُها؛ فأعمالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحانيُّ، كعُمرِ الجسم لِلجسم؛ وأحدُ هذين عُمْرُ ما يعيش، والآخرُ عُمْرُ ما سيعيش.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فقد مللْتُ أشياءَ وتبرَّمْتُ بأشياء. وإنَّ عَمَلَ التغييرِ في الدنيا لهُوَ هَدْمٌ لها كلَّما بُنيَتْ، ثم بِناؤُها كلَّما هُدِمَتْ؛ فما من شيءٍ إلَّا هو قائمٌ في الساعة الواحدة بصورتين معاً؛ وكم من صديقٍ خلطْتُهُ بالنفسِ يذهبُ فيها ذَهابَ الماءِ في الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ، أو عَهْدٌ كاليوم، رأيْتُ في مكانِه إنساناً خياليًّا كمسألةٍ من مسائلِ النُّحاة فيها قَولان. . . ! فهو يَحتملُ في وقت واحدٍ تأويل ما أظنُّ به من خير، وما أتوقَّعُ به من شرّ! وكم مِن اسمٍ جميلٍ إذا هَجَسَ في خاطِري قلْتُ: آه، هذا الذي كان. . . !

أمَا ـ والله ـ إنَّ ثيابَ الناسِ لتجعلُهُم أكثرَ تشابُهاً في رأي النفس، مِمَّا تجعلُهُم وجوهُهمُ التي لا تختلفُ في رأي العين: وإنِّي لأرى العالم أحياناً كالقِطارِ السريعِ منطلِقاً برَكْبِه وليس فيه مَنْ يقودُه، وأرى الغفلةَ المُفْرِطةَ قد بلغَتْ من هذا الناسَ مبلغَ مَنْ يظنُّ أنَّهُ حيٌّ في الحياة كالموظَّف تحتَ التجربة، فإذا قَضى المدةَ قِيلَ له: اِبدأ من الآن. كأنَّهُ إذا عاشَ يتعلَّمُ الخيرَ والشرّ، ويُدركُ ما يَصْلُحُ وما لا يصلُح، وانتهى من عمرِه إلى النهاية المحدودة ـ رَجَعَ من بعدِها يعيشُ منتظِماً على استواءٍ واستقامة، وفي إدراكٍ وتمييز. مع أنَّ الخرافةَ نفسَها لم تقبلْ قطّ أنْ يُعَدَّ منها

في أوهام الحياة أنَّ رجلاً بلغَ الثمانينَ أوِ التسعينَ وحانَ أجَلُهُ فأصبحوا لم يجدُوه ميتاً في فِراشِه؛ بلْ وجدُوه مولوداً في فراشه. . . !

وقالتْ لِيَ النفسُ: وأنتْ ما شأنُكَ بالناسِ والعالم؟ يا هذا ليس لِمِصباحِ الطريقِ أنْ يقول: «إنَّ الطريقَ مظلم». إنَّما قولُهُ إذا أرادَ كلاماً أنْ يقولَ: «ها أنذا مُضيء».

والحكيمُ لا يَضْجَرُ ولا يَضيقُ ولا يَتَمَلْمَل، كما أنَّهُ لا يَسْخُفُ ولا يَطِيشُ ولا يَسْتَرْسِلُ في كَذِبِ الوهم؛ فإنَّ هذا كلّهُ أثرُ الحياة البهيميَّة في هذه البهيمة الإنسانيَّة، لا أثرُ الروحِ القويَّة في إنسانِها. والحيوانُ هو الذي يجوعُ ويشبعُ لا النفسُ. وبين كلِّ شَيئين ممَّا يَعْتَورُ الحيوانيَّةَ - كالخلوِّ والامتلاء، واللذة والألم - تعملُ قُوَى الحيوان أشياءَها الكثيرةَ التي تتسلَّطُ بها على النفس، لِتَحُطَّها من مرتبةٍ إلى أنْ تجعلها كنفوسِ الحيوان؛ ولهذا كان أولُ الحِكْمة ضَبطَ الأدواتِ الحيوانيَّة في الجسم، كما توضَعُ اليدُ العالِمةُ على مفاتيحِ القِطارِ المنطلِقِ يَتَسَعَّر مِرْجلُهُ ويغلِي.

اِعملْ يا صاحبي عملكَ؛ فإذا رأيْتَ في العاملينَ مَنْ يَضْجَرُ فلا تضجرْ مثله، بل خُذِ اطمئنانَهُ إلى اطمئنانِك، ودَعْهُ يخلو وتَضاعَفْ أنت.

إنّهُ لَيُوشِكُ أنْ يكونَ في الناسِ ناسٌ (كالبُنوك)؛ هذه مُسْتَوْدَعاتٌ لِلمالِ تحفظُهُ وتُخرِجُ منهُ وتُثَمِّرُه، وتلك مستودَعاتٌ لِلفضائلِ تحفظُها وتخرجُ منها وتَزيدُها. وإفلاسُ رجلٍ من أهلِ المال، هو إطلاقُ النكبة مُسَدَّسَها على رجلٍ تقتُلُه؛ ولكنَّ إفلاسَ (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبة مِدفَعَها الكبيرَ على مدينةٍ تُدَمِّرُها.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فما أشدَّ الألمَ في تحويلِ هذا الجسدِ إلى شِبْه رُوحٍ مع الروح! تلك هي المعجزةُ التي لا توجَدُ في غير الأنبياء، ولكنَّ العمل لها يَجعلُها كأنَّها موجودةٌ. والأسدُ المحبوسُ محبوسةٌ فيه قُوَّتُهُ وطِباعُه؛ فإنْ زال الوجودُ الحديديُّ من حولِه أو وَهَنَتْ ناحيةٌ منه، انطلَقَ الوحش. والرجلُ الفاضلُ فاضلٌ ما دامَ في قَفَصِه الفكريّ، وهو ما دامَ في هذا القفصِ فعليه أنْ يكونَ دائماً نَموذَجاً معروضاً لِلتنقيحِ الممكن في النفسِ الإنسانيَّة: تُصيبُهُ السيئةُ من الناس لِتختبرَ فيه الحسنة، وتبلُوَهُ الخِيانةُ لِتجدَ الوفاء، ويَكْرَثُهُ البُغضُ لِيقابلهُ بالحُبّ، وتأتيه اللعنةُ لِتجدَ المغفِرةَ؛ وله قلبٌ لا يتعبُ فيبلغُ منزلةً إلّا ابتدأ التعبَ لِيبلغَ منزلةً أعلى منها، وله فكرٌ كلَّما جَهدَ فأدركَ حقيقةً كانتِ الحقيقةُ أنْ يَجهدَ فيُدركَ غيرَها.

وقالتْ ليَ النفس: إنَّ مَنْ فاقَ الناسَ بنفسِه الكبيرة كانَتْ عَظَمتُهُ في أنْ يفوقَ

نفسَهُ الكبيرة؛ إنَّ الشيءَ النهائيَّ لا يُوجَدُ إلّا في الصغائِرِ والشرّ، أمّا الخيرُ والكمالُ وعظائمُ النفسِ والجمالُ الأسْنَى، فهذه حقائقُ أزليّةٌ وُجِدَتْ لِنفسِها: كالهواءِ يتنفَّسُهُ كلُّ الأحياءِ على هذه الأرضِ ولا ينتهي، ولا يُعْرَفُ أين ينتهي؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض يشبه أنْ تكونَ تلكَ الصفاتُ منبعثةً إلى النفوسِ من أنوارِ الملائكة، وبهذا كان أكبرُ الناسِ حظًّا منها هُمُ الأنبياءَ المتَّصلينَ بتلك الأنوار.

ومن رحمة الله أنْ جعل في كلِّ النفوسِ الإنسانيّة أصلاً صغيراً يجمعُ فِكرَةَ الخيرِ والكمالِ وعظائِم النفسِ والجمالِ الأسْنَى، وقد تَعظُمُ فيه هذه الصفاتُ كلُّها أو بعضُها، وقد تَصغُرُ فيه بعضُها أو كلُّها: ألَا وهو الحُبّ.

لا بدَّ أنْ تمرَّ كلُّ حياةٍ إنسانيَّةٍ في نوعٍ من أنواعِ الحُبِّ؛ من رِقَّة النفسِ ورحمتِها، إلى هوى النفسِ وعِشقِها.

وإذا بلغَ الحُبُّ أنْ يكونَ عِشقاً، وَضَعَ يَدهُ على المفاتيح العصبيَّة لِلنفس، وفتَحَ لِلعظائم والمعجزاتِ أبوابَها؛ حتى أنَّه ليجعلُ الخُرافةَ الفارغةَ معجزةً دقيقة، ويملأُ الحياةَ بمعانٍ لم تكنْ فيها من قبل، ويصبحُ سرُّ هذا الحُبِّ لا ينتهي؛ إذْ هو سرٌّ لا يُدْرَكُ ولا يُعرف.

اِجْهدْ جُهدَكَ يا صاحبي، فما هو قفَصُك الفكريُّ ذلك الشعاعُ الذي يحبسُك، ولكنَّهُ صَقْلُ النفسِ لِتتلقى الأنوار، ولا بُدّ لِلمرآة من ظاهرِ غير ظاهرِ الحجَرِ لِتكونَ به مرآة.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فما أشدَّهُ مضَضاً أعانيه! إنَّ أمري ليذهبُ فُرُطاً[1]. أكلَّما ابتغيْتُ من الحياة مَرحاً أطرَبُ له وأهتزّ، جاءتْني الحياةُ بفكرةٍ أستكِدُّ فيها وأدأب؟ أهذا السرورُ الذي لا يزالُ يقعُ بين الناسِ هو الذي لا يكادُ يقعُ لي؟ وهلْ أنا شجرةٌ في مَغْرِسِها: تنمو صاعدةً بفروعِها، ونازلةً بجذورِها، غيرَ أنَّها لا تبرحُ مكانَها؟ أو أنا تِمثالٌ على قاعدتِه: لا يتزحزحُ عنها إلّا ساعةَ لا يكون تِمثالاً، ولا يَدعُها حتى تَدعَهُ معاني العظمَة التي نُصِبَ لها؟

قالتْ لِيَ النفس: ويحك! لا تطلبْ في كونِكَ الصغير ما ليس فيه؛ إنَّ الناسَ لوِ ارتفعوا إلى السماءِ وتقلَّبوا فيها كما يَسيحُ أهلُ قارَّةٍ من الأرضِ في قارّةٍ غيرِها،

---

(١) أي مجاوزاً فيه عن الحد.

وابتغَوْا أنْ يحملوا معهم مِمَّا هناك تَذكاراً صغيراً إلى الأرض ـ لوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ من الأرضِ كلِّها؛ فأنت سائحٌ في سماوات.

أنت كالنائم: له أنْ يَرى وليس له أنْ يأخذَ شيئاً مِمَّا يرى إلَّا وَصْفَه، وحِكمتَه، والسرورَ بِمَا التذَّ منه، والألَمَ بِمَا توجَّعَ له.

لنْ تكونَ في الأرضِ شجرةٌ بِرجْلين تذهبُ هنا وهْهنا، ولكنَّ الشجرةَ تُرسلُ أثمارَها يتناقلُها الناس، وهي تُبدِعُ الثمارَ إبداعَ المؤلف العبقريِّ ما يُؤلفُهُ بأشدِّ الكدِّ وأعظم الجهْد، مُطْلِقَةً ضميرَها في الفكرة الصغيرة، تَعقِدُها شيئاً شيئاً، ثم تعودُ عليها بالزيادة، ولا تزالُ كلَّ وقت تعودُ عليها حتى تستفرغَ أقصى القوة؛ ثمَّ يكون سرورُها في أنْ تَهبَ فائدتَها، لأنَّها لذلك وُجِدَتْ.

إنَّ في الشجرة طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة؛ فالحياةُ فيها على حقيقتِها، وأكثرَ ما تكونُ الحياةُ في الإنسان على مَجازِها؛ وشرطُ المجازِ الخيالُ والمبالغةُ والتلوين؛ ولكنْ متى اختارَ الله رجلاً فأقَرَّ فيه سِرًّا من أسرارِ الطبيعة الصادقة، ووهبَ له العاطفةَ القادرةَ التي تَصنعُ ثِمارَها ـ فقد غَرَسَهُ شجرةً في مَنْبِتِها لا مفرَّ ولا مَنْدوحَة، وقد يُخَيِّلُ لهْ ضعفُ طبيعتِه البشريَّة أحياناً أنَّ نَضرةَ المجدِ التي تعلوه وتتألَّقُ كشعاع الكوكب، هي تَعبُهُ وضجَرُه، أو أثرُ انخذالِهِ وألمِه ومسكنَتِه؛ وهذا من شقاءِ العقلِ؛ فإنَّهُ دائماً يُضيفُ شيئاً إلى شيء، ويخْلِطُ معنًى بمعنى، ولا يتركُ حقيقةً على ما هي؛ كأنَّ فيه ما في الطفلِ من غريزة التقليد؛ والعقلُ لا يرى أمامَهُ إلَّا الإلهيَّة، فهو يُقلدُها في مُدَاخَلة الأشياءِ بعضِها في بعض، لإيجادِ الأسرارِ بعضِها من بعض.

ومن ثَمَّ كانَتِ الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مَدْعَاةً لِلملل العقليِّ في الإنسان، لا يكادُ يُقيمُ عليها أو يتقيَّدُ بها، فما نال شيئاً إلَّا لِيطمع في غيرِه، وما فازَ بلذَّةٍ إلَّا لِيزهَدَ فيها، وأجَلُّ ما أحبَّهُ الإنسانُ أنْ يناله، فإذا نالهُ وقعَ فيه معنى موتِه، وبَدَأَ في النفس عُمراً آخرَ من حالة أخرى، أو ماتَ ولم يَبْدَأ؛ فلا بدَّ لِهذا الإنسان مَعَ كلِّ صوابٍ من جزءٍ من الخطأ، فإنْ هو لم يجدْ خطأً في شيءٍ ائْتَفَكَ لِنفسِه[1] الخطأَ المضحكَ في شِبه روايةٍ خياليَّة.

إنَّهُ لشِعرٌ سخيفٌ بالغُ السخافة أنْ يُتَخيَّل الغريقُ مفكراً في صَيْدِ سمكةٍ

---

(١) كذب واخترع، ومنه حديث الإفك.

رآها. . . ولكنَّ هذا من أبلغ البلاغة عند العقلِ الذي يبحثُ عن وهم يُضيفُهُ إلى هذه الحقيقة لِيضحكَ منها، كما يبحثُ لِنفسِه أحياناً في أجملِ حقائقِ اللذة عن ألمٍ يتألَمُ به لِيَعْبَسَ فيه!

* * *

قلْتُ لِنفسي: فهلْ ينبغي لِي أنْ أحرِقَ دمي لِأنِّي أفكِّر، وهلْ أظلُّ دائماً بهذا التفكيرِ كالذي ينظرُ في وجه حسناءَ بمنظارٍ مكبر: لا يُريه ذلك الوجهَ المعشوقَ إلَّا ثُقوباً وتخريماً كأنَهُ خشبةٌ نُزعَتْ منها مساميرُ غليظة. . .! فلا يجدُ المسكينُ هذه الحقيقةَ إلَّا لِيفقدَ ذلك الجمال؟ وهلْ بُدٌّ منَ الشبه بين بعضِ الناسِ وبين ما ارْتَصَدَ له من عملٍ يحيا به؛ فلا يكون الحُوذيُّ حُوذيًّا إلَّا لِشَبَهٍ بين نفسِه وبين الخيلِ والبِغالِ والحمير. . .؟

وقالتْ ليَ النفس: إنَّ فأسَ الحطَّابِ لا تكونُ من أداة الطبيب؛ فخذْ لِكلِّ شيءٍ أداتَه، وكُنْ جاهلاً أحياناً، ولكنْ مثل الجهلِ الذي يَصْنَعُ لِوجه الطفلِ بشاشتَهُ الدائمة؛ فهذا الجهلُ هو أكبرُ عِلْم الشعورِ الدقيقِ المرهَف، ولولاه لهَلكَ الأنبياءُ والحكماءُ والشعراءُ غمًّا وكمَداً، ولكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بين هذه الحقائق ـ كالذي قُيِّدَ وحُبِسَ في رَهَجٍ تُثيرُهُ القَدَمُ والخُفُّ والحافر: لا يتنفَّسُ إلَّا الغبارَ يُثارُ من حولِه إلى أنْ يُقْضَى عليه.

اِجهلْ جهلك يا صاحبي في هذه الشهواتِ الخسيسة؛ فإنَّها العِلْمُ الخبيثُ الذي يُفسِدُ الروح، واعرفْ كيف تقولُ لِرُوحِكَ الطِّفْلة في ملائكيَّتِها حينَ تُساوِرُكَ الشهوات: هذا ليس لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إنَّ الروحَ الكبيرةَ هي في حقيقتِها الطفلُ الملائكيّ.

وعِلْمُ خسائسِ الحياة يجعلُ لِلإنسان في كلِّ خسيسةٍ نفساً تتعلَّقُ بها، فيكون المسكينُ بين نفسين وثلاثٍ وأربع، إلى ثلاثينَ وأربعينَ كلهُنَّ يتنازَعْنَه، فيضيعُ بهذِه الكثرة، ويُصبحُ بعضُهُ بلاءً على بعض، وتَشْغَلُهُ الفُضول، فيعودُ لها كالمزْبَلة لِمَا ألقيَ فيها، ويُمْحَقُ في نفسِه الطبيعيَّة حِسُّ الفرحِ بجمالِ الطبيعة، كما يُمْحَقُ في المزبلة معنى النظافة ومعنى الحِسِّ بها.

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الإنسان المنكود، هيَ الأرواحُ التي يَنْفُخُها في مصائبِه، فتجعلُها مصائبَ حيَّةً تعيشُ في وجودِه وتعملُ فيه أعمالها، ولولاها لماتَتْ في نفسِه مطامعُ كثيرة، فماتَتْ له مصائبُ كثيرة.

انظرْ بالروحِ الشاعرة، ترَ الكونَ كلَّهُ في سمائِه وأرضِه انسجاماً واحداً ليس فيه إلَّا الجمالُ والسحرُ وفِتنةُ الطَّرب، وانظرْ بالعقلِ العالمِ، فلنْ ترى في الكون كلِّه إلَّا موادَّ عِلْم الطبيعة والكيمياء.

ومَدَى الروحِ جمالُ الكون كلِّه؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حجَر، أو عظْمةٌ من حيوان، أو نَسِيجةٌ من نبات، أو فِلْذَةٌ من معدن، وما أشبَهها.

اِجْهلْ جهلك يا صاحبي؛ ففي كلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ بشرطِ ألّا تكونَ العاشقَ الطامع، وإلّا أصَبْتَ في كلِّ حسنٍ هَمًّا ومَشْغَلة....!

* * *

قلْتُ لِنفسي: إلى الآنَ لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذي كتمْتُهُ عنك.

وقالتْ لِيَ النفس: وإلى الآنَ لم أقلْ لكَ إلّا جوابَ ذلك الذي كتمتَهُ عنّي..

الانتحار(*)

(١)

حَدَّثَ المُسَيَّبُ بنُ رافعٍ الكوفيُّ قال: بينا أنا يوماً في مسجدِ الكوفة، ومعي سعيدُ بن عثمان، ومجاهد، وداودُ الأزديُّ وجماعةٌ ـ أقبل فتًى فجلسَ قريباً منَّا، وكان تلقاءَ وجهي؛ لا أمُدُّ نظري إلَّا انطلقَ في سَمْتِهِ ووقفَ عليه، وكنَّا نتحدَّثُ فرأيْتهُ يتسمَّعُ إلى حديثِنا؛ فلمَّا تكلَّمَ سعيدٌ ـ وكان خافتَ الصوتِ من عِلَّةٍ به، وكنَّا نُسميه النملةَ الصَّخَابة ـ رأيْتُ الفتى يتزحَّفُ قليلاً قليلاً حتى صارَ بحيثُ يقعُ في سَماعِه حَسِيسُ نَمْلتِنا.

وكان سعيدٌ يقول: اِجْتزْتُ أنا والشَّعبيُّ[1] أمسِ بعِمْرَانَ الخيَّاط، فمازَحَهُ الشيخُ فقال له: عندَنا حِبٌّ[2] مكسور، تَخيطُه؟ قال: نعم، إنْ كان عندَك خيطٌ من ريح! فقلْتُ أنا: فاذهبْ فجِئْنَا بالمِغْزَلِ الذي يغزِلُ الهواءَ لِنصنعَ لكَ الخيط.

قال مجاهد: هذا ليس بشيءٍ في تنادُرِ شيخِنا وما يتَّفِقُ له؛ أخبرَني أنَّ رجلاً جاءَهُ في مسألة، فدخل عليه البيتَ وهو جالسٌ مع امرأتِه؛ فقال الرجل: أيُّكما الشعبيّ...؟ فأومأ الشيخُ إلى امرأتِه وقال: هذه...!

قال المُسيَّب: وضحكْنَا جميعاً، وأخذَ نظري الغلامَ فإذا هو ناكِسٌ حزناً وهمًّا، وكأنَّهُ لا يتسمَّعُ إلينا لِيسمع، بلْ لِيشغل نفسَهُ عن شيءٍ فيها، فتتوزَّعَ خواطرُه، فيتبدَّدُ اجتماعُها على همِّه بصوت من هنا وصوت من هنا، كما يفعلُ

(*) انظر سبب إنشائه هذه المقالات الست في «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) هو الإمام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبي) توفي سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها. عن بضع وثمانين سنة، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الإسلام: سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج)، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة: بنته الصغيرة)، ومكحول في الشام، والشعبي هذا في الكوفة. وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه.

(٢) الحب (بكسر الحاء): هو الزبر، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً، ويقال لرشحه: قطر حب.

المحزونُ في مغالبة الحزن ومُدافَعتِه: يَشْغَلُ عنهُ بصرَهُ وقلبَهُ وسمعهُ جميعاً، فيكون الحزنُ فيه وكأنَّهُ بعيدٌ منه.

فقلْتُ في نفسي: أمرٌ أماتَ الضحِكَ في هذا الفتى وكسَرَ حِدّتَهُ وشبابَه. ثُمَّ تحوّلْتُ إليه وقلْتُ: رأيْتُكَ يا بُنيّ مقبلاً علينا كالمنصرِف عنّا؛ فما بالُكَ لم تضحك وقد ضحكْنا جميعاً؟

قال: إليك عني يا هذا؛ فأين مني الضَّحكُ وأنا على شفيرِ القبر، ورُوحُ الترابِ ماليءٌ عينيَّ في كلِّ ما أرى، وكأنَّ حُفرتي ابتلعتِ الدنيا التي أنا فيها لِتأخذَني فيها، وأنا الساعةَ ميتٌ حيٌّ؛ رِجْلٌ في الدنيا ورِجْلٌ في الآخرة!

قلْتُ: فأعلمْني ما بك يا بنيّ، فلقدِ احتسبْتُ ولداً لي كان في مثلِ سِنّك وشبابِك ولم أرزقْ غيرَه، فقلبي بعدَهُ مريضٌ به، يتوسمُهُ مُفرَّقاً في لِدَاتِهِ، مُتوهِّماً أنَّ وجوهَهُم تجمعُهُ بملامحِه؛ فأنا من ذلك أحبّهم جميعاً وأطيلُ النظرَ إليهم والتأمُّل في وجوهِهم، ولسْتُ أرى أحداً منهم إلّا كان له ولِقلبي حديث! فإنْ رأيْتُهُ حزيناً مثلك تقطَّعتْ له من إشفاقٍ ورحمة، وطالعَني فتايَ في مثلِ همِّه وحزنِه وانكسارِه؛ فيعودُ قلبي كالعين التي غشّاها الدمع، تحملُ أثرَ الحزن ومعناهُ وسرَّه؛ فبُثْني ما تجدُ يا بنيَّ، فلعلَّ لي سبباً إلى كَشف ضُرِّكَ أو إسعافِك بحاجتِك؛ ولعلّك تكونُ قد حزنْتَ من أمرٍ قريبِ المتناوَلِ هيِّن المحاوَلة، لم يجعلْه عندَكَ كبيراً أنَّهُ كبير، ولكنْ أنَّكَ أنت صغير.

قال الفتى: مهلاً يا عمّ، فإنَّ ما نزل بنا مِمَّا تنقطعُ عندَهُ الحِيلةُ ولا تَنْقَادُ فيه الوسائل، ولا علاجَ منه إلّا بالموتِ يأخُذنا ويأخُذه!

قلْتُ: يا بنيّ، هذه كلمةٌ ما أحسبُ أحداً يقولُها إلّا من أخِذَ لِلقتلِ بجنايتِه ولم يَعفُ أهلُ الدم، فهل جَنيْتَ أو جنى أبوك على أحد؟

قال: إن الأمرَ قريبٌ من قريب، فإنّي تركْتُ أبي الساعةَ مُجمِعاً على إزهاقِ نفسِه، وقدْ أغلقَ عليه الدار واستوثَقَ من الباب!

قال المسيَّب: فكأنَّما لدغتني حيةٌ بهذه الكلمة، وأكبرْتُ أنْ يكونَ رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسَه: فتناهَضْتُ، ولكنَّ الغلامَ أمسكَ بي وقال: إنَّهُ لا يزالُ حيًّا، وسيقتلُ نفسَهُ متى أظلمَ الليلُ وهَدَأتِ الرِّجل.

قلْتُ: الحمدُ لِلّه، إنَّ في النور عقلاً، ولكنْ ما الذي صارَ به إلى ما قلْت، وكيف تركْتَهُ لِقَدَرِه وجِئت؟

قال الفتى: إنَّهُ قال لي: يا ولدي، ليس لك أبٌ بعدي؛ فإنْ أردْتَ

اللحاقَ بي فارجعْ مع الليل لِنُسْلِمَ أنفسَنا، وإنْ آثرْتَ الحياةَ فارجِعْ مع الصبحِ لِتُسلِمَني إلى غاسلي!

قلْتُ: أفآمِنٌ أنت ألّا يكونَ أبوك قد أخرجَكَ عنه لأنَّ عينَكَ تُمْسِكُ يدَهُ وتردُّهُ عمَّا يَهُمُّ به، حتى إذا خلا وجهُهُ منك أزهقَ نفسَه؟

قال: لم أدَعْه حتى أقسمَ أنْ يحيا إلى الليل، وحتى أقسمْتُ أنْ أرجِعَ لِأموتَ معه؛ فإن لم تُمسكْهُ يمينُهُ أمسكَهُ انتظاري، وقد فرغَتِ الحياةُ منَّا فلم يبقَ إلّا أنْ نفرغَ منها؛ ومن كان فيما كنّا فيه ثم انحدَر إلى ما انحدرْنا إليه، لم يُرِ الناسَ من نفسِه ضَعةً ولا استكانَةً: وإنَّما خرجْتُ لِأسأل هذا الإمامَ (الشعبيّ) وجهاً من الرأي فيمَنْ يقتلُ نفسَهُ إذا ضاقَتْ عليه الدنيا، ونزلتْ به النازلاتُ، وتعذَّرَ القُوت، واشتدّ الضُرّ، وتَدَلَّتْ به المسكنةُ إلى حَضِيضِها، وأُلجِيءَ إلى أحوالٍ دَقَّتْهُ دَقَّ الرَّحَى لَمَّا تدورُ عليه، ولم يَعُدْ له إلّا رأيٌ واحدٌ في معنى الدنيا: هو أنَّهُ مكذوبٌ مَزوَّرٌ على الدنيا.

قلْتُ: يا بنيّ، فإنِّي أراكَ أديباً؛ فمَنْ أبوك؟

قال: هو فلانٌ التاجر، ظَهَرَ ظهورَ القمرِ ومُحِقَ محاقَه، وهو اليومَ في أخلكِ الليالي وأشدِّها انطماساً؛ جَهَدَهُ الفقر، ويا ليتَهُ كان الفقرَ وحدَه، بلِ انتهكَتْهُ العِلل، وليتَها لم تكنْ إلّا العِلل مع الفقر، بل أخذَ الموتُ امرأتَهُ فماتَتْ همًّا به وبي، ولم يكُنْ له غيري وغيرُها، وكان كلٌّ من ثلاثتِنا يحيا لِلاثنين الآخرين، فهذا ما كان يجعلُ كلّاً مِنّا لا يفرَغُ إلّا امتلاءً، ولمَّا ذهبَتِ الأمُّ ذهبَتِ الحقيقةُ التي كنّا نقاتلُ الأيامَ عنها، وكانَتْ هي وحدَها تُرينا الحياةَ بمعناها إنْ جاءتْنا الحياةُ فارغةً من المعنى، وكنَّا من أجلِها نفهمُ الأيامَ على أنَّها مجاهَدَةُ البقاء؛ أمَّا الآن فالحياةُ عندَنا قَتْلُ الحياة...!

قلْتُ: يا بنيَّ، فإنَّك ـ والله ـ مع أدبِك لحكيم، وإنِّي لأنْفَسُ بكَ على الموت، فكيفَ ردَّتْكَ حياةُ أمِّكَ عن قتلِ نفسِكَ ولا تردُّكَ حياةُ أبيك؟

قال: لو بقي أبي حيًّا لبقيْت، ولكنَّ الدهرَ قدِ انتزعَ منهُ آخرَ ما كان يملكُ من أسبابِ القوّة، حين أخَذَ القلبَ الشفيقَ الذي كان يجعلُهُ يرتعدُ إذا فكّرَ في الموت: فهو الآن كالذي يُحاربُ عن نفسِه تِلْقاءَ عدوٍّ لا يرحمُه؛ إنْ عجزَ عن عدوّه فالرأيُ قتلُ نفسِه لِيستريحَ من تنكيلِ العدوِّ به.

* * *

قال المسيَّب بنُ رافع: وأدركْتُ أنَّ الفتى يُريدُ من سؤال الشيخِ تَحلَّةً يطمئنُّ

إليها أنْ يموتَ مسلماً إذا قتل نفسَهُ كالمضطرّ أو المُكْرَه؛ فأشفقْتُ أنْ أكسِرَ نفسَهُ إذا أنا حدّثتُه أو أفتيْتُه؛ وقلْتُ: هذا مريضٌ يحتاجُ العلاجَ لا الفُتْيا؛ وكان إمامُنا (الشعبيُّ) حكيماً لحِناً فَطِناً، سَفَرَ بين أميرِ المؤمنينَ (عبد الملك) وعاهلِ الروم، فحسدَنا العاهلُ أنْ يكونَ فينا مثلُه. وقلْتُ: لعلَّ الله يُحدثُ به أمراً. فأخذْتُ بيدِ الفتى إليه، ومشيْتُ أكلمُهُ وأرفُهُ عن نفسِه. وقلْتُ له: أمَا تدري أنَّك حينَ فرغْتَ من سرورِ الحياة فرِغْتَ من غرورِها أيضاً، وأنَّ الزاهدَ المنقطعَ في عُرْعُرة الجبلِ ينظرُ من صَوْمَعتِه إلى الدنيا، ليس بأحكمَ ولا أبصرَ مِمَنْ ينظرُ من آلامِه إلى الدنيا؟

يا بنيّ: إنَّ الزاهدَ يحسبُ أنَّهُ قد فرَّ من الرذائلِ إلى فضائلِه، ولكنَّ فِرارَهُ من مجاهَدة الرذيلة هو في نفسِه رذيلةٌ لِكُلِّ فضائلِه. وماذا تكونُ العِفَّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاءُ والبرُّ والإحسانُ وغيرُها، إذا كانَتْ فيمَنْ انقطعَ في صحراءَ أو على رأسِ جبل؟ أيزعَمُ أحدٌ أنَّ الصدقَ فضيلةٌ في إنسانٍ ليس حولهُ إلّا عشرةُ أحجار؟ وايمُ الله إنَّ الخاليَ من مُجاهَدَة الرذائلِ جميعاً، لهُوَ الخالي منَ الفضائلِ جميعاً!

يا بنيّ: إنّ منَ الناسَ مَنْ يختارَهُمُ الله فيكونون قَمْحَ هذه الإنسانية: يَنْبتُون ويُحصَدون ويُطْحَنون ويُعجَنون ويُخْبزون، لِيكونوا غذاءَ الإنسانية في بعضِ فضائلها. وما أراكَ أنت وأباك إلّا من المُختارين، كأنَّ في أعراقِكما دمَ نبيٍّ يُقْتَلُ أو يُصْلب!

قال المسيَّب: وانتهيْنا إلى دارِ الشعبيّ، فطرقْتُ الباب، وجاءَ الشيخُ ففتحَ لنا، وسلّمْنا وسلّم، ثم بَدَرْتُ فقلْتُ: يا أبا عمرو، إنَّ أبا هذا كان من حالِه كيْت وكيتِ، فترادَفَتْ عليه المصائبُ، وتوالتِ النكباتُ، وتواترتِ الأسقام... ثُمَّ اقتصصْتُ ما قال ابنُهُ حرفاً حرفاً، ثُمَّ قلْتُ: وإنَّهُ الآنَ مُوشِكٌ أن يُزهِقَ نفسَهُ وسيتْبعُهُ ابنُهُ هذا؛ وقد (هداهُ الله إليك) فجاءَ يسألُك: أيموتُ مسلماً مَنْ ألجِيءَ وأكْرِهَ واضطُرّ واسْتَضَاقَ واختلّ، فتَحسَّى سُمًّا فهلكَ أو تَوجَّأ بحديدةٍ فَقَضى، أو ذَبَحَ نفسَهُ بنَصْلٍ فَخَفَتَ، أو حزّ في يدِه بسكينٍ فما رقأ دمُهُ حتى مات، أوِ اختنقَ في حبلٍ ففاضَتْ نفسُه، أو تَرَدّى من شاهقٍ فطاح...!

وأدركَ الشيخَ معنى قولي: (هداهُ الله إليك)، ومعنى ما أكثرْتُ من الألفاظِ المترادفة على القتلِ وما استقصيْتُ من وجوهِه؛ فعلِم أنّي لم أسألْهُ الفُتْيا والنَّصّ، ولكنّي سألْتُهُ الحِكمةَ والسياسة؛ فقال: هذا ـ والله ـ رجلٌ كريم، أخَذتْهُ الأنَفةُ وعِزّةُ النفس، وما أنا الساعةَ بمعْزَلٍ عن همِّه، فنذهبُ نكلِّمُهُ والله المستعان.

ومشَيْنا ثلاثتُنا، فلما شارَفْنا الدارَ قال الفتى: إنَّهُ لا يفتحُ لي إذا رآكما، وربّما

اسْتَفَزَّ بنفسِه فأزهَقَها، وسَأتَسَوَّرُ الحائطَ وأتدلَّى ثُمَّ أفتحُ لكما فتدخلان وأنا عندَه.

* * *

ودخلْنَا، فإذا رجلٌ كالمريضِ من غير مرض، خوَّارٌ مسلوبُ القوّة، انزعجَ قلبُهُ إلى الموتِ وما به جُرأة، وإلى الحياة وما به قوّة؛ وصَغَّرَ إليه نفسَهُ أنَّها أصبحَتْ في معاملة الناسِ كالدرهم الزائف لا يقبلهُ أحد، وثابَرَ عليه داءُ الحزن فأضناهُ وتركَهُ رُوحاً تتقعقعُ في جِلْدِها، فهي تهمُّ في لحظةٍ أنْ تَثِبَ وتندلِق.

وسلَّمَ الشيخُ وأقبل بوجهِه على الرجل، ثُمَّ قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

فقطعَ عليه الرجلُ وقال كالمحنق: أيُّها الشيخ، قد صبَرْنَا حتى جاءَ ما لا صبرَ عليه؛ وقد خَلوْنا من معاني الكلام كلِّهِ، فما نقدِرُ عليها إلَّا لفظةً واحدةً نملكُ معناها، هي أنْ ننتهي!

ومدّ الشيخُ عينَهُ فرأى كُوّةً مسدودةً في الجدار، فقال لي: افتَحْ هذه ودَعِ الهواءَ يتكلمُ معنا كلامَه. فقمْتُ إليها فعالجْتُها حتى فتحْتُها، ونفذَ منها رَوْحُ الدنيا، وقال الشيخَ لِلرجل: أصغِ إليّ، فإذا أنا فرغْتُ من الكلام فشأنَكَ بنفسِك:

أعلمْتَ أنَّ رجلاً من المسلمينَ قد مَرِض، فأغضل مَرضُهُ فأثبتَهُ على سريرِه ثلاثينَ سنةً لا يتحرّك، وطَوَى فيه الرجُل الذي كان حيًّا ونشرَ منه الرجل الذي سيكون ميْتاً، فبقيَ لا حيًّا ولا ميتاً ثلاثينَ سنة....؟

قال الرجل: وفي الدنيا مَنْ يعيشُ على هذه الحالِ ثلاثينَ سنة؟

قال الشيخ: صَحِّحِ الكلامَ واسألْ. أيصبرُ على هذه الحالِ ثلاثين سنةً ولا يقول: (جاء ما لا صبرَ عليه) وأيُّ شيءٍ لا صبرَ عليه عند الرجلِ المؤمن الذي يعلمُ أنَّ البلاء مالٌ غيرَ أنَّهُ لا يُوضَعُ في الكيس بل في الجسم؟

أفتدري مَنْ كان الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاءِ الحياة والموتِ مجتمعين في عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرِها؟ إنَّهُ إمامُنا (عِمرانُ بنُ حُصَينٍ الخُزاعيُّ)[1] الذي أرسلَهُ عمرُ بْنُ الخطابِ يُفقِّهُ أهل البصرة، وتولَّى قضاءَها، وكان الحسنُ البَصريُّ يحلِفُ باللهِ ما قدِمَها خيرٌ لهم من عِمرانَ بن حُصين. ولقد دخلْتُ عليه أنا وأخوه (العلاء)، فرأيناهُ مُثبَتاً على سريرِ الجريدِ كأنَّما شُدَّ بالحِبالِ وما شُدَّ إلَّا بانتهاكِ

(١) توفي سنة ٥٣ من الهجرة.

عَصَبِه وذَوَبَان لحمِه وَوَهَنِ عِظامِه؛ فبكى أخوه، فقال: لِمَ تبكي؟ قال: لأنّي أراكَ على هذه الحالِ العظيمة؟ قال: لا تَبكِ؛ فإنَّ أحبَّهُ إلى الله تعالى أحبُّهُ إليّ. ثم قال: إنَّ هذه الأرضَ تحملُ الجبال فلا يشعرُ موضعٌ منها بالجبلِ القائم عليه، إذْ كان تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جَعَل لِكُلِّ موضعٍ منها قوةَ الجميع، ولولا هذا لدَكَّ الجبلُ موضعَهُ وغارَ به؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثل الجِبالِ من البلاءِ على أعضائِه لا ينكسرُ لها ولا يتهدَّم؛ إذْ كانَتْ قوةُ روحِه قوّةً في كلِّ موضع، فالبلاءُ محمولٌ على همَّة الروحِ لا على الجسم، وهذا معنى الخبر: «إنَّ المؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ رُوحَهُ لتُنزعُ من بين جنبيه وهو يَحمدُ الله عزَّ وجلّ!».

ثُمَّ قال: ولكنْ ذاك هو المؤمن، فمن آمنَ بالله فكأنَّما قال له: «امتَحِنّي!» وكيف تراكَ إذا كنْتَ بطلاً من الأبطالِ مع قائدِ الجيش، أمَا تفرضُ عليك شجاعتُك أنْ تقول لِلقائد: «امتحنّي وارْمِ بي حيثُ شِئْتَ!» وإذا رَمَى بِكَ فرجعْتَ مُثخَناً بالجراحِ ونالكَ البتْرُ والتشويه، أتُراها أوصافاً لِمصائبِك، أمْ ثناءً على شجاعتِك؟

ثُمَّ قال: إذا لم يكن الإيمانُ بالله اطمئناناً في النفسِ على زَلازِلِها وكوارثِها، لم يكنْ إيماناً، بل هو دعوى بالفكْرِ أو باللسان لا يعْدُوهما، كدعوى الجبان أنَّهُ بطل، حتى إذا فَجَأَهُ الرَّوْعُ أحدَثَ في ثِيابِه من الخوف... ومن ثَمَّ كان قتلُ المؤمن نفسَهُ لِبلاءٍ أو مرضٍ أو غيرِهما كفراً بالله وتكذيباً لإيمانِه، وكان عملُهُ هذا صورةً أخرى من طيشِ الجبان الذي أحدَثَ في ثيابه!

والإيمانُ الصحيحُ هو بشَاشَةُ الروح، وإعطاءُ الله الرِّضى من القلب، ثقةً بوعدِه ورَجَاةً لِمَا عندَه، ومن هذين يكون الاطمئنان. وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء، يُصبِحُ الإيمانُ عقلاً ثانياً مَعَ العقل؛ فإذا ابْتُلِيَ المؤمنُ بِما يذهبُ معهُ الصبرُ ويطيشُ له العقل، وصارَ من أمرِه في مثلِ الجنون ـ برزَ في هذه الحالة عقلُهُ الرُّوحانيُ وتولّى سياسةَ جسمِه حتى يُفيقَ العقلُ الأول. ويجيءُ الخوفُ من عذابِ الله ونقمتِه في الآخرة، فيَغمرُ به خوفَ النفسِ من الفقرِ أوِ المرضِ أو غيرِهما فيقتلُ أقواهما الأضعف، ويُخرجُ الأعزُّ منهما الأذلّ.

فالاطمئنانُ بالإيمان هو قتلُ الخوف الدُّنيويّ بالتسليم والرضى، أو تحويلُهُ عن معناهُ بجعلِ البلاءِ ثواباً وحسنات، أو تجريدُهُ من أوهامِه باعتبارِ الحياة سائرةً بكلِّ ما فيها إلى الموت؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ له شأنٌ عظيمٌ في تصريف الدنيا، يتركُ النفسَ راضيةً مَرْضِيَّة، تقولُ لِمصائبِها وهي مطمئنة: نعم. وتقولُ لِشهواتِها وهي مطمئنة: لا.

وما الإنسانُ في هذا الكون؟ وما خيرُهُ وشرُّه؟ وما سخطُهُ ورِضاه؟ إنْ كلُّ ذلك إلّا كما ترى قبضةً من الترابِ تتكبَّرُ وقد نسيَتْ أنَّهُ سيأتي مَنْ يكنسُها. . . . !

* * *

قال الشيخ: وانظر، أما تُبْتَلى الشجرةُ الخضراءُ في بعضِ أوقاتِها بمثلِ ما يُبْتَلى به الإنسان؟، غيرَ أنَّ لها عقلاً روحانيًا مستقرًّا في داخلِها يُمسكُ الحياةَ عليها ويتربَّصُ حالاً غيرَ الحال؛ ومهما يكنْ من أمرِ ظاهرِها وبَلائِه فالسعادةُ كلُّها في داخلِها، ولها دائماً ربيعٌ على قدْرِها حتى في قُرِّ الشتاء.

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي من الإيمان، لا عمل له إلّا أنْ يُنشىءَ لِلنفسِ غريزةً متصرِّفةً في كلِّ غرائزِها، تُكمِّل شيئاً وتُنقصُ من شيء. وتُوَجِّهُ إلى ناحيةٍ وتصرفُ عن ناحية؛ وبهذه الغريزة تسمو الروحُ فتكونُ أكبرَ من مصائِبها وأكبرَ من لذّاتِها جميعاً.

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى الرضى بالقدرِ خيره وشرِّه، وهي تأتي بالتأويلِ لكلِّ هموم الدنيا، فتضعُ في النكبَاتِ معانيَ شريفةً تنزعُ منها شرَّها وأذاها لِلنفس؛ وليسَتِ المصيبةُ شيئاً لولا تأذّي النفسِ بها. وإذا وقعَ التأويلُ في معاني النكباتِ أصبحَتْ تعملُ عمل الفضائل، وتغيَّرَتْ طبيعتُها فيعودُ الفقرُ باباً من الزهد، والمرضُ نوعاً من الجِهاد، والخيبةُ طريقاً من الصبر، والحزنُ وجهاً من الرجاء، وهلمّ جرًّا.

والنفسُ وحدَها كنزٌ عظيم، وفيها وحدَها الفرحُ والابتهاجُ لا في غيرِها، وما لذَّاتُ الدنيا إلَّا وسائلُ لإثارة هذا الفرحِ وهذا الابتهاج، فإنْ وُجدا مع الفقرِ بطلتْ عِزَّةُ المالِ وأصبحَ حجراً من الحجر؛ والبلبلُ يتغرَّدُ بحَنجرتِه الصغيرة ما لا تُغْنِي فيه آلاتُ التَّطْرِيبِ كلُّها. وفي النفسِ حياةُ ما حَوْلها، فإذا قَويَتْ هذه النفسُ أذلَّتِ الدنيا، وإذا ضعُفَتْ أذلَّتْها الدنيَا!

* * *

قال المسيَّب: ثم سكَتَ الشيخ قليلاً، وكنْتُ أرى الرجل كأنَّما يغتسلُ بكلامِه، وقد أشرقَ وجهُهُ وتَنضَّرَ وانقلبَ إلى روحِه التي كان منصرِفاً عنها، فعادَتْ مصائبُهُ تضغطُ روحاً لينةً كما تضغطُ اليدُ على الماء، وأيقنَ أنَّ النكبةَ كلَّها هي أنْ ينظرَ الإنسانُ إلى الحياة بعين شهواتِه، فيُنكَبَ أول ما ينكبُ في صبرِه ويقينِه.

ثم قال الشيخ، ولقد رأيْتُ بعيني رأسي معجزةَ (العقل الروحانيّ) وكيف يصنع: رأيْتُ عروةَ بْنَ الزبير(١) وهو شيخٌ كبير، عنَد الوليدِ بْن عبدِ الملك، وقد

---

(١) توفي سنة ٩٣ للهجرة.

وقَعَتْ في رجْلِه الأُكلةُ: فأشاروا عليه بقطعِها لا تُفسدَ جسدَهُ كلَّه، فدُعِيَ له مَنْ يقطعُها فلمَّا جاءَ قال له: نسقيكَ الخمرَ حتى لا تجدَ لها ألماً. فقال عُروة: لا أستعينُ بحرام الله على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيكَ المُرْقِد. فقال عروة: ما أحِبّ أنْ أسلبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجدُ ألَمَ ذلك فأحتسبُه!

ثُمَّ دخل رجالٌ أنكَرهم عُروة، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يُمسكونَك، فإنَّ الألَمَ ربَّما عزَبَ معهُ الصبر. قال أرجو أنْ أكفيَكم ذلك من نفسي!

قال الشيخ: فانظرْ أيُّها الضعيفُ الذي يُريدُ قتل نفسِه كيفَ صنَع عُروة، وكيف استقبل البلاء، وكيفَ صبرَ وكيف احتمل. إنَّهُ انصرفَ بحسِّه إلى النفسِ فانبسطَتْ روحُهُ عليه، وأخذ يكبِّرُ ويهلِّلُ ليبقى مع روحِه وحدَها، وخرجَ من دنيا ظاهرِه إلى دنيا باطنِهِ، وغُمِرَتْ حواسُّهُ وأعصابُهُ بالنورِ الإلهيِّ من معنى التكبيرِ والتهليل، فقطعَ القاطعُ كعبَهُ بالسكين وهو لا يلتفِت، حتى إذا بلغَ العظمَ وضعَ عليها المنشارَ ونشَرَها وعروةُ في التكبيرِ والتهليل؛ ثُمَّ جِيءَ بالزيتِ مغليًّا في مغارفِ الحديدِ فَحُسِمَ به مكانُ القطع، فَغُشيَ على عُروةَ ساعةً ثُمَّ أفاقَ وهو يمسحُ العرَقَ عن وجهِه، ولم يُسمعْ منه في كلِّ هذه الآلام الماحقة أنَّةٌ ولا آهةٌ، ولم يقلْ قبلها ولا بعدَها ولا بين ذلك: «جاءَ ما لا صبرَ عليه....!».

* * *

قال المسيَّب: وأزهِفَ بأسُ الرجلِ الضعيف وقَوِيَ جأشُه، وانبعَثَ فيه الروحُ إلى عُمرٍ جديد، ونشأ له اليقينُ من عقلِه الروحانيّ، وعرفَ أنَّ ما لا يُمكنُ أنْ يُدرَك، يُمكنُ أنْ يُترَك.

وجاءَ هذا العقلُ الروحانيُّ فمرَّ بالمِنشارِ على اليأسِ الذي كان في نفسِه فقطعَه، فما راعنا إلَّا أنْ وثبَ الرجلُ قائماً يقول: الله أكبرُ من الدنيا، الله أكبرُ من الدنيا!.

ثُمَّ أكبَّ على يدِ الشيخِ وهو يقول: صدقْت؛ «إنْ كلُّ ذلك إلَّا كما ترى قبضةً من الترابِ تتكبر، وقد نسِيَتْ أنَّهُ سيأتي مَنْ يكنسُها!».

ماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلطَ في مسألةٍ من مسائلِ الدنيا إلَّا أنْ يتحرَّى الصواب، ويجتهدَ في الرجوع إليه، ويصبرَ على ما ينالُهُ في ذلك؟ وماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلطَتْ فيه مسألة....؟

الانتحار

(٢)

قال المسيَّب بْنُ رافع: وقامَ الشعبيُّ إلى الرجلِ فاعْتَنَقَهُ فَرِحاً بما آل أمرُهُ إليه، بعدَ إذ رأى النورَ يجري على لونِه ويترقرقُ في ديباجتِه؛ كأنَّما وَقَعَ الصلحُ بين وجهِهِ وبين الحياة. ثُمَّ قال له: نِعْمَ أخو الإسلام أنت، فاستعِذْ بِالله من خِذْلانِه، فإنَّهُ ما خذَلكَ إلّا وضَعُفَ نفسُك بإزاءِ الله تُعارِضُه أو تُجاريه في قدرتِه، فَيَكِلُكَ إلى هذه النفس، فتنتهي بك إلى العجز، وينتهي العجزُ بك إلى السُّخْط؛ ومتى كنْتَ عاجزاً ساخطاً، محصوراً في نفسِك؛ مَوْكولاً إلى قدرتِك، كنْتَ كالأسدِ الجائع في القَفْر، إذا ظَنَّ أنَّ قوّتَهُ تتناولُ خَلْقَ الفريسة؛ فيدعو ذلك إلى نفسِك اليأسَ والانزعاجَ والكآبَةَ؛ وأمثالها من هذه المُهلِكاتِ تقْدَحُ في قلبِك الشكَّ في الله، وتُثبِتُ في رُوعِكَ شرَّ الحياة، وتُهدي إلى خاطرِك حماقاتِ العقل، وتقرِّرُ عندَكَ عجزَ الإرادة؛ فتنتهي من كلِّ ذلك ميّتاً قد أزهقتْك نفسُك قبل أنْ تُزْهِقَها!

ولو كنْتَ بَدَل إيمانِك بنفسِك قد آمنْتَ بالله حقَّ الإيمان، لسلَّطَكَ الله على نفسِك ولم يسلِّطْها عليك؛ فإذا رَمتْكَ المطامعُ بالحاجة التي لا تقدرُ عليها، رميْتَها من نفسِك بالاستغناءِ الذي تقدرُ عليه؛ وإذا جاءتْكَ الشهواتُ من ناحية الرغبة المقبلة، جِئْتَها من ناحية الزُّهدِ المنصرف، وإذا ساوَرَتْكَ كبرياءُ الدنيا أذْلَلْتَها بكبرياءِ الآخرة.

وبهذا تنقلبُ الأحزانُ والآلامُ ضُروباً من فرَحِ الفوزِ والانتصارِ على النفسِ وشهواتِها، وكانَتْ فنوناً من الخِذْلان والهمّ، وتعودُ موضعَ فخرٍ ومباهاة، وكانَتْ أسبابَ خِزْيٍ وانكسارٍ. «وعزيمةُ الإيمان إذا هي قوِيَتْ حَصَرَتِ البلاء في مقدارِه، فإذا حصرَتْهُ لم تزلْ تَنقُصُ من معانيه شيئاً شيئاً، فإذا ضعُفَتْ هذه العزيمةُ جاءَ البلاءُ غامراً مُتَفشّياً يُجاوِزُ مقدارَهُ بما يَصْحَبُه من الخوف والرَّوْعِ، فلا تزالُ معانيه تَزيدُ شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليس فيه.

ولِلإيمان ضوءٌ في النفس يُنيرُ ما حولها فتراهُ على حقيقتِه الفانية وشِيكاً أنْ

يزول؛ فإذا انطفأ هذا الضوءُ انطَمَسَتِ الأشياء، فتتوهَمُها النفسُ أوهاماً مُتباينةً على أحوالِها المختلفة؛ كما يرى الأعمى بِوَهْمِه: لا عيْنُه مع الأشياءِ تكونُ في طبيعتِها، ولا أشياؤه عند عينِه تكونُ في حقيقتِها.

* * *

قال المسيَّب: وكانَتِ الشمسُ قد طفَّلتْ لِلمغيب؛ فقال الإمامُ لِلرجل: قُمْ فتوضّأ وأسْبغِ الوضوء، وسأعلِّمُك أمراً تنتفعُ به في دينِكَ ودنياك: فإذا قُمْتَ إلى وُضوئِك فأيقِنْ في نفسِك واعزِمْ في خاطرِك على أنَّ في هذا الماءِ سرًّا روحانيًّا من أسرارِ الغَيبِ والحياة، وأنَّهُ رمزٌ لِلسماءِ عندَك، وأنّك إنَّما تتطهَّرُ به من ظُلماتِ نفسِك التي امتدَّتْ على أطرافِك؛ ثُمَّ سَمِّ الله (تعالى) مُفيضاً اسمَهُ القادِرَ الكريمَ على الماءِ وعلى نفسِك معاً، ثم تَمثَّلْ أنّك غسلْتَ يديك مِمّا فيهما ومِمَّا تتعاطاهُ بهما من أعمالِ الدنيا، وأنَّك آخِذٌ فيهما من السماءِ لِوجهِكَ وأعضائِك؛ وقرِّرْ عند نفسِك أنَّ الوضوءَ ليس شيئاً إلّا مَسحةً سماويةً تُسبِغُها على كلِّ أطرافِك، لِيشعرَ بها جسمُكَ وعقلُك؛ وأنَّكَ بهذِه المسحة السماوية تستقبلُ الله في صلاتِك سماويًّا لا أرضيًّا.

فإذا أنت استشعرْتَ هذا وعملْتَ عليه وصارَ عادةً لك، فإنَّ الوضوءَ حينئذٍ ينزلُ من النفسِ منزلةَ الدواء، كلَّما اغتَممْتَ أو تَسخطْتَ أو غشيَكَ حزنٌ أو عَرضَ لك وَسواس، فما تتوضأ على تلك النيَّة إلّا غسلْتَ الحياةَ وغسلْتَ الساعةَ التي أنت فيها من الحياة[1]. وترى الماءَ تحسبُهُ هدوءاً ليِّناً لِينَ الرِّضى، وإذا هو ينسابُ في شعورِك وفي أحوالِك جميعاً.

قال المسيَّب: وقمْتُ أنا فجدَّدتُ وضوئي على هذِه الصفة بتلكَ النية، فإذا أنا عند نفسي مستضيءٌ برُوح نَجميَّةٍ لها إشراقٌ وسناء، وإذا الوضوءُ في أضعف معانيه هو ما عَلمْنا من أنَّهُ الطّهارةُ والنظافة، أمّا في أقوى معانيه فهو إفاضةٌ من السماءِ فيها التقديسُ والتزكيةُ وغَسلُ الوقتِ الإنسانيِّ مِمَّا يُخالطُهُ كلَّما مرَّتْ ساعات، وابتداؤه لِلروحِ كالنباتِ الأخضرِ ناضراً مطلُولاً مترَطباً بِالماء.

ثم صلَّى بنا الشيخُ، وأمرني بالمبيتِ مع الرجل، كأنما خَشي البَدَوَاتِ أنْ تَبدُو له فَتنقُصَ عَزْمَه، أو هو زادني عليه لِأغيِّرَ شخصَهُ وأبدِّل وحدتَهُ التي كان فيها، أو كأنَّ الشيخَ لم يأمنْ على الرجلِ أنْ يكون إنسانُهُ الروحيُّ قد تنبَّهَ بأكملِه فوضعَني كالتنبيه له.

---

(١) هذه في رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هي أسراره عندنا.

وجاءَنا العشاءُ من دارِ الشيخِ فطعِمْنا، ثُمَّ قامَ الرجلُ فتوضأ وصلَّيْنا العَتَمَةَ وجلسْنا نتحدث، فاستنبأْتُهُ نبأه، فقال: مهلاً. ثُمَّ نهض فتوضَّأ الثالثةَ وقال: تاللهِ ما أعرِفُ الوضوءَ بعدَ اليوم إلَّا ملامَسةً بين السماءِ والنفس، وما أعرِفُ وقتَهُ من الروحِ إلَّا كساعة الفجرِ على النباتِ الأخضر.

* * *

قال المسيَّب: وأصبحْنَا فغدوْنَا على الإمام، ثُمَّ لزمني الرجلُ في بعضِ أموري، ثُمَّ وافينا المسجدَ صلاةَ العصرِ لِحضورِ درسِ الشيخ؛ وكان الناسُ كالحَبِّ المتراصِف على العُنقود، لا أدري من ساقَهم وجَمَعهم؛ كأنَّما علِمَتِ الكوفةُ أن رجلاً مسلماً كفَرَ بالله كفرةَ صَلْعاءَ وأنَّهُ سيحضُرُ درسَ الشيخ، وسيحضرُ الشيخُ من أجلِه، فهبَّتِ الرياحُ الأربعُ تسوقُ أهلها إلى المسجدِ من أقطارِها.

وجلسَ الشيخُ مجلسَ الحديث فقال:

رَوَينا أنَّ رجلاً كانَتْ به جِراحَةٌ، فأتى قَرَناً له فأخَذَ مِشْقصاً[1] فذَبحَ به نفسَه، فلم يُصَلِّ عليه النبيُّ ﷺ، وتركَ جنازتَهُ مطرودةً تقتحمُ مَتْلفةَ الآخرة كما اقتحمتْ متلفةَ الدنيا!

رَوَينا في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الذي يخنقُ نفسَهُ يخنُقها في النَار، والذي يَطْعُنُ نفسَهُ يطعَنُ نفسَهُ في النار، والذي يقتحمُ يقتحمُ في النار!»

رَوَينا عنهُ ﷺ: «من قَتَل نفسَهُ بِشيءٍ عُذِّبَ به يومَ القِيامة!»

رَوَينا عنه ﷺ قال: «كان رجلٌ به جِراحٌ فقتل نفسَه، فقال الله: بَدَرَني عبدي بنفسِه فحرَّمتُ عليه الجنة!».

قال الشعبيُّ: يقولُ الله: «بَدَرَني عبدي بنفسِه...» أيْ بدرني وتألَّه فَجَعَل نفسَهُ إلٰه نفسِه، فَقبضَها وتَوفَّاها، فكان ظالما.

بَدَرني وتَألَّهَ في آخرِ أنفاسِه لحظَة ينقلبُ إليَّ، فكان مع ظُلمِه مغروراً أحمق!

بدرني وتألَّهَ حينَ ضاق، فهَوَّرَ نفسَهُ في الموتِ من عجزِه أنْ يُمسِكَها في الحياة، فكان عاجزاً مع ظُلمِه وغُرورِه وحُمْقِه!

بدرني وتألَّهَ على جهلِه بِسرِّ الحياة وحكمتِها، فلم يَسْتَحِ هذا المخلوقُ الظالمُ المغرور في حمقِه وعجزِه وجهلِه ـ لم يستحِ أنْ يجيئني في صورة إله!

---

(١) القرن (بفتحتين): جعبة النشاب. والمشقص: سهم فيه نصل عريض.

بَدَرني وتألَّه، فَطَبَع نفسَهُ طابَعَها الأبديَّ من غِيٍّ وتمرّدٍ وسفاهة، وأرسلها إليّ مقتولةً يرُدُّها عَليّ.

بدرني وتألّهَ كأنما يقول: إنَّ له نصفَ الأمرِ وليَ النصف: أنا أحييْتُ وهو أماتَ. . . !

بَدَرَني عَبْدي بِنفسِه فحرَّمتُ عليه الجنة! قال الشعبيّ: وإنَّما تُحرَّمُ الجنةُ على مَنْ يقتل نفسَهُ، إذْ ينقلبُ إلى الله وعلى روحِه جِنايةُ يدِه ما تُفارِقُها إلى الأبد: فهو هناك جِيفةٌ من الجيف مسمومةٌ أبداً، أو مخنوقةٌ أبداً، أو مذبوحةٌ أبداً، أو مهشَّمةٌ أبداً يقولُ الله له: أنت بَدَرْتني بنفسِك، وجَريْتَ معي في القَدَرِ مجرًى واحداً، فستخلدُ نفسُك في الصورة التي هي من عملِك، وما قتلْتَ إلّا حسَنَاتِك.

قال الشعبيّ: ولو عرفَ قاتلُ نفسِه أنَّهُ سيصنعُ من نفسِه جِيفةً أبديَّة، فمَنْ ذا الذي يعرِفُ أنه إذا فعل كذا وكذا تحوَّل حماراً وبقي حماراً، فيرضَى أنْ يتحوَّل ويُسرعَ لِيتحوَّل؟

مِن ذلك نظرَ النبيُّ ﷺ إلى جنازة ذلك الرجلِ الذي قتل نفسَه، كما ينظُر إلى ذبابةٍ توجَّهَتْ بالسبِّ إلى الشمسِ والكواكبِ والأفلاكِ كلِّها، ثم جَاءتْهَ تقولُ له: اشهدْ لي.

* * *

قال الشيخ: ومِمَّ يقتلُ الإنسانُ نفسَه؟ أمَا إنَّ الموتَ آت لا ريبَ فيه ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنه، وهو الخيبةُ الكُبرى تُلقَى على هذه الحياة؛ فما ضررُ الخيبة الصغيرة في أمرٍ من أمورِ الحياة؟

إنَّ المرءَ لا يقتلُ نفسَهُ من نجاحٍ بل من خيبة، فإنْ كانَتِ الخيبةُ من مالٍ فهي الفقرُ أوِ الحاجة، وإنْ كانَتْ من عافيَةٍ فهِيَ المرضُ أوِ الاختلال، وإنْ كانَتْ من عِزَّةٍ فهي الذلُّ أوِ البؤس، وإنْ كانَتْ مِمَّا سوى ذلك ـ كالنساءِ وغيرِهِنَّ ـ فهي العَجزُ عن الشهوة أو التخيُّل الفاسد. وليس يخيبُ الإنسان إلا خيبة عقل أو إرادة، وإلا فالفقر والحاجة والمرض والاختلال والذل والبؤس، والعجز عن الشهوة وفسادَ التخيل، كلُّ ذلك موجودٌ في الناس، يحملُهُ أهلُهُ راضينَ به صابرينَ عليه، وهو الغبارُ النفسيُّ لهذه الأرضِ على نفوسِ أهلِها. ويا عجباً! إنَّ العُميانَ هم بالطبيعة أكثرُ الناسِ ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخريةً، أفتريدون أنْ تُخاطبَكُمُ الحياةُ بأفصحَ من ذلك؟

ليسَتِ الخيبةُ هي الشرّ، بلِ الشرُّ كلُّهُ في العقل إذا تبلَّدَ فجمدَ على حالةٍ واحدةٍ من الطمعِ الخائب، أو في الإرادة إذا وَهَنت فبقيَتْ متعلِّقةً بما لم يُوجَد. أفلا ترونَ أنَّهُ حينَ لا يُبالي العقلُ ولا الإرادةُ لا يبقى لِلخيبة معنًى ولا أثرٌ في النفس، ولا يخيبَ الإنسانُ حينئذٍ، بل تخيبُ الخيبةُ نفسُها؟

لهذا يأبى الإسلامُ على أهلِه التَّرَفَ العقليّ والتخيُّل الفاسد، ويشتدُّ كلَّ الشِّدة في أمرِ الإرادة، فلا يترخَّصُ في شيءٍ يتعلَّقُ بها، ولا يزالُ يُنميها بأعمالٍ يوميَّةٍ تشدُّ منها لِتكونَ رقيبةً على العقل حارسةً له، فإنَّ لِلعقل أمراضاً كثيرةً يقيسُ فيها درجات من الطيشِ حتى يبلغَ الجنونَ أحياناً؛ فكانَتِ الإرادةُ عقلاً لِلعقل؛ هي لِينُهُ إذا تصلَّبَ، وهي حركتُهُ إذا تبلَّد، وهي حِلْمُهُ إذا طاش، وهي رِضاهُ إذا سَخِط.

الإرادةُ شيءٌ بين الروحِ والعقل، فهي بين وجودَين؛ ولِهذا يكون بها الإنسانُ بين وجودَين أيضاً، فيستطيعُ أنْ يعيشَ وهو في الدنيا كالمنفصلِ عنها، إذْ يكون في وجودِه الأقوى وجودُ روحِه، وأكبرُ همِّه نجاحُهُ في هذا الوجود.

وهذا النجاحُ لا يأتي من المالِ، ولا تُحقِّقُهُ العافية، ولا تُيسِّرُهُ الشهوات، ولا يُسَنِّيهِ التَّخيلُ الفاسد؛ ولا يكون من مَتاعِ الغُرور، ولا مِمَّا عُمرُهُ خمسونَ سنةً أو مائةُ سنة؛ بل يأتي مِمَّا عُمْرُهُ الخلودُ ومِمَّا هو باقٍ أبداً في معانيه من الخيرِ والحقِّ والصلاح؛ فهٰهنا يُعينُ المرضُ بالصبرِ عليه مِمَّا لا تُعينُ الصحة، ويُفيدُ الفقرُ بحقائقِه ما لا تُفيدُ الثروة؛ وهنا يكون العقلُ الإنسانيُّ عاملاً أكثرَ مِمَّا هو متخيِّل، وقانِعاً أكثرَ مِمَّا هو طامع؛ وههنا لا موضعَ لِغلبة الشهوة، ولا كِبرياءِ النفس، ولا حُبِّ الذات؛ وهذه الثلاثُ هي جالِبةُ الشقاءِ على الإنسان حتى في أحوالِ السعادة، وبدونِها يكون الإنسانُ هانِئاً حتى في أحوالِ الشقاء.

بالإرادة المؤمنة القويّة ينصرفُ ذكاءُ المؤمن إلى حقائقِ العالم وصلاحِ النفسِ بها، وبغير هذه الإرادة ينصرفُ الذكاءُ إلى خيالِ الإنسان وفسادِ الإنسان...

وإذا انصرفَ الذكاءُ إلى حقائقِ الدنيا كان العقلُ سهلاً مَرِناً مِطواعاً، واستحال عليه أنْ يفهمَ فكرةَ قتلِ النفسِ أو يُقرَّها، فإنَّ هذه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَستطْرِقُ إلى العقلِ إلّا إذا تحجَّرَ وانحصرَ في غرضٍ واحدٍ قد خابَ وخابَتْ فيه الإرادةُ ففرغَتِ الدنيا عندَهُ.

ولو أنَّ امرأً تمَّ عزمُهُ على قتلِ نفسِه ثُمَّ صابرَ الدنيا أيَّاماً، لانفسَحَ عزمُهُ أوْ رَكَّ؛ إذْ يلينُ العقلُ في هذه المدة نوعاً ما، ويجعلُ الصبرُ بينَه وبين المصيبة مسافةً

ما، فتتغيرُ حالةُ النفسِ هَوْناً ما؛ فالصبرُ كالتروُّحِ بالهواءِ على العقلِ الذي يكادُ يختنقُ من احتباسِه في معنًى واحدٍ مُقفَلٍ من جوانبه «ومَثَلُ العقلِ في هذه الحالِ مَثلُ القائم في إعصارٍ لفَّهُ بالترابِ لفًّا وسدَّ عليه مَنافِذَ الهواء، وحبسَهُ في هذا الترابِ الملتفِّ حَبْسَ الحشرة في جوف القَصَبة؛ فهو على اليقين أنَّها حالةُ ساعةٍ طارئةٍ في الزمن لا حالةُ الزمن؛ وأنَّ الهواءَ الذي جاءَ بهذا الهمِّ هو الذي يذهبُ بهذا الهمِّ.

وكما أنَّ الأرضَ هي شيءٌ غيرُ هذا الإعصارِ الثائرِ منها، فالحياةُ كذلك هي أمرٌ آخرُ غيرُ شقائِها.

* * *

قال الإمام: وفي كتابِ الله آيتان تدلّان على أنَّهُ كتابُ الدنيا كلِّها، إذْ وضعَ لهذه الدنيا مثالين: أحدُهما المثالُ الروحيُّ لِلفردِ الكامل، والآخرُ المثالُ الروحيّ لِلجماعة الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأما الثانيةُ فهي قولُهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ففي رجاءِ الله واليوم الآخرِ يتسامى الإنسانُ فوقَ هذه الحياة الفانية، فتمرُّ همومُها حولهُ ولا تصدمُه، إذْ هي في الحقيقة تجري من تحتِه فكأنْ لا سلطانَ لها عليه؛ وهذه الهمومُ تجدُ في مثلِ هذه النفسِ قُوًى بالغةً تصرِّفها كيف شاءَت، فلا يجيءُ الهمُّ قوةً تسحقُ ضعفاً، بل قوةً تمتحِنُ قوةً أخرى أو تُثيرُها لِتكونَ عملاً ظاهراً يقلِّدُهُ الناسُ وينتفعُونَ منه بالأسوة الحسنة، والأسوةُ وحدَها هي عِلْمُ الحياة.

وقد ترى الفقيرَ من الناسِ تحسُبُهُ مسكيناً، وهو في حقيقتِه أستاذٌ من أكبرِ الأساتيذِ يُلقي على الناسِ دروسَ نفسِه القويَّة.

وفي رجاءِ الله واليوم الآخرِ يبطلُ أكبرُ أسبابِ الشرِّ في الناس، وهو نظَرُ الإنسان لِمَنْ هو أحظَى منهُ بفتنة الدنيا نظراً لا يَبْعثُ إلّا الحِقدَ والسخط، فينظرُ المؤمنُ حينئذٍ إلى ما في الناسِ من الخيرِ والصلاحِ والإيمان والحقِّ والفضيلة، وهذه بطبيعتِها لا تبعثُ إلّا السرورَ والغِبطة. ومَنْ جعلها في تفكيرِه أبطل أكثرَ الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقطُ الفروقُ بين الناسِ عاليهم ونازِلهم؛ كالرجلِ الفقيرِ

العالم إذا قَدِمَ على الغنيِّ العالم؛ جَمع بينهما الاتفاقُ العقليُّ وسقطَ ما عداه.

وفي رجاءِ الله واليوم الآخرِ يعيشُ الإنسانُ عُمْرَهُ الطويل أوِ القصيرَ كأنَّهُ في يوم يُصبحُ منه غادياً على الحشرِ والحِساب؛ فهو متَّصلٌ بالخلودِ غيرُ مَعْنِيٍّ إلَّا بأسبابِه؛ وبهذا تكونُ أمراضُهُ وآلامُهُ ومصائبُهُ ليسَتْ مَكارِهَ منَ الدنيا، بل هي تلكَ المكارِهُ التي حُفَّتِ الجنةُ بها؛ ولا يَضرُّهُ الحِرْمانُ لأنَّهُ قريبُ الزوال، ولا يغُرُّهُ المتاعُ لأنَّهُ قريبُ الزوالِ أيضاً.

وفي رجاءِ الله واليوم الآخرِ يَسُودُ الإنسانُ على نفسِه؛ ومَنْ كان سيِّدَ نفسِه كان سيدَ ما حولها يُصَرِّفُهُ بحكمِهِ، ومَنْ كان عَبْدَ نفسِه صَرَّفَهُ بحكمِه كلُّ ما حَوْله.

قال الشعبيّ: وأمَّا المثالُ الروحيُّ لِلجماعة الكاملة، فهو في وصف المؤمنينَ بأنهم «رُحَمَاءُ بينهم»؛ فهذا هذا، ما أحسَبُه يحتاجُ إلى بَسْطٍ وبيان.

إنَّ أكثرَ ما يضيقُ به الإنسانُ يكون من قِبَلِ مَنْ حولهُ مِمَّن يُعايِشُهُم ويتَّصلُ بهم لا من قبل نفسِه، فإذا قامَ اجتماعُ أمَّةٍ على أنَّهم (رُحَمَاءُ بينهم) تَقرَّرَتِ العظمَةُ النفسيَّةُ لِلجميعِ على السواء؛ ومَنْ كانوا كذلك لم يَحْقِّروا الفقيرَ بفقرِهِ، ولم يُعظِّموا الغنيَّ لِغِناه، وإنَّما يُحَقِّرُون ويعظِّمونَ لِصفات ساميةٍ أو حقيرة. وبين هؤلاءِ يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قَدْراً من الغنيِّ الشاكر، وإعظامُ الناسِ لِفضيلة الفقيرِ هو الذي يجعلُ فقرَهُ عند نفسِه شيئاً ذا قيمةٍ في الإنسانية.

ومتى تَصحَحَتْ آراءُ الجماعة في هذه المعاني المؤلمة لِلناس بَطَل ألمُها واستحالتْ معانيها، وصارَ لا يَبلى معنًى من معاني الحياة في إنسانٍ إلَّا وضعَ إيمانُهُ معنًى جديداً في مكانِه، وتُصبحُ الفضيلةُ وحدَها غايةَ النفسِ في الجميع؛ وبذلك يَصبرُ الفردُ على مصائبِه، لا بقُوّتِه وحدَه، ولكنْ بجميعِ القوَى التي حوله. أفَلا تَرَوْنَ أنَّ إعجابَ الناسِ بالشجاعة وتعظيمَهم صاحبَها يَضعُ في ألم السلاحِ لذةً يُحِسُّها لحمُ الشجاعِ البطل؟

* * *

قال المسيَّب بْنُ رافع: فقامَ رجلٌ من المجلس، فقال: أيُّها الشيخ، وإذا فَسدَ الناسُ وغَلُظَتْ قلوبُهم، وتقطَّعتْ بينَهُمُ الأسباب، ولم يعودوا (رُحَمَاءُ بينهم)، وشَمِتوا بالفقير، وتهزَّؤوا بالمُبتلى وطرحوه في ألسنتِهم كما يَطرَحُ الشاعرُ في لِسانِه رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه ـ فما عسى أنْ يصنعَ المسكينُ حينئذٍ وكلُّ شيءٍ يدفعُهُ إلى قتلِ نفسِه؟

وقال الشعبيّ: هٰهنا الرجاء في الله واليوم الآخر، وهو شعورٌ لا يُشترى بمال، ولا يُلتمسُ من أحد، ولا يَعْسُرُ على مَنْ أرادَهُ؛ والفقيرُ والمُبتلى وغيرُهما إنَّما يَصنعُ كلٌّ منهم مِثالهُ السامي؛ فالصبرُ على هذا العَنَتِ هو صبرٌ على إتمام المِثال، وإذا وقَعَ ما يسوءُك أو يَحزُنُكَ فابحثْ فيه عن فكرتِه السامية، فقلَّما يخلو منها، بل قلَّما يجيءُ إلَّا بها[1].

قال المسيَّب: فقامَ آخرُ فقال: وكيف يصنعُ امرؤٌ آلتْ أحوالُ الدنيا إلى ما يُخيفُه، أو بَلغَ الهمُّ مبلغهُ من قلبِه فهمَّ أنْ يقتل نفسَه؟

قال الشعبيّ: فلْيجعلِ الخوفَ خَوْفَيْنِ: أحدُهما خوفُهُ عذابَ الله خالداً مُخلَّداً فيه أبداً؛ فَيَذْهَبُ الأقوى بالأضعف. وإذا ابتُليَ فلْيضمَّ إلى نفسِه مَن هو أشدُّ بلاءً منه؛ لِيكونَ همُّهُ أحدَ همَّيْن، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفّ.

إنَّ الإنسانَ ونفسَهُ في هذه الحياة كالذي أعطيَ طِفلاً نَزِقاً طَيَّاشاً عارِماً متمرِّداً لِيؤدِّبَهُ ويُحْكِمَ تربيتَهُ وتقويمَهُ فيُثبتَ بذلك أنَّهُ أستاذٌ، فيُعطَى أجرَ صبرِه وعملِه، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفلِ ساعةً فيقتلُه. أكذلك التأديبُ والتربية؟

---

(١) في كتابنا (المساكين) كلام كثير في هذه المعاني.

الانتحار

(٣)

قال المسيَّبُ بْنُ رافع: وكان الإمامُ قد شغَل خاطرَهُ بهذِه القصة فأخذَتْ تَمُدُّ مدًّها في نفسِه، ومكَّنَتْ له من معانيها بِمقدارِ ما مكَّنَ لها في هَمِّه، وتفتَّقَ بها ذِهنُهُ عَنْ أساليبَ عجيبةٍ يتهيَّأ بعضُها من بعضٍ كما يَلِدُ المعنى المعنى. فلمَّا قال الرجُلان مقالهما آنفاً وأجابَهما بتلك الحِكمة والموعظة الحسنة، انْقدَحَ له من كلامِهما وكلامِه رأيٌ فقال:

يا أهل الكوفة: أنشُدُكم الله والإسلامَ أيُّما رجلٍ منكم ضاقَ بروحِه يوماً فأرادَ إزهاقَها إلَّا كشفَ لأهلِ المجلسِ نفسَهُ وصَدَقَنا عن أمرِه؛ ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثَلْباً ولا عاباً، فإنَّما النكبةُ مذهبٌ من مذاهبِ القَدَرِ في التعليم؛ وقد يكون ابتداءُ المصيبة في رجلٍ هو ابتداءَ الحكمة فيه لِنفسِه أو لِغيرِه؛ وما من حزينٍ إلَّا وهو يشعرُ في بعضِ ساعاتِ حزنِه أنَّهُ قد غِيِّبتْ فيه أسرارٌ لم تكنْ فيه، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسِها وموضعِها كما لألأَ في سيفٍ بريقُه.

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيم، فلو قد أُريدَ استخراجُ عِلْمٍ يَعلمُهُ الناسُ من اللذاتِ والنِّعم؛ لكان من شرحِ هذا العِلْم من الحميرِ والبغالِ والدوابِّ ما لا يكون مثلُهُ ولا قِرابُهُ في العقلاء، ولا تبلغهُ القُوى الآدميَّةُ في أهلِها؛ بَيدَ أنَّهُ لو أُريدَ عِلْمٌ من البؤسِ والألم والحاجة لَمَا وُجِدَ شرحُهُ إلَّا في الناس، ثُمَّ لا يكون الخاصُّ منه إلَّا في الخاصة منهم.

وما بانَ أهلُ النعمة ولا غَمروا المساكينَ في تطاوُلِهم بأعناقِهم إلَّا من أنَّهم يَعلُون أكتافَ الشياطين؛ فالشيطانُ دابَّةُ الغنيِّ الذي يجهلُ الحقَّ عليه في غِناهُ ويحسبُ نفسَهُ مُخَلًّى لِشهواتِه ونعيمِه؛ كما هو دابةُ العالم الذي يجهلُ الحقَّ عليه في عِلْمِه، ويزعمُ نفسَهُ مخلًّى لِعقلِه أو رأيِه، وما طال الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصُرَ القصير، وهلْ يصحُّ في الرأي أن يُقال هذا أطولُ من هذا لأنَّ الأول فوقَ السُّلَّم والآخرَ فوقَ رجليه...؟

* * *

قال المسيَّب: فقامَ شيخٌ من أقصى المجلس وأقبل يتخطَّى الرقابَ والناسُ يَنفرجون له حتى وقفَ بإزاءِ الإمام؛ وتَفَرّستُهُ وجعلتْ عيني تعْجمُهُ، فإذا شيخٌ تبدو طَلاقَةُ وجهِه شباباً على وجهِه، أبلجُ الغُرّة مُتهلّلٌ عليه بشاشةُ الإيمان وفي أساريرِه أثرٌ من تقطيبٍ قديم، ينطقُ هذا وذاكَ أنَّ الرجل فيما أتى عليه من الدهرِ قد كان أطفأ المِصباحَ الذي في قلبِه مرةً ثُمَّ أضاءه. وعجِبْتُ أنْ يكونَ مثلُ هذا الشيخِ قد همَّ بقتلِ نفسِه يوماً، وأنا أرى بعينيَّ نفسَهُ هذه مُنبثِقةً في الحياة انبثاقَ النَّخلة السَّحوقِ.

وتكلمَ هذا الرجلُ فقال:

أمَّا إذ ناشدْتَنا الله والإسلامَ وميثاقَ العِلْم ووحيَ الأقدارِ في حِكمتِها، فإنِّي محدِّثُك بخبري على وصفِه ورَصْفِه: أملقْتُ منذُ ثلاثينَ سنةً ووقفَ بي منَ الدهرِ ما كان يجري، وأصبحْتُ في مُزاولة الدنيا كعاصرِ الحَجَرِ يُريدُ أنْ يشربَ منه، وعجَزتْ يدي حتى لظُفْرُ دَجاجةٍ في نبشِها الترابَ عن الحبَّة والحشرَة أقدرُ مني؛ وطرَقَتْني النوائبُ كأنَّما هي تُساكنُني في داري، وأكلني الدهرُ لحماً ورماني عِظاماً، فما كان يقفُ عليَّ إلَّا كلابُ الطريقِ؛ ولي يومئذٍ امرأةٌ أعقبْتُ منها طفلاً، ويلزَمُني حقُّهُما ولا أستطيعُه؛ وكان بينَنَا حُبٌّ فوقَ المعاشرة والألفة قد تركني مِن امرأتِي هذه كالشاعرِ الغَزِلِ من صاحبتِه، غيرَ أنَّ الشعرَ في دمي لا في لِساني.

فلمَّا نَهكَتْني المصائبُ وتناولتْني من قريبٍ ومن بعيد؛ قلْتُ لِلمرأة ذاتَ يوم وقد شَحِبَتْ وانكسَرَ وجهُها وتَقَبَّضَ من هُزالِهِ: وايمُ الله يا فلانةُ لو جازَ أنْ يُؤكلَ لحمُ الآدميِّ لذبحْتُ نفسي لِتأكلي وتَدرِّي على الصبيِّ؛ ولقد همَمْتُ أنْ أركبَ رأسي وأذهبَ على وجهي لِتفقداني فتفقدا شُؤمي عليكما؛ ولكنْ ردَّني قلبي، وهو حَبَسني في هذه الدنيا الصغيرة التي بينَكما، فليس لي من الأرضِ مَشرِقٌ ولا مغربٌ إلَّا أنتِ وهذا الصبيّ. ولسْتُ أدري ـ والله ـ ما نصنعُ بالحياة وقد كُنَّا من نباتِها الأخضرِ فرجَعْنا من حَطبِها اليابس؛ وعادتِ الشمسُ لا تَغْذوها بل تمتصُّ منها ما بقي، ولا تستضيءُ لها، ولكنْ تَسْتَوْقِدُ عليها!

إنَّ مَنْ فَقَدَ الخيرَ ووقعَ في الشرّ، حَرِيٌّ أنْ يكونَ قد أصابَ خيراً عظيماً إذا قتل نفسَهُ فخلص من الشرِّ والخيرِ جميعاً، لا يُكْدِي ولا يَنْجَحُ، ولا يألمُ ولا يَلذُّ؛ وكما أنكرَتْهُ الدنيا فلْينكرْها. أمَا إنَهُ إنْ كان القبرُ فالقبرُ ولكنْ في بطن الأرضِ لا على ظهرِها كحالِنا؛ وإنْ كان الموتُ فالموتُ ولكنْ بمرَّةٍ واحدةٍ وفي شيءٍ واحدٍ لا كهذا الذي نحن فيه أنواعاً أنواعاً. قد ماتَتْ أيَّامُنا، وترَكَتْنا نعيشُ كالموْتى لا أيامَ

لهم، وزادَ علينا الموتى في النعمة والراحة أنَّهم لا يتطفّلون على أيام غيرِهِم فيُطْرَدوا عن يوم هذا ويوم ذاك.

قال: فاستعبرَتِ المرأةُ باكيةً، ولمَّا فرِغَتْ من كلام دموعِها قالت: كأنَّكَ تُريدُ أنْ تَفجَعَنا فيك؟ قلْتُ: ما عَدَوْتِ ما في نفسي؛ ولكنْ هلْ بقيَ فيَّ مَنْ تُفجَعينَ فيه؟ أمَا ذهبَ مني ذاك الذي كان لكِ زوجاً وكاسِباً، وجاءَ الذي هو همُّك وهمُّ هذا الصبيِّ من رجلٍ كالحفرة لا تنتقلُ من مكانِها وتأخذُ ولا تُعطِي؟

أمْ والله لكأني خُلقْتُ إنساناً خطأً، حتى إذا تبيَّنَ الغلطُ أريدُ إرجاعي إلى الحيوان فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك، وبقيْتُ بينَهما؛ يمرُّ الناسُ بي فيقولون: إنسانٌ مِسكين. وأحسبُ لو نطَقتِ الكلابُ لقالتْ عنِّي: كلبٌ مسكين. يا عجباً! عجباً لا ينتهي! أصبحتِ الدنيا في يدِنا من العجزِ واليأسِ كأنَّما هي بَعْرَةٌ نَجْهَدُ في تحويلِها ياقوتةً أو لؤلؤة...

فقالتِ المرأة: والله لئنْ حَيِيتَ على هذا إنَّ هذا لكفرٌ قبيح، ولئنْ مُتَّ عليه إنَّهُ لأقبحُ وأشدّ.

فقلْتُ لها: ويحكِ وماذا تنظرُ العينُ المُبصِرةُ في الظلام الحالكِ إلّا ما تنظرُ العمياء؟

قالت: ولِمَ لا تنظرُ كما ينظرُ المؤمنُ بنورِ الله؟

قلْتُ: فانظرِي أنت وخبِّريني ماذا تَرَيْن. أترَيْن رغيفاً؟ أتريْن إداماً؟ أترَيْنَ ديناراً؟

قالت: والله إني لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك. أرى قمراً سيكْشِفُ هذه السُّدْفَةَ المُظلِمةَ إنْ لم يَطْلُعْ فكأنْ قَدْ.

قال: فغاظتني المرأةُ ورأيْتُها حينئذٍ أشدَّ عليَّ بقلَّة ذاتِ عقلِها من قلَّة ذاتِ يدي؛ ولولا حبِّي إيّاها ورحمتِي لها لأوقعْتُ بها. واستحكم في ضميري أنْ أزهِقَ نفسي وأدَعَها لِمَا كُتِب لها.

وقلْت: إنَّ جُبنَ المرأة هو نصفُ إيمانِها حينَ لا يكون نصفَ عقلِها، وللقَدَرِ يدٌ ضعيفةٌ على النساءِ تَصْفَعُهُنَّ وتمسحُ دموعَهُنَّ، ولهُ يدٌ أخرى على الرجالِ ثقيلةٌ تصفعُ الرجل وتأخذُ بحلقِه فتعصِرُه.

* * *

قال: وكنتُ قد سمعْتُ قول الجاهلية في هذه الخليقة؛ أرحامٌ تَدْفَع، وأرضٌ

تَبْلع. فحضَرني هذا القولُ تلكَ الساعةَ وشُبِّهَ لي، واعتقدْتُ أنَّ هذا الإنسانَ شيءٌ حقيرٌ في الغاية من الهوان والضَّعة: حملتْهُ أمُّهُ كُرْهاً، وأثْقَلتْ به كُرهاً، ووضَعتْهُ كُرهاً؛ وهو من شُؤمِه عليها إذَا دَنَا لها أنْ تَضَعَ لم يخرجْ منها حتى يَضْرِبَها المخاضُ فتتقلَّبُ وتصيحُ وتتمزَّقُ وتَنْصَدِع؛ وربمَّا نَشِبَ فيها فقتلها، وربَّما التوى فيُبْقَرُ بطنُها عنه. وإذا هي ولدتْهُ على أيِّ حالَيْها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثلِ المَطَارِقِ المحطِّمة، أو سَرَاحٍ ورَواحٍ كما يتيسَّر ـ فإنَّما تلدُهُ في مَشيمَةٍ ودماءٍ وقذَرٍ من الأخلاطِ كأنَّما هو خَارجٌ مِن جُرْح. ثم تتناولُهُ الدنيا فتضَعُهُ من معانيها في أقبحَ وأقذرَ من ذلك كلِّه. ثُمَّ يستوفي مُدَّتَهُ فيأخذُهُ القبرُ فيكون شرًّا عليه في تمزيقِه وتعفينِه وإحالتِه.

قال: وحضَرني مع كلمة الجاهلية قَولُ ذلك الجاهلِ الزِّنديقِ الذي يُعرفُ (بالبَقْلِيّ) ـ إذْ كان يزعمُ أنَّ الإنسان كالبَقْلة، فإذا ماتَ لم يَرْجع. وقلْتُ لِنفسي: إنَّما أنت بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ في أرضٍ نَشَّاشةٍ[1]، فقتلهَا مِلْحُ أرضِها أكثرَ مِمَّا أحياها.

قال: وثُرْتُ إلى المِدْية أريدُ أنْ أتوَجَّأ بها، فتُبادرني المرأةُ وتحولُ بيني وبينَها؛ وأكادُ أبطُشُ بها من الغيظ، وكانَتْ روحُ الجحيم تَزْفِرُ من حولي لو سَمِعوا سمعوا لها شهيقاً وهي تَفور؛ فما أدري أيُّ مَلكٍ هبطَ بوحْي الجنة في لِسان امرأتي.

قلْتُ لها: إنَّها عَزْمةٌ منِّي أنْ أقتل نفسي.

قالت: وما أريدُ أنْ أنقضَها ولسْتُ أرُدُّك عنها وستُمْضيها.

قلْتُ: فخلِّي بين نفسي وبين المِدية.

قالت: كلُّنا نفسٌ واحدة أنا وأنت والصبيُّ فلْنَقْضِ معاً؛ وما بنفسي عن نفسِك رغبةٌ ولا ندعُ الصبيَّ يتيماً يصفعُهُ مَنْ يُطْعِمُه، ويضرِبُه ابنُ هذا وابنُ ذاك إذْ لا يستطيعُ أنْ يقول في أولادِ الناسِ أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا.

قلْتُ: هذا هو الرأي.

قالت: فتعال اذبحِ الطفل. . . .

* * *

قال المسيَّب بْنُ رافع: وما بلغَ الرجلُ في قصتِه إلى ذبحِ صغيرِه حتى ضجَّ الناسُ ضجةً مُنكَرة؛ وتوهَّمَ كلُّ أبٍ منهم أنَّ طفلهُ الصغيرَ مُمدَّدٌ لِلذبحِ وهو يُنادي أباهُ ويشُقُّ حَلْقَهُ بالصُّراخ: يا أبي يا أبي؛ أدركْني يا أبي.

(١) الأرض النشاشة: هي السبخة التي فيها الملح والماء.

أمّا الإمامُ فدَمَعَتْ عيناهُ وكنتُ بين يديه فسمعْتُهُ يقول: إنَّا للَّهِ، كيف تصنعُ جهنمُ حطبَها؟

وأنا فما قَطُّ نسِيتُ هذه الكلمة، وما قطُّ رأيْتُ من بعدِها كافراً ولا فاسقاً فاعتبرْتُ أعمالهُ إلَّا كان كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طريقةُ صَنعتِه حَطباً... كأنَّ الشيطانَ لعنَهُ الله يقولُ لأتباعِه؛ جَفِّفوه...

وكانَتْ هُنَيهاتٌ، ثُمَّ فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسِهم وصاحوا بالمتكلم: ثم ماذا؟

* * *

قال الرجل: ففتحْتُ عيني وقلبي معاً ورَمقْتُ الطفل المسكينَ الذي لا يملِكُ إلَّا يديه الضعيفتينِ؛ ونظرْتُ إلى مَجْرَى السكين من حلقِه وإلى مَحَزِّها في رقبتِه اللّينة؛ ورأيْتُهُ كأنَّما تفرَّقَ بصرُهُ من الفزَعِ على كلِّ جهة، ورأيْتُهُ يتضرَّعُ لي بعينيه الباكيتين ألّا أذبَحَه، ورأيْتُهُ يتوسلُ بيديه الصغيرتين كأنّهُ عرفَ أنَّهُ منّي أمامَ قاتلِه، ثُمَّ خُيِّل إليَّ أنّه يتلوّى وينتفضُ ويصرُخُ من ألم الذبحِ تحتَ يدِ أبيه؛ تحت يدِ أبيه التَّعِس.

يا ويلتاهُ! لقد أخذَني ما كان يأخُذني لو تهدَّمَتِ السماءُ على الأرض، وحسبْتُ الكونَ كلَّهُ قدِ انفجَرَ صُراخاً من أجلِ الطفلِ الضعيف الذي ليس له إلّا ربُّهُ أمامَ القاتل.

فهَرْوَلْتُ مسرعاً وتركْتُ الدارَ والمرأةَ والصبيَّ وأنا أقولُ يا أرحمَ الراحمين. يا مَنْ خلقَ الطفل عالمُهُ أمُّهُ وأبوه وحدَهما وباقي العالم هباءٌ عندَه. يا مَنْ دبَّرَ الرضيعَ فوهبَهُ مُلكاً ومملكةً وغِنًى وسروراً وفرحاً، كلُّ ذلك في ثَدْي أمِّه وصدرِها لا غيرَ يا إلهي: أنسنِي مثل هذا النسيان، وارزقْني مثل هذا الرزق، واكفُلْني بمثلِ هذا التدبيرِ فإنِّي منقطعٌ إلّا من رحمتِك انقطاعَ الرضيعِ إلّا من أمِّه.

* * *

قال الرجل: ولقد كنْتُ مغروراً كالجيفة الراكدة تحسبُ أنَّها هي تفورُ حينَ فارتْ حشَراتُها. ولقد كنْتُ أحقرَ من الذبابِ الذي لا يجدُ حقائقَه، ولا يلتمسُها إلّا في أقذرِ القذر.

وما كِدْتُ أمضي كما تسوقُني رجلاي حتى سمعْتُ صوتاً نَدِيًّا مطلولاً يُرَجِّعُ ترجيعَ الوَرْقاءِ في تَحْنانِها وهو يُرتِّل هذه الآية:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال: فوقفتُ أسمعُ وماذا كنتُ أسمع؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات، أحرقَتْ كلَّ ما كان حولي ولمسَتْ مِصباحَ رُوحِي المنطفىءَ فإذا هو يتوهَّجُ، وإذا الدنيا كلُّها تتوهجُ في نورِهِ، وارتفَعَتْ نفسي عن الجَذْبِ الذي كنتُ فيه وكأنَّما لفَّتْني سحابةٌ من السُّحُب، ففي روحي نسيمُ الماءِ الباردِ ورائحةُ الماءِ العذْب.

لعنَ الله هذا الاضطرابَ الذي يُبتَلى الخائفُ به. إنَّنا نحسبُهُ اضطراباً وما هو إلَّا اختلاط الحقائقِ على النفسِ وذَهابُ بعضِها في بعض، وتَضَرُّبُ الشرِّ في الخيرِ والخيرِ في الشرِّ حتى لا يَبِينَ جنسٌ من جنس، ولا يُعرَفَ حَدٌّ من حدّ، ولا تمتازَ حقيقةٌ من حقيقة. وبهذا يكون الزمنُ على المبتَلى كالماءِ الذي جَمدَ لا يتحرَّكُ ولا يَتَسايَرُ. فيلوحُ الشرُّ وكأنَّهُ دائماً لا يزالُ في أولِه يُنذِرُ بالأهوال، وقد يكون هَوْلُهُ انتهى أو يُوشِك.

قال الرجل: وكنْتُ أرى يأسي قدِ اعْتَرَى كلَّ شيء، فامتدَّ إلى آخرِ الكون وإلى آخِرِ الزمن؛ فلمَّا سكَن ما بي إذا هو قد كان يأسَ يوم أو أيام في مكانٍ من الأمكنة؛ أمَّا ما وراءَ هذه الأيَّام وما خلْفَ هذا المكان، فذلكَ حُكمُهُ حكمُ الشمسِ التي تطلُعُ وتغيبُ على الدنيا لإحيائها، وحكمُ الماءِ الذي تَهْمِي السماءُ به لِيسقِيَ الأرضَ وما عليها، وحكمُ استمرارِ هذه الأجرام السماويَّة في مَدَارِها لا تُمسِكها ولا تَزِنُها إلَّا قوةُ خالقِها.

أين أثرُ الإنسان الدنيءِ الحقيرِ في كلِّ ذلك؟ وهلِ الحياةُ إلَّا بكلِّ ذلك؟

وما الذي في يدِ الإنسان العاجزِ من هذا النظام كلِّه فيَسُوغَ له أنْ يقول في حادثةٍ من حوادثِه إنَّ الخيرَ لا يبتدِىءُ وإنَّ الشرَّ لا ينتهي؟

تَعترِي المصائبُ هذا الإنسانَ لِتمحوَ من نفسِه الخِسَّةَ والدناءة، وتكسِرَ الشرَّ والكِبرياء، وتَفْثأ الحِدَّةَ والطيش؛ فلا يكون من حُمقِهِ إلَّا أنْ يزيدَ بها طيشاً وحِدَّة، وكِبرياءَ وشرًّا، ودناءةً وخِسَّة، فهذه هي مصيبةُ الإنسان لا تلك.

المصيبةُ هي ما يَنْشأ في الإنسان من المصيبة.

* * *

قال: وردَّدْتُ الآيةَ الكريمةَ في نفسي لا أشبعُ منها، وجعلْتُ أرتِّلُها أحسنَ ترتيلٍ وأطرَبَهُ وأشجاه؛ فكانتْ نفسي تهتزُّ وترتجُّ كأنَّما هي تبدأ تنظيمَ ما فيها لإقرارِ كلِّ حقيقةٍ في موضعِها بعدَ ذلك الاختلاطِ والاضطراب.

صبرُ النفسِ مع الذين يمثِّلونَ روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغَداة والعشيّ، وعلى نورِ الحياة وظلامِها، يُريدون وَجهَ الله الذي سبيلُهُ الحُبُّ لا غيرُهُ من مالٍ أو متاع.

وتقييدُ العينين بهذا المثَلِ الأعلى كما يكون الأمرُ في الجمالِ والحُبّ؛ والربطُ على الإرادة كَيْلاً تَتَفلَّتَ فتُسِفَّ إلى حقائرِ الدنيا المسماة هُزُءاً وتهكماً زينةَ الدنيا، تلك التي تُشبهُ حقائقَ الذبابِ العالية. . . فتكونُ قَذِرةً نجِسةً، ولكنَّها مع ذلك زينةُ الحياة لِهذا الخَلْقِ الذُّبابي.

تلك ـ والله ـ هي أسبابُ السعادة والقوّة. أمَّا المصائبُ كلُّها، فهي في إغفالِ القلبِ الإنسانيِّ عن ذكرِ الله.

* * *

قال: ولمَّا صَحَّتْ توبتي، وقَوِيَ اليقينُ في نفسي، كَبُرَتْ روحي واتسعَتْ، وانبعثَتْ لها بواعثُ من غير حقائقِ الذباب، وأشرقَ فيها الجمالُ الإلهيُّ ساطعاً من كلِّ شيء، وكان الصبحُ يطلعُ عليَّ كأنَّهُ وِلادةٌ جديدة، فأنا دائماً في عُمرِ طفل، وجاءَنِي الخيرُ من حيثُ أحْتَسِبُ ولا أحتسِب، وكأنَّما نِمْتُ فانتبهْتُ غنيًّا وعَمِلَ القلبُ الحيُّ في الزمن الحيّ.

ولقد أفذتُ من الآية طبيعةً لم تكُنْ فيَّ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً، فأصبحَ من خِصالي أنْ أرى الحاضرَ كلَّهُ متحرِّكاً يمرُّ بما فيه من خيرِه وشرِّه جميعاً، وأسْتَشْعِرَ حركتَهُ مثلما ترى عيناي من قِطَارِ الإبلِ يهتزُّ تحتَ رِحالِه وهو يُغِذُّ السَّير.

لم أبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوكِّلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نعمةٍ ومُروءةٍ وجاهٍ، وكأنَّما كلَّمَهُ قَلبُه أو كلَّمَهُ وجهي في قلبِه فاستَنْبأني، وبَثَثْتُه حالي واقْتَصَصْتُ قِصتي. فقال: سيُحييك الله بالطفلِ الذي كِدْتَ تقتُلَهُ فارجِعْ إلى دارِك. ثُمَّ وجَّهَ إليَّ دنانيرَ وقال: اِتَّجِرْ بهذه على اسم الله وبركتِه فسينمو فيها طفلٌ من المالِ يبلغَ أشدَّه. وقد صدقَ إيمانُهُ وإيماني، فباركَ لِيَ الله ونما طفلُ المالِ وبلغَ وجاوَزَ إلى شبابِه.

* * *

قال المسيَّب: وجلسَ الرجلُ وكان كالخطيبِ على المنبر، فقال الإمام: ما أشبَهَ النكبَةَ بالبَيْضة تُحسَبُ سِجناً لِما فيها وهي تحوطُهُ وتربِّيه وتُعينُهُ على تَمامِه، وليس عليه إلَّا الصبرُ إلى مدَّة، والرِّضى إلى غاية، ثم تَنْقُفُ البيضةُ فيخرجُ خَلقاً آخر.

وما المؤمنُ في دنياهُ إلّا كالفَرْخِ في بَيضتِه، عملُهُ أنْ يتكوَّنَ فيها، وتمامُهُ أنْ ينبثِقَ شخصُهُ الكاملُ فيخرجَ إلى عالمِه الكامل.

الانتحار

(٤)

قال المسيَّب بْنُ رافع: ومدّ الإمامُ عينَهُ وقد رُفِعَ له شخصٌ منَ المجلس؛ ثم جَلى بنظرِه كأنَّما يتطلَّعُ إلى عجيبةٍ كالحقِّ إذا بَطَل، والصدقِ إذا كَذَب؛ ثم ردَّ بصرَهُ عَليَّ كأنهُ يُعَجِّبُني من عجبِه؛ ثم سَجَا طرْفُهُ كأنَّما أنكرَ رأيَ عينيه فهو يلتمسُ رأيَ قلبِه. وتبيَّنتُ في وجهِه انقباضاً خَيَّل إليَّ أنَّ الشيطانَ جاءَهُ بهذا الرجلِ يُفْحِمُهُ به يُريه كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحينَ يتحمَّسُ في دينِه لِيرجعَ بعدَ ذلك أصلاً لا غِنى عنهُ في إنشاءِ قصة كُفْر!

هذا هو ضيفُنا (أبو محمدٍ البَصْريُّ)[*] يَتَخَوَّضُ الناسَ لِيجيءَ فيُحدِّثنا حديثَهُ في قَتْلِ نفسِه والاثم بربّه؛ فلو قيل لي: إنَّ قَوْسَ السماءِ بأحمرِه وأصفرِه وأزرقِه وأخضرِهِ، قد وقعَ إلى الأرضِ واصطبغَ من ألوانِه أوحالاً وأقذاراً؛ لَكَانَ هذا كهذا في تعاظُمِه وإنكارِه والعجَبِ منه؛ فأبو محمدٍ من الرجالِ الحُمْسِ[١] الذين لو كَفَرَ أحدُهم ثُمَّ قيل: «إنه كفر»، لقَصَّرَ اللفظُ أنْ يبلُغَ الحقيقةَ أو يصِفَ شُنْعتَها، كما يقَصِّرُ لفظُ الجنون عن وصف حكيم تألَّى أنْ يعمل عملاً يَخرجُ به منَ الكون، فلا يبقى في أرضٍ ولا سماءٍ ولا تنالُهُ يدُ الله! إنَّ في لفظِ الكفرِ مع ذاك، وفي لفظِ الجنون مع هذا ـ شيئاً من نِفاقِ العقلِ وتأدُّبِه في أداءِ المعنى الأخرقِ الذي لا يُشْبِهُهُ جنونٌ ولا كفر.

ونعوذُ بِالله من خِذلانهِ؛ فلقد يكون الرجلُ المؤمنُ في تشدُّدِه وإيغالِه في الدين ـ كالذي يصنعُ حبلاً يَفْتِلُهُ فتلاً شديداً فيُمِرُّهُ على طاقٍ بعدَ طاق، لِيكونَ أشدَّ له وأقوى، ثُمَّ يُجاذبُهُ الشيطانُ حَبْله، فإذا هو كان في الوهَن مثل العنكبوتِ اتَّخذَتْ

(*) يعني المؤلف بأن محمد البصري هذا صديقنا الأستاذ (م) ومن أجله أنشأ هذه المقالات وقد سبقت إشادتنا إلى حادثته وخبره وما فعل بنفسه ـ فانظر كل ذلك في موضعه من كتابنا (حياة الرافعي) وأكثر ما يأتي في هذا الفصل على لسان «أبي محمد البصري» فهو من قوله بحروفة إلا قليلاً من قليل.

(١) أي المتحمسين في دينهم.

بيتاً في سَقْف حدّاد؛ فرأتْهُ يصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعلُهُ سلسلةً حَلْقةً في حلْقة، فذهبَتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطاً في خيطٍ تزعُمُه سلسلة. . . !

إنَّ مع كلِّ مؤمنٍ شيطانَهُ يتربَّصُ به، فلهذا ينبغي لِلمؤمن أنْ يكونَ في كلِّ ساعةٍ كالذي يشعرُ أنَّهُ لم يؤمنْ إلَّا منذُ ساعة، فهو أبداً محترسٌ متهيّئٌ متجدِّدُ الحواسِّ مُرْهَفُها يستقبلُ بها الدنيا جديدةً على نفسِه بين الفترة والفترة: ومن هذا حِكمةُ أنْ يؤذِّنَ المؤذِّنُ، وأنْ تُقام الصلاةُ مِراراً في اليوم، فكلّما بدأ وقتٌ قال المؤمن: الآنَ أبدأ إيماني أطهرَ ما كان وأقوى.

***

وقال الإمام: هِيه يا أبا محمد! فقال البَصْرِيُّ وقد رأى الكراهةَ في وجه الإمام: لا يُفْزِعنك أيُّها الشيخ؛ فإنَّ الله ـ تعالى ـ قد يجعلُ ما يُحبُّهُ هو فيما نكرهُ نحن؛ وليس لِلأقدارِ لغةٌ فتجريَ على ألفاظِنا؛ وقد نُسمي النازلةَ تنزلُ بنا خساراً وهي ربح، أو نقولُ مصيبةٌ جاءَتْ لِتبديلِ الحياة، ولا تكونُ إلَّا طريقةً تَيسَّرتْ لِتبديلِ الفكر. إنَّما لغةُ القدَرِ في شيءٍ هي حقيقةُ هذا الشيءِ حين تظهرُ الحقيقة؛ وكأيِّنْ من حادثةٍ لا تُصيبُ امرأً في نفسِه إلَّا لِتقعَ بها الحربُ بين هذه النفسِ وبين غرائزِها. فتكونَ أعمالُ الطبيعة المعادية أسباباً في أعمالِ العقلِ المنتصر.

وكثيرٌ من هذا البلاءِ الذي يُقْضَى على الإنسان، لا يكون إلَّا وسائلَ منَ القدَرِ يُرَدّ بها الإنسانُ إلى عالم فكرِه الخاصِّ به؛ فإنَّ هذه الدنيا عالمٌ واحدٌ لِكلِّ مَنْ فيها، ولكنَّ دائرةَ الفكرِ والنَفسِ هي لِصاحبِها عالمُهُ وحدَه. والسعيدُ من قرَّ في عالمِه هذا واستطاعَ أنْ يحكمَ فيه كالملكِ في مملكتِه، نافذَ الأمرِ في صغيرتِها وكبيرتِها؛ والشّقيُّ مَنْ لا يزالُ ضائعاً بين عوالمِ الناس، ينظر إلى هذا الغنيّ، وإلى ذاك المجدود وإلى ذلك الموفّق؛ وهو في كلِّ هذا كالأجنبيِّ في غير بلدِه وغير قومِه وغير أهلِه، إذْ كلُّ شيءٍ يُصبحُ أجنبيًّا عن الإنسان ما دامَ هو أجنبيًّا عن نفسِه.

لقد كنْتُ ضالاً عن نفسي وعالمِهَا، فكنْتُ في هذه الدنيا أستشعِرُ شعورَ اللّصّ، أشياؤُه هي أشياءُ الناسِ جميعاً؛ واللصُّ ينظُرُ إلى أموالِ الناسِ بعينَي شاعرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِف، وهي تنظرُ إليه بعينيْ مُقاتِلٍ متربِّصٍ حَذِرٍ.

كنتُ والله إن ضِقْتُ بالناس أو وَسِعْتُهم؛ رأيتُ في ذلك معنى من ضيق اللص وسَعَتِه؛ هو على أيِّ حالَيه لا ينظر في أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلَّلُ في خَشْيَة وحذَرٍ!

وكنْتُ نَزِقاً حديدَ الطبعِ سريعَ البادرة؛ ومَنْ فَقدَ عالمَ نفسِه وكان في مَثَلِ اللص الذي ذكرْتُ؛ فإنَّ هذه الطباعَ تكونُ هي أسلحتَهُ يَدْفَعُ بها أو يعتدي. وما قطُّ تَمكّنَ إنسانٌ من نفسِه وأحاطَ بها ونفذَ فيها تصرُّفه؛ إلَّا كان راضياً عن كلِّ شيءٍ إذْ يتَّصلُ من كلِّ شيءٍ بجهتِه السامية لا غيرِها، حتى في اتصالِه بأعدائِه منَ الناسِ وأعدائِه منَ الأشياء؛ فما يرى هؤلاءِ ولا هؤلاءِ إلَّا امتحاناً لِفضائِلِه وإثباتاً لها. وقد يكون عدوُّك في بعضِ الأمورِ عيناً لك في رؤية نفسِك؛ ففيه بَركةُ هذه الحاسَّة ونِعمتُها.

ولو نحن كنَّا مسلمينَ إسلامَ نبيِّنا ﷺ، وإسلامَ المقتدينَ به من أصحابِه ـ لأدركْنا سرَّ الكمالِ الإنسانيّ؛ وهو أنْ يَقَرَّ الإنسانُ في عالم نفسِه ويجعل باطنَهُ كباطن كلِّ شيءٍ إلهيّ، ليس فيه إلا قانونُهُ الواحدُ المستمرُّ به إلى جهة الكمال، المرتفعُ به من أجلِ كمالِه عن دوافعِ غيرِه؛ فنَظَرُ الإنسان إلى نقصِ غيرِه هو أولُ نقْصِه. والمؤمنُ كالغصن؛ إنْ أثمرَ فتلك ثمارُ نفسِه، وإن عَطَل لم يَشْحَذْ ولم يحسُدْ واستمرَّ يعملُ بقانونِهِ.

ولقد نشأتُ في مَغرِسٍ كريم، على صورةٍ من الحياة تُشبِهُ صورةَ الثمرة الحُلوة، اجتمع لها من طبيعة مغرسِها ومَرْتَبتِها ما تتعيَّنُ به من حلاوة ونكْهةٍ ومَذاق؛ فلمَّا عَقلْتُ وعرفْتُ الناسَ بعدُ فجارَيْتُهم وخالطْتُهم، رَأيْتُني منهم كالتفَّاحة ملقاةً في البصَل. وكانتِ التفاحةُ حمقاءَ فزادَتْ حُمقاً، وكانَتْ جديدةً فزادَتْ جِدّة، وظنَّتْ أنَّ الحِكمةَ قد مُسِخَتْ في الدنيا وبُدِّلَتْ إذْ خُلِقَتِ البَصَلةُ بعدَ أنْ خُلقَتِ التفاحة؛ وما علمَتِ الخرقاءُ أنَّ الكمال في هذه الحياة مجموعُ نقائص، وأنَّ لِلجمالِ وجهين: أحدُهما الذي اسمُهُ القبح؛ لا يُعرفُ هذا إلَّا من هذا؛ وأنَّ البصلةَ لو أدركَتْ ما يُريدُ الناسُ من معناها ومعنى التفاحة لسَمَّتْ نفسَها هي التفاحَة، وقالتْ عن هذه إنَّها هي البصلة!

ولـمَّا رأتْ تفّاحتي أنَّها عاجزةٌ أنْ تجعل الشجرَ كلَّهُ في مثلِ مرتبتِها ومغرسِها ـ قالت: إنَّ الأمرَ أكبرُ من طبيعتي، وما دامَ سرُّ الكون مُغْلقاً فلا تعريفَ له إلا أنَّهُ سِرٌّ مغلق، ولْيَبْقَ كلُّ شيءٍ في طبيعة نفسِه، فعلى هذا يَصلُحُ كلُّ شيءٍ ولو في نفسِه وحدَها.

* * *

قال أبو محمد: ولكنْ بقيَتْ وَحْشةُ الدنيا وجَفوتُها، إذْ لم أكن اهتديْتُ إلى عالمي، ولا تأكَّدَتْ عقيدتي بنفسي؛ فكان كلُّ ما حولي مُنبجِساً في رُوحي بِشرِّه، وكانَتِ الدنيا بهذا كالمتطابقة في رأيي على معنًى واحد، وزادني أنّي كنْتُ رجلاً

عَزَباً متعفِّفاً؛ وما أشبَهَ فراغَ الرجولة من المرأة بفراغِ العقلِ من الذكاء؛ هذا هو العقلُ البليد، وتلك هي الرجولةُ البليدة!

والمرأةُ تُضاعِفُ معنى الحياة في النفس، فلا جَرَمَ كان الخَلاءُ منها مضاعَفةً لِمعنى الموت؛ عَلِمَ هذا مَن عَلم وجَهلهُ من جَهِل، فكنْتُ أعيشُ منَ الكون في فراغٍ ميّت، وكنْتُ أحِسُّ في كلِّ ما حولي وحشةً عقليَّةً تُشعرُني أنَّ الدنيا غيرُ تامَّةٍ؛ وكيفَ تَتِمُّ في عيني دنيا أراها غيرَ الدنيا التي في قلبي؟

وعرفْتُ أنَّ كلَّ يوم يمضي على الرجلِ العَزَبِ المتعفِّف لا يمضي حتى يُهيىءَ فيه مَرضَ يوم آخرَ. ومن هذه الأيام المريضة المتهالِكة، تُعِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحيّ الذي نَقَضَ آيتَها وافتَأَتَ عليها، وجَعل نفسَهُ كالإله لا زوجةَ له ولا صاحبة!

وأيْمُ الله إنَّ الشيطانَ لا يفرحُ بالرجلِ الزاني وبالمرأة الزانية ما يَفرحُ بالرجلِ العَزَبِ وبالمرأة العزباء؛ لأنَّهُ في ذينِكَ رذيلةٌ في أسلوبِها، أمَّا في هذين فالشيطانُ رذيلةٌ في أسلوبِ فضيلة. . . ! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضي، وهنا يأتي الشيطانُ ويُقيم!

وقد عِشْتُ ما عِشْتُ بقلبٍ مُغلقٍ وعقلٍ مفتوح؛ وليتني كنْتُ جاهلاً مُغلَقاً عقلُهُ، وكان قلبي مفتوحاً لأفراحِ هذا الكون العظيم!

ومضَتْ أيامي يَضربُ بعضُها في بعض، ويُمرِضُ بعضُها بعضاً حتى انتهَتْ مُنتهاها، وجاءَ اليومُ المُذنَفُ الهالكُ الذي سيموت.

أصبحْتُ فقُلْتُ لِنفسي: كم تعيشينَ ويحكِ في أحكام جسدٍ مُختلٍّ لا تَصْدُقُ أحكامُه، وما أنتِ معهُ في طبيعتِكِ ولا هو معكِ في طبيعتِهِ؛ ففيم اجتماعُكُما إلَّا على بلائي ونكَدي؟

لم تصطلحا قطّ على واجب ولا لذّة، ولا حلالٍ ولا حرام؛ فأنتما عدُوَّان لا همَّ لِكليهما إلَّا إفسادُ المسرَّة التي تَعرِضُ لِلآخر. وما أدري بِمَنْ يسخَرُ الشيطانُ منكما؟ فالعابدُ الذي يُوَسْوِسُ باللذاتِ يتمنَّى اقترافَها، كالفاجرِ الذي يُواقِعُها ويقتحمُها!

ويحكِ يا نفس! إنِّي رأيْتُ هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدِّم لي إلَّا رغيفاً وقالت: إملأْ بهذا بطنَكَ وعقلكَ وعينَيكَ وأذنيكَ ومشاعرَك. آه، آه! مُمْكِنٌ واحدٌ معهُ أربعُ مستحيلات[١]؛ إنَّ هذا لا يُلْبِثُني أنْ يذهبَ مني بالأربعة التي تُمسِكني على الحياة: الأملِ والعقلِ والإيمان والصبر.

---

(١) الرغيف يملأ البطن فهذا هو الممكن ولكن عمله في الباقيات مستحيل.

لقدِ استوى في هذه الكآبة صغيرُ همّي وكبيرُه، وما أراني إلّا قد أشرفتُ على الهلكة التي لا باقيةَ لها، فإنَّ وجهي المتَكلِّحَ المتقبِّضَ يَدُلُّ منّي على أعصابِ مُحتضرةٍ نَهَكَتْها أمراضُها ووساوسُها، وإنَّما وجهُ الإنسان في قُطوبِهِ أو تَهلُّلِه هو وجهُهُ ووجهُ دُنياهُ تَعبسُ أو تبتسم.

وتالله لقد عجزتُ عن كِفاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضة الواهنة؛ فإنَّ حِبَالَةَ الصَّيد ـ صَيدِ الوحش ـ لا تكونُ من خَيطِ الإبرة...! وأراني أصبحتُ كإنسان حجَريٍّ ليس في طبيعتِهِ الالتواءُ إلى يمين الحياة ويسارِها؛ ويُخَيَّلُ إليَّ من صلابتي أنّيَ الأسد، ولكنّي أسدٌ من حجَر، لا تفرِضُ قوّتُهُ الفرارَ منه على أحد!

قال أبو محمد: ورأيْتُ نفسي في هذا الحوارِ كالميِّتة، لا تُجيبُ ولا تعترضُ ولا تُنكِر، وكنتُ أظنُّها تُراودُني على الحياة أو تردُّني عن غَوايتي؛ فَملأني سكونُها جزَعاً، وأيقنتُ أنَّ الشيطانَ بيني وبينَها، وأنَّهُ أخذَ بمنَافِذِها، فأردْتُ الصلاةَ فَثقُلْتُ عنها ورأيتُني لا أصلحُ لها، بل خُيِّل إليَّ أنّي إذا قمْتُ إلى الصلاة فإنَّما قمْتُ لأَتَهزّأَ بالصلاة!

وجعل الشيطانُ يأخذُني عن عقلي ويردُّني إليه، ثُمَّ يأخذُني ويردُّني، حتى توهَّمْتُ أنّي جُنِنْت، وكأنَّما كان يُريدُ اللعينُ بقيَّةَ إيماني يُجاذبُني فيها وأجاذبُه، فلم ألبثْ أنْ مسَّني خبالٌ وألقيْتُ هذه البقيَّةَ في يديه!

ثُمَّ أفقْتُ إفاقةً سريعة، فرأيْتُ (المصحفَ) يَرقُبُني قريب، فعُذْتُ بِهِ وعطفْتُ عليه وقلْتُ له: اِمنعِ الضربةَ عن قلبي. بَيْدَ أنّي أحسسْتُ أنَّهُ خَصمي في موقفي لا ظَهيري؛ كأنّي جعلْتُهُ مصحفاً عند زِنديق، فكان كلُّ إيماني الذي بقيَ لي في تلك اللحظة أنّي ضَعفْتُ عن حَملِ المصحف كما ثقلْتُ عن الصلاة، فبقي الطاهرُ طاهراً والنجسُ نَجساً.

ولم تكنْ نفسي فيَّ ولا كنتُ فيها؛ فرأيْتُ الدنيا على وجهٍ لا أدري ما هو، غيرَ أنَّهُ هو ما يُمكنُ أنْ يكونَ معقولاً من تَخاليطِ مجنونٍ تركَهُ عقلُهُ من ساعة: بقايا شعورٍ ضعيف، وبقايا فهمٍ مريض، تَتَصاغَرُ فيهما الدنيا، ويتحاقَرُ بهما العقل.

فلمّا انتهيتُ إلى هذا لم أعقلْ ما عملْت، وكانَتِ المُوسى قد أصابَتْ من يدي عِرْقاً ناشزاً مُنتَبِراً، ففارَ الدَّمُ وانفجرَ منه مثلُ الينبوعِ ضُرِبَ عنه الصخرُ فانشقَّ فانبثَق.

وتحقَّقْتُ حينئذٍ أنَّهُ الموتُ فنظرْتُ فرأيت....

* * *

قال المسيَّب راوي القصة: وتجهَّمَ وجهُ الرجلِ فأطرقَ وسكَت، وكان على وجهِه شَفَقٌ مُحْمَرٌ فأظلَمَ بغتةً عندما قال: «فنظرْتُ فرأيْت».

وارتجَّ المسجدُ بصَيحةٍ واحدة: فرأيْتَ ماذا؟ رأيْتَ ماذا؟

وبَعَثَتِ الصيحةُ أبا محمد فقال: رأيْتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرفَتْ من المصحف تنظرُ إليَّ كالعاتبة، وكان أوسطُها كالقمرِ الطالع، لو تمَثَّلتْ آياتُ الجنة كلُّها وجهاً لكانتْهُ في نَضرَتِه وبشاشتِه. وغَمْغَمَتِ الوجوهُ الثلاثةُ بكلمات لم أسمعْ منها شيئاً، ولكنَّ نظرَها إليَّ كان يؤدّي لي معانيَها، وكأنَّها تقول: «أكذلك المؤمن...؟».

ثُمَّ غابَتْ وتخلَّتْ عنِّي وبرزَتْ ثلاثةُ وجوهٍ أخرى، كأنَّها نقائضُ تلك، وأعوذُ باللهِ من أوسطِها، لو تمثَّلتْ آياتُ الجحيم كلُّها وجهاً لكَانتْهُ في نُكْرِه وهَوْلِه، وخُيِّل إليَّ أنَّ الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَرِ المصحف، ففكَّرْتُ، فَوَقَعَ لي مِمَّا قامَ في نفسي من اللعنة أنَّها: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]...

وطَمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغَيَّمَتِ الدنيا، فأيقنْتُ أنَّ آثامي قد أقبلتْ عليّ ظُلمةً بعدَ ظُلمَةٍ، والتمع شيءٌ أحمر، فنظرْتُ فإذا الدَّمُ يتخايَلُ في عينيَّ كأنَّهُ شُعَلٌ تتلوّى، فجزِعْتُ أشدَّ الجزع، وحسبْتُها طرائقَ ممتدَّةً لِرُوحي تذهبُ بها إلى الجحيم.

وماتَتْ كلُّ خواطري بعدَ ذلك إلَّا فكرةً واحدةً بقيَتْ حيَّةً تأكلُ في قلبي أكل النار، وهي: «كيفَ تجرأتُ فوضعْتُ بيني وبين الله حُمْقي؟».

* * *

ويقولون: إنَّ أختي قد رأتْني أتَشَحَّطُ في دمي فصاحَت، وجاءَ الناسُ على صوتِها، وكان فيهم طبيب، فبعدَ لأي ما، استطاعَ حبْسَ الدم، واحتال حيلتَهُ حتى أسَفَّ الجُرحَ دواءً وضَمَدَه؛ فجعلْتُ أثوبُ نَفساً بعدَ نَفس، وراجعْتُ قليلاً قليلاً...

ثم طافَتِ الحياةُ على عينيَّ ففتحْتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليس فيها حقائقُ ولا معانٍ، كأنَّها تَتَخلَّقُ جديدةً تحتَ بصرِي، وكأنَّها خارجةٌ لِساعتِها من يدِ الله!

وتماثلْتُ شيئاً بعدَ ساعات، فأحسسْتُ أنَّ نفسي قد رجعَتْ إليَّ ساخرةً منِّي تقولُ: كيفَ رأيْتَ عَمَل العقلِ أيّها العاقل؟

وبدأتِ الحياةُ تتجدّدِ، فأقسمْتُ بيني وبين نفسي أنْ أجدّدَ إيماني بِالله. ولم أكدْ أفعلُ حتى أحسسْتُ أنَّ قوّةَ الوجودِ كلَّها مستقرَّةٌ في روحي، وخُيِّل إليَّ أنّي أنا وحدي القويُّ على هذه الأرضِ قُوَّةَ جِبالِها وصخورِها، على حين كان جسمي ممدّداً كالميْتِ لا يتماسَكُ من الضعف!

فأيقنتُ حينئذٍ ما أعرفُهُ قطُّ منَ الدنيا ولم أشعرْ به قطّ في الحياة ولم يأتِني به عِلْمٌ ولا فكر: أيقنتُ أنّها مُعجزةُ الإيمان الجديدِ الغضّ، المتَّصِل بِالله لِتَوّه كإيمان الأنبياءِ دونَ أنْ تلمسَهُ شهوة، أو تعترضَهُ خاطرة، أو تُكدّرَهُ ذرَّةٌ واحدةٍ من فكرِ أرضيٍّ دَنِس.

* * *

قال المسيّب: ثُمَّ جلسَ المتحدّث، وكان الناسُ في آخرِ كلامِه كأنَّما غادروا الدنيا ساعةً، ورجعوا إليها على مثلِ حالتِه ومثلِ إيمانِه؛ فسكَتَ الإمامُ ولم يتكلم، لِيدعَ كلَّ نفسٍ تُكلمُ صاحبَها.

الانتحار

(٥)

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وأطرقَ الناسُ قليلاً بعدَ خَبَر (أبي محمدٍ البَصْريّ)؛ إذْ كان كلٌّ منهم قد جَمَع بالهُ لِمَا سمع، وأخذ يَحْدِسُ، في نفسِه ويُراجعُها الرأيَ، وكان المجلسُ قدِ امتدَّ بنا منذُ العصرِ وما يكادُ النهارُ يُشعِرُنا بإدبارِه، حتى اعترَضَتْ في شمسِه الغُبرةُ التي تَعتريها إذا دَنتْ أنْ تَغرُب. وكان إلى يساري فتًى رَيَّانُ الشباب، حسَنُ الصورة، وَضيءٌ مُشرِقٌ، له هيئةٌ وسَمْت، أقبل على الأيَّام، وأقبلتِ الأيَّامُ عليه.

فسمعني أطِنُّ على أذنِ (مجاهدٍ الأزديّ)؛ وكنْتُ أعرفُه شاعراً في كلامِه وشاعراً في قلبِه؛ فقلْتُ له: إنَّهُ لم يبقَ منَ النهار يا مجاهدُ إلَّا مثلُ صبرِ المحبُّ دنا له المَوْعِد؛ ولم يبقَ من الشمسِ إلَّا مثلُ ما تَتلفَّفُ صاحبتُه، تأخذُ عليها ثوبَها وغلائلها، ولكنْ بعدَ أنْ تُسقِطَها من هنا ومن هنا، لِترى جمال جسمِها هنا وهنا!

فاهتزَّ الفتى لِهذه الكلمات، وسالتِ الرقَّةُ في أعطافِه، وقال: يا عمّ، أمَا ترى ما بقيَ من النهارِ كأنَّهُ وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعَهُ وليس حولهُ إلَّا كآبةُ الزمن. . . ؟

قلْتُ: كأنَّ لك خبراً يا فتى، فإنْ كان شأنُك مِمَّا نحن فيه فَقُصَّهُ علينا وعَلِّلْنا به سائرَ الوقتِ إلى أنْ تَجِبَ الشمس، ولعلّك طائرٌ بنا طَيرةً فوقَ الدنيا.

قال: فَمَهْ؟

قلت: تقومُ فتتكلم، فإنّي أرى لك لِساناً وبياناً.

قال: أو يَحْسُنُ أنْ أتكلَّمَ في المسجدِ عن صَرْعة الحُبِّ وصريعِه، وعاشقةٍ وعاشق؟

فبادرَ مجاهدٌ فقال: ويحكَ يا فتى! لقد تَحجَّرْتَ واسعاً؛ إنَّ المؤمنَ ليُصلّي بين يدي الله وكتابُ سيئاتِه في عنقِه منشورٌ مقروء. وهلْ أوقاتُ الصلاة إلَّا ساعاتٌ قلبيَّةٌ لِكلِّ يوم منَ الزمن، تأتي الساعةُ مِمَّا قبلَها كما تأتي توبةُ القلْبِ مِمَّا عمل الجسم؟ إنَّما يَتلقَّى المسجدُ مَنْ يدخلُهُ لِساعتِه التي يدخلُهُ فيها، ولو أنَّهُ حاسَبهُ عن

أمسِ وأوّل منه وما خَلَا من قبل، لطردَهُ من العتَبَة! إنَّ المسجدَ يا بُنيَّ إنّما يقولُ لِداخلِه: أدخلْ في زمني ودَعْ زمنَك، وتعال إليَّ أيُّها الإنسانُ الأرضيّ، لِتتحقَّقَ أنَّ فيك حاسَّةً من السماء، وجِئْني بقلبِك وفكرِك، لِيَشعُرا ساعةً أنَّهما فيَّ لا فيك[1].

ولسْنا الآنَ يا بُنيَّ في مُتَحَدَّثٍ كنَدِيّ القوم يتطارحون فيه أخبارَهم، بلْ نحنُ في مجلسِ عالمٍ تكلمَتْ فيه رَقَبةُ هذا ورقبةُ هذا بِمَا سمعْتَ؛ فقُمْ أنتَ فاذكرْ عِلْمَ قلبِك وقُصَّ علينا خبرَ طيشِ الحُبِّ والشبابِ الذي يُشبهُ الكلامُ فيه أنْ يكونَ كلاماً عن الصعودِ إلى القمرِ والقبضِ من هناك على البرْق!

* * *

قال المسيَّب: فانتهضَ الفتى، ورأيْتُ مجاهداً يتنهَّدُ كأنَّما انصدَعتْ كَبِدُه: فقلْت: ما بالُك؟ قال: إنَّ شبابي قد مرّ عليَّ الساعةَ فَنَسَمْتُ منه في بُرْدَة هذا الفتى، ثُمَّ فقدْتُه فقداً ثانياً فهَرِمْتُ هَرَماً ثانياً، وجاءَني الحزنُ من إحساسي بأنّي شيخٌ، حُزْنُ مَن هَمّ أنْ يدخل بابَ حبيبٍ ثم رُدّ. . . . !

وتحدّثَ الفتى، فإذا هو يدُيرُ بين فَكَّيه لِسانَ شاعرٍ عظيم، يتكلمُ كلامَهُ بنفسَين: إحداهما بَشَريَّةٌ تصنعُ المعنى واللفظ، والأخرى عُلْويةٌ تُلقي فيها النارَ والنور.

قال: إنَّ لي قصةَ أيُّها الشيخ، لم يبقَ منها إلَّا الكلامُ الذي دُفنَتْ فيه معانيها؛ وقد تأتي القصةُ من أخبارِ القلْبِ مُفْعَمَةَ بالآلام والأحزان، لا يُرادُ بآلامِها وأحزانِها إلَّا إيجادُ أخلاقٍ لِلقلْبِ يعيشُ بها ويتبدّل. والذي قُدّرَ عليه الحُبُّ لا يكون قد أحبَّ غيرَهُ أكثرَ مِمَّا يكون قد تعلَّمَ كيف يَنسى نفسَهُ في غيرِه، وهذه كما هي أعلى درجاتِ الحُبّ؛ فهي أعلى مَراتبِ الإحسان.

ومتى صَدقَ المرءُ في حبّه كانَتْ فكرتُهُ فكرتَين: إحداهما فكرةٌ، والأخرى عقيدةٌ تجعلُ هذه الفكرةَ ثابتةً لا تتغيَّر؛ وهذه كما هي طبيعةُ الحُبِّ فهي طبيعةُ الدّين.

ولا شيءَ في الدنيا غيرُ الحُبِّ يستطيعُ أنْ يَنقُل إلى الدنيا ناراً صغيرةً وجنَّةً صغيرةً، بقدْرِ ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمَها! وهذه حالةٌ فوقَ البشريَّة.

والفضائلُ عامَّتُها تعملُ في نقلِ الإنسان من حيوانيَّتِه، وقد لا تَنقلُ إلَّا أقلَّهُ ويبقَى في الحيوانيَّة أكثرُهُ: ولكنَّ الحُبّ الصادقَ يقتلعُ الإنسانَ من حيوانيَّتِه بمرَّةٍ واحدة، بَيْدَ أنَّهُ لا يكون كذلك إلَّا إذا قَتَلَهُ بآلامِه؛ فهو كأعلى النسْكِ والعِبادة.

---

(١) ستأتي فلسفة المسجد في مقالات أخرى مما يجمع هذا الكتاب، وانظر مقالة (الله أكبر).

كان خَبرِي أنّي دُعيتُ يوماً إلى ما يُدعى لِمثلِه الشبابُ في مجلسِ غِناءٍ وشراب. يا له من مجلس! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، والبعوضةُ في قصتي أنا كانتِ امرأةً نَصرانيَّة.. قَيْنَةُ فلانٍ المغنيّةُ الحاذقةُ المُحْسِنةُ المتأدّبة، تحفَظُ الخبرَ وتروي الشعر، وتتكلَّمُ بألفاظٍ فيها حَلاوةُ وجهِها، وتخلُقُ النكتةَ إذا شاءَتْ خَلْقَ الزهرة المتفتِّحة عليها سَقِيطُ الندَى؛ وتجِدُّ بالحديثِ ما شاءَتْ وتَهْزل، فتجعلُ لِلكلام عقلاً وشهوةً تُضاعِفُ بهما مَنْ تحدّثُهُ في شهواتِه وعقلِه!

وستجرِي في قصتِها ألفاظُ القصة نفسِها، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمَّم؛ فقد ذكرَ الله الخمرَ بلفظِ الخمرِ ولم يَقُل: «الماءُ الذي فيه السُّكر»، ووَصفَ الشيطانَ ولم يقل: «الملكُ الذي عمِل عمل المرأة الحسناءِ في تكبُّرها»، وذكرَ الأصنامَ بأنَّها الأصنام، ولم يُسمِّها: «حاملةُ السماءِ التي يصنعُها الإنسانُ بيديه» وحكايةُ ما بين الرجلِ والمرأة هي كلامٌ يُقبِّلُ بعضُهُ بعضاً ويلتزِمُ ويتعانَق!

قال المسيب: فتبسَمَ إمامُنا ونظرَتْ عيناهُ تسألان سؤالاً. أمَّا مجاهدٌ الأزديُّ فكان من هزّة الطَّرَبِ كأنَّهُ على قَتَبِ بَعير، وقال: لِلَّه دَرُّه فتًى، إنَّ هذا لبيانٌ كحيلُ العَين...

ثُمَّ قال الفتى: وذهبْتُ إلى المجلسِ وقد جعلتْهُ هذه المغنّيةُ من حواشيه وأطرافِه كأنَّهُ تفسيرٌ لها هي. أمَّا هي فجعلتْ نفسَها تفسيراً لِكلمةٍ واحدةٍ هي: «اللذّة...»

قال المسيَّب: وطرِبَ مجاهدٌ طَرَباً شديداً، وسمعْتُهُ يُخافِتُ بصوتِه يقول: «لِلَّه درُّها امرأة؛ هذه، هذه عَدُوّةُ الحُورِ العِين!».

ثُمَّ قال الفتى: وتَطرَّبَ جماعةُ أهلِ المجلسِ إلى الشرب، وما ذقْتُ خمراً قطّ، ولن أتذوّقَها ولو شربَها الناسُ جميعاً، ولن أذوقَها ولوِ انقطَعَ الغيثُ ولم تَمْطُرِ السماءُ إلّا خمراً؛ فإنّي مُذْ كنتُ يافعاً رأيْتُ أبي يشربُها، وكانَتْ أمي تلُومُهُ فيها وتشتدُّ في تعنيفِه وتحتَدِم، وكانا يتشاحنانِ فينالُها بالأذى ويَنْدَرِىءُ عليها بالسبِّ وفُحْشِ القول. وسَكِرَ مرةً وغلبَهُ السكرُ حتى ثَارَتْ أحشاؤه، فَذَرَعَهُ القَيْءُ فتوهَّمني وعاءً، وجاءَ إليَّ وأنا جالسٌ فأمسكَ بي وقاءَ في حِجْري، حتى أفرغَ جوفَه؛ وثارَتْ أمّي لِتنتزِعَهُ وأنشأتْ تُعالجُهُ عنّي فَتصارَعَ جنونُهُ وعقلُها حتى كَفأَتْهُ على وجهِه كالإناء؛ فالتوى كالحيَّة بطْناً لِظهْرٍ، واستجْمع كالقُنفذِ في شَوكِه، ثم

لكَزَها برجلِه أسفل بطنِها فانقلبَت، وأصابَ رأسُها إجّانةَ[1] العجين فتثلَّم تثليمَ الإناءِ كأنَّما شُدِخَ ضرْباً بحجَر، وانتثَرَ دماغُها على الأرض أمامَ عينيّ، ورأيْتُها لم تزِدْ على أنْ دَفَعَتْ بإحدى يديها في الهواء، وضمَّت بالأخرى إلى صَدْرِها، تتوهَّمُ أنَّها تحميني وتدفعُهُ عنِّي؛ ثُمَّ سَكَنَتْ، ولو لم تمتْ من الشَّجَّة في رأسِها لماتتْ من الضربة في بطنِها!

* * *

قال المسيَّب: وأطرقَ الفتى هُنَيهةً وأطرقَ الناسُ معه؛ فرفَعَ مُجاهدٌ صوتَهُ وقال: رحِمَها الله! فقال الناسُ جميعاً: رحِمَها الله.

ثُمَّ قال الفتى: وكان عامَّةُ مَن في المجلسِ يعرفون ذلك منّي، ويعرفون أنَّهُ لو ساغَ لإنسان أنْ يشربَ دمَ أمِّه ما شربْتُ أنا الخمر، فقالوا لِلمغنِّية: إنَّ هذا لا يدخلُ في ديوانِنا[2] فنظرَتْ إليّ، وهربْتُ أنا من نظرتِها بإطراقة؛ ثم قالت: تَشربُ على وجهي؟ فقلْتُ لها: إنَّ وجهَكِ يقولُ لي: لا تشربْ... فتضاحكَتْ وقالت: أهو يقولُ لك غيرَ ما يقولُ لِهؤلاء؟ فهربْتُ من كلامِها بإطراقةٍ أخرى، ووَصلتِ الإطراقتان ما بيني وبين قلبِي؛ وتنبَّهَ فيها مثلُ حُنوّ الأمّ على طِفلِها إذا آذتْهُ بلسانِها فأطرقَ ساكتاً يشكوها إلى قلبِها!

والتفتَتْ لِمَنْ حضرَ وقالتْ لهم: لسْتُ أطيبُ لكم ولا تنتفعون بي إلّا أنْ تشربوا لي ولهُ ولأنفسِكم، وانحطّ عليهمُ الساقي، فشربوا أرطالاً وأرطالاً، وهي بين ذلك تُغنِّيهم وقد أقبلتْ عليهم وخلا وجهُها لهم من دُوني وإنَّما تُخالِسُني النظرةَ بعدَ النظرة.

فوسوسَ لي شيطاني أنْ تَشدَّدْ مع هذه بمثلِ عَزمتِكَ مَعَ الخمرِ فإنَّما هما شيءٌ واحد. ولكنّي كنْتُ أحِدُّ النظرَ إليها، فمرّةً أُوامِقُها نظرةَ المُحبِّ لِلحبيب، ومرةً أغضي عنها بنظرةٍ لا تنظرُ؛ وكأنّي بذلك كنْتُ آخذُها وأدَعُها، وأصِلُها وأهجرُها. فقالتْ لي كالمُنكِرَة عليّ: ما بالُك تنظرُ إليَّ هكذا؟ ولكنَّ هيئةَ وجهِها جعلتِ المعنى: لا تنظرْ إليّ إلّا هكذا....!

وأسرعَ الشرابُ في القوم وأفرطَ عليهمُ السُّكر؛ فبقيَتْ لي وحدي وبقيْتُ لها وحدَها؛ ثم تناولتْ عودَها وضمَّتْهُ إليها ضمًّا شديداً أكثرَ من الضمّ... والمستهُ

(١) هي ما يعجن فيه العجين وتغسل فيه الثياب، وقد يوضع فيها الماء ليتوضأ منه، وتتخذ من حجر أو خزف أو غيرهما.

(٢) تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك.

صدرَها ونَهديها، ثُمَّ رَنتْ إليّ بمعنًى، فما شككْتُ أنَّها ضمَّةٌ لي أنا والعود؛ ثم غنَّتْ هذا الصوت:

ألا قـاتـل الله الـحـمـامـةَ غُـدْوةً — على الغصنِ؛ ماذا هيَّجتْ حينَ غنَّتِ؟
فـمـا سـكـتَـتْ حتَّى أوَيْتُ لِصوتِـهـا — وقلْتُ: تُرى هذى الحمامةُ جُنَّتِ؟

* * *

ومـا وَجْـدُ أعـرابـيـةٍ قَـذَفـتْ بـهـا — صُروفُ النوى من حيثُ لم تَكُ ظنَّتِ..
إذا ذكَـرتْ مـاءَ الـعِـضـاهِ وطـيـبَـهُ — وبَرْدَ الحِمى من بَطن خَبْتٍ، أرنَّتِ
بـأكـثـرَ مـنِّـي لـوعـةً، غـيـرَ أنَّـنـي — أجمْجِمُ أحشائي على ما أجنَّتِ!

وغَنَّتْهُ غِناءَ من قلبٍ يئنُّ، وصدرٍ يتنهَّد، وأحشاءٍ لا تُخفي ما أجنَّتْ؛ وكانَتْ ترتفعُ بالصوتِ ثمَّ كأنَّما يهمي الدمعُ على صوتها، فيرتَعِشُ ويتنزّلُ قليلاً قليلاً حتى يئنَّ أنينَ الباكية، ثُمَّ يعتلجُ في صدرِها مَعَ الحُبّ، فيترددُ عالياً ونازلاً، ثم يرفضُّ الكلامُ في آخِره دموعاً تجري.

* * *

قال المسيَّب: فنظرَ إليّ مُجاهدٌ وقال: عدُوَّةُ الجنَّة ـ والله ـ هذه يا أبا محمد، لا تقبلُ الجنَّةُ مَنْ يكون معها. تقولُ له: كنْتَ مَعَ عدُوّتي!

ثُمَّ قال الفتى: وكان القومُ قدِ انتَشَوْا، فاعتراهم نصفُ النوم وبقيَ نصفُ اليقَظة في حواسِّهم، فكلُّ ما رأوْهُ منَّا رأوْهُ كأحلام لا وجودَ لها إلَّا خلفَ أجفانِهمُ المُثقَلة سُكْراً ونُعاساً. ووثَبتِ المغنيةُ فجاءَتْ إلَى جانبي والتصقَتْ بي، وأسرعَ الشيطانُ فوسوسَ لي: أن احذرْ فإنَّكَ رجلُ صِدْق، وإذا صدقْتَ في الخمرِ فلا تكذِبَنَّ في هذه، ولئنْ مَسسْتَها إنَّها لِضَيَاعُكَ آخِرَ الدهر!

فعجبْتُ أشدَّ العجبِ أنْ يكونَ شيطاني أسلمَ وأعِنتُ عليه كما أعينَ الأنبياءُ على شياطينِهم. ولكنَّ اللعينَ مضى يصُدُّني عن المرأة دونَ معانيها، وكان منّي كالذي يُدني الماءَ من عَيْنِي القتيلِ المتلهِّبِ جَوفُه ثُمَّ يجعلُهُ دائماً فَوْتَ فمِه، ولقد كنْتُ من الفُحولة بحيثُ يبدو لي من شدة الفَورة في دمِي وشبابي أنّي أجمعُ في جسمي رجالاً عِدَّة، ولكنْ ضَربَني الشيطانُ بالخجلِ فلم أستطعْ أنْ أكونَ رجلاً مع هذه المرأة.

وعجِبَتْ هي لِذلك وما أسرعَ ما نطقَ الشيطانُ على لِسانِها بالموعظة الحسنة...! فقالتْ أحببْتُك ما لم أحِبَّ أحداً، وأحببْتُ خجَلكَ أكثرَ منك، فما يسرُّني

أنْ تأثَمَ فيَّ فتدخلَ النارَ بِحُبّي، ولو أنّكَ ابتعتَني من مولاي؟ فقلْت: بكم اشتراكِ؟ قالت: بألف دينار! قلْتُ: وأين هي منّي وأنا لو بعْتُ نفسي ما حصَلتْ لي؟

فتمّمَ الشيطانُ موعظتَه، وقالتْ وأشارَتْ إلى قلبِها: إنَّ قلبي هذا قَبلك غنيًّا كنْتَ أو فقيراً، وأحسَّ بك وحَدك حُبَّ العذراءِ أوّل ما تُحبّ، وأنا ـ كما تراني ـ أعيشُ في السيئاتِ كالمُكْرَهة عليها، فسأعملُ على أنْ تكونَ أنت حَسَنَتي عند الله، أذهبُ إليه حاملةً في قلبي حُبِّي إيَّاكَ وعِفَّتي عنك، ولئِنْ كانت عِفةَ مَنْ لا يشتهي ولا يجدُ تُعَدُّ فضيلةً كاملة، إنّ عِفةَ مَنْ يجدُ ويشتهي لتُعدُّ ديناً بحالِه. ولا يزالُ حبِّي بِكْراً، ولا أزال في ذلك عذراءَ القلْب، وهؤلاءِ قد نزعوا الحياءَ عنِّي من أجْلِ أنفسِهم، فألْبِسْنيه أنتَ من أجلِكَ خاصّة؛ وإنَّ قوةَ حُبِّي كالذي سيتألَّمُ بك ويتعذَّبُ منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك، ستكونُ هي بعينِها قوةً لِفضيلتي وطَهارتي.

ثُمَّ تناولتْ عودَها وسوَّته وغنَّتْ:

فلو أنّا على حَجرٍ ذُبِحْنا جَرى الدّمَيانِ بالخبرِ اليقينِ[1]

وجعلتْ تتأوّهُ في غِنائِها كأنَّها تُذبَحُ ذبحاً، ثُمَّ وضعَتِ العودَ جانباً وقالت: ما أشقاني! إذا اتفقَتْ لي ساعةُ زواجي في غير وقتِها فجاءَتْ كالحُلُم يأتي بخيالِ الزمن فلا يكون فيه من الأشياءِ إلّا خيالُ الأشياء.

ثُمَّ سألتني: ما بالُكَ لم تشربِ الخمرَ ولم تدخلْ في الديوان؟ فبدرَ شيطاني المؤمن... وساقَ في لِساني خبرَ أمِّي وأبي، فانْتَضَحت عيناها باكيةً وتمَّ لها رأيٌ فيّ كرأيي أنا في المسكر؛ وكان شيطانُها بعدَ ذلك شيطاناً خبيثاً مع أصحابِها، وبَطْرِيقاً زاهداً معي أنا وحدي!

ورأيْتُها لا تُجالسني إلّا مُتَزايلةً كالعذراءِ الخفرة إذا انقبضَتْ وغطَّتْ وجهَها، وصارَتْ تخافني لأنَّها تُحبني، وهَيَّبَني الشيطانُ إليها فعادَتْ لا ترى فيَّ الرجل الذي هو تحتَ عينيها الثَّيِّبتين... ولكنْ القِدّيس الذي تحتَ قلبِها البِكْر.

ولم يَعُدْ جمالي هو الذي يُعجبُها ويُصْبِيها، بل كان يُعجبُها منّي أنّي صنعةُ فضيلتِها التي لم تَصنعْ شيئاً غيري....

وانطلقَ الشيطانُ بعدَ ذلك فيَّ وفيها بدهائِه وحُنْكَتِه وبكلِّ ما جَرَّبَ في النساءِ

---

(١) كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان فجرى دمياهما على طريق واحد ثم التقيا، حكم عليهما أنهما كانا متحابين، فإن لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كانا متشانئين. وما أجملها خرافة وأشعرها.

والرجالِ من لدُن آدمَ وحوّاءَ إلى يومي ويومِها!. . . فكان يجذبني إليها أشدَّ الجذبِ، ويدفعُها عنّي أقوى الدفع، ثم يُغريني بكلِّ رذائلِها ولا يُغريها هي إلّا بفضائِلي. وألْقى منها في دمي فكرةَ شهوةٍ مجنونةٍ متقلّبة، وألْقى مني في دمِها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقِرّة. وكنتُ ألقاها كلَّ يوم وأسمعُ غِناءَها؛ فما هو بالغِناءِ ولكنّهُ صوتُ كلّ ما فيها لِكلّ ما فيّ، حتى لو التَصَقَ جسمُها بجسمي وسارَّ البَدَنُ البدنَ، وهَمَسَ الدمُ لِلدم، لكان هو هذا الغناءَ الذي تُغنّيه.

وأصبحَتْ كلّما استقمْتُ لِحبِّها تَلوَّتْ عَليَّ؛ إذْ لسْتُ عندَها إلّا الأمل في المغفرة والثواب، وكأنّما مُسختُ حَبْلاً طولُهُ من هنا إلى الجنّة لِتتعلّقَ به. وعادَ امتناعُها منّي جنوناً دينيًا ما يُفارقُها، فابتلاني هذا بمثلِ الجنون في حُبِّها من كلفٍ وشغَف.

وانحصرَتْ نفسي فيها، فرجَعتُ معها أشدَّ غَباوةً من الجاهلِ ينظرُ إلى مَدِّ بصرِه من الأفقِ فيحكمُ أنَّ هٰهنا نهايةَ العالم، وما هٰهنا إلّا آخرُ بصرِه وأوّلُ جهلِهِ. وانفلتَ منّي زِمامُ روحي، وانكسَر ميزانُ إرادتي، واختلَّ استواءُ فكري، فأصبحْتُ إنساناً من النقائضِ المتعادية أجمعُ اليَقينَ والشَّكَّ فيه، والحُبَّ والبُغضَ له، والأمل والخَيبةَ منه، والرغبةَ والعُزوفَ عنها، وفي أقلّ من هذا يُخْطَفُ العقل، ويَتَدَلَّهُ مَنْ يتدلَّه.

ثُمَّ ابتُليْتُ مع هذا اللَّمَم بجنون الغيظِ من ابتذالِها لأصحابِها وعِفّتِها معي، فكنْتُ أتطايرُ قِطَعاً بين السماءِ والأرض، وأجِدُ عليها وأتنكّرُ لها، وهي في كلّ ذلك لا تزيدني على حالةٍ واحدةٍ من الرَّهبانيّة؛ فكان يَطيرُ بِعقلي أنْ أرَى جسمَها ناراً مشتعلة، ثُمَّ إذا أنا رُمتُهُ استحال ثلْجاً، وقَرَحَتِ الغيرةُ قلبي وفتَّتَتْ كبِدي من عابدة الشيطان مَعَ الجميع، الراهبة مع رجلٍ واحدٍ فقط!. . .

ورجعَتْ خواطري فيها مِمّا يُعْقَلُ وما لا يُعقل؛ فكنْتُ أرى بعضَها كأنّهُ راجعٌ من سفرٍ طويلٍ عن حبيبٍ في آخرِ الدنيا، وبعضَها كأنّهُ خارجٌ من دارِ حبيبٍ في جِواري، وبعضَها كأنّهُ ذاهبٌ بي إلى المارستان. . . !

ورأيْتُنا كأنّنا في عالمين لا صِلةَ بينهما، ونحن معاً قلْباً إلى قلب، فذهبَ هذا بالبقيّة التي بقيَتْ من عقلي، ولم أرَ لِي مَنجاةً إلّا في قتْلِ نفسي لأَزْهقَ هذا الوحشَ الذي فيها.

وذهبْتُ فابتغْتُ شَعيرات من السمِّ الوَحِيِّ الذي يُعْجِلُ بالقتل، وأخذْتُها في كفي وهممْتُ أنْ أقمَحها وأبتلعَها، فذكرْتُ أمي، فظَهَرَتْ لِخيالي مشدوخةَ الرأسِ في هيئة موتِها، وإلى جانبِها هذه المرأةُ في هيئة جمالِها، وثَبَتَتْ على عيني هذه

الرؤيا، وأدمَنْتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوّل، وإذا المرأةُ غيرُ تلك، وطَغَتْ عِبرةُ الموت على شهوة الحياة فمحَتْها، وصَحَّ عندي من يومئذٍ أنْ لا علاجَ من هذا الحُبِّ إلّا أن تُقرَن في النفسِ صورةُ امرأةٍ ميتةٍ إلى صورة المرأة الحيَّة، وكلّما ذُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلك، فإذا استمرَّ ذلك فإنَّ الميّتَةَ تُميتُها في النفسِ وتُميتُ الشهوةَ إليها، ما من ذلك بُدّ، فلْيجرّبْهُ مَنْ شكَّ فيه.

وانفتحَ لي رأيٌ عجيب، فجعلْتُ أتأملُ كيف آمنَ شيطاني ثم كَفَرَ بَعْدُ، على أنَّ شيطانَها هي كَفَرَ في الأولِ ثُمَّ آمنَ في الآخر؟ فوالله ما كنْتُ إلّا غبيًّا خامدَ الفِطْنة، إذْ لم يَسْنَحْ لِيَ الصوابُ حتى كِدْتُ أزهق نفسي وأخسرُ الدنيا والآخرة؛ فإنَّ الشيطانَ ـ لعنَهُ الله ـ إنَّما ردّني عن الفاحشة وهي ذنبٌ واحد، لِيرمَيني بعدَها في الذنوبِ كلِّها بالموتِ على الكفر!

وردَّ إليّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلي. ومَن ابْتُلِيَ ببلاءٍ شديدٍ يُزلزلُ يقينَهُ ثُمَّ أبصرَ اليقين، جاءَ منه شخصٌ كأنَّما خُلِقَ لِساعتِه؛ فلعنْتُ شيطاني واستعذْتُ بِالله من مكْرِه، وألقيْتُ السمَّ في الترابِ وغيَّبتُهُ فيه، وقلْتُ لِنفسي: ويحكِ يا نفسُ! إنَّ الحياةَ تعملُ عملاً بالحيّ، أفترَضَيْنَ أنْ تعمل الحياةُ بأبطالِها ورِجالِها ما عرفْتِ وما علمْتِ، ثُمَّ يكون عملُها بكِ أنْتِ القعودَ ناحيةً والبكاءَ على امرأة؟

أيَّتُها النفس، ما الفرقُ بين سرقة لحم من دكان قصَّاب، وبين سرقة لحم امرأةٍ من دارِ أبيها، أو زوجِها، أو مولاها. . . ؟

أيَّتُها النفس، إنَّ إيمانَ أسلافِنا معنا؛ إنَّ الإسلامَ في المسلم.

* * *

قال المسيَّب: وهنا طَاشَ مُجاهدٌ واستخفَّهُ الطرب، فصاحَ صيحةَ النصر: الله أكبر! وجاوبَهُ أهلُ المسجدِ في صيحةٍ واحدة: الله أكبر! ولم يكدْ يهتفُ بها الناسُ حتى ارتفعَتْ صيحةَ المؤذّن لِصلاة المغرب. الله أكبر. . .

الانتحار

(٦)

تتمة

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وانفضَّ مجلسُ الشيخ، ودَرَجَتْ بعدَهُ أعوامٌ في عدَّة الشهور من حَمْلِ المرأة، بلغَتْ فيها أمورُ الناسِ مبلغها من خيرِ الدنيا وشرِّها، مِمَّا أعرفُ وما لا أعرف؛ ودخلْتُ البصرةَ أنا ومُجاهدٌ الأزديّ، نسمعُ الحَسَنَ[1] ونأخذُ عنه؛ فإنَّا لسائران يوماً في سِكَّة بني سَمُرَة، إذْ وافقْنا الفتى صاحبَ النصرانيَّة مُقبِلاً علينا، وكُنَّا فقدْناهُ تلك المدة، فأسرعَ إليه مُجاهدٌ فالتزمَهُ وقال: مرحباً بذي نَسَبِ إلى القلْب. وسلَّمْتُ بعدَهُ وعانقْتُه، ثُمَّ أقبلْنا نسألُه، فقلْتُ له: ما كان آخِرُ أوّلِك؟ قال مُجاهد: بلْ ما كان آخرُ أولِها هي؟

فضحكَ الرجلُ وقال: النَّصرانيَّةَ تعني؟ قال: آخرُها من أولِها كهذا مني؛ وأومأ إلى ظلّه في الأرضِ ممدوداً مشبوحاً مختلِطاً غيرَ متميز؛ كأنَّهُ ثوبٌ منشورٌ ليس فيه لابسُه، وكنَّا في الساعة التي يصيرُ فيها ظلُّ كلِّ شيءٍ مِثلَيْه فهو مَزْجُ المَسْخِ بالمسْخ . . .

قال مُجاهد: ما أفظَّ جوابَك وأثقلهُ يا رجل! كأنَّك والله تاجرٌ لا صِلةَ له بالأشياءِ إلَّا من أثمانِها؛ فنظرُهُ إلى فَراهةِ الدابة من الدّوابِّ وإلى فراهة الجارية منَ الرقيقِ سواء.

قال الرجل: فأنا والله تاجر، وأنا الساعةَ على طريقِ الإيوانِ[2] الذي يلتقي فيه تُجارُ العِراقِ والشام وخُراسان؛ وقد ضربْتُ في هذه التجاراتِ وحَسُنَتْ بها حالي وتأثَّلْتُ منها؛ غيرَ أنَّ قلبَ التاجرِ غيرُ التاجر، فليس يَزِنُ ولا يَقبِض، ولا يبيعُ ولا يشتري. أمَّا «تلك» فأصبحَتْ نسياناً ذهبَ لِسبيلِه في الزمن!

---

(١) الحسن البصري: الإمام العظيم.

(٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصة)، وكذلك كانوا يستعملونها.

قال مُجاهد: فكيف كنتَ تراها وكيف عذتَ تنظرُ إليها؟

قال: كنتُ أنظرُ إليها بعينيَّ وأفكاري وشهواتي؛ فكانَتْ بذلك أكثرَ من نفسِها ومنَ النساء، وكانَتْ ألواناً ألواناً ما تنقضي، فلمَّا دخل بيني وبينَها الزمنُ والعقْل، أبعدَها هذا عن قلبي وأبعدَها ذاك عن خيالي؛ فنظَرْتُ إليها بعينيَّ وحدَهما، فرَجَعتِ امرأةً ككل امرأة؛ وبنزولِها من نفسي هذه المنزلةَ، رجعَتْ أقلَّ من نفسِها ومنَ النساء، وهذه القِلَّةُ فيما عرفتُ لا تُصيبُ امرأةً عند مُحبِّها إلَّا فعلت بجمالِها مثل ما تفعلُهُ الشيخوخةُ بجسمِها، فأدبَرَتْ به ثُمَّ أدبرَتْ واستمرَّتْ تُدْبر!

وأنتَ فإذا أبصرْتَ امرأةً شيخةً قد ذهبَتْ التي كانَتْ فيها. . . وأخطرْتَ في ذِهنِك نِيَّةً مِمَّا بين الرجالِ والنساء، فهل تُراكَ واجداً الشهوةَ والميل إلَّا النَّفْرةَ والمعْصِيَةَ؟ إنَّ هذا الذي كان الحُبَّ والهوى والعِشْقَ، هو بعينِه الذي صارَ الإثْمَ والذنبَ والضَّلالة!

قال مُجاهد: كأنَّكَ لمَّا ذهبْتَ تقتلُ نفسَك من حبِّها قتلْتَها هي في نفسِك؟

قال: يا رحمةً قد رَحِمَتْ بها نفسي يومئذٍ! أمَا ـ والله ـ إنَّ الذي يقتلُ نفسَهُ من حُبِّ امرأةٍ لغَبِيّ. وَيحَهُ! فلْيتخلَّصْ من هذا الجزءِ من الحياة لا من الحياة نفسِها. وقد جعل الله لِلحُبِّ طرَفين: أحدُهما في اللذّة، والآخرُ في الحماقة؛ ما منهما بُدّ. فهذا الحُبّ يُلقِي صاحبَهُ في الأحلام ويُغَشّي بها على بصرِه، ثُمَّ إنْ هو اتَّجهَ بطرَفِه السعيدِ إلى حظِّه المقبِلِ واتفَقتِ اللذّةُ لِلمُحبّ، أيقظَتْهُ اللذّةُ من أحلامِه؛ وإن اتَّجهَ الحُبُّ بطرفِه الشقيِّ إلى حظِّه المُدْبر، وقعَتِ الحماقاتُ فنوناً شتَّى بين الحبيبين، وفعلتْ آخِراً فِعْلَ اللذة، فأيقظَتِ العاشقَ من أحلامِه أيضاً. وهذا تدبيرٌ من الرحمة في تلك القوّة المدمِّرة المسماة الحُبّ. أفلا يدلّ ذلك على أنَّ اللذةَ وهمٌ من الأوهام ما دامَ تحقُّقُها هو فناءَها؟

خذْ عني يا مجاهدُ هذه الكلمة: «ليس الكمالُ من الدنيا ولا في طبيعتِها، ولا هو شيءٌ يُدْرَك، ولكنْ من عظمَة الكمالِ أنَّ استمرارَ العملِ له هو إدراكُه».

قال مُجاهد: لقد علمْتَ بعدَنا عِلْماً، فمِنْ أين لك هذا وعمَّنْ أخذْت؟

قال: عن السماء!

قال: ويلك! أين عقلُك، فهل نزل عليك الوحيّ؟

قال الرجل: لا، ولكنْ تَعالَيا معي إلى الدارِ فأحدِّثكما.

* * *

قال المسيَّب: وذهبْنَا معه؛ فأتيْنَا بطعام نظيفٍ فأكلْنَا، وأشعَرتْنا الدارُ أنَّ ربَّها قد وقعَ فيما شاءَ من دنياهُ وتواصلتْ عليه النَعمة؛ فلمَّا غسلْنَا أيديَنَا قال مجاهد: هيه يا أبا... يا أبا مَن؟ قال: أبو عُبَيد. قال: هيه يا أبا عبيد...

فأفكَرَ الرجلُ ساعةً ثُمَّ قال: عهدُ كما بي منذُ تِسْعٍ في مجلسِ الإمام الشعبيِّ بالكوفة؛ وقد كنْتُ في بقيةٍ من النعمة أتجمَّلُ بها، وكانَتْ تُمسكُني على موضعي في أعين الناس؛ فما زالتْ تلك البقيةُ تَدِقُّ وتنفَضُّ حتى نكِدَ عيشي ووقعْتُ في الأيَّام المقعَدَة التي لا تمشي بِصاحبِها، وانقلب الزمنُ كالعدوِّ المُغير جاءَ لِيضْطَلِمَ ويُخْرِبَ ويُفسِد، فأثَّرَ فيّ أقبحَ آثارِه، فبِعْتُ ما بقيَ لي وتحملْتُ عن الكوفة إلى البصرة، وقلْت: إنْ لم تتغيَّرْ حالي تغيَّرتْ نفسي، ولا أكونُ في البصرة قدِ انتهيْتُ إلى الفقر، بل أكونُ قد بدأتُ من الفقرِ كما يبدأ غيري، وأدعُ الماضيَ في مكانِه وأمضي إلى ما يستقبلُني.

فالتمسْتُ رُفقَةً فالتأمْنا عشرينَ رجلاً، فلمَّا كنَّا في الطريق، سَلبنَا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تَحويه، ونجَوتُ أنا راكباً فرسي وعُمْري، وأدركْتُ حينئذٍ أنَّ الحياةَ وحدَها مِلْكٌ عظيم، وأنَّها هي الأداةُ الإلهيَّة، والباقي كلُّهُ هو من أنفسِنا لأنفسِنا والأمرُ فيه هيِّنٌ والخَطْبُ يسير.

وقلْتُ: لو أنَّ اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ الناسُ بالناسِ لمَا نكَبونا، ولكنَّهم عرضوا لنا عُروضَ اللصّ لِلمالِ والمتاعِ لا لِلناس، فوضعوا فينا الأيديَ الناهبة؛ ومن هذا أدركْتُ أنْ ليس الشرُّ إلَّا حالةً يَتلبَّسُ بها مَنْ يستطيعُ أنْ يتخلَّصَ منها. فإذا كان ذلك فأصلُ السعادة في الإنسان ألَّا يعبأ بهذِه الحالاتِ متى عَرَضَتْ له؛ وهو لا يستطيعُ ذلك إلَّا إذا، تمثَّل الشرَّ كما يراهُ واقعاً في غيرِه؛ فالمرأةُ العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالةٌ من الفُجور، ونظرَتْ إلى نفسِها وحظِّ نفسِها، فقد تعمَى وتَزِلّ؛ ولكنَّها إذا نظرَتْ إلى ذلك في غيرها وإلى أثرِه على الفاجرة، كانَتْ كأنَّما زادَتْ على نفسِها نفساً أخرى تُريها الأشياءَ مجردةً كما هي في حقائقِها.

قال: ومضيْتُ على وجهي تتقاذفُني البِقاعُ والأمكنةُ: وأنا أعانِي الأرضَ والسماء، وأخشى الليل والنهار، وأكابدُ الألمَ والجوع، حتى دخلْتُ البصرةَ دخول البعيرِ الرازح، قَطَعَ الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكلُ منها، فأنضاهُ السفرُ وحَسَرهُ الكَلالُ ونَحتَهُ الثِّقلُ الذي يحملُه، فجاءَ ببِنْيةٍ غير التي كان قد خرجَ بها. وكانَتْ أيَّامي هذه عمراً كاملاً من الشقاء، جعلتْني أوقِنُ أنَّ هؤلاءِ الناسَ في الحياة إنْ هم إلَّا

كالدَّوابِّ تحتَ أحمالها: لا تختارُ الدابَّةُ ما تحملُ ولا مَنْ تحمل، ولا يُترَكُ لها مع هذا أنْ تختارَ الطرِيقَ ولا مدةَ السير؛ وليس لِلدابة إلَّا شيئان: صبرُها وقُوَّتُها؛ إنْ فقدَتْهما هلكتْ، وإنْ وَهَنَا فيها كان ضعفُها بحسبِ ذلك.

إنَّ هناك أوقاتاً من الشقاءِ والبؤسِ تقذفُ بالإنسان وراءَ إنسانيَّتِه وإنسانيَّة البشر جميعاً، لا تُبالي كيف وقعَ وفي أيِّ وادٍ هلك، فلا ينفعُ الإنسانَ حينئذٍ إلَّا أنْ يعتصمَ بأخلاقِ الحيوان، في مثلِ رِضاهُ الذي هو أحكمُ الحِكْمة في تلك الحال، وصبرِه الذي هو أقوى القوّة، وقناعتِه التي هي أغنى الغِنى، وجهلِه الذي هو أعلمُ العِلْم، وتوكُّلِه الذي هو إيمانُ فطرْتِه بفِطرتِه. لا يُبالي الحيوانَ مالاً ولا نعيماً، ولا متاعاً ولا منزلةً، ولا حظًّا ولا جاهاً، ولنْ تجدَ حمارَ الملكِ يعرفُ من الملكِ أكثرَ مِمَّا يعرفُ حِمارُ السَّقَّاءِ من السقّاء؛ ولعلَّك لو سألْتَهما وأطاقا الجوابَ لقال لك الأوّل: إنَّ الذي فوقَ ظهري ثقيلٌ مَقِيتٌ بغيض؛ ولقال لك الثاني: إن الذي يركبُهُ خفيفٌ سهلٌ سَمْح!

ولكنَّ بلاءَ الإنسان أنَّهُ حينَ يُطَوِّحُهُ البؤسُ والشقاءُ وراءَ الإنسانيَّة، لا ينظرُ لِغير الناس، فيزيدُهُ ذلك بُؤساً وحسرة، ويَمحَقُ في نفسِه ما بقيَ من الصبر، ويقلِبُ رِضاهُ غيظاً، وقناعتَهُ سخطاً، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلِكة أعجزَها أنْ تُهلِكَ أحداً فلا تجدُ مَنْ تُدَمِّرُهُ غيرَ صاحبِها؛ فإذا هي وجدَتْ مَساغاً إلى الناسِ فأهلكَتْ وعاثَتْ وأفسدَتْ، فجعلتْ صاحبَها إمَّا لِصًّا أو قاتلاً أو مُجرماً، أيَّ ذلك تيسَّر!

* * *

قال: وكنْتُ أعرفُ في البصرة فلاناً التاجرَ من سَراتِها ووجوه أهلِها، فاستطرقْتُهُ؛ فإذا هو قد تحوّل إلى خُراسان، وليس يعرفُني أحدٌ في البصرة ولا أعرفُ أحداً غيرَه؛ فكأنَّما نُكِبْتُ مرةً ثانيةً بغارةِ شرٍّ من تلك، غيرَ أنَّها قطعَتْ عليَّ في هذه المرة طريقَ أيَّامي، وسلبتْني آخرَ ما بقيَ لِنفسي، وهو الأمل!

ورأيتُ أنَّهُ ما مِنْ نزولي إلى الأرض بُدّ، فأكونَ فيها إنساناً كالدابة أوِ الحشَرة: حياتُها ما اتَّفقَ لا ما تُريدُ أنْ يتَّفِق؛ وأنَّهُ لا رأيَ إلَّا أنْ أسخَرَ من الشهوات فأزهدَ فيها وأنا القويُّ الكريم، قبل أنْ تسخرَ هي منِّي إذا جئتُها وأنا الطامعُ العاجز!

وفي الأرضِ كِفايةُ كلِّ ما عليها ومَنْ عليها، ولكنْ بطريقتِها هي لا بطريقة الناس؛ وما دامَتْ هذه الدنيا قائمةً على التغييرِ والتبديلِ وتحوُّلِ شيءٍ إلى شيء،

فهذا الظَّبيُ الذي يأكلُهُ الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنَّهُ قد أكِل ولا أنَّهُ افتُرِسَ ومُزِّق، بلْ هو عندَها قد تحوَّل قوةً في شيءٍ آخرَ ومضى؛ أمَّا عند الناسِ فذلك خَطْبٌ طويلٌ في حِكاية أوهام من الخوف والوجَل، كما لو اخترعْتَ قصةً خرافيَّةً تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحماً. . . فتعهَّدَهُ فأنبتَهُ فحصدَهُ فأكله، فذهبَ الزرعُ يحتجُّ على آكِلِهِ، وجعل يشكو ويقول: ليس لِهذا زرعْتَني أنت، وليس لِهذا خرجْتُ أنا تحتَ الشمس، وليس من أجلِ هذا طلعَتِ الشمسُ عليَّ وعليك!

والإنسانُ يرى بعينيه هذا التغييرَ واقعاً في الإنسانيَّة عامَّتِها وفي الأشياءِ جميعِها؛ فإذا وقعَ فيه هو ضجَّ وسَخِط، كأنَّ له حقًّا ليس لأحدٍ غيرِه، وهذا هوَ العجيبُ في قصة بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ من الجنة لا تُقالُ هنا ولا تُفهَم هنا؛ بل مَحلُّ الاعتراضِ بها حينَ يكون الإنسانُ خالداً لا يقعُ فيه التغييرُ والتبديل. ومن هذا كان خيالُ اللذة في الأرضِ هو دائماً باعثَ الحماقة الإنسانيَّة.

قال أبو عُبيد: وذهبْتُ أعتَمِلُ بيديَّ وجسمي على آلام مَنَ الفاقة والضُّرّ، ومنَ الخيبة والإخفاق، ومن إلجاءِ المسكنَة، وإحواجِ الخَصَاصَة؛ فلقد رأيْتُني وإنْ يدي كيدِ العبد، وظهري كظهرِ الدّابة، ورجلي كرجلِ الأسير، وعُنُقي كعُنُقِ المغلول، ويطلعُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتمِلُ إلَّا بقُرصٍ من الخبز، ولقد رأيْتُني أبذُلُ في صِيانة كلّ قطرةٍ من ماءِ وجهي سحابةً من العرَقِ حتى لا أسأل الناس، ويا بؤساً لي إنْ سألْتُ وإنْ لم أسأل!

وما كان يُمسِكني على هذه الحياة المُرمَقَّة، تأتي رَمَقاً بعدَ رَمَقٍ في يومٍ يوم - إلا كلامُ الشعبيّ - الذي سمعْتُهُ في مسجدِ الكوفة، وقولُهُ فيمَنْ قتل نفسَه؛ فكان كلامُه نوراً في صدري يُشرقُ منه كلّ يوم مع الصبحِ صبحٌ لإيماني. ولكنْ بقيَتْ أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضَرَبانٌ من الوجَع كالذي يجدُهُ المجروحُ في جرحِه إذا ضَرَبَ عليه، فكان الشيطانُ لا يجدُ منفذاً إلَيَّ إلَّا منها. وفقدْتُ الصديقَ وعونَه، فما كان يُقبِلُ عليّ صديقٌ إلَّا في أحلامي من وراءِ الزمن الأول!

قال مُجاهد: والحبيب؟

فتبسَّمَ الرجل وقال: إذا فرغَتِ الحياةُ من الذي هو أقلُّ من الممكن، فكيف يكون فيها الذي هو أكثرُ من الممكن؟ إنَّ جوعَ يوم واحدٍ يجعلُ هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِعرَ فيها، ويتركُ الزمنَ وما فيه ساعةٌ واحدةٌ مُعطَّرة. . . . والبؤسُ يَقَظةٌ مؤلمةٌ في القلبِ الإنسانِيِّ تُحَرِّمُ عليه الأحلامَ؛ وما الحُبُّ من أوَّلِه إلى آخرِه إلَّا أحلامُ القلوبِ بعضِها ببعض!

قال أبو عُبيد: وتَضَعْضَعْتُ لِهذه الحياة المخزية وأبرَمَتْني أيامُها، وحملْتُ فيَّ الميّتَ والحيّ، ورأيْتُ الشيطانَ ـ لعنَهُ الله ـ كأنّما اتخذَني وِعاءَ مُطَّرَحاً على طريقِه يُلقي فيه القمامة. . .، وظهَر لي قلبي في وساوسِه كالمدينة الخَربة ضَربَها الوباءِ، فأعمرُ ما فيها مَقبَرتُها؛ وعادَ البؤسُ وَقَاحَ الوجه لا يستحي، فلا أراهُ إلّا في أرذلِ أشكالِه وأبردِها؛ ولقد يكون البؤسُ لِبعضِ الناسِ على شيءٍ من الحياءِ فيأتي في أسلوبِ معتذِرٍ كالمرأة الدميمة في نقابِها.

وقلْتُ لِنفسي: ما هو ـ والله ـ إلّا القتل، فهذا عُمرٌ أراهُ كالأسيرِ أقِيمَ على النطعِ وسُلَّ عليه السيف، فما ينتقمُ منه المنتقِمُ بأفظعَ من تأخيرِ الضربة، وما يرحمَهُ الراحمُ بأحسنَ مِنْ تعجيلِها!

وبِتُّ أؤامِرُ هذه النفسَ في قتلِها وأحدّثُها حديثَ الموت، فسدَّدَتْ رأيي فيه وقالت: ما تصنعُ بجسمٍ كالمتعفِّن أصبحَ كالمقبورِ لا أيامَ له إلّا أيامَ انقراضِه وتفْتِيتِه؟ بَيْدَ أنّي ذكرْتُ كلَامَ (الشعبيّ) في ذلك المجلسِ وأنا أحفظُهُ كلَّه، فجعلْتُ أهُذُّه[1] ما أتركُ منه حَرْفاً، واتَّخذْتُهُ متكلماً مع نفسي لا كلاماً، كنْتُ كلّما غلبَني الضعفُ رفعْتُ به صوتي وأصغيْتُ كما أصغي إلى إنسانٍ يُكلِّمُني فرأيْتُ الشيطانَ بعدَ ذلك كاللصِّ إذا طَمِعَ في رجلٍ ضعيفٍ منفردٍ، ثُمَّ لمّا جاءَهُ وجدَ معه رجلاً ثانياً قويًا فهرب!

قال أبو عُبيد: ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجدْتُ له السكينةَ في قلبي فنِمْتُ، فإذا الفزعُ الأكبرُ الذي لا ينساهُ مَنْ سمع بهِ، فكيف الذي رآهُ بعينيه؟

رأيتُني ميّتاً في يدِ غاسلِه يُقلِّبُهُ ويغسلُهُ كأنَّهُ خِرقة؛ ثُمَّ حُمِلْتُ على النعشِ كأنَّ الحاملين قد رفعوني يقولون: انظروا أيُّها الناسُ كيفَ يصيرُ الناس؛ ثُمَّ صلَّى عليَّ الإمامُ الشعبيُّ في مسجدِ الكوفة، ثم دُلِّيتُ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وهِيل الترابُ عليّ، وتُرِكْتُ وحيداً وانصرفوا!

وما أدري كم بقيْتُ على ذلك ثُمَّ رأيْتُ كأنّما نُفِخَ في الصُورِ وبُعْثِرتِ الأمواتُ جميعاً، فطِرْنا في الفضاء، وكانتِ النجومُ غباراً حوْلنا كتُرابِ العاصفة في العاصفة؛ وإذا نحن في عَرَصَاتِ القِيامة وفي هَوْلِ الموقف!

وتوجَّهتُ بكلِّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاءِ في رحمة الله؛ ورأيْتُ أعمالي

---

(١) الهذ: الإسراع في القراءة.

رؤيةً أحزنَتْني، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلِها صعاليكُ إلّا قليلاً منَ المستورين، أرى منهُمُ الواحدَ بعدَ الواحدِ في الساعة بعدَ الساعة ندَرُوا وتَبعثروا وضاعوا كأعمالي الصالحة!

وذكرْتُ أني كِدْتُ أقتلُ نفسي فِراراً بها من العُمرِ المؤلم؛ فنظرْتُ فإذا الزمنُ قد ظهرَ في أبديَّتِهِ، ورجعَ الماضي حاضراً بكلِّ ما حَوَى كأنَّهُ لم يمض، وإذا عمري كلُّهُ لا يَكادُ يبلغُ طُرْفةَ عينٍ من دهرٍ طويل، فحمدْتُ الله أنّي لم أفتَدِ ألَمَ اللحظة القصيرة القصيرة، بعذابِ الأبدِ الخالدِ الخالدِ الخالدِ.

وجِيءَ على أعين الخلْقِ بأنعم أهلِ الدنيا وأكثرِهم لذّات في تاريخِ الدنيا كلِّه، فصاحَ صائحٌ: هذا أنعمُ مَنْ كان على الأرضِ منذُ خَلقَها الله إلى أنْ طواها. ثُمَّ غُمِسَ هذا المنعَّمُ في النارِ غَمْسَةً خفيفةً كنَبضَة البرْق، وأخْرجَ إلى المحشَر، وقيل له والناسُ جميعاً يسمعون: هل ذُقْتَ نعيماً قطّ؟ قال: لا ـ والله ـ.

ثُمَّ جِيءَ بأتعسِ أهلِ الأرضِ وأشدِّهِم بُؤساً منذُ خُلقَتِ الأرض، فغُمسَ في الجنة غَمْسَةً أسرعَ من النسيم تحرَّكَ ومرَّ، ثُمَّ أخْرجَ إلى المحشرِ وقِيل له: هل ذُقْتَ بؤساً قطّ؟ قال: لا ـ والله ـ.

وسمعْنَا شهيقَ جهنمَ وهي تفورُ تكادُ تميَّزُ من الغيظ؛ فأيقنْتُ أنَّ لها نفْساً خُلقَتْ من غضَبِ الله. وخرجَ منها عُنقٌ عظيمٌ هائل، لو تضرَّمَتِ السماءُ كلُّها ناراً لأشبهَتْه، فجعل يلتقِطُ صِنفاً صِنفاً من الخلْق، وبدأ بالملوكِ الجبابرة فالتقطهُمْ مرَّةً واحدةً كالمغناطيسِ لِتُرابِ الحديدِ؛ وقَذَفَ بهم إلى النار؛ ثُمَّ انبعثَ فالتقطَ الأغنياءَ المُفسدِينَ فأطارَهم إليها؛ ثُمَّ جعل يأخذُ قَوْماً قَوْماً، وقد ألجمنِي العرَقُ من الفزع؛ ثُمَّ طِرْتُ أنا فيه، ونظرْتُ، فإذا أنا مُحتبِسٌ في مُظلمةٍ ناريَّةٍ كالهاوية، ليس حولي فيها إلّا قاتلو أنفسِهِم. ولو أنَّ بِحارَ الأرضِ جُعل فيها البحرُ فوقَ البحرِ فوقَ البحر، إلى أنْ تجتمع كلُّها فيكونَ العمقُ كبعْدِ ما بين الأرضِ والسماء، ثُمَّ تُسْجَرُ ناراً تَلظَّى، لكانَتْ هيَ الهاويةَ التي نحن في أعماقِها؛ وكنْتُ سمعْتُ من إمامِنا الشعبيِّ: أنَّ عُصاةَ المؤمنينَ الموحِّدِينَ إذا ماتُوا على إيمانِهم كانوا في النارِ أحياءً وجوارحُهم مَوْتى؛ لأنَّ هذه الجوارحَ قد أطاعَتِ الله وسبَّحَتْهُ فكرُمَتْ بذلك حتى على جهنَّم، ثُمَّ يعذَّبونَ عذاباً فيه الرحمة، ثُمَّ يُخرَجونَ وينتظرُهم إيمانُهم على بابِ النار، فكان إلى جانبي رجلٌ قتل نفسَه، فسمع قائلاً من بعيدٍ يقولُ لِمؤمِنٍ: اخرجْ فإنْ إيمانَك ينتظرُك. فصاحَ الذي إلى جانبي: وأنا، أفلا ينتظرُني إيماني؟ فقيل له: وهل جِئْتَ بهِ؟

ورأيْتُ رجلاً ذَبحَ نفسَهُ يُريدُ أنْ يصرخَ يسألُ الله الرحمة، فلا يخرجُ الصوتُ من حَلْقِه، إذْ كان قد فَرَاهُ وبقيَ مَفْرِيًا! وأبصرْتُ آخرَ قد طعنَ في قلبِه بِمِدية، فهو هناك تَسلُخُ الزبانيةُ قلبَهُ تبحَثُ هلْ فيه نيَّةٌ صالحة، فلا تزالُ تسلُخُ ولا تزالُ تبحث!

ورأيْتُ آخرَ كان تَحسَّى من السمِّ فماتَ ظمآنَ يتلظَّى جوفُه، فلا تزالُ تَنشأ له في النارِ سحابةٌ رَويَّةٌ تَبْرُقُ بِالماء، فإذا دنَتْ منه ورَجاها، انفجَرَتْ عليه بِالصواعقِ ثُمَّ عادَتْ تَنشأ وتنفجر!

وقال رجل: إنَّما كنْتُ مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقْتُ نفسي. فنودِيَ: أوَ ما علمْتَ أنَّ الله يُحاسبُك على أنَّكَ عاقلٌ لا مجنونٌ، وقويٌّ لا ضعيف، وقادرٌ لا عاجز؟ كنْتَ تعقِلُ بالأقلِّ أنَّكَ ستموتُ، وكنْتَ تَقْوَى على أنْ تصبِر، وكنْتَ تقدرُ أنْ تتركَ الشرَّ.

وقال رجلٌ عالمٌ قد حزَّ في يدِه بسكينٍ فمات: «لم يكُن الكمالُ من الدنيا ولا في طبيعتِها ولا هو شيءٌ يُدرك». فصرخَ فيه صوتٌ رهيب: «ولكنْ من عَظَمة الكمالِ أنَّ استمرارَ العملِ له هو إدراكُه!».

* * *

قال أبو عُبيد: ثُمَّ انتصبَ بإزائي شيطانٌ ماردٌ أحمر، يلتمِعُ التماعَ الزجاجِ فيه الخمر، فقامَ في وجهي وقال: بِماذا جِئْتَ إلى هنا يا عدوَّ الخمر؟ فما كان إلَّا أنْ سمعْتُ النداء: شَفَعَتْ فيك الخمرُ التي لم تشربْها، اخرج، إنَّ إيمانَكَ ينتظرُك.

فصِحْتُ: الحمدُ لِلَّهِ! وتحركَ بها لِساني، فانتبهْت.

لقد علمْتُ أنَّ الصبرَ على المصائبِ نعمةٌ كبرى لا يُنعِمُ الله بها إلَّا في المصائب.

وحي القبور(*)

ذهبْتُ في صُبحِ يوم عيدِ الفطرِ أحملُ نفسي بنفسي إلى المَقْبَرَة، وقد ماتَ لي من الخواطِرَ مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد؛ فكنتُ أمشي وفيَّ جَنَازَةٌ بمُشَيعيِّها؛ من فِكْرٍ يَحملُ فِكْراً، وخاطرٍ يَتبعُ خاطراً، ومعنًى يَبكِي، ومعنًى يُبكَى عليه.

وكذلك دأبِي كلَّما انحدرْتُ في هذه الطريقِ إلى ذلك المكان الذي تأتيه العيونُ بدموعِها، وتمشي إليه النفوسُ بأحزانِها، وتجيءُ فيه القلوبُ إلى بقاياها. تلك المقابرُ التي لا يُنَادَى أهلُها مِن أهليهم بالأسماءِ ولا بِالألقاب، ولكنْ بهذا النداء: يا أحبابَنَا، يا أحزانَنَا!

ذهبْتُ أزورُ أمواتي الأعزاءَ وأتَّصلُ منهم بأطراف نفسي، لأحْيا معهم في الموتِ ساعةً أعْرِضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر الآخرة، فأنسى وأذكر، ثُمَّ أنظرُ وأعتبِرُ، ثُمَّ أتعرَّفُ وأتوَسَّم، ثُمَّ أَسْتبْطِنُ مِمّا في بطن الأرض، وأستَظْهِرُ مِمّا على ظهرِها.

وجلسْتُ هناك أشْرِفُ من دهرٍ على دهر، ومن دنيا على دنيا، وأخرَجَتِ الذاكرةُ أفراحَها القديمةَ لِتجعلها مادةً جديدةً لأحزانِها؛ وانفتحَ لِيَ الزمنُ الماضي فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس، وكأنَّ دهراً كاملاً خُلِقَ بحوادثِه وأيَّامِه، ورُفعَ لِعينيَّ كما تُرفَعُ الصورةُ المعلقةُ في إطارها.

أعرفُ أنَّهم ماتوا، ولكنِّي لم أشعرْ قطُّ إلَّا أنَّهم غابوا؛ والحبيبُ الغائِبُ لا يتغيَّرُ عليه الزمانُ ولا المكانُ في القلْبِ الذي يُحبُّهُ مهما تَراخَتْ به الأيام؛ وهذه هي بقيةُ الروحِ إذا امتزَجَتْ بِالحُبِّ في روحٍ أخرى: تتركُ فيها ما لا يُمحَى لأنَّها هي خالدةٌ لا تُمحَى.

ذهبَ الأمواتُ ذَهَابَهم ولم يُقيموا في الدنيا؛ ومعنى ذلك أنَّهم مرُّوا بالدنيا ليس غير، فهذه هي الحياةُ حينَ تعبِّرُ عنها النفسُ بِلِسانِها لا بلسان حاجتِها وحِرصِها.

(*) أنشأها في صبيحة يوم العيد وانظر «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعي.

الحياةُ مدةُ عمل، وكأنَّ هذه الدنيا بكلِّ ما فيها من المتناقضات، إنْ هي إلَّا مَصْنَعٌ يُسَوَّغُ كلُّ إنسانٍ جانباً منه، ثُمَّ يُقالُ له: هذه الأداةُ فاصنعْ ما شِئْتَ. فضيلتَك أو رذيلتَك.

* * *

جلسْتُ في المقبرة، وأطرقْتُ أفكرُ في هذا الموت. يا عجباً لِلناس! كيف لا يستشعرونَهُ وهو يَهدمُ من كلِّ حيّ أجزاءَ تُحيطُ به قبل أنْ يهدمَهُ هو بجملتِه؛ وما زال كلُّ بُنْيانٍ من الناسِ به كالحائطِ المُسَلَّطِ عليه خَرابُه، يَتَأكَّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك!؟

يا عجباً لِلناسِ عجباً لا ينتهي! كيف يجعلونَ الحياةَ مدةَ نزاعٍ وهي مُدةُ عمل، وكيف لا تبرحُ تَنْزُو النَّوازِي بهم في الخِلاف والباطلِ، وهم كلَّما تدافعوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خَصْماً بخصمٍ وردّوا كَيْداً بكيد، جاءَ حكمُ الموتِ تكذيباً قاطعاً لِكُلِّ مَنْ يقولُ لِشيءٍ: هذا لي؟

أمَا ـ والله ـ إنَّهُ ليس أعجبُ في السخرية بهذه الدنيا من أنْ يُعطَى الناسُ ما يملكونَهُ فيها لإِثباتِ أنّ أحداً منهم لا يملكُ منها شيئاً، إذْ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجعُ عنها الراجعُ إلَّا لحماً وعظماً، وبينَهما سفاهةُ العظم واللحم حتى على السِّكِّين القاطعة. . . .

تأتي الأيامُ وهي في الحقيقة تَفِرُّ فِرارَها؛ فمَنْ جاءَ من عمرِه عشرونَ سنةً فإنَّما مَضَتْ هذه العشرونَ من عمرِه. ولقد كان ينبغي أنْ تُصَحَّحَ أعمالُ الحياة في الناسِ على هذا الأصلِ البَينِ، لولا الطباعُ المدخولةُ والنفوسُ الغافلةُ، والعقولُ الضعيفةُ، والشهواتُ العارمة؛ فإنَّهُ ما دَام العمرُ مُقْبِلاً مُدْبِراً في اعتبارٍ واحد، فليس لِلإنسان أنْ يتناول من الدنيا إلَّا ما يُرضيه محسوباً له ومحسوباً عليه في وقت معاً؛ وتكونُ الحياةُ في حقيقتِها ليسَتْ شيئاً إلَّا أنْ يكونَ الضميرُ الإنسانيُّ هو الحيَّ في الحيّ.

* * *

وما هي هذه القبورِ؟ لقد رجعَتْ عند أكثرِ الناسِ مَعَ المَوْتَى أبنيةً ميتة؛ فما قطُّ رأوهَا موجودةً إلَّا لِينسَوْا أنَّها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرِهم لكَانَ لِلقبرِ معناهُ الحيُّ المُتَغَلْغِلُ في الحياة إلى بعيد؛ فما القبرُ إلَّا بناءٌ قائمٌ لِفكرة النهاية والانقطاع؛ وهو في الطَّرَف الآخرِ رَدٌّ على البيتِ الذي هو بناءٌ قائمٌ لِفكرة البَدْءِ والاستمرار؛ وبين الطَّرَفين المَعْبَدُ وهو بناءٌ لِفكرة الضميرِ الذي يحيا في البيتِ وفي القبر، فهو على الحياة والموتِ كالقاضي بين خَصمين يُصْلِحُ بينهما صُلحاً أو يقضي.

القبرُ كلمةُ الصدقِ مبنيَّةً متجسِّمَةً، فكلُّ ما حولها يَتَكَذَّبُ ويتأوَّل، وليس فيها هي إلَّا معناها لا يَدْخُلُهُ كذِبٌ ولا يعتريه تأويل. وإذا ماتَتْ في الأحياءِ كلمةُ الموتِ من غرورٍ أو باطلٍ أو غفلةٍ أو أثرة، بقيَ القبرُ مُذكِّراً بالكلمة شارِحاً لها بأظهرِ معانيها، داعياً إلى الاعتبارِ بمدلولِها، مبيِّناً بِمَا ينطوي عليه أنَّ الأمرَ كلَّهُ لِلنّهاية.

القبرُ كلمةُ الأرضِ لِمَنْ ينخدعُ فيرى العمرَ الماضيَ كأنَّهُ غيرُ ماضٍ، فيعملُ في إفراغِ حياتِه مَنَ الحياة[1] بما يملؤُها من رذائلِه وخسائِسِه؛ فلا يزالُ دائِباً في معاني الأرضِ واستجماعِها. والاستمتاعِ بها، يتلو في ذلك تِلْوَ الحيوان ويقْتَاسُ بهِ، فشريعتُهُ جَوْفُهُ وأعضاؤُه؛ وترجعُ بذلك حيوانيتُهُ مع نفسِه الروحانيَّة، كالحِمارِ مع الذي يملكُهُ ويعلفُه، ولو سُئل الحمارُ عن صاحبِه مَنْ هو؟ لقال: هو حِماري...

القبرُ على الأرضِ كلمةٌ مكتوبةٌ في الأرضِ إلى آخرِ الدنيا، معناها أنَّ الإنسانَ حيٌّ في قانون نِهايتِه، فلْينظرْ كيف ينتهي.

* * *

إذا كان الأمرُ كلُّهُ لِلنهاية، وكان الاعتبارُ بها والجزاءُ عليها، فالحياةُ هيَ الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرِها؛ طريقة إكراه الحيوان الإنسانيِّ على مُمَارسة الأخلاقيَّة الاجتماعيَّة، وجعلِها أصلاً في طِباعِه، ووزن أعمالِه بنتائجِها التي تنتهي بها، إذْ كانَتْ روحانيتُهُ في النهاياتِ لا في بداياتِها.

في الحياة الدنيا يكون الإنسانُ ذاتاً تعملُ أعمالها؛ فإذا انتهتِ الحياةُ انقلبَتْ أعمالُ الإنسان ذاتاً يخلُدُ هو فيها؛ فهو مِنَ الخيرِ خالدٌ في الخير، ومِنَ الشرِّ هو خالدٌ في الشرّ؛ فكأنّ الموتَ إنْ هو إلَّا ميلادٌ لِلروحِ من أعمالِها؛ تُولدُ مرتين: آتيةً وراجعة.

وإذا كان الأمرُ لِلنهاية فقدْ وجبَ أنْ تَبطل من الحياة نهاياتٌ كثيرة، فلا يُتركُ الشرُّ يمضي إلى نهايتِه بلْ يُحْسَمُ في بَدْئِه ويُقتلُ في أولِ أنفاسِه، وكذلك الشأنُ في كلِّ ما لا يَحسنُ أنْ يَبدأ، فإنَّهُ لا يجوزُ أنْ يمتدَّ: كالعداوة والبغضاءِ، والبخلِ والأثرة، والكِبرياءِ والغرور، والخِداع والكذب؛ وما شابَهَ هذه أو شابَهَهَا، فإنَّها كلَّها انبعاثٌ من الوجودِ الحيوانيِّ وانفجارٌ من طبيعتِه؛ ويجبُ أنْ يكونَ لِكلٍّ منها في الإرادة قبرٌ كي تَسْلمَ لِلنفسِ الطيبة إنسانيتُها إلى النهاية.

* * *

(١) أي من إنسانية الحياة.

يا مَنْ لهم في القبورِ أموات!

إنَّ رؤيةَ القبرِ زيادةٌ في الشعورِ بقيمة الحياة، فيجبُ أنْ يكونَ معنى القبرِ من معاني السلام العقليِّ في هذه الدنيا.

القبرُ فمٌ يُنادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدةٌ لو صُرِفَتْ كلُّها في الخيرِ ما وَفَتْ بهِ؛ فكيف يضيعُ منها ضيَاعٌ في الشرِّ أوِ الإثم؟ لو وُلِدَ الإنسانُ ومشى وأيفَعَ وشبَّ واكْتَهل وهَرِمَ في يومِ واحد، فما عساهُ كان يُضِيِّعُ من هذا اليوم الواحد؟ إنَّ أطول الأعمارِ لا يراهُ صاحبُهُ في ساعة موتِه إلَّا أقصرَ من يوم.

يُنادي القبر: أصلِحوا عيوبَكم، وعليكم وقتٌ لإِصلاحِها؛ فإنَّها إنْ جاءَتْ إلى هنا كما هي، بقيَتْ كما هي إلى الأبد، وتركَها الوقتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالِكَ القبرُ أيضاً؛ فليس ينظرُ في هذا عاقلٌ إلَّا كان نظرُهُ كأنَّهُ حكمُ محكمةٍ على هذه الحياة كيفَ تنبغي وكيف تكون.

في القبرِ معنى إلغاءِ الزمان، فمَنْ يفهمُ هذا استطاعَ أنْ ينتصرَ على أيَّامِه، وأنْ يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشرِّ والإثم، وأنْ يُمِيتَ في نفسِه خواطرَ السوء؛ فمِنْ معاني القبرِ ينشأ لِلإرادة عقلُها القويُّ الثابت؛ وكلُّ الأيام المكروهة لا تجِدُ لها مكاناً في زمن هذا العقل، كما لا يجدُ الليلُ محلّاً في ساعاتِ الشمس.

ثلاثةُ أرواحٍ لا تَصلُحُ روحُ الإنسان في الأرضِ إلَّا بها:

روحُ الطبيعة في جمالِها، وروحُ المعبدِ في طهارتِه، وروحُ القبرِ في موعظتِه.

عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرِها(*)

(١)

كان عمرُها طاقَةَ أزهارٍ تُسمَّى أيَّاماً.

كان عمرُها طاقَةَ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيه اليومُ بعدَ اليوم كما تَنبُتُ الورقةُ الناعمةُ في الزهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلِها.

أيامُ الصِّبَا المَرِحَةُ حتى في أحزانِها وهمومِها؛ إذْ كان مجيئُها من الزمن الذي خُصَّ بشبابِ القلْبِ، تبدو الأشياءُ في مَجارِي أحكامِها كالمسحورة؛ فإنْ كانَتْ مُفرِحَةً جاءَتْ حاملةً فرَحَيْن، وإنْ كانَتْ مُحْزِنَةً جاءَتْ بنصف الحزن.

تلكَ الأيامُ التي تعملُ فيها الطبيعةُ لِشبابِ الجسم بِقُوًى مختلفة: منها الشمسُ والهواءُ والحركة، ومنها الفرَحُ والنسيانُ والأحلام!.

* * *

وشبَّتِ العذراءُ وأفرِغَتْ في قالبِ الأنوثة الشمسيِّ القمري، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهَرِ الغَضّ، وأودعَتْها الطبيعةُ سِرَّها النسائيَّ الذي يجعلُ العذراءَ فنَّ جمالٍ لأنِها فنُّ حياة، وجعلتْها تِمثالاً لِلظَّرف: وما أعجبَ سِحرَ الطبيعة عند ما تُجَمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفالِ الذينَ ستلِدُهم من بَعد! وأسبغَتْ عليها معانيَ الرقة والحَنَان وجمالِ النفس؛ وما أكرمَ يدَ الطبيعة عندما تَمْهَرُ العذراء من هذه الصفاتِ مَهرَها الإنسانيّ!

وخُطِبَت العذراءُ لِزوجِها، وعُقِدَ له عليها في اليوم الثالثِ من شهرِ مارسَ في الساعة الخامسة بعدَ الظهر.

وماتَتْ عذراءَ بعدَ ثلاثِ سنين، وأنِزلتْ إلى قبرِها في اليوم الثالثِ من شهرِ مارسَ في الساعة الخامسة بعدَ الظهر!

(*) هي زوج ولده سامي. وانظر خبره وخبرها في «عود على بدء» من كتاب (حياة الرافعي).

وكانَتِ السنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلْبٍ يُقطِّعُهُ المرض، يتنظَّرون به العُرْس، وينتظِرُ بنفسِه الرَّمْس!

يا عجائبَ القدَر! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأنِينٍ استمرَّ ثلاثَ سنوات، فجاءَ آخرُه موزوناً بأوَّلِه في ضبطٍ ودقَّة؟

أكانَتْ تلك العذراءُ تحملُ سرًّا عظيماً سيُغيِّرُ الدنيا، فردَّتِ الدنيا عليها يومَ التهنئة والابتسام والزينة، فإذا هو يومُ الوَلْوَلة والدموعِ والكفن؟

(٢)

واهاً لكَ أيُّها الزمن! مَن الذي يفهمُك وأنت مُدّةُ أقدار؟

واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعددِ أهلِ الدنيا جميعاً، وبهذا يعودُ لِكُلِّ مخلوقٍ سِرُّ يومِه، كما أنَّ لِكلِّ مخلوقٍ سرَّ روحِه، وليس إليه لا هذا ولا هذا.

وفي اليوم الزمنيِّ الواحدِ أربُعمائة مليون يوم إنسانيٍّ على الأرض! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الإنسان أربعاً وعشرينَ ساعة؛ يا للغباوة. . . !

وكلُّ إنسانٍ لا يتعلَّقُ من الحياة إلَّا بالشعاع الذي يُضيءُ المكان المظلمَ في قلبِه، والشمسُ بِمَا طَلعَتْ عليه لا تستطيعُ أنْ تُنيرَ القلبَ الذي لا يُضيئُهُ إلَّا وجهُ محبوب.

وفي الحياة أشياءُ مكذوبةٌ تُكَبِّرُ الدنيا وتُصغِّرُ النفس، وفي الحياة أشياءُ حقيقيَّةٌ تَعْظُمُ بالنفسِ وتَصغُرُ بالدنيا؛ وذَهَبُ الأرضِ كلّهُ فقرٌ مُدْقعٌ حينَ تكونُ المعاملةُ مَعَ القلب.

أيَّتُها الدنيا؛ هذا تحقيرُك الإلهيُّ إذا أكبرَكِ الإنسان!

* * *

ويا عَجباً لأهِل السوءِ المغتَرِّينَ بحياةٍ لا بدَّ أنْ تنتهيَ! فماذا يرتقِبونَ إلَّا أنْ ننتهيَ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة؛ وهل أعجَبُ وأغمضُ من أنْ يكونَ انتهاءُ الإنسان إلى آخرِها هو أوّل فكرِه في حقيقتِها؟

فعِندَما تحينُ الدقائقُ المعدودةُ التي لا تَرقُمُها الساعةُ ولكنْ يرقُمها صدرُ المُحْتَضَر. . . عند ما يكون مُلْكُ الملوكِ جميعاً كالترابِ لا يَشتري شيئاً ألبَتَّة. . .

. . . . ماذا يكون أيُّها المجرمُ بعدَما تَقْتَرِفُ الجِناية، ويقومُ عليكَ الدليل، وترى حَولك الجُنْدَ والقُضاة، وتقِفُ أمامَك الشريعةُ والعدل؟

* * *

أعمالُنا في الحياة هي وحدَها الحياة، لا أعمارُنا، ولا حُظُوظُنا. ولا قيمةَ لِلمال، أوِ الجاه، أوِ العافية، أو هي معاً ـ إذا سُلِبَ صاحبُها الأمنَ والقرار! والآمِنُ في الدنيا مَنْ لم تكنْ وراءَهُ جريمةٌ لا تزالُ تجري وراءَه. والسعيدُ في الآخرة مَنْ لم تكنْ له جريمةٌ تُطارِدُهُ وهو في السماوات.

كيف يُمكنُ أنْ تخدعَ الآلةُ صاحبَها وفيها (العدَّادُ): ما تتحرَّكُ من حركةٍ إلَّا أشْعَرَتْه فعَدَّها؟ وكيف يُمكنُ أنْ يكْذِبَ الإنسانُ ربَّهُ وفيه القلبُ: ما يعملُ من عملٍ إلَّا أشعرَهُ فعدَّه؟

(٣)

ورأيْتُ العروسَ قبل موتِها بأيَّام.

أفرأيْتَ أنتَ الغِنَى عند ما يُدْبِرُ عن إنسانٍ لِيتركَ له الحسرةَ والذكرى الأليمة؟ أرأيْتَ الحقائقَ الجميلةَ تذهبُ عن أهلِها فلا تتركُ لهم إلَّا الأحلامَ بها؟ ما أتعبَ الإنسانَ حينَ تتحوَّلُ الحياةُ عن جسمِه إلى الإقامة في فكرِه!

وما هِيَ الهمومُ والأمراض؟ هي القبرُ يستبطىءُ صاحبَهُ أحياناً فيَنفضُ في بعض أيَّامِه شيئاً من ترابِهِ.... !

رأيتُ العَروسَ قبل موتِها بأيَّام، فيالله من أسرارِ الموتِ ورهبتِها! فَرَغَ جسمُها كما فرَغتْ عندَها الأشياءُ من معانيها! وتخلَّى هذا الجسمُ عن مكانِه لِلرُّوحِ تَظهرُ لأهلِها وتقفُ بينَهم وَقْفةَ الوَدَاع!

وتحوَّل الزمنُ إلى فكرِ المريضة؛ فلم تَعُدْ تعيشُ في نهارٍ وليل، بلْ في فكرٍ مُضيءٍ أو فكرٍ مظلم!

يا إلهي! ما هذا الجِسْمُ المتهدِّمُ المقْبِلُ على الآخرة؛ أهو تمثالٌ بَطَل تعبيرُهُ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه؟

لقد وثِقَتْ أنَّهُ الموت، فكان فكرُها الإلهيُّ هو الذي يتكلَّم؛ وكان وجهُها كوجْه العابد: عليه طَيفُ الصلاة ونورُها. والروحُ الإنسانيةُ متى عبَّرتْ لا تُعبِّرُ إلَّا بالوجه.

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال؛ إذْ هي ابتسامةُ آلام أيقنَتْ أنَّها مُوشِكةٌ أنْ تنتهي! ابتسامةُ روحٍ لها مثلُ فَرحِ السجين قد رأى سجَّانَهُ واقفاً في يدِه الساعةُ يرقُبُ الدقيقةَ والثانيَةَ لِيقول له: انطَلِقْ!

* * *

ودخلْتُ أعودُها فرأتْ كأنّني آت من الدنيا. . . ! وتَنسَّمَتْ منّي هواءَ الحياة، كأنّني حديقةٌ لا شخص!

ومَنْ غيرُ المريضِ المُدْنِف، يعرفُ أنَّ الدنيا كلمةٌ ليس لها معنًى أبداً إلّا العافية: مَن غيرُ المريضِ الْمُشْفي على الموت، يعيشُ بقلوبِ الناسِ الذينَ حولهُ لا بقلبِه؟

تلك حالةٌ لا تنفعُ فيها الشمسُ ولا الهواءُ ولا الطبيعةُ الجميلة، ويقومُ مقامَ جميعِها لِلمريضِ أهلُهُ وأحبّاؤه!

وكان ذَوُوها من رهبةِ القدرِ الداني كأنَّهم أسرى حربٍ أُجلسوا تحتَ جدارٍ يُريدُ أنَّ ينقضّ! وكانَتْ قلوبهُم من فزعِها تَنبِضُ نبضاً مثل ضَرَباتِ المَعاول.

وباقترابِ الحبيبِ المحتَضَرِ من المجهولِ، يُصبحُ مَنْ يحبُّهُ في مجهولٍ آخر، فتختلطُ عليه الحياةُ بالموت، ويعودُ في مثلِ حَيرة المجنون حينَ يُمسكُ بيدِه الظلَّ المتحرّكَ لِيمنعَه أنْ يذهبَ وتَغْروه في ساعةٍ واحدةٍ كآبةُ عمرٍ كامل، تُهيِّىءُ له جلال الحِسِّ الذي يشهدُ به جلال الموت!

* * *

وحانَتْ ساعةُ ما لا يُفْهم، ساعةُ كلِّ شيءٍ، وهي ساعةُ اللاشيءِ في العقلِ الإنسانيّ! فالتفَتَتِ العروسُ لأبيها تقول: «لا تحزَنْ يا أبي. . .» ولأمِّها تقول: «لا تحزني يا أمّي. . . . !».

وتبسمَتْ لِلدموعِ كأنّما تُحاولُ أنْ تُكلِّمَها هي أيضاً؛ تقولُ لها: «لا تبكي. . . !» وأشفقَتْ علَى أحيائِها وهي تموت، فاستجمعتْ روحَها لِيبقَى وجهُها حيًّا من أجْلِهم بضعَ دقائق! وقالتْ: «سأغادرُكُم مبتسمةً فعيشُوا مبتسمين، سأترُكُ تذكاري بينَكم تذكارَ عروس!. . .».

ثُمَّ ذكَرَتِ الله وذكَّرتْهُم به، وقالت: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله». وكررتْها عشراً! وتملأتْ روحُها بالكلمة التي فيها نورُ السماواتِ والأرض، ونطقَتْ من حقيقة قلبِها بالاسم الأعظم الذي يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأُ حتى وهيَ في أحزانها.

ثُمَّ استقبلتْ خالقَ الرحمة في الآباء والأمهاتِ وفي مثل إشارة وداعٍ من مسافرٍ انبعَثَ به القِطار، ألقَتْ إليهم تحيَةً مِن ابتسامتِها وأسلمَتِ الروح!

(٤)

يا لعَجائبِ القدر! مشيْنَا في جنازة العروسِ التي تُزفُّ إلى قبرِها طاهرةً

كالطفلة ولم يُبارِكْ لها أحد! فما جاوزْنا الدارَ إلّا قليلاً حتى أبصرْتُ على حائطٍ في الطريقِ إعلاناً قديماً بالخطِّ الكبيرِ الذي يصيح لِلأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية) هذا هو اسمُها: «مبروك...!».

واخترقْنا المدينةَ وأنا أنظرُ وأتقصَّى، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى! واخترقْنا المدينةَ كلَّها، فلمَّا انقطعَ العُمرانُ وأشرفْنا على المقبرة، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان: «مبروك...!»

موت أمّ (*)

رجعْتُ من الجنَازة بعدَ أنْ غبّرْتُ قدميَّ ساعةً في الطريقِ التي ترابُها ترابٌ وأشعة، وكانَتْ في النعشِ لؤلؤةٌ آدميةٌ محطَّمةٌ، هي زوجةُ صديقٍ طَحْطَحَتْها الأمراضُ ففرّقْتها بين عِللِ الموتِ، وكان قلبُها يُحييها فأخذَ يُهلكُها، حتى إذا دنا أنْ يَقْضِيَ عليها رحمَها الله فقضَى فيها قضاءَه. ومَنْ ذا الذي ماتَ له مريضٌ بالقلبِ ولم يَرَهُ من قلبِهِ في عِلَّتِه كالعصفورة التي تَهْتَلِكُ تحتَ عيني ثعبانٍ سلَّطَ عليها سمومَ عينيه!

كانَتِ المسكينةُ في الخامسة والعشرينَ من سِنِّها، أمَّا قلبُها ففي الثمانينَ أو فوقَ ذلك؛ هي في سنِّ الشبابِ وهو متهدِّمٌ في سنِّ الموت.

وكانَتْ فاضلةً تقيةً صالحة، لم تتعلَّمْ ولكنَّ علَّمَها التقوى والفضيلة. وأكملُ النساءِ عندي ليسَتْ هي التي ملأَتْ عينيها من الكتبِ فهي تنظرُ إلى الحياة نظرات تَحِلُّ مشاكل وتخلقُ مشاكل ولكنَّها تلك التي تنظرُ إلى الدنيا بعينٍ متلألئةٍ بنورِ الإيمان تُقِرُّ في كلِّ شيءٍ معناهُ السماويّ، فتؤمِنُ بأحزانِها وأفراحِها معاً، وتأخذُ ما تُعطَى من يدِ خالِقها رحمةً معروفةً أو رحمةً مجهولة. هذه عندي تُسمَّى امرأة، ومعناها المعبدُ القُدسي؛ وتكونُ الزوجَةَ، ومعناها القوةُ المُسْعِدة؛ وتَصيرُ الأمَّ، ومعناها التكمِلةُ الإلهيَّةُ لِصغارِها وزوجِها ونفسِها.

ومهما تبلغ المرأةُ من العِلْم فالرجلُ أعظمُ منها بأنَّهُ رجل، ولكنَّ المرأةَ حقَ المرأة هي تلك التي خُلِقَتْ لِتكونَ لِلرجلِ مادةَ الفضيلة والصبرِ والإيمان، فتكونُ له وحياً وإلهاماً وعزاءً وقوّة، أي زيادةً في سرورِه ونقصاً من آلامِه.

ولنْ تكونَ المرأةُ في الحياة أعظمَ من الرجلِ إلَّا بشيءٍ واحد، هو صفاتُها التي تجعل رجُلها أعظمَ منها.

* * *

(*) هي زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف. وانظر «عمله في الرسالة» من كتاب «حياة الرافعي».

ومشيْتُ من البيتِ الذي ألبستْهُ الميتةُ معنى القبر، إلى القبرِ الذي ألبسَ الميتةَ معنى البيت وأنا منذُ مشيْتُ في جنازة أمِّي (رحمَها الله) لا أسيرُ في هذه الطريقِ مع الأحياء، ولكنْ مَعَ الموتى، فأتبعُ من الميتِ صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة، لأنَّهُ من غير هذه الدنيا؛ وأمشي في ساعةٍ ليسَتْ ستينَ دقيقةً، لأنَّها خرجَتْ من الزمن؛ ولا أرى الطريقَ من طرقِ الحياة، لأنَّني في صُحبة ميت؛ وتُصبحُ لِلأرضِ في رأيي جغرافيَّةٌ أخرى عَمِيَ الناسُ عنها لِشدَّة وضوحِها، كالألوهيَّة خفيَتْ من شدَّة ما ظهرَتْ.

يقولون: إنَّ ثلاثةَ أرباعِ الأرضِ يَغمُرها البحر. أمَّا أنا فأرى في تلك الساعة أنَّ ثلاثة أرباعِ الأرضِ لا يغمرُها البحرُ الذي وصفوا، ولكنْ خِضَمٌّ آخرُ زخَّارٌ مُتضَرِّب، هو ذلك البحرُ الترابيُّ العظيمُ المسمى «المقبرة».

يقولون: إنَّ الحياةَ هي... هي ماذا ـ ويْحَكُم ـ أيُّها المغرورون؛ أفلا تَرَون هذه الصِّلةَ الدائمةَ بين بطن الأمِّ وبطن الأرض؟

* * *

لعَمْري كيف تجعلُ هذه الحياةُ لِلناس قلوباً مع قلوبِهِم، فيُحِسُّ المرءُ بِقلْب، ويعملُ بقلبٍ آخر: يعتقدُ ضررَ الكذبِ ويكذب، ويعرفُ مَعَرَّةَ الإثم ويأثم، ويُوقِنُ بعاقبة الخيانة ثُمَّ يخون؛ ويمضي في العمرِ منتهياً إلى ربِّه، ما في ذلك شكٌّ، ولكنَّهُ في الطريقِ لا يعملُ إلَّا عمل من قد فَرَّ من ربِّه...؟

هبَّتِ الريحُ في السَّحَرِ على روضةٍ غَنَّاءَ فطابَتْ لها، فعقدَتْ عُقدتَهَا أنْ تتخِذَ لها بيتاً في ذلك المكان الطيِّبِ لِتُقيمَ فيه... يا لها حكمةً من التدبير! تزعمُ الريحُ الإقامةَ على حينِ كلُّ وجودِها هو لحظةُ مرورِها، وتحلُمُ بالقَرارِ في البيتِ وهي لا تملِكُ بطبيعتِها أنْ تقف.

يا لها حكمةً سامية، لا يسكنُها من المعنى إلَّا أسخفُ ما في الحُمق!

* * *

هَمَدَ الحيُّ وانطفأتْ عيناه، ولكنَّه تحرَّكَ في تاريخِه مِمَّا ضيَّقَ على نفسِه أو وَسَّع، وأصبَحَ ينظرُ بعينٍ من عملِه إمَّا مُبْصِرةٍ أو كالعمياء؛ فلو تكلَّمَ يَصِفُ الحياةَ الدنيا لقال: إنَّ هذه النجومَ على الأرضِ مصابيحُ مأتمٍ أقيمَ بليل. وما أعجبَ أنْ يجلسَ أهلُ المأتمِ في المأتم ليضحَكُوا ويلعبوا!

ولو نطقَ الموتى لقالوا: أيُّها الأحياء، إنَّ هذا الحاضرَ الذي يمرُّ فيكون ماضيَكم في الدنيا، هو بعينه الذي يكون مستقبلكُم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا

تُنقِصون. وإنَّ الدنيا تبدأ عندَكم منَ الأعلى إلى الأدنى: منَ العظماءِ إلى الفقراء؛ ولكنَّها تنقلبُ في الآخرة فتبدأ من الفقراءِ إلى العظماء؛ وأنتم ترسمونها بخطوطِ المطامعِ والحظوظ، ويرسمُها الله بخطوطِ الحِرْمان والمُجاهدة؛ إنَّ التامَّ على الأرضِ مَن تمَّ بمتاعِها ولذَّاتِها، ولكنَّ التامَّ في السماءِ مَنْ تمَّ بنفسِه وحدَها.

* * *

يا أسفاً! لنْ يقول الميتُ لِلْحيِّ شيئاً، ومَنْ يدري؟ لعلَّنا ونحن نُلْحِدُ لِلموتى ونُنزِلُهُم في قبورِهم، يَرونَ بأرواحِهِمُ الخالدة أنَّنا نحن موتاهمُ المساكين، وأنَّنا مدفونون في القبر الذي يسمونَهُ «الكرة الأرضية»! وهلِ الكرةُ الأرضيةُ من اللانهاية إلَّا حفرةٌ برجْلِ نملةٍ لِتُدْفَنَ فيها نملة...

الحياة.. أتُريدُ أنْ تعرفَها على حقيقتِها؟ هيَ المُبْهَماتُ الكثيرةُ التي ليس لها في الآخِرِ إلَّا تفسيرٌ واحد: حلالٌ أو حرام.

* * *

ورجعْنا مع الصديقِ إلى بيتِه، ولهُ خمسةُ أطفالٍ صِغارٍ لو أنَّهم همُ الذينَ انتُزِعوا من أمِّهم لتَركَ كلُّ واحدٍ على قلبِها مثل المِكْواة المحمّي عليها في النارِ إلى أنْ تحمَرَّ؛ ولكنَّ أمَّهم هي التي نُزِعَتْ منهم، فكان بقاؤهُم في الحياة تخفيفاً لِسَكْرة الموتِ عليها. وغَشِيتْها الغَشيةُ فماتَتْ وهي تضحك، إذْ تراهم نائمينَ تحتَ جَناحِ الرحمة الإلهيَّة المَمْدود، وقالت: إنَّها تسمعُ أحلامَهم. وكانوا همْ عقلها في ساعة الموت!

تباركَ الذي جعل في قلبِ الأمِّ دنيا من خَلْقِه هو، ودنيا من خَلْقِ أولادها!

تباركَ الذي أثابَ الأمَّ ثوابَ ما تُعاني، فجعل فرحَها صورةً كبيرةً من فرحِ صغارِها!

* * *

وجاءَ أكبرُ الأطفالِ الخمسة، وكأنَّهُ ثمانيةُ أرطالٍ من الحياة لا ثمانيةُ أعوامٍ من العمر؛ جاءَ إلينا كما يجيءُ الفزَعُ لِقلوبٍ مطمئنَّة، إذْ كان في عينيه الباكيتينَ معنى فقدِ الأمّ!

وطغَتْ عليه الدموعُ فتناول منديلهُ ومسحَها بيدِه الصغيرة، ولكنَّ روحَهُ اليتيمةَ تأبى إلَّا أنْ ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِه معانيَ يُتْمِها!

وظهرَ الانكسارُ في وجهِه يعبِّرُ بِبَلاغةٍ أنَّهُ قد أحسَّ حقيقةَ ضعفِه وطفولتِه بإزاءِ المصيبة التي نزلتْ بهِ، وجلسَ مستسلِماً تُتَرْجِمُ هيئتُهُ معانيَ هذه الكلمة: «رِفقاً بي!».

ثُمَّ تطيرُ من عينيه نظراتٌ في الهواء، كأنَّما يُحسُّ أنَّ أمَّهُ حولهُ في الجوّ ولكنَّه لا يراها!

ثُمَّ يُرخِي عينيه في إغماضةٍ خفيفةٍ، كأنَّما يرجو أنْ يرى أمَّهُ في طَوِيَّتِهِ!

ولا يُصَدِّقُ أنَّها ماتت، فإنَّ صوتَها حيٌّ في أذنيه لا يزالُ يسمعُهُ من أمس!

ثُمَّ يعودُ إلى وجهِه الانكسارُ والاستسلام، ويتململُ في مجلسِه، فينطُقُ جسمُهُ كلُّهُ بهذه الكلمة: «يا أمِّي!».

* * *

أحسَّ ـ ولا ريبَ ـ أنَّهُ قد ضاعَ في الوجود، لأنَّ الوجودَ كان أمَّه.

ولمسَ خشونةَ الدنيا منذُ الساعة، بعدَ أنْ فقدَ الصدرَ الذي فيه وَحْدهُ لِينُ الحياة لأنَّ فيه قلبَ أمِّه وروحَها.

وشعرَ بالذلِّ ينسابُ إلى قلبِه الصغير، لأنَّ تلك التي كان يملكُ فيها حقَّ الرحمة قد أخِذَتْ منهُ وتركتْهُ بِلا حقٍّ في أحد؛ وليس لأحِدٍ أمَّان!

ولبِسَتْهُ المسكنَةُ، لأنَّ له شيئاً عزيزاً أصبحَ وراءَ الزمان فلنْ يَصِل إليه!

ولبستْهُ المسكنةُ، لأنَّه صارَ وحدَهُ في المكان كما هو وحدَهُ في الزمان!

وارتسمَ على وجهِه التعجُّب، كأنَّهُ يسألُ نفسَه: «إذا لم تكنْ أمِّي هنا، فلماذا أنا هنا؟!».

ثُمَّ تَغرْغَرَتْ عيناهُ فيُخرِجُ منديلهُ ويمسحُ دمعهُ بيدِه الصغيرة، ولكنّ روحَهُ اليتيمةَ تأبى إلَّا أنْ ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِه معانيَ يُتْمِها!

* * *

ونهضَ الصغيرُ ولم ينطقْ بذاتِ شَفَة؛ نهضَ يحملُ رجولتَهُ التي بدأتْ منذُ الساعة!

انتهَتْ ـ أيُّها الطفلُ المسكينُ ـ أيامُك من الأمّ؛ هذه الأيامُ السعيدةُ التي كنْتَ تعرفُ الغَدَ فيها قبل أنْ يأتِيَ معرفتَك أمسِ الذي مضى؛ إذْ يأتي الغدُ ومَعكَ أمُّك!

وبدأتْ ـ أيُّها الطفلُ المسكين ـ أيامُك من الزمن، وسيأتي كلُّ غدٍ محجَّباً مرهوباً؛ إذْ يأتي لك وحدَك، ويأتي وأنت وحدَك!

الأمّ. . .؟ يا إلهي، أيُّ صغيرٍ على الأرضِ يجِدُ كِفايتَهُ من الروحِ إلَّا في الأمّ؟

قصة أب (*)

حدَّثني المسكينُ فيما حدَّث وهو يصفُ ما نزل به قال:

رأيْتُ الناسَ قد أنعمَ الله عليهم أنْ يكونوا آباءً فَنَسَأ بالولدِ في آثارِهم، ومدَّ بالنسلِ في وجودِهم، وزادَ منه في أرواحِهم أرواحاً، وضمَّ به إلى قلوبِهم قلوباً، وملأَ أعينَهم من ذلك بما تَقرُّ به قُرَّةَ عينٍ كانَتْ لم تَجِدْ ثُمَّ وجَدَت؛ فهم بهؤلاءِ الأطفالِ يملكونَ القوّةَ التي تُرجِعُهُمْ أطفالاً مثلهُمْ في كلِّ ما يسرُّهم، فيكبَرُ الفرَحُ في أنفسِهِم وإنْ كان في ذاتِ نفسِه ضئيلاً صغيراً، ويعظُمُ الأملُ في أشيائِهِم وإنْ كان هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يُؤْبَهُ له.

وتلك حقيقةٌ من حقائقِ السعادة لا أسْمَى ولا أعظَمَ منها إلّا الحقيقةُ الأخرى: وهيَ القوةُ التي يتحوّلُ بها الكونُ في قلبِ الوالدين إلى كنزٍ من الحبِّ والرحمة وجمالِ العاطفة، بسحْرٍ مِن ابتسامة طفلٍ أو طِفْلة، أو بكلمةٍ منهما أو حركة، على حين لا يتحوّلُ مثل ذلك ولا قريباً منه بمالِ الدنيا، ولا بمُلكِ الدنيا.

رأيْتُ الناسَ قد أنعمَ الله عليهم أنْ يكونوا آباءً، ولكنَّهُ ابتلاني بأنْ أكونَ أباً، وأخرجَ لي من أفراحِ قلبي أحزانَ قلبي! ولقد كنْتُ كرجلٍ ملكَ داراً يستمتعُ بها، فتمنّى أنْ يُشْرِعَ[1] في جانِبٍ منها غرفةً يزَخرِفُها، فلمّا تمَّ له ذلك وبلغَ المقْتَرَحَ، انهدمَتِ الدارُ وبقيَتِ الغرفةُ قائمة!

عَمْرَكَ الله، أيشعرُ هذا الرجلُ في نكبتِه بالغرفة أم بالدار؟ وهل تراهُ زادَ أو نَقص؟ ويا ليتَهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت؛ فإنَّ الحِجارةَ تحيا بالبناءِ إذا ماتَتْ بالهدم، ولكنْ مَنْ ذا يُحيي الزوجةَ ماتَتْ بعدَ أنْ وضعَتْ بِكرَها الأول والآخِر!

إنَّها طفلةٌ وُلِدَتْ وكأنَّما أخرِجتْ من تحتِ الرَّدمِ، إذْ وُلِدَتْ تحتَ ماضٍ من

(*) هو الصديق الأديب عبد الله عمار. وانظر «عمله في الرسالة» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) أي يفتح غرفة إلى الشارع.

الحياة منهدِم، وهل فرقٌ بين هذا وبين أنْ تكونَ أمُّها قد ولدَتْها في الصحراءِ ثُمَّ أكرِهَتْ أنْ تدعَها وحدَها في ذلك القَفرِ تصرخُ وتبكي! فالمسكينةُ على الحالين منقطعةٌ أول ما انقطعَتْ من حنان الأمِّ ورحمتِها.

طفلةٌ وُلِدَتْ صارخةً، لا صرخةَ الحياة، ولكنْ صرخةَ النوْحِ والندْبِ على أمِّها.

صرخةٌ حزينةٌ معناها: ضعوني مع أمِّي ولو في القبر!

صرخةٌ ترتعِدُ، كأنَّ المسكينةَ شعرَتْ أنَّ الدنيا خاليةٌ من الصدرِ الذي يُدفئُها!

صرخةٌ تترددُ في ضَرَاعة، كأنَّها جملةٌ مركَّبةٌ من هذه الكلمات: «يا ربِّ ارحمني من حياةٍ بلا أمّ!».

* * *

قال المسكينُ وهو يبكي امرأتَه:

ولمَّا ضَرَبها المخاضُ، ضاعفَتْ قوَّتَها من شعورِها أنَّها ستكونُ بعدَ قليلٍ مضاعَفَةً بمولودِها، وستكونُ روحين لا روحاً واحدة، وتَلِدُ ليَ الحياةَ والحُبَّ الإلهيَّ معاً، وتأتي لِقلبي بمثلِ طفولتِه الأولى التي يستحيلُ أنْ تأتيَ الرجل إلّا من زوجِه. كلُّ ذلك ضاعفَ قواها ساعةً وشدَّ منها؛ ولكنْ ما أسرعَ ما تبيَّنَتْ أنَّهُ الموتُ، إذْ عُضِّلتْ وعَسُرَ خروجُ مولودِها.

وجاءَها الجِراحِيُّ بمبْضعِه، وكأنَّها رأتْهُ ذابحاً لا طبيباً، فجعلتْ تعبِّرُ بعينيها، إذْ لم تملكْ في آلامِها القاتلة غيرَ لغة هاتين العينين.

كانَتْ بنظرةٍ تبكِي عَليّ وعلى بؤسي، وبأخرى تبكي على بؤسِ مولودِها وشقائِه؛ وبنظرةٍ تُودِّعني، وبأخرى تدعو الله لي جزاءَ ما أحسنْتُ إليها؛ وبنظرةٍ تتوجعُ لِنفسِها، وبأخرى تتألمُ من أنَّها تراني أكادُ أجَنّ.

نظرات نظرات...

يا إلهي! لقد خُيِّل إليّ أنَّ ملكَ الموتِ واقفٌ بين عشرينَ مرآةً تُحيطُ بهِ، فأنا أراهُ مَوْتاً متعدِّداً لا موتاً واحداً، وكلُّ نظرةٍ من عينيْ زوجتي إليّ كانَتْ منها هي نظرةً، وكانَتْ عندي أنا مرآةَ الروحِ لِلروح.

ولكنَّها لم تنسَ أنَّها تموتُ لِوضْعِ مولودِها، وأنَّ هذه الآلامَ الدمويَّةَ الذابحةَ هي الوسيلةُ لأنْ تتركَ لي بقيَّةً حيَّةً منها؛ فيا للرحمة والحنان والحُبّ! لقدِ ابتسمَتْ لي وهي تموت؛ وهي تَلِد؛ وهي تُذبَح!

* * *

ليسَتْ رحمةُ المرأة المحبَّة خيالاً إلّا إذا كانَتْ حرارةُ الشمسِ التي تُحيي الدنيا خيالاً أيضاً؛ إنَّ هذا القلبَ النِّسويَّ المستقرَّ فوقَ أحشاءِ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرِحةً بآلامِها، وتغذوهُ وتُقاسِمُهُ حياةَ نفسِها ـ هذا القلبُ يحملُ الحُبَّ أيضاً صابراً راضياً فرِحاً بآلامِهِ، ويغذوهُ ويُقاسمُهُ حياةَ نفسِه.

ولِلرحمة الإلهيَّة أدلةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلالات مختلفة؛ فالشمسُ تدلُّ عليها بالضوءِ الذي تَطْعَمُهُ الحياة، والهواءُ يدلُّ عليها بالضوءِ الذي تتنفَّسُهُ الحياة، والماءُ يدلُّ عليها بالضوءِ الذي تَشربُهُ الحياة، وهكذا إلى أنْ يأتيَ في الآخرِ قلْبُ المرأة فيدلُّ على رحمة الله بِالحبِّ الذي تقومُ به الحياة.

اِبتسامةُ الحُبِّ غالبَتْ زفراتِ الموتِ التي تَعْتَلِجُ من تحتِها حتى غلبتْها، وأعادَتِ الحياةَ لحظةً إلى وجه زوجتي لأراها آخرَ ما أراها في صورة المُحبَّة لي، فكان كلُّ جمالِ نفسِها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرَتْ فيه روحُها وعواطِفُها تودِّعُني وداعاً حزيناً متبمساً يتكلّم؛ يتكلمُ بعجزِه عن الكلام.

اِبتسامةٌ لا ريبَ أنَّ فيها أشياءَ ليسَتْ من جمالِ هذه الدنيا ولا من حقائِقها؛ فكأنَّما التمعتْ بأشعةٍ من الخُلْدِ تَرِفُّ رفيفَها على وجه الحبيبِ لِيُظهِرَ ساعةَ الموتِ أنَّ حبَّهُ أقوى من الموت.

* * *

قال المِسكين: ونَثَر الطبيبُ ذا بطْنَها فكانَتْ طِفلة، وما كانَتْ زوجتي تقترحُ أنْ يكونَ الجنينُ غيرَها، بل كانَتْ مستيقنةً أنَّها تضعُها أنثى، وصنعتْ لها ثيابَها، ووشَّتْها بزينة الأنوثة، وعرضَتْ أسماءَ البناتِ فاختارَتِ اسمَها أيضاً، وكنتُ أكرهُ ذلك منها وأريدُ ولداً لا بِنتاً، فكانَتْ تُغايظُني بعملِها وإصرارِها غيظَ دُعابةٍ لا غيظَ جَفَاء.

ومَضَتْ لا تذكرُ إلّا بنتَها مدةَ الحَمْل، ولا تتكلمُ إلّا عن بنتِها، وقد كنتُ أعجبُ لذلك؛ فلمَّا قضى الله فيها قضاءَه، علمْتُ أنَّ ذلك أمرٌ من أمرِ الروح، فكان الإلهامُ فيها أنَّها على بابِ قبرِها، وأنَّها لن ترى طِفلتَها، ولن تعيشَ لها، فعاشَتْ أيامَ الحَمْلِ مع ذكراها: تضمُّ ثيابَها إلى صدرِها وتحملُها على يدِها، وتُناغيها وتُقبِّلُها، وتأخذُها من الوهم وتردُّها إليه؛ وكذلك نَعِمَتِ المسكينةُ بالمسكينة!

لكِ الله يا معجزةَ الرحمة، يا نفسَ الأم!

* * *

ولمَّا قيل: ماتت. جعل يكلِّمني المتكلمُ ولا أعقِل؛ فإنَّ الكلمةَ التي تأتي بالمصيبة المتوقَّعَة طال ارتقابُها، لا تأتي بمعانٍ لغوية كغيرِها من الكلام، بلْ بأسلحةٍ تَضرِبُ في النفسِ وفي العقل، وتُثْخِنُهما جِراحاً وفتْكاً.

وجعلني موتُها كأنّي ميتٌ يحملُ نفسَهُ، ما حولهُ إلّا المشيّعون؛ وأحسسْتُ كأنَّ قوةً أخذَتْ بإحدى رجليَّ فوضعَتْها في الآخرة وتركتِ الثانيةَ في الدنيا، ولحِقَنِي من الجزعِ ما الله عالمٌ بهِ، وَوجِدْتُ أحْرَقَ الوجْد، وبكَيْتُ أحرَّ البكاء؛ وجعلتْ أفكاري تَنحدرُ من رأسي إلى حلْقي فأختنقُ بها ثُمَّ لا يُنفِّسُ عنّي إلّا الدمع، كأنَّ أعضائي اختلَّتْ مِمَّا ضَغَطَنِي من الحزن، فأنا أتنفسُ برئتيّ وعينيّ.

بموتِها شعرْتُ بها؛ ولعلَّهُ من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذة الحُبِّ كاملةً إلّا في آلام الحُبِّ وحدَها، وكانَتْ في حياتِها تضعُ من روحِها في سروري، وهذا هو سرُّ المرأة المحبوبة: يجدُ مُحبُّها في كلِّ سرورٍ لمحات روحانيَّة؛ وكذلك فعلتْ بعدَ موتِها، فجعلتْ روحَها في أحزاني؛ ولولا أنَّ روحَها في أحزانِي لقتلَتْني المصيبة.

وكنْتُ أذْلِفُ وراءَ النعشِ وقد بَطَل في نفسِي الشعورُ بالدنيا، وكان الناسُ يمشُون حَوْلي بِمَا فيهم من الحياة، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنَّهم سائرونَ كما يذهبون إلى كلِّ مكان؛ أمَّا أنا فكنْتُ أمشي بِمَا فيَّ من الحُبِّ منكسِراً منْخذِلاً متَضَعْضِعاً، لأنِّي وحدي سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق.

وثَقُل الناسُ على قلْبي، ورجعَ كلُّ أمرِهِم عندي إلى العَيبِ والنقيصة، إذْ كان لي عقلٌ طارئٌ من الحالة التي أنا فيها ليس مثْلُهُ لأحدٍ منهم، وكنْتُ وحدي المصابَ بينهم، فكنْتُ وحدي بينهمُ العاقل.

أنا أمشي لأنتهيَ إلى آخرِ مُصيبتي، وهم يمشُون لِينتهوا إلى آخرِ الطريق؛ وشَتَّانَ ما نحن وشتَّان!

ولمَّا رأيْتُ قبرَها ابتدرَتْ عيناي تنظران بالدموعِ لا بالنظَر، ورأيْتُ الترابَ كأنَّهُ غُيومٌ ملوَّنةٌ بألوان السحُبِ الداكنة تتهيَّأ في سمائِها تحتَ الظلام لِتُخْفِيَ كوكباً من الكواكب؛ وظهرَ لِيَ القبرُ كأنَّهُ فَمُ الأرضِ يُخاطبُ الإنسانَ بحزم صارم، يُخاطبُ الفقيرَ والغنيّ، والضعيفَ والقويّ، والملوكَ والصعاليك: «أنَّ كلَّ قوةٍ تُنزَعُ هنا».

* * *

قال المسكين: وكما يجدُ الإنسانُ في أيَّام المطرِ رائحةَ النسيم المبتلِّ بِالماء، كنْتُ أسْتَرْوِحُ في رَجْعتي إلى الدارِ رائحةَ نسيمٍ مبتلٍّ بالدموع؛ وحضَرْتُ المأتَم

وعزّاني الناسُ، فكنتُ فيهم كالمأسورِ بينهم: لا أتمنّى إلّا أنْ يَدَعوني فأنجوَ على وجهي، ولا أرى إلّا أنّهم يجرّعونني الوجودَ غُصَصاً كما تجرعْتُ الفقدَ غُصةً غُصة؛ إلى أنْ تفرقوا مع سوادِ الليل فانكفأتُ إلى الدار، فإذا كلُّ شيءٍ قد تغيَّرَ ولمسَهُ الموتُ لمْسَة، وإذا الدارُ نفسُها كالعين المقروحة من آثارِ البكاء: ما ثَمّ شيءٌ إلّا لِيطالِعَني بأنّ مسراتي قد ماتت!

ولاحَ الصبحُ لعينيَّ الساهرتين صُبْحاً فاتراً تبيَّنتُ فيه الخجل، كأنَّهُ يقول: «لم أطلُعْ لك»، فانسللْتُ من البيت، وذهبْتُ أمشي في دنيا هي الكآبةُ المضيئةُ سَخِرَتِ الأقدارُ منها بإظهارِها في هذا الضوءِ مَظهرَ وجه العجوزِ المُتصابِية في زِينةٍ لا تزيدُها إلّا قبحاً!

ومضيْتُ على وجهي لا غايةَ لي، أضرِبُ في كلِّ جهةٍ كأنَّما أريدُ أنْ أهربَ من نفسي! وما خطرَ لي قطّ أنّي في يوم جديد، بلْ كنْتُ عند نفسي لا أزالُ. أمس، وتغيَّرَ عندي الزمانُ والمكان: فأحدُهما ساعةُ موت لا تتركُ ما فيها، والآخرُ قبرُ ميْتةٍ لا يردُّ ما فيه.

آه من الوقتِ الذي ينتهي فيه الموجودُ لِيعذِّبَنا بالتذكُّرِ أنَّهُ كان موجوداً!

* * *

قال المسكينُ ثُمَّ أعادتني قدمايَ إلى البيتِ لأرى طِفلتي ـ وما كنْتُ رأيْتُها ـ ولقد كانَتْ وِلادتُها أول الحياة لها، وأول الحياة لي أيضاً؛ إذْ لولاها لانتحرْتُ غيرَ شكّ.

يا ويلتا! لم تلتقِ عيني بعين الطفلة حتى انفجَرَتْ تبكي. أتبكينَ لي يا ابنتي أمْ عليّ؟

أهذا بكاؤُكِ أيتُها المسكينة، أمْ هو صوتُ قلبِكِ اليتيم؟

أصوتُكِ أنتِ، أم هي روحُ أمِّكِ تصرخُ ترثِي لي، وتتوجعُ لِفرْطِ ما قاسيْت!

يا ابنتي، إنَّما أنتِ الحقيقةُ الصغيرةُ التي خرجَتْ لي من كلِّ تلك الخيالاتِ الشعريَّة الجميلة، خيالاتِ الأيام السعيدة التي مرَّت!

يُخلقُ المواليدُ من اللَّحم والدم! وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خُلقْتِ من اللحم والدم والدموع!

بقيةُ حياةٍ ماتَت! فهلْ معنى ذلكِ إلّا أنَّك بقيةُ موت يحيا؟

مسكينة، مسكينة؛ لو أنَّ نواميس العالم متغيرةٌ لِشيءٍ لتغيَّرَتْ من أجلِ بؤسِكِ

فردَّتْ لكِ الأمّ؛ ولكنّها لنْ تتغيّر، وما بكاؤنا وآلامُنا وتعاستُنا إلا تُراثَ الحياة في أجسامِنا الأرضيَّة، كلُّ ذلك طبيعةَ ولكنَّ بقعةَ أنظفُ من بقعة، وأراكِ يا ابنتي كالبيتِ الذي هُدِمَ أوّل ما بُني يملؤهُ ترابُه!

لنْ تتغيَّرَ النواميس، فلنْ تَجدي عطفَ الأمّ، ولكنْ لنْ يتغيَّرَ قلبي أيضاً، فلن تُحرمي عطفَ الأب.

وإذا صبرَ الناسُ على الحياة فمِنْ أجلِكِ يا مسكِينة! من أجلِ ضعفِكِ وانقطاعِكِ سأعاني الصبرَ لك، وأعاني الصبرَ لي، وأعانِي الصبرَ عن أمّك، سأصبرُ على الصبرِ نفسِه!

يا ابنتي، يا ابنتي، لماذا وضَعَتْكِ الأقدارُ من هذه الحياة في الناحية التي ليس فيها إلَّا قبرٌ مظلمٌ مقفَلٌ على أمِّكِ، وأبٌ مسكينٌ مقفَلٌ على آلامِه؟

* * *

قال المسكين: وهكذا كُتِبْتُ من أهلِ البؤسِ والهمّ، فلمْ أتزوجْ إلَّا لِتصنعَ لي حبيبتي دموعي، ثُمَّ لم تَمُتْ إلَّا بعدَ أنْ تركَتْ لي حبيبةً أخرى ستظلُّ زمناً طويلاً تصنَعُ لي دموعي!

السَّمكة

حدَّثَ أحمدُ بْنُ مِسكينِ الفقيهُ البَغداديُّ قال: حصَلْتُ في مدينة (بَلْخ) سنةَ ثلاثينَ ومائتين، وعالِمُها يومئذٍ شيخُ خُراسانَ أبو عبدِ الرحمن[1] الزاهدُ صاحبُ المواعظِ والحِكَم؛ وهو رجل قلبُهُ من وراءِ لِسانِهِ، ونفسُهُ من وراءِ قلْبِه، والفَلَكُ الأعلى من وراءِ نفسِه، كأنَّهُ يُلقَّى عليه فيما زعموا.

وكان يُقَالُ له عندَهم: (لُقمانُ هذه الأمَّة)؛ لِمَا يُعجبُهُم من حِكَمِه في الزهدِ والموعظة، وقد حضرْتُ مجالسَهُ وحفظْتُ من كلامِه شيئاً كثيراً، كقولِه: مَنْ دخل في مذهبَنا هذا (يعني الطريق) فَلْيجعلْ على نفسِه أربعَ خِصالٍ منَ الموت: موتٌ أبيض، وموتٌ أسود، وموتٌ أحمر، وموتٌ أخضر؛ فالموتُ الأبيضُ الجوع، والموتُ الأسودُ احتمال الأذى، والموتُ الأحمرِ مُخالفةُ النفس، والموتُ الأخضرُ طرحُ الرِّقاعِ بعضِها على بعض (يعني لبسَ المرقعة والخَلقِ من الثياب).

وقلْتُ يوماً لِصاحبه وتلميذِه (أبي تُراب) وجارَيْتُهُ في تأويلِ هذا الكلام: قد فهِمْنَا وجهَ التسمية في الموتِ الأخضرِ ما دامَتِ المرقعةُ خضراء؛ فما الوجهُ في الأبيضِ والأسودِ والأحمر؟ فجاءَ بقولٍ لم أرضَه، وليس معهُ دليل، ثُمَّ قال: فما عندَك أنت؟ قلْتُ: أمَّا الجوعُ فيُميتُ النفسَ عن شهواتِها ويتركُها بيضاءَ نقيَّة، فذلك الموتُ الأبيض؛ وأمّا احتمالُ الأذى فهو احتمالُ سوادِ الوجه عند الناس، فهو الموتُ الأسود؛ وأمَّا مُخالفةُ النفسِ فهي كإضرام النارِ فيها، فذاك الموتُ الأحمر.

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وكنْتُ ذاتَ نهارٍ في مسجدِ (بلْخ) والناسُ مُتوافِرونَ ينتظرون (لُقمانَ الأمة) ليسمعوه، وشغَله بعضُ الأمرِ فراثَ عليهم، فقالوا: مَن يَعِظُنا إلى أنْ يجيءَ الشيخ؟ فالتفتَ إليَّ أبو ترابٍ وقال: أنت رأيْتَ الإمامَ أحمدَ بْنَ حَنبل، ورأيْتَ بِشْراً الحافِيَ وفلاناً وفلاناً، فقُمْ فحدِّثِ الناسَ عنهم،

---

(١) هو حاتم بن يوسف شيخ خراسان وواعظها، توفي سنة ٢٣٧ للهجرة.

فإنّما هؤلاءِ وأمثالُهم هم بقايا النبوّة. ثُمَّ أخذَ بيدي إلى الأسطوانة التي يجلسُ إليها إمامُ خُراسانَ فأجلسني ثَمَّةَ وقعدَ بين يديّ.

وتطاولتِ الأعناق، ورماني الناسُ بأبصارِهم، وقالوا: البَغْداديّ! البغداديّ! وكأنّما ضُوعِفْتُ عندَهم بمجلسي مرةً وبنسبتي مرةً أخرى، فقلْتُ في نفسي: ـ والله ـ ما في الموتِ الأحمرِ ولا الأخضرِ ولا الأسودِ موعظة، ولو لبِسَ عزرائيلُ قَوْسَ قُزَحَ لأفسدَ شعرُ هذه الألوان معناه، وإنّما يجبُ أنْ يكونَ كما يجبُ أنْ يكون؛ ولا موعظةَ في كلامٍ لم يمتلىءْ من نفسِ قائلِهِ، لِيكونَ عملاً فيتحوّل في النفوسِ الأخرى عملاً ولّا يبقى كلاماً؛ وإنَّه ليس الوعظُ تأليفَ القولِ لِلسامعِ يسمعُه، لكنَّهُ تأليفُ النفسِ لِنفسٍ أخرى تراها في كلامِها، فيكون هذا الكلامُ كأنّهُ قرابةٌ بين النفسين، حتى لكأنَّ الدمَ المتجاذِبَ يجري فيه ويدورُ في ألفاظِه.

* * *

وكنتُ رأيْتُ رؤيا (ببلخ) تتَّصلُ بقصةٍ قائمةٍ في بغداد، فقصصْتُها عليهم، فكانَتِ القصةُ كما حكيْتُها: أنّي امتُحِنْتُ بالفقرِ في سنة تسعَ عشرةَ ومائتين؛ وانحَسَمَتْ مادتي وقَحِطَ منزلي قَحطاً شديداً جمع عليَّ الحاجةَ والضُّرَّ والمسكنَة؛ فلوِ انكمشَتِ الصحراءُ المُجدِبةُ فصَغُرتْ ثُمَّ صغُرَتْ حتى ترجعَ أذرُعاً في أذرع، لكانَتْ هي داري يومئذٍ في محلّة بابِ البَصرة من بغداد.

وجاءَ يومٌ صَحْراويٌّ كأنّما طلعَتْ شمسُهُ من بين الرملِ لا من بين السُّحُب، ومرَّتِ الشمسُ على دارِي في بغدادَ مرورَها على الورقة الجافّة المعلّقة في الشجرة الخضراء؛ فلم يكنْ عندَنا شيءٌ يُسيغُهُ حَلْقُ آدميٍّ، إذْ لم يكنْ في الدارِ إلّا ترابُها وحِجارتُها وأجذاعُها؛ وليَ امرأةٌ ولي منها طفلٌ صغير، وقد طَوَيْنَا على جوعٍ يَخْسِفُ بالجوف خَسفاً كما تَهْبِطُ الأرض؛ فَلتَمنَّيْتُ حينئذٍ لو كنَّا جُرْذاناً فنَقْرِضَ الخشب! وكان جوعُ الصبيّ يزيدُ المرأةَ ألماً إلى جوعِها، وكنْتُ بهما كالجائعِ بثلاثة بطونٍ خاوية.

فقلْتُ في نفسي: إذا لم تأكلِ الخشبَ والحِجارةَ فلْنأكلْ بثمنِها. وجمعْتُ نيتي على بيع الدارِ والتحوُّلِ عنها، وإنْ كان خروجي منها كالخروجِ من جِلْدي: لا يسمَّى إلّا سَلْخاً وموتاً؛ وبتُّ ليلتي وأنا كالمُثْخَن حُمِلَ من معركةٍ: فما يتقلَّبُ إلّا على جِراحٍ تعملُ فيه عملَ السيوف والأسنَّة التي عملتْ فيها.

ثُمَّ خرجْتُ بغَلَسٍ لِصلاة الصبح؛ والمسجدُ يكون في الأرضِ ولكنَّ السماءَ

تكونُ فيه، فرأيتُني عند نفسي كأنّي خرجْتُ من الأرضِ ساعة. ولمَّا قُضِيَتِ الصلاةُ رفعَ الناسُ أكفَّهم يدعون الله (تعالى)، وجرى لِساني بهذا الدعاء: «اللهمَّ بك أعوذُ أنْ يكونَ فقرِي في دِيني، أسألُكَ النفعَ الذي يُصلحُني بطاعتِك، وأسألُكَ بركةَ الرضى بقضائِك، وأسألُك القوّةَ على الطاعة والرضا يا أرحمَ الراحمين».

ثُمَّ جلسْتُ أتأملُ شأني، وأطلْتُ الجلوسَ في المسجدِ كأنّي لم أعُدْ من أهلِ الزمن فلا تجري عليَّ أحكامُه، حتى إذا ارتفعَ الضُّحَى وابيضَّتِ الشمسُ جاءَتْ حقيقةُ الحياة، فخرجْتُ أتسبَّبُ لِبيعِ الدار، وانبعثْتُ وما أدري أين أذهب، فما سِرْتُ غيرَ بعيدٍ حتى لقيني (أبو نصرٍ الصياد) وكنْتُ أعرفُهُ قديماً، فقلْت: يا أبا نصر! أنا على بيعِ الدار؛ فقد ساءَتِ الحالُ وأحْوجَتِ الخصاصة، فأقرِضني شيئاً يُمسِكُني على يومي هذا بالقِوام من العيش حتى أبيعَ الدارَ وأوَفِّيك.

فقال: يا سيدي! خذْ هذا المنديل إلى عِيالِك، وأنا على أثَرِكَ لاحِقٌ بِكَ إلى المنزل. ثُمَّ ناولني منديلاً فيه رُقاقتان بينهما حلوى، وقال: إنَّهما والله بركةُ الشيخ.

قلْت: مَن الشيخُ وما القصة؟

قال: وقفْتُ أمسِ على بابِ هذا المسجدِ وقدِ انصرفَ الناسُ من صلاة الجمعة، فمرَّ بي أبو نصرٍ بِشْرٌ الحافي[1] فقال: ما لي أراكَ في هذا الوقت؟ قلْت: ما في البيتِ دقيقٌ ولا خبزٌ ولا درهمٌ ولا شيءٌ يُباع. فقال: الله المستعان؛ اِحملْ شبكتَك وتعال إلى الخَندق؛ فحملْتُها وذهبْتُ معه، فلمَّا انتهيْنا إلى الخندقِ قال لي: توضَّأ وصلِّ ركعتين. ففعَلْت، فقال: سَمِّ الله ـ تعالى ـ وألقِ الشبكة. فسمَّيْتُ وألقيْتُها، فوقعَ فيها شيءٌ ثقيل، فجعلْتُ أجرُّهُ فشقَّ عليَّ؛ فقلْتُ له: ساعدْني فإنِّي أخافُ أنْ تنقطعَ الشبكة، فجاءَ وجرَّها معي، فخرجَتْ سمكةٌ عظيمةٌ لم أرَ مثلها سِمَنَاً وعِظَماً وفَراهة. فقال: خذْها وبعْها واشترِ بثمنِها ما يُصلِحُ عيالك. فحملْتُها فاستقبلني رجلٌ اشتراها، فابْتعْتُ لأهلي ما يحتاجون إليه، فلمّا أكلْتُ وأكلوا ذكرْتُ الشيخَ فقلْتُ أهدي له شيئاً، فأخذْتُ هاتين الرقاقتين وجعلْتُ بينهما هذه الحلوى، وأتيْتُ إليه فطرقْتُ الباب، فقال: من؟ قلْت: أبو نصر! قال: اِفتحْ وضعْ ما معك في الدهليز وادخلْ. فدخلْتُ وحدثْتُهُ بما صنعْتُ فقال: الحمدُ لِلّه على

---

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بالحافي، توفي سنة ٣٢٧ للهجرة وكان واحد الدنيا في ورعه وتقواه؛ وقيل له: (الحافي) لأنه كان في حداثته يمشي إلى طلب العلم حافياً، إجلالاً لحديث النبي ﷺ.

ذلك. فقلْت: إنّي هيأتُ لِلبيتِ شيئاً وقد أكلوا وأكلْتُ ومعي رقاقتان فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ السمكة! اذهبْ كُلْه أنت وعِيالُك.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وكنتُ من الجوعِ بحيثُ لو أصبْتُ رغيفاً لحسبتُهُ مائدةً أنزلتْ من السماء، ولكنَّ كلمةَ الشيخِ عن السمكة أشبعَتْني بمعانيها شِبَعاً ليس من هذه الدنيا، كأنّما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثِمارِ الجنة؛ وطَفِقْتُ أردِّدُها لِنفسي وأتأملُ ما تَفتُق الشهواتُ على الناس، فأيقنْتُ أنَّ البلاء إنّما يُصيبُنا من أنّنا نُفسِّرُ الدنيا على طولِها وعرضِها بكلمات معدودة، فإذا استقرَّ في أنفسِنا لفظٌ من ألفاظِ هذه الشهوات، استقرَّتْ به في النفسِ كلُّ معانيه من المعاصي والذنوب، وأخذَتْ شياطينُ هذه المعاني تَحومُ على قلوبِنا، فنُصبحُ مُهَيَّئين لِهذه الشياطين، عاملينَ لها، ثُمّ عاملين معها، فتُدخِلُنا مَداخِل السُوءِ في هذه الحياة، وتُقْحِمُنا في الوَرْطة بعدَ الورطة، وفي الهلكَة بعدَ الهلكة.

وما هذه الشياطينُ إلّا كالذبابِ والبعوضِ والهوامّ، لا تحومُ إلّا على رائحةٍ تجذبُها، فإنْ لم تجدْ في النفسِ ما تجتمعُ عليه، تفرقَتْ ولم تجتمع، وإذا ألَمَّتِ الواحدةُ منها بعدَ الواحدة لم تثبُتْ. فلو أنّنا طردْنا من أنفسِنا الكلماتِ التي أفسدَتْ علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَتْ. لكَانَ لِلدنيا في أنفسِنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلِها، ولكانَتْ لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالِنا.

فالشيخُ لم يكنْ في نفسِه معنًى لِكلمة (التلذُّذ)، وبطردِه من نفسِه هذا اللفظَ الواحد، طَرَدَ معانيَ الشرِّ كلَّها، وصَلُحَ له دينُه، وخَلُصَتْ نفسُهُ لِلخيرِ ومعاني الخير. ولو أنَّ رجلاً وضعَ في نفسِه امرأةً يعشِقُها، لصارَتِ الدنيا كلُّها في نفسِه كالمخْدَع: ما فيه إلّا المرأةُ وحدَها بأسبابِها إليه وأسبابِه إليها...

وقد كنْتُ سمعْتُ في درسِ شيخِنا أحمدَ بن حنبلٍ هذا الحديث: «لولا أنَّ الشياطينَ يَحومون على قلوبِ بني آدمَ لنَظَروا إلى مَلكُوتِ السموات». فما فهمْتُ ـ والله ـ معناهُ إلّا من كلمة الشيخِ في السمكة، وقد علَّمَنيها هذا الصيَّادُ العاميّ؛ فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعاني، والمعاني يُوجدُها اللفظُ المستقرُّ في القلبِ استقرارَ غرَضٍ أو شهوةٍ أو طمع؛ فإذا خلا القلبُ من هذِه المعاني، فقد أمِن مُنَازَعَتَها له وشُغْلها إيّاه، فيُصبحُ فوقَها لا بينَها؛ ومتى صارَ القلبُ فوقَ الشهواتِ

ولم يجدْ من ألفاظِها ما يُغمِيه ويعترِضُ نظرَهُ إلى الحقائق، انكشفتْ له هذه الحقائقُ فانكشفَ له المَلكُوت؛ فإذا وقَع بعدُ في واحدةٍ من اللذاتِ ولو (كالرُّقاقتين والحَلوى)، استَغلتِ الأشياءُ عليه فحجبَتْه، وعادَ بينَها أو تحتَها، وعَمِيَ عمى اللذة؛ والحِجابُ على البصرِ كأنَّهُ تعليقُ العَمَى على البصر.

وكنْتُ لا أزالُ أعجبُ من صبرِ شيخِنا أحمدَ بْن حنبلٍ وقد ضُرِبَ بين يدي المعتصم بالسِّياطِ حتى غُشِيَ عليه[1] فلم يتحوّلْ عن رأيه؛ فعلمْتُ الآنَ من كلمة السمكة أنَّهُ لم يجعلْ في نفسِه لِلضربِ معنَى الضرب، ولا عرفَ لِلصبرِ معنى الصبرِ الآدميّ؛ ولو هو صبَرَ على هذا صبْرَ الإنسان لجَزِعَ وتحوَّل، ولو ضُرِبَ ضربَ الإنسان لتألَّم وتغيَّر؛ ولكنَّهُ وَضَعَ في نفسِه معنَى ثباتِ السُّنَّة وبقاءِ الدين، وأنَّهُ هو الأمَّةُ كلُّها لا أحمدُ بْنُ حنبل، فلو تحوَّل لتحوَّل الناسُ، ولو ابتَدَعَ لَابْتدَعُوا؛ فكان صبرُهُ صبرَ أمَّةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فرَد، وكان يُضرَبُ بالسياطِ ونفسُهُ فوقَ معنى الضرب، فلو قَرَضُوهُ بالمقَاريضِ ونشروهُ بالمناشيرِ لمَا نالوا منه شيئاً؛ إذْ لم يكنْ جسمُهُ إلَّا ثوباً عليه، وكان الرجلُ هو الفكرَ ليس غيْر.

هؤلاء قومٌ لا يَروْنَ فضائلهم فضائل، ولكنَّهم يَروْنها أمانات قدِ ائتُمِنُوا عليها من الله لِتبقَى بهم معانيها في هذه الدنيا؛ فهم يُزْرَعونَ في الأمم زَرْعاً بيَدِ الله، ولا يملكُ الزرعُ غيرَ طبيعتِه، وما كان المعتصمُ وهو يُريدُ شيخَنا على غير رأيهِ وعقيدتِه إلا كالأحمقِ يقولُ لِشجرة التفاح: أثْمِري غيرَ التفاح.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مِسكين: وأخذْتُ الرُّقاقتين وأنا أقولُ في نفسي: لعنَ الله هذه الدنيا! إنَّ من هَوانِها على الله أنَّ الإنسانَ فيها يَلْبَسُ وجهَهُ كما يلبَسُ نعله. فلو أنَّ إنساناً كانَتْ له نظرةٌ ملائكيَّةٌ ثُمَّ اعترضَ الخلْقَ ينظُرُ في وجوهِهم، لرأى عليها وُحُولاً وأقذاراً كالتي في نِعالِهم أو أقذرَ أو أقبح، ولعلَّهُ كان لا يَرى أجمل الوجوه التي تَسْتَهِيمُ الناسَ وتَتَصَبَّاها من الرجالِ والنساء، إلَّا كالأحذية العتيقة...

ولكنّي أحسسْتُ أنَّ في هاتين الرُّقاقتين سرَّ الشيخ، ورأيْتُهما في يدي كالوثيقتين بخيرٍ كثير؛ فقلْت: على بَركة الله. ومضيْتُ إلى داري؛ فلمَّا كنْتُ في

---

(١) كان هذا في سنة ٢١٩ وقد أرادوا الإمام العظيم على القول بخلق القرآن فلم يقل به، فأفتى القاضي ابن أبي دؤاد بقتله وشغب عليه. ثم ضرب بين يدي المعتصم، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضربه.

الطريقِ لقيتْني امرأةٌ معها صبيٌّ، فنظرَتْ إلى المنديل وقالت: يا سيدي، هذا طفلٌ يتيمٌ جائعٌ ولا صبرَ له على الجوع، فأطعِمْهُ شيئاً ـ يرحمْكَ الله ـ. ونظرَ إليَّ الطفلُ نظرةً لا أنساها؛ حَسِبْتُ فيها خُشوعَ ألف عابدٍ يعبدونَ الله (تعالى) مُنْقطعين عن الدنيا؛ بل ما أظنُّ ألفَ عابدٍ يستطيعون أنْ يُرُوا الناسَ نظرةً واحدةً كالتي تكونُ في عين صبيٍّ يتيم جائع يسألُ الرحمة. إنَّ شِدَّةَ الهمِّ لتجعلُ وجوهَ الأطفالِ كوجوه القِدّيسين، في عين مَنْ يراها من الآباءِ والأمهات، لِعَجْزِ هؤلاءِ الصغارِ عن الشرّ الآدميّ وَانْقطاعِهم إلا منَ الله والقلبِ الإنسانيّ، فيظهرُ وجهُ أحدِهم وكأنّهُ يَصْرُخُ بمعانيه يقول: يا ربَّاهُ يا رباه!

قال أحمدُ بْنُ مِسكين: وخُيِّل إليَّ حينئذٍ أنَّ الجنَّةَ نزلتْ إلى الأرضِ تَعْرِضُ نفسَها على مَنْ يُشْبعُ هذا الطفل وأمَّه، والناسُ عُمْيٌ لا يُبصرونَها، وكأنَّهم يمرون بها في هذا الموطِن مرورَ الحميرِ بقصرِ الملك: لو سُئِلتْ فَضَّلتْ عليه الإصْطَبل الذي هيَ فيه...

وذكرْتُ امرأتي وابنَها وهما جائعان مُذْ أمس، غيرَ أنّي لم أجِدْ لهما في قلبي معنى الزوجة والولد: بلْ معنى هذه المرأة المُحتاجة وطفلِها، فأسقطْتُهما عن قلبي ودفعْتُ ما في يدي لِلمرأة وقلْتُ لها: خذي وأطعمي ابنَك، و ـ والله ـ ما أملكُ بيضاءَ ولا صفراء، وإنَّ في داري لمَن هو أحوجُ إلى هذا الطعام؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بي لتقدمْتُ فيما يُصْلِحُك. فَدَمَعَتْ عيناها، وأشرقَ وجهُ الصبيّ، ولكنْ طمَّ على قلبي ما أنا فيه فلم أجِدْ لِلدَّمعة معنى الدمعة، ولا لِلبَسْمة معنى البسمة.

وقلْتُ في نفسي: أمّا أنا فأطوي إنْ لم أصِبْ طعاماً، فقد كان أبو بكرٍ الصديقُ يطوي ستةَ أيام، وكان ابنُ عُمَر يطوي، وكان فلانٌ وفلانٌ مِمَنْ حفظْنَا أسماءَهم ورَوينا أخبارَهم؛ ولكنْ مَنْ لِلمرأة وابنها بمثلِ عَقْدِي ونيَّتي؟ وكيف لي بهما؟

ومشيْتُ وأنا مُنْكَسِرٌ منقبِض، وكأنّي كنْتُ نسيْتُ كلمةَ الشيخ: «لو أطعمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ السمكة». فذكرْتُها وصرفْتُ خاطري إليها وشَغَلْتُ نفسي بتدبُّرِها وقلْتُ: لو أنّي أشبعْتُ ثلاثةً بجوع اثنين لحُرِمْتُ خمسَ فضائل[1] وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة، وهذه الفضيلَةُ محتاجةٌ إلى مثلِ هذا العمل، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أنْ يكونَ هكذا، فما يستقيمُ الأمرُ إلّا كما صنَعْت.

---

(١) يريد: جوعه، وجوع امرأته، وجوع ابنه؛ ثم شبع هذه المرأة، وشبع ابنها. فهذه خمس فضائل.

وكانَتِ الشمسُ قدِ انبسطَتْ في السماءِ وذلك وقتُ الضُّحى الأعلى، فملْتُ ناحيةً وجلسْتُ إلى حائطٍ أفكِّرُ في بيعِ الدارِ ومَنْ يبتاعُها، فأنا كذلك إذْ مرَّ أبو نصرٍ الصيادُ وكأنَّهُ مُسْتَطَارٌ فَرحاً، فقال: يا أبا محمد، ما يُجلِسُكَ هٰهنا وفي دارك الخيرُ والغِنى، قلْت: سبحانَ الله! من أين خرجَتِ السمكةُ يا أبا نصر؟

قال: إني لفِي الطريقِ إلى منزلِك، ومعي ضَرُورةٌ من القُوتِ أخذْتُها لِعيالِك، ودَراهِم استَدَنْتُها لك، إذا رجلٌ يَسْتَدِلُّ الناسَ على أبيكَ أو أحدٍ من أهلِه، ومَعُه أثقالٌ وأحمال، فقلْتُ له: أنا أدلُّك.. ومشيْتُ مَعهُ أسألُهُ عن خبرِه وشأنِه عند أبيك. فقال: إنَّهُ تاجرٌ من البَصْرة، وقد كان أبوك أوْدعَهُ مالاً من ثلاثين سنةً، فأفلسَ وانكسرَ المالُ ثُمَّ تركَ البصرةَ إلى خُراسانَ، فصلُحَ أمرُهُ على التجارة هناك، وأيْسَرَ بعدَ المِحْنَة، واستَظْهَرَ بعدَ الخِذْلان، وأقبل جِدُّهُ بالثَّرَاءِ والغِنَى؛ فعادَ إلى البصرة، وأرادَ أنْ يتحلَّل، فجاءَك بالمالِ وعليه ما كان يربحُهُ في هذه الثلاثينَ سنةً، وإلى ذلك طَرائفُ وهدايا.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وأنقلِبُ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة! فقلْت: صدقَ الشيخ: «لو أطعَمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجتِ السمكة»! فلو أنَّ هذا الرجل لم يلقَ في وجهِه أبا نصر، في هذه الطريق، في هذا اليوم، في هذه الساعة، لما اهتدى إليَّ؛ فقد كان أبي مغموراً لا يعرفُهُ أحدٌ وهو حيّ؛ فكيفَ به ميتاً من وراءِ عشرينَ سنة؟

وآليْتُ ليعلمَنَّ الله شكري هذه النعمة؛ فلم تكنْ لي هِمَّةٌ إلَّا البحثَ عن المرأة المحتاجة وابنِها، فكفيْتُهما وأجريْتُ عليهما رِزقاً، ثُمَّ اتَّجَرْتُ في المال، وجعلْتُ أرُبُّهُ بالمعروف والصَّنِيعة والإحسان وهو مُقْبِلٌ يزدادُ ولا ينقُص، حتى تموَّلْتُ وتأثَّلْتَ.

وكأنِّي قد أعجبتْني نفسي، وسرَّني أنِّي قد ملأتُ سِجلاتِ الملائكة بحسناتي، ورجَوْتُ أنْ أكونَ قد كُتِبْتُ عند الله في الصالحين، فنمْتُ ليلةً فرأيْتُني في يوم القِيامة والخَلْقُ يموجُ بعضُهم في بعض، والهولُ هولُ الكون الأعظم على الإنسان الضعيف، يُسْألُ عن كلِّ ما مسَّهُ من هذا الكون. وسمِعْتُ الصائحَ يقول: يا معشرَ بني آدم! سَجدَتِ البهائمُ شكراً لِلَّه أنَّهُ لم يجعلْها من آدم. ورأيْتُ الناسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهم يَحملون أوزارَهم على ظُهورِهم مخلوقةً مجسَّمة، حتى لكأنَّ الفاسِقَ على ظهرِه مدينةٌ كلّها مُخْزيات!

وقيل: وُضعَتِ الموازينُ. وجيءَ بي لِوزن أعمالي، فَجُعِلتْ سيئاتي في كفةٍ وألقيَتْ سجلاتُ حسناتي في الأخرى، فطاشَتِ السجلاتُ ورجَحَتِ السيئات، كأنَّما وزنوا الجبل الصخريَّ العظيمَ الضخمَ بلُفافةٍ من القطن...

ثُمَّ جعلوا يُلْقون الحسنةَ بعدَ الحسنة مِمَّا كنْتُ أصنعُهُ فإذا تحتَ كلِّ حسنةٍ شهوةٌ خفيَّةٌ من شهواتِ النفس: كالرِّياءِ والغُرورِ وحُبِّ المحْمَدَة عند الناسِ وغيرِها، فلم يَسْلمْ لي شيء، وهلكَتْ عنِّي حُجَّتي، إذِ الحجةُ ما يُبَيِّنُهُ الميزانُ، والميزانُ لم يدلَّ إلَّا على أنِّي فارغ.

وسمعْتُ الصوتَ: ألم يبقَ له شيء؟ فقيل: بَقِيَ هذا.

وأنظرُ لأرى ما هذا الذي بقي، فإذا الرُّقاقتان اللتان أحسنْتُ بهما على المرأة وابنِها! فأيقنْتُ أنِّي هالك؛ فلقد كنْتُ أحْسِنُ بمائة دينارٍ ضَرْبَةً واحدةً فما أغنَتْ عنِّي، ورأيْتُها في الميزان مع غيرِها شيئاً معلَّقاً، كالغَمامِ حينَ يكون ساقِطاً بين السماءِ والأرض: لا هُو في هذه ولا هو في تلك.

ووُضعَتِ الرُّقاقتان، وسمعْتُ القائل: لقد طارَ نصفُ ثوابِهِما في ميزان أبي نصرِ الصياد. فانخذَلْتُ انخذالاً شديداً، حتى لو كُسِرْتُ نِصفين لكان أخفَّ عليَّ وأهون. بَيْدَ أنِّي نظرْتُ فرأيْتُ كَفَّة الحسناتِ قد نزلتْ منزلةً ورجَحَت بعضَ الرُّجحان.

وسمعْتُ الصوت: ألم يبقَ له شيءٌ؟ فقيل بَقِيَ هذا.

وأنظرُ ما هذا الذي بقي، فإذا جوعُ امرأتي وولدي في ذلك اليوم! وإذا هو شيءٌ يُوضَعُ في الميزان، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ ويرتفعُ بالأخرى حتى اعتدلتَا بالسَّوِيَّة. وثَبَتَ الميزانُ على ذلك فكنْتُ بين الهلاك والنَّجاة.

وأسمعُ الصوت: ألم يبقَ له شيء؟ فقيل بقيَ هذا.

ونظرْتُ فإذا دموعُ تلك المرأة المسكينة حينَ بكتْ من أثَرِ المعروف في نفسِها، ومنْ إيثاري إيَّاها وابنَها على أهلي. ووُضِعَتْ غَرْغَرَةُ عينيها في الميزان فَفارَتْ، فطمَّتْ كأنَّها لُجَّةٌ، من تحتِ اللُّجَّة بحر؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجَتْ من اللجَّة وقَعَ في نفسي أنَّها رُوحُ تلك الدموع، فجعلتْ تعظُمُ ولا تزالُ تعظم، والكفةُ ترجَحُ ولا تزالُ ترجح، حتى سمعْتُ الصوتَ يقول: قد نجا!

وصحْتُ صيحةً انتبهتُ لها، فإذا أنا أقول: «لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ السمكة!».

الزاهدان (*)

(٢)

قال أحمدُ بْنُ مسكين: انتشَر حديثُ السمكة في أهلِ (بلْخ). واستفاضَ بينهم، وكنْتُ قَصَصْتُهُ عليهم يومَ السبت، فلمّا دارَ السبتُ من أسبوعِه لقيَني شيخُهم حاتمُ بْنُ يوسفَ (لقمانُ الأمَّة) ومعه صاحبُه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لكأنَّكَ في هذه المدينة قمرٌ طَلعَ بليْلٍ فلا يَعِظُ الناسَ في يوم السبتِ غيرُك؛ ومَنْ سمع فكأنَّهُ عايَنَ، وليس على ألسنة أهلِ بلْخٍ منذُ تحدثْتَ إلَّا بِشْرٌ وابنُ حنبل، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلَّا موعظتُك وحديثُك.

والكلامُ عن الصالحينَ في مثلِ ما وصفْتَ وحكيْتَ قُرْبٌ من حقائقِهم، وسُمُوٌّ إلى معانيهم، وليس في القولِ بابٌ له موقعٌ كموقع القصة عن هؤلاءِ الذين يخلُقهُمُ الله في البشرية خلقَ النور: يُضيءُ ما حولَهُ من حيثُ يُرى، ويعملُ فيما حولهُ من حيث لا يُرى، وفي ظاهره الجمالُ والمنفعة، وفي باطنِه القوةُ والحياة. ولسْتُ أقولُ لك اذهبْ فحدِّثِ الناس، ولكنّي أقولُ اذهبْ فأعْطِ الناسَ عقلاً من الحديث.

قال ابنُ مسكين: فلمَّا صلَّيْنا العصرَ، قدَّمني أبو ترابٍ فجلسْتُ في مجلسي ذاك، وهَتَفَ بيَ الناسُ يُريدونَ الحديث عن بِشر الحافي وما سَقَطَ لي من أخبارِه، على الطريقة التي حدثْتُهم بها من قبل، فابتدأتُ بذكرِ موتِه (رحمَهُ الله) وأنَّ يومَهُ كأنَّما اجتمع له أهلُ خمسٍ وسبعينَ سنة[1]، إذْ خرجَتْ جنازتُهُ بعدَ صلاة الصبح، فلم يحصُلْ في قبرِه إلَّا في الليل مِمَّا احتَشَدَ في طريقِه من الخلْق، حتى لكأنَّ في نعشِه سِرًّا من أسرارِ الجنَّة يُطالعُهم به الموتُ فخرجوا ينظرونَ إليه، وكانوا يصيحونَ في جنازتِه: هذا ـ والله ـ شرفُ الدنيا قبل شرف الآخرة.

(*) هذا هو الفصل الثاني من قصة السمكة.

(١) مات (رحمه الله) عن خمس وسبعين سنة.

ثُمَّ قلْتُ: حدَّثني حسينٌ المَغَازِليُّ[1]: أنَّ بِشراً (رحمهُ الله) كان لا يأكلُ إلّا الخبزَ تورُّعاً عن الشبهاتِ واكتفاءً لِضرورة الحياة بالأقلِّ الأيسر، وكان يقولُ في ذلك: يَدٌ أقصرُ من يد، ولُقمةٌ أصغرُ من لقمة. وسُئِل مرة: بأيِّ شيءٍ تأكلُ الخبز؟ فقال: أذكرُ العافيةَ فأجعلُها إداماً. وقد أعانَهُ على ذلك أنَّهُ لم يتزوج، وكان يرى هذا نقصاً في نفسِه حتى فضَّل الإمامَ أحمَد بن حنبلٍ بأشياء: منها أنَّ له أهلاً؛ غيرَ أنَّهُ قِيل له ذاتَ يوم: لو تزوجْتَ تم نُسُكُك. فقال: أخافُ أنْ تقومَ الزوجةُ بحقّي ولا أقومَ بحقِّها. فكانَتْ هذه النيةُ في نفسِه أفضل من زواجِهِ.

وكان مع هذا لا يُؤاكِلُ أحداً، ولا يسعَى إلى لِقاءِ أحد، حتى أنَّهُ لمَّا رغبَ في مؤاخاة الزاهدِ العظيم (معروفِ الكَرْخي)، أرسل إليه (الأسودَ بن سالم) وكان صديقاً لهما، فقال لِمعروفٍ: إنَّ بشرَ بْنَ الحارثِ يُريدُ مؤاخاتَك وهو يستحي أنْ يُشافِهَك بذلك، وقد أرسلني إليكَ يسألُكَ أنْ تعقدَ له فيما بينَهُ وبينَكَ أُخُوَّةً يحتَسِبُها ويعتدُّ بها؛ إلَّا أنَّهُ يشترطُ فيها شروطاً: أولُها أنَّهُ لا يُحبُّ أنْ يشتهرَ ذلك، وثانيها ألَّا يكونَ بينَك وبينَه مُزَاوَرَةٌ ولا مُلاقاة. فقال معروف: أمَّا أنا فإذا أحببْتُ أحداً لم أحبَّ أنْ أفارقَهُ ليلاً ولا نهاراً، وأزورُهُ في كلِّ وقت، وأوثِرُهُ على نفسي في كلّ حال؛ وأنا أعقدُ لِبشرٍ أخوةً بيني وبينَه، ولكنّي أزورُهُ متى أحببْت، وآمرُهُ بلقائي في مواضعَ نلتقي فيها إذا هو كرِهَ زِيارتي.

قال حسينٌ المغازليُّ: وكان هذا كلُّهُ من أمرِ بِشْرٍ معروفاً في بغداد، لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِها، إذْ لم يكنْ لِبغدادَ إمامٌ غيرَهُ وغيرَ ابن حنبل؛ فما كان أكثرَ عجَبِي حينَ كنْتُ عندَهُ يوماً وقد زارهُ (فَتْحُ المَوْصِلي)، فقامَ فجاءَ بدراهِمَ ملءَ كفِّه ودفعَها إليّ وقال: اشترِ لنا أطيبَ ما تجدُ من الطعام، وأطيبَ ما تجدُ من الحلوى، وأطيبَ ما تجدُ من الطِّيب، وما قال لي مثل ذلك قطّ، وهو الذي رأى الفاكهةَ يوماً فقال: تركُ هذه عبادة! وهو القائلُ لأبي نصرِ الصياد: لو أطعمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ السمكة[2].

فذهبْتُ فاشتريْتُ وانتقيْتُ وتخيَّرْت، ثُمَّ وضعْتُ الطعامَ بين أيديهما، فرأيْتُه يأكلُ معهُ وما رأيْتُهُ أكل مع غيرِه، ورأيْتُهُ منبسِطاً إليه وما لي عهدٌ كان بانبساطِه إلى

---

(١) نسبة إلى عمل المغازل، وكان حسين هذا صديقاً لبشر، وكان بشر يعمل المغازل ويعيش من ثمنها، ومن كلامه لابن أخته عمر: يا بني، اعمل بيدك؛ فإن أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين. هكذا كانوا رحمهم الله.

(٢) مرّ هذا في مقال (السمكة).

أحد. وقد كنتُ أخبرْتُهُ في ذلك النهارِ بخبرِ أحمدَ بْن حنبل، عَلِمْتُهُ من إدريس الحداد: فإنَّهُ لما زالتِ المِحنةُ بعدَ أنْ ضرِبَ بين يدي المعتصم وصُرِفَ إلى بيتِه، حُمِلَ إليه مالٌ كثيرٌ من سَرَواتِ بغدادَ وأهلِ الخيرِ فيها، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبلْ منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاجٌ إلى أيسرِه، وإلى الأقلِّ من أيسرِه، وإلى الشيءِ من أقلِّه، فجعل عمُّهُ إسحاقُ يَحْسُبُ ما وردَ ذلك اليوم، فكان خمسينَ ألفَ دينار، فقال له الإمام: يا عمّ، أراك مشغولاً بحساب ما لا يُفيدُك. قال: قد رددْتَ اليومَ كذا وكذا ألفاً وأنت محتاجٌ إلى حبةٍ من دانق. فقال الإمام: يا عمّ، لو طلبْنَاهُ لم يأتِنا، وإنَّما أتانا لمَّا تركْناهُ.

* * *

قال المغَازلي: فنِمْتُ تلكَ الليلةَ وأنا أفكِّرُ في صنيع الشيخ، وقد تعلَّقَ خاطري بهِ: كيف انقلبَتِ الحالُ معه، وأيُّ شيءٍ هذه الحال؟ وجعلْتُ أكِدُّ ذِهني لأعِرفَ الحقيقةَ العقليَّةَ التي سَلَّطَتْ عليه هذه الضرورةَ فتسلَّطَ النعيمُ على نفسِه، وأنا أعلمُ أنَّ للقوم علوماً روحانيَّةً ليسَتْ في الكتب، فمنها ما لا يتعلمُونَهُ إلَّا من الفقر، ومنها ما لا يتعلمونَهُ إلَّا من البلاء، ومنها، ومنها؛ ولكنْ ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهبَ قلبي إلى أوهام كثيرةٍ ليس في جميعِها طائلٌ ولا بها معرفة، حتى غلبتْني عيناي، وأنا من وَهَجِ الفكرِ نائمٌ كالمريض، وقد ثَقُلَ رأسي واختلطَ فيه ما يُعْقَل بما لا يُعقَل.

فرأيْتُ أول ما رأيْتُ مَلِكاً جباراً يحكمُ مدينةً عظيمة، وقد أطلقَ المناديَ في جمْع كلِّ أطفالِ مدينتِه، فجيءَ بهم من كلِّ دار، ثُمَّ رأيْتُهُ قد جلسَ على سِريرِه وفي يدِه مِقراضٌ عظيم، قدِ اتخذَهُ على هيئة نَصلينِ عريضين لو وُضِعَتْ بينهما رقبةٌ لفَصلاها عن جسمِها؛ فكان هذا الجبارُ يتناولُ الطفل من أولئِك فيضعُ أصابعَ إحدى قدميه في شِقَّي المِقْراضِ فيقرضُها، فإذا هي تتناثرُ أسرعَ مِمَّا يقَرِضُ المِقصُّ الخيط، ثُمَّ يَرمي بالطفلِ مغشيًّا عليه، ويتناولُ غيرَهُ فيبتُرُ أصابَعه، والأطفالُ يصرخون؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ولا أملكُ إلَّا غيظي على هذا الجبارِ من حيثُ لا أستطيعُ أنْ أمْضِيَ فيه هذا الغيظَ فأقرضَ عنقَهُ بمقراضِه.

ثم رأيْتُهُ يأخذُ طفلاً صغيراً، فلمَّا جاءَتْ قدمُ الطفلِ بين شِقَّي المِقراضِ صاح: يا ربّ، يا ربّ. فإذا المِقراضُ يلتوي فلا يصنعُ شيئاً، وكأنَّ فيه حجراً صَلْداً لا قَدماً رَخْصَة. فتميَّزَ الجبارُ من الغيظِ وقال: مَنْ هذا الطفل؟ فسمعْتُ هاتفاً يهتف: هذا بشرٌ الحافي! لا يبلغُ تاجُ مَلكٍ في الأرضِ أنْ يكونَ لِقدمِه الحافية نعلاً عند الله!

وكان إلى يميني رجلٌ يَتَوَضَّأ وجهُهُ صلاحاً وتقوى، فقلْتُ له: مَنْ هذا الطاغية؟ ولِمَ اتخذَ المِقراضَ لأقدام الأطفالِ خاصّة؟

فقال: يا حُسين! إنَّ هذا الجبارَ هو ذُلُّ العيش، وهذا وَسْمُهُ لأهلِ الحياة على الأرض، يُحقِّقُ به في الإنسان معنى البهيمة أول ما يَدِبُّ على الأرض، حتى كأنَّهُ ذو حافر لا ذو قدَم.

قلْت: فما بالُ هذا الطفل لم يعملْ فيه المِقراض؟

قال: إنَّ لِلَّه عِباداً استخصَّهم لِنفسِه، أولُ علامتِه فيهم أنَّ الذلَّ تحتَ أقدامِهم، وهم يجيئونَ في هذه الحياة لإثباتِ القُدرة الإنسانيَّة على حكم طبيعة الشهواتِ التي هي نفسُها طبيعةُ الذل؛ فإذا اطَّرحَ أحدُهم لِلشهواتِ وزهدَ فيها، واستِقامَ على ذلك في عَقْدِ نيَّةٍ وقوة إرادة، فليس ذلك بِالزاهدِ كما يصفُهُ الناس، ولكنَّهُ رجلٌ قويّ اختارتْهُ القدرةُ لِيحمل أسلحةَ النفسِ في مَعَارِكِها الطاحنة، كما يحملُ البطلُ الأروعُ أسلحةَ الجسم في معاركِه الدامية: هذا يُتَعَلَّمُ منه فنّ، وذاك يُتَعَلَّمُ منه فنٌّ آخر، وكلاهما يُرمَى به على الموتِ لإيجادِ النوعِ المستعزِّ من الحياة، فأولُ فضائلِه الشعورُ بالقوَّة، وآخرُ فضائلِه إيجادُ القوة.

* * *

قال المغازلي: وضَرَبَ النومُ على رأسي ضربةً أخرى، فإذا أنا في أرضٍ خبيثةٍ داخِنَةٍ، قدِ ارتفعَ لها دُخانٌ كَثيفٌ أسودُ يتضرَّبُ بعضُهُ في بعضٍ وجعلْتُ أرى شُعَلاً حُمراً تذهبُ وتجيءُ كأنَّها أجسامٌ حيَّة، فوقَع في وهمي أنَّ هؤلاءِ هُمُ الشياطينُ: إبليسُ وجنودُه، وسمعْتُ صارخاً يقول: يا بُشرَى! فَلْتبكِ السماءُ على الأرضِ، لقد أكل بِشْرٌ الحافِي من أطيبِ الطعام وأطيبِ الحلوى بعدَ أن استوى عندَهُ حَجَرُها ومَدَرُها، وذهبُها وفِضَّتُها! فعارضَهُ صائحٌ أسمعُ صوتَهُ ولا أرى شخصَه: ويلك يا زَلنبور[1]! إنَّ هذا شرٌّ علينا من عامَّة نُسكِه وعبادتِه؛ فهذا ـ ويحكَ ـ هو الزهدُ الأعلى الذي كان لا يُطيقُهُ بِشر؛ إنَّهُ إعناتٌ سلْطَهُ على نفسِه، فإنِّي دفعْتُ هذا (المغازليَّ) الأعمى القلبِ لِيُزَيِّنَ له ما فعل أحمدُ بْنُ حنبلٍ من ردِّه خمسينَ ألفَ دينارٍ على حاجتِه، زهْداً وورعاً، وقوَّةَ عزم، ونفاذَ إرادة؛ وقلْتُ: عسى أنْ تتحركَ في نفسِه شهوةُ الزهدِ فَيَحْسُدَ أو يَغار، أو تُعْجِبَهُ نفسُهُ فيكون لي من ذلك لَمَّةٌ بقلبِه فأوسوسُ له، فإنَّا نأتي هؤلاءِ من أبوابِ الثوابِ كما نأتي غيرَهم

---

(١) هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى، وفي بعض النسخ التي بأيدينا أنه خنزب لازلنبور. . . .

من أبوابِ المعاصي، ونتورّعُ مع أهلِ الورَعِ كما نَتَسَخَّفُ مع أهلِ السُّخف؛ ولكنَّ الرجل رجلٌ وفيه حقيقةُ الزاهد، فقد أُعطي القوةَ على جعلِ شهواتِ نفسِه أشخاصاً حيةً يُعاديها ويُقاتِلُها، فإذا أنا جعلْتُ شهوتَهُ في اللذة قتل اللذة، وإذا جعلْتُها في الكآبة قتل الكآبة، وليس الزاهدُ العابدُ هو الذي يتقشَّفُ ويتعفَّف، ويتخفَّفُ ويتلفَّف، فإنَّ كثيراً ما تكونُ هذه هي أوصافَ الذُّلِّ والحمق، ويكون لها عملُ العِبادة وفيها إثْمُ المعصية. ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهدِ مَنْ أدارَ في هذه الأشياءِ عيناً قد تعلَّمَتِ النظرَ بحقِّه والإغضاءَ بحقِّه؛ فهذا لا يُخطىءُ معنى الشرِّ إنْ لبَّسناهُ عليه في صورة الخيرِ، ولا معنى الخيرِ إنْ زوَّرناهُ في صورة الشرّ، وبذلك يضعُ نفسَهُ في حيثُ شاءَ من المنزلة، لا في حَيث شاءَتِ الدنيا أنْ تَضعَه من منازلِها الدنيئة.

وما أكل بشرٌ هذه الطيِّباتِ إلَّا لِيُبَادِرَ بها وسوستي ويردَّني عن نفسِه وعن اللَّمَّة بقلبِه، فلو أنَّهُ أعجبَهُ زهدُ ابن حنبل ونظرَ من ذلك إلى زهدِ نفسِه لحَبِطَ أجرُه؛ فبهذه الطيباتِ عالجَ نفسَهُ عِلاجَ مريض، وقد غيَّرَ على جوفِه طعاماً بِطعام، كما يبدِّلُ على جِلدِه ثوْباً بثوب؛ ولا شهوةَ لِلجلدِ في أحدِهما.

* * *

قال المغازلي: وثقُل النومُ عليّ ثَقلةً أخرى، فرأيْتُني في وادٍ عظيم، وفي وسطِه مثلُ الطَّوْدِ من الحجارة قد رُكِمَ بعضُها على بعض؛ ورأيْتُني مع بِشرٍ أقصُّ عليه خبرَ أحمدَ بْن حنبل؛ فقال: انظرْ ـ ويحك ـ؛ إنَّ الناسَ يسمونها خمسينَ ألفَ دينارٍ، وهي هنا في وادي الحقائقِ خمسونَ ألفَ حجرٍ لو أصابَتْ أحمدَ لقتلَتْهُ ولكانتْ قبرَهُ آخرَ الدهر.

إنَّ المال يا بُنيَّ هو ما يعملُهُ المالُ لا جوهرُهُ من الذهبِ والفِضَّة، فإذا كنْتَ بِمَفَازةٍ ليس فيها من يبيُعكَ شيئاً بذهبِك، فالترابُ والذهبُ هناك سواء؛ والفضائلُ هي ذهبُ الآخرة؛ فهنا تُجدِّدُ بالمالِ دنياك التي لا تبقى أكثرَ من بقائِك، وهناك تُجدِّدُ بالفضائلِ نفسَك التي تخلدُ بِخلُودِها.

ومعنى الغِنى معنًى مُلْتبِسٌ على العقولِ الآدميَّة لاِجتماعِ الشهواتِ فِيه، فحينَ يردّ أحمدُ بْنُ حنبلٍ خمسينَ ألفاً، يكون هذا المعنى قد صحَّحَ نفسَهُ في هذا العملِ وَجْهاً من التصحيح.

* * *

قال حسينٌ المغازليّ: وغطَّني النومُ في أعماقِه غطَّةً أخرى؛ فإذا أنا في

المسجدِ في درسِ الإمام أحمَدَ، وهو يُحدِّثُ بحديثِ النبيّ ﷺ: «إذا عظَّمَتْ أمتي الدينارَ والدرهم، نُزِعَ منها هيْبةُ الإسلام؛ وإذا تركوا الأمرَ بِالمعروف والنهيَ عن المنكر، حُرموا بركةَ الوحي» وهمّ أنْ يتكلمَ في تفسيره[1] ولكنّهُ رآني فأمسَكَ عنهُ وأقبل عليّ فقال: يا حسين! إذا اجتزأ شيخُكَ بالرغيف فهذا عندَهُ هو قدْرُ الضرورة؛ فإنْ أكل الطيباتِ فقدْ عرضَتْ حالٌ جعلتْ هذه الطَيباتِ عندَهُ هي قدرَ الضرورة؛ وفي هذه النفوسِ السماويَّة لا يكون الجزءُ الأرضيُّ إلَّا محدوداً، فلا يكون محصولُهُ إلَّا ما ترى من قدرِ الضرورة.

ولمَّا صغُرَ الجزءُ الأرضيُّ في نفوسِ المسلمينَ الأولينَ ملكوا الأرضَ كلَّها بقوة الجزءِ السماويِّ فيها، إذْ كانَتْ إرادتُهُم فوقَ الأطماعِ والشهوات، وكانَتْ بذلك لا تذلُّ ولا تضعفُ ولا تنكسر؛ فالآدميَّةُ كلُّها تنتهي إلى بعضِ صُوَرٍ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ محلُّهم في أعلاها.

يا حسين! ألَا وإنَّ ردَّ خمسينَ ألفَ دينارٍ هو كذلك قدرُ الضرورة.

قال حسين: وذهبْتُ أعترضُ على الإمام بِمَا كان في نفسي من أنَّ هذا المال وإنْ لم يكُنْ من كسْبِه، فقد كان يتحوَّلُ في يدِه عملاً من أعمالِ الخير؛ وأنَسِيتُ أنَّ هذه الصَّدَقاتِ هي أوساخُ الناسِ وأقذارُ نفوسِهِم، فلمْ أكدْ أفتحُ فمي حتى رأيْتُ الكلامَ يتحوَّلُ طِيناً في فمي لِيذكُرني بهذا المعنى؛ وكِدْتُ أختنقُ فانتفضْتُ أتنفَّس، فطارَ النومُ والحِلْمُ.

---

(١) سيأتي تفسيره في مجلس آخر من مجالس ابن مسكين.

إبليس يُعلّم... (*) (1)

(٣)

قال أحمدُ بْنُ مِسكين: ودارَ السبتُ الثالثُ، وجلسْتُ مجلسي لِلناسِ وقدِ انتظمَتْ حَلْقَتَهُم؛ فقامَ رجلٌ من عُرْضِ المجلسِ فقال: إنَّ الحسَنَ بْنَ شُجاعِ البلْخي تلميذَ الإمام أحمدَ بْن حنبل(٢)، كان منذُ قريبٍ يُحدِّثُنا بأحاديثَ عنِ الشيطان، حفظْنا منها قوله ﷺ: «إنَّ المؤمن يُنْضِي شيطانَه كما يُنضي أحدُكم بعيرَهُ في سفرِهِ». وكان الحسنُ يقولُ في تأويلِهِ: إنَّ شيطانَ الكافرِ دَهينٌ سمينٌ كاسٍ، وشيطانَ المؤمن مَهزولٌ أشعَثُ أغْبرُ عارٍ. فهل يأكلُ الشيطانُ ويدَّهِنُ ويلبسُ لِيكونَ له أنْ يجوعَ مع المؤمن ويَعرى ويتشعَّثَ ويَغْبَرَ؟

قال ابنُ مسكين: فقلْتُ في نفسي: لا حول ولا قوةَ إلَّا بالله! ما أرى السائل إلَّا شيطانَ هذا السائل؛ فإنَّ إبليس إذا أرادَ أنْ يَسْخَرَ من العالم ويُسمِعَهُ طَنْزَهُ وتهكمه(٣)، حرَّكَ مَنْ يسألُهُ عنه ما هو وكيف هو؛ كأنّما يقولُ له: تَنَبَّهْ ـ ويحكَ ـ على معنايَ، فأنْتَ تتكلَّمُ وأنا أعمل، وأنْتَ صورةٌ من الردّ عَليَّ، ولكنّي حقيقةٌ من الرَدِّ عليك، وما أنت في محاربَتِكَ لي بالوعظِ إلَّا كالذي يُريدُ أنْ يضربَ عُنُقَ عدوِّه بمائة اسمٍ وُضِعَتْ لِلسيف...

قال: وكنْتُ قد سمعْتُ خبراً عجيباً عن أبي عامرٍ قَبيصةَ بْن عُقْبَةَ الكوفيِّ المحدِّثِ الحافظِ الثقة أحدِ شيوخِ أحمدَ بْن حنبل(٤)؛ وهوَ الرجلُ الصالحُ العابدُ الذي كان يُقالُ له: (راهبُ الكوفةِ)؛ من زهدِه وعبادتِه واحتباسِ نفسِه في داخلِه

(*) انظر الفصلين السابقين.

(١) داعبنا إبليس (لعنه الله) مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال، وسنقتص للقراء حكايته في مقالة: (دعابة إبليس).

(٢) توفي ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤هـ، وكان من حفاظ (بلخ).

(٣) الطنز: التهزؤ والتهكم، ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة.

(٤) توفي سنة ٢١٥هـ.

كأنَّما جَسَدُهُ جِدارٌ بين نفسِه وبين الدنيا، فقلْتُ ـ والله ـ لأغيظَنَّ الشيطانَ بهذا الخبر، فإنَّ أسماءَ الزهَّادِ والعبَّادِ والصالحينَ هي في تاريخِ الشياطين كأسماءِ المواقعِ التي تنهزمُ فيها الجيوش، وما الرجلُ العابدُ إلَّا صاحبَ الغَمَراتِ مع الشيطانِ، وكأنَّهُ يحتملُ المكارِهَ عن أمَّةٍ كاملةٍ بلْ عن البشرية كلِّها حيثُ كانَتْ من الأرض، فالناسُ يحسبونَهُ قد تخلّى من الدنيا ويظنُّونَ التركَ أيسرَ شيء، وما علموا أنَّ الزهدَ لا يستقيمُ لِلزاهدِ حتى يجعل جسمَهُ كأنَّهُ نوعُ نظامٍ آخرَ غير نظام أعضائِه؛ ولا أشَقَّ من ذلك على النفس. ومعجزةُ الزاهدِ أنَّهُ مكلفٌ أنْ يُخرِجَ لِلناسِ أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناسِ أضعفُ الضعف؛ ولو أنَّ ملِكاً عظيماً تعبَ في جمعِ الدنيا وفتْحِ الممالكِ حتى حِيزتْ له جوانبُ الأرض، لكَانَ عملُهُ هذا هو الوجهَ الآخَرَ لتعبِ الزاهدِ في مُجاهدَة هذه الدنيا وتركِها.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وقصصْتُ عليهِمُ القصةَ فقلْت: كان أبو عامرٍ قَبيصةُ بْنُ عُقبةَ كثيرَ الفِكْرِ في الشيطان، يوَدُّ لو رآهُ وناقَلهُ الكلامَ؛ وكان يتدبَّرُ الأحاديثَ التي صحَّ ورودُها فيه، ويفسِّرُ معنى الشيطان بأنَّهُ الروحُ الحيُّ لِلخَطأ على الأرض؛ والخطأ يكون صواباً محوّلاً عن طريقتِه وجِهَتِهِ، ولهذا كان إبليسُ في الأصلِ مَلَكاً من الملائِكَة وتحوَّل عن طبيعتِه حينَ خُلِقَ آدمُ (عليه السلام)، أي وُجِدَ في الكون روحُ الخطأ حينَ وُجِدَ فيه الروحُ الذي سيُخطىء.

فلمَّا هبطَ آدمُ من الجنة وحُرِمَها هو وزوجُهُ وذرّيتُه، كان إبليسُ (لعنهُ الله) هو معنى بقاءِ هذا الحِرمان واستمرارِه على الدهر، فكأنَّ هذه الآدميَّةَ أُخرجَتْ من الجنة، وأخرجَتْ معها قوةٌ لا تَزالُ تَصُدُّها عنها، لِيضطربَا في الكِفاحِ مَليًّا من زمنٍ هو عمرُ كلِّ إنسان، وهذا هو العدلُ الإلهيّ: لم يَعرفْ آدمُ حقَّ الجنَّة، فعُوقِبَ ألَّا يأخذَها إلَّا بحقِّها، وأنْ يُقاتِل في سبيلِ الخيرِ قوةَ الشرّ.

وباتَ أبو عامرٍ ذاتَ ليلةٍ يُفكِّرُ في هذا ونحوِه بعَد أنْ فرغَ من صلاتِه وقراءتِه، ثُمَّ هَوَّمَ فكان بين اليَقَظة والنوم، وذلك حينَ تكونُ العينُ نائمةً والعقلُ لا يزالُ منتبهاً، فكأنَّ العينَ متراجعَةٌ تُبصرُ من تحتِ أجفانِها بصراً يُشارِكُها فيه العقل.

فرأى شيخُنا أبو عامرٍ صورةَ إبليس جاءَهُ في زِيّ رجلٍ زاهدٍ، حَسَن السَّمْتِ طيِّبِ الريح، نظيف الهيئة، وكادَ يُشَبَّهُ عليه لولا أنَّهُ قد عرفَهُ من عينيه، فإنَّ عيني الكاذبِ تَصْدُقان عنه، وقد عَلِمَ الله أنَّ الكاذبَ آدميٌّ قَفْرٌ كالمَتَاهَة من الأرض، فجعل عينيه كالعلاماتِ لِمَنْ خاضَ الفلاة.

وظهرَ الشيطانُ زاهداً عابداً تَقيًا نَقيًا كأنَّهُ دِينٌ صحيحٌ خُلِقَ بَشراً، فَصَرَخَ فيه أبو عامر: عليكَ لعنةُ الله! أمعصيةٌ في ثوبِ الطاعة؟

قال إبليس: يا أبا عامر! لو لم تقلِ المعصيةُ إنَّها طاعةٌ لم يُقَارِفْها أحد. وهل خُلقَتِ الشهواتُ في نفسِ الإنسان وغريزته إلَّا لِتقريبِ هذه المعاصي منَ النفس، وجعْلِ كلٍّ منها طاعةً لِشيءٍ ما؛ فتقعُ المعصيةُ بأنَّها طاعةٌ لا بأنَّها معصية؟ أوَ لا ترى يا أبا عامرٍ أنَّ الحِيلةَ مُحكمةٌ في الداخلِ من الجسم أكثرَ مِمَّا هي محكمةٌ في الخارجِ عنه، وأنَّهُ لولا أنْ هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملِ لمَا كان لِظاهرِ الوجودِ كلِّهُ في الإنسان معنًى ولا عمل؟

قال الشيخ: عليكَ لعنةُ الله! فما أرى الموتَ قد خُلِقَ إلَّا ردًّا عليكَ أنت، لِيتبيَّنَ الناسُ أنَّكَ الممتلىءُ الممتلىءُ، ولكنَّك الفارغُ الفارغ؛ بل كلُّ شهواتِكَ سخريةٌ منك وردٌّ عليك، فلا طعْمَ للذةِ من لذاتِكِ إلَّا وهِيَ تموت، وإنَّما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضي؛ ومتى قالتِ اللذةُ: قدِ انتهيْت. فقد وصفَتْ نفسَها أبلغَ الوصف.

قال إبليسُ: يا أبا عامر، ولكنَّ اللذةَ لا تموتُ حتى تَلِدَ ما يُبقيها حيَّة، فهي تَلِدُ الحنينَ إليها، وهو لا يسكنُ حتى يعودَ لذةً تنقضي وتَلِد.

قال الشيخ: معاني التراب، معاني التراب؛ كلُّ نَبْتَةٍ فيها بِذْرتُها، ولكنْ (عليكَ لعنةُ الله) لِماذا جئْتَني في هذه الصورة؟

قال إبليسُ: لأنِّي لا ألبسُ إلَّا محبَّةَ القلبِ الآدميّ، ولولا ذلك لطردَتْني القلوبُ كلُّها وبَطَل عملي فيها، وهل عملي إلَّا التلبيسُ والتزوير؛ أفتدري يا أبا عامرٍ أنِّي لا أعتري الحيوانَ قطُّ.

قال الشيخ: لأنَّ الحيوانَ لا ينظرُ إلى الشيءِ إلَّا نظرةً واحدةً، هي نظرُهُ وفهمُهُ معاً، فلا محلَّ لِلتزويرِ مع هذه النظرة الواحدة؛ وصدقَ الله العظيم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. فأنتَ أيُّها الشيطانُ التزوير، والتزويرُ موضعُه الكذب؛ فمَنْ لم يكذبْ في الفكرِ ولا في النظرِ ولا في الفهم ولا في الرجاء، فليس لك عندَهُ عمل.

قال إبليس: يا أبا عامر! وهلْ ترى (رحمَكَ الله) أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهُزءِ والسخرية من أنَّ أعظمَ العُقلاءِ الزهَّادِ العُبَّادِ، هو في جملة معانيه حيوانٌ ليس له إلَّا نظرةٌ واحدةٌ في كلِّ شيء؟

قال الشيخ: عليكَ وعليك. . . ؛ إنَّ الحيوانَ شيءٌ واحدٌ، فهو طبيعةٌ مسخَّرةٌ

بنظامِها، ولكنَّ الإنسانَ أشياءُ متناقِضَةُ بطبيعتِها، فألوهيتُهُ أنْ يُقِرَّ النظامَ بين هذه المتناقِضَات، كأنّما امتُحِنَ فأعطَى من جسمِه كوناً فيه عناصرُ الاضطراب، وحولَهُ عناصرُ الاضطراب، ثم قيل له دَبِّرْه.

فضحكَ إبليس. قال الشيخ: مِمَّ ضحكـ[illegible]ـكَ الله؟

قال: ضحكْتُ من أنَّك أعلمْتني حقيقةَ [illegible]سية، فالزهَّادُ هُمُ الصالحونَ لأنْ يكونوا أعظمَ الأبالسة...

قال الشيخ: عليكَ لعنةُ الله، فما هي [illegible]حقيقةُ التي زعمْت؟

قال إبليس: ـ والله ـ يا أبا عامر، ما غلا إنسانٌ في زَعْم التقوى والفضيلة إلَّا كانَتْ هذه هي الإبليسيَّة؛ وسأعلمُكَ يا أبا عامرٍ حقيقةَ الزهدِ والعِبادة. فلا تقلْ إنَّها ألوهيَّةٌ تُقِرُّ النظامَ بين متناقِضاتِ الإنسان ومتناقضاتِ الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخَرُ منّي لعنَكَ الله؟ فمتى كنْتَ تعلمُ الحقيقةَ والفضيلة؟

قال إبليس: أوَ لم أكنْ شيخَ الملائكة؟ فمَنْ أجدرُ من شيخِ الملائكة أنْ يكونَ عالمَهَا ومعلِّمَها؟

قال: عليكَ لعنةُ الله؛ فما هي حقيقةُ الزهدِ والعِبادة؟

قال إبليس: حقيقتُها يا أبا عامر، هي التي أعجزتْني في نبيِّكُم.

قال الشيخ: ﷺ؛ فما هي؟

قال إبليس: هي ثلاثٌ بها نظامُ النفس، ونظامُ العالم، ونظامُ اللذات والشهوات: أنْ تكونَ لكَ تقوى، ثُمَّ يكونَ لك فكرٌ من هذه التقوى، ثُمَّ يكونَ لكَ نظرٌ إلى العالم من هذا الفكر. ما اجتمَعتْ هذه الثلاثُ في إنسانٍ إلَّا قَهَرَ الدنيا وقَهر إبليس.

فإنْ كانتِ التقوى وحدَها ـ كتقوى أكثرِ الزهَّادِ والرهبان ـ فما أيسرَ أنْ أجعل النظرَ منها نظرَ الغفلة والجُبْن والبَلادة والفضائلِ الكاذبة، وإنْ كان الفكرُ وحدَه ـ كفكر العلماءِ والشعراء ـ فما أهونَ أنْ أجعل النظرَ به نظرَ الزَّيغِ والإلحادِ والبهمية والرذائلِ الصريحة.

قال الشيخ: صدقَ الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال إبليسُ: يا أبا عامر! ما يضرُّني والله أنْ أفسِّرَ لك، فإنَّ قارورةً من الصِّبْغِ

لا تَصْبغُ البحر، وأنا أعدُّ الزهادَ والعلماءَ المصلحينَ فأضَعُ في الناسِ بجانبِ كلِّ واحدٍ منهم مائةَ ألف امرأةٍ مفتو[illegible]ـمائةَ ألف رجلٍ فاسق، ومائةَ ألف مخلوقٍ ظالم، فلو أنّكَ صَبَغْتَ البحرَ بمِ[illegible] حمراءَ لَمَا صبغْتِ البحرَ الإنسانيَّ بالزاهدِ والمصلح، ما دامَ المصلحُ شيئاً [illegible] وما دامَ الزاهدُ شيئاً غيرَ الحاكم.

قال الشيخ: لعنَكَ اللهُ مِن[illegible] فإذا وضعْتَ المصلحَ بين مائة ألفِ فاسد، فهل هذه إلّا طريقةُ شيط[illegible]

قال إبليس: ومائةَ ألف [illegible] يا أبا عامر، كلُّ واحدةٍ تحسبُ جسمَها...

فصرخَ الشيخ: أُغْرُبْ عنّي عليكَ لعنةُ الله!

قال إبليس: ولكنَّ الآيَةَ الآيَةَ يا أبا عمر. لقد لقيْتُ المسيحَ وجرَّبْتُهُ وهو كان تفسيرَها.

قال الشيخ: عليه السلام! وعليكَ أنت لعنةُ الله! فكيفَ قال؟ وكيف صنع؟

قال إبليس: ألقيْتُ به جائعاً في الصحراءِ لا يجدُ ما يَطْعَمُهُ، ولا يظنُّ أنَّهُ يجدُ، ولا يرجو أنْ يظنَّ؛ ثُمَّ قلْتُ له: إنْ كنتَ رُوحَ الله وكلمتَهُ كما تزعمُ فمُرْ هذا الحجَرَ ينقلبْ خبزاً. فكان تقيًّا، فتذكَّر فإذا هو مُبْصِر، فقال: ليس بالخبزِ وحدَهُ يحيا الإنسان، فمثلُ هذا لو ماتَ جوعاً لم يتحوّلْ، لأنَّ الموتَ إتمامُ حقيقتِهِ السامية فوقَ هذه الدنيا، ولو مُلِئتْ له الدنيا خبزاً وهو جائعٌ لم يتحوّل، لأنَّ له بَصَراً من فوقِ الخبزِ إلى حقيقتِهِ السماوية؛ فليس بِالخبزِ وحدَهُ يحيا؛ بل بمعانٍ أخرى هي إشباعُ حقيقتِهِ السماوية التي لا شهوةَ لها.

ثمَّ ارتقيْتُ به إلى ذروة جبلٍ وأريْتُهُ ممالكَ الخافِقَين، كشفْتُها كلَّها لِعينيه وقلْتُ له: هذا كلُّهُ لكَ إذا أنت سجدْتَ لي. فكان متقياً، فتذكَّرَ فإذا هو مُبصِر: أبصرَ حقيقةَ الخيالِ الذي جَسَّمْتُهُ له، وعَلِمَ أنَّ الشيطانَ يُعطي مثل معاني هذه الممالكِ في جَرعة خمر، كما يُعطيها في ساعة لذة، كما يُعطيها في شِفاءِ غيظٍ بالقتلِ والأذى؛ ثُمَّ لا يبقَى من كلِّ ذلك باقٍ غيرُ الإثم، ولا يصحُّ منه صحيحٌ إلَّا الحرام. ومَن ملكَ الدنيا نفسَها لم يبقَ لها إذا بقيَتْ فهي خيَالٌ في جَرعة الحياة، كما هي خيالٌ في جرعة الخمر.

يا أبا عامر؛ إنَّ هذا النظر، الذي وراءَهُ التذكُّر، الذي وراءَهُ التقوى، التي وراءَها الله ـ هذا وحدَهُ هو القوةُ التي تتناولُ شهواتِ الدنيا فتُصفِّيها أربعَ مرات حتى

تعودَ بها إلى حقائِقها الترابية الصغيرة التي آخرُها القبر، وآخرُ وجودِها التلاشي.

فالبصرُ الكاشفُ الذي يُجرِّدُ الأشياءَ من سِحرِها الوهمِيّ، هذا هو كلُّ السرّ.

* * *

قال الشيخ: لعَنَك الله؛ فكيف مع هذا تفتُنُ المؤمن؟

قال إبليس: يا أبا عامر، هذا سؤالٌ شيطانيّ.... تُريدُ ـ ويحَكَ ـ أن تحتال على الشيطان؟ ولكن ما يضرُّني أنْ أفسرَها لك.

ليس الإيمانُ هوَ الاعتقادَ ولا العمل، ولو كان من هذين لمَا شَقَّ على أحدٍ ولصلُحَتِ الدنيا وأهلُها؛ إنَّما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكون مَعَ الغريزة في مَقَرِّها، ويصلُحُ أنْ يكونَ في مقرِّها لِتَصْدُرَ عنهُ أعمالُ الغريزة؛ وهذا اليقينُ لا يصلحُ كذلك إلَّا إذا كان يقيناً ثابتاً بِمَا هو أكبرُ من الدنيا، فيرجعُ إليه الإنسانُ فيتذكرُ فيُبْصِر. هناك ميراثٌ من الآخرة لِلمؤمن، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سِرُّ الإيمان.

والعملُ الشيطانيُّ لا يكون إلَّا في إفسادِ هذا اليقين ومُعارضة الخيالِ العظيم الذي فيه بالحقائقِ الصغيرة التي تظهرُ لِلمغفلِ عظيمة، كما تُشَبُّ نارٌ أكبرُ من قُرصِ الشمسِ ثُمَّ يُقالُ لِلأبلهِ: انظرْ بعينيكَ، فيُصدِّقُ أنَّها أكبرُ من الشمس.

ومتى صغُرَ هذا اليقينُ وكانَتِ الحقائقُ الدنيويَّةُ أكبرَ منه في النفس؛ فأيسرُ أسبابِ الحياة حينئذٍ يُفسِدُ المعتقَدَ ويُسقِطُ الفضيلة؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجَدُ اللصُّ حينئذٍ.

أما إذا ثبَتَ اليقينُ فالشيطانُ مَعَ الإنسانُ يصغرُ ثُمَّ يصغُر، ويَعجزُ ثُمَّ يعجز. حتى ليرجعُ مثل الدرهم إذا طمِعَ الطامعُ أنْ يجعل الرجل الغنيَّ الكثيرَ المالِ لِصًّا من اللصوص بهذا الدرهم.

قال الشيخ: لعَنَك الله! فإنْ لم تستطعْ إفسادَ هذا اليقين فكيفَ تصنعُ في فتنة المؤمن؟

قال إبليس: يا أبا عامر، إنْ لم أستطعْ إفسادَ اليقين زدْتُهُ يقيناً فيفسد، واستحسانُ الرجلِ لأعمالِه السامية قد يكون هو أول أعمالِه السافلة؛ وبأيِّ عجيبٍ يكون الشيطانُ شيطاناً إلَّا بمثلِ هذا؟

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وغضبَ الشيخ، فمدَّ يدَهُ فأخذَ فيها عُنُقَ إبليس وقد رآهُ دقيقاً، ثُمَّ عَصَرهُ عَصْراً شديداً يُريدُ خنقَه؛ فقهقهَ الشيطانُ ساخراً منه. ويتنبَّهُ الشيخ، فإذا هو يشدُّ بيدِه اليمنى على يدِه اليسرى....

الدنيا والدرهم

(٤)

قال أحمدُ بْنُ مِسكينِ: وأزِفَ ترحُلي عن (بلْخ)، وتهيأتُ لِلخروج، ولم يبقَ من مدة مَقِيلي بها إلّا أيامٌ يجيءُ فيها السبتُ الرابع، وكان قَدْ وقعَتْ مُمَاراةٌ بيني وبين مفتي (بلْخ) أبي إسحاقَ إبراهِيمَ بْن يوسفَ الباهليّ[1] تلميذِ أبي يوسفَ صاحبِ الإمام أبي حنيفة، ويزعمونَ أنّهُ شحيحٌ على المال، وأنّهُ يَتَغَلَّلُهُ من مُسْتَغَلَّات كثيرة[2]، فكأنّما غَشِيَتْهُ غمامتي، فهو لا يرى أنْ أتكلمَ في الزهد، ويحسِبُ هذا الزهدَ تَمَاوُتَ العُبَّاد، ونَفْضَ الأيدي من الدنيا، وسُوءَ المصاحبة لِمَا يُنعِمُ الله به على العبد، وخذلانَ القوة في البدن، وما جرى هذا المجرى من تزويرِ الحياة بالأباطيلِ التي زَعَمَ أنّها أباطيلُ الطاعاتِ وما أقرَبَها مِنْ أباطيلِ المعصية. ولم يكنْ هذا المفتي قد سمعني ولا حضرَ مجلسي، ولولا الذي لم يعرفْهُ من ذلك لقد كان عرف.

وجادَلْتُهُ فرأيْتُهُ واهِنَ الدليل، ضعيفَ الحُجَّة، يُخَمِّنُ تخمينَ فقيه، وينظرُ إلى الخفايا من حقائقِ النفوسِ نظرَ صاحبِ النصِّ إلى الظاهر، كأنَّ الحقيقةَ إذا ألقِيَتْ على الناسِ مضَتْ نافذةً كفتوى المفتي. . . ويزعُم أنَّ الوعظَ وعظُ الفقهاء، يقولون: هذا حرام. فيكون حراماً لا يُقارِفُهُ أحد، وهذا حلالٌ. فيكون حلالاً لا يتركُهُ أحد، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومَدَاخلِه إلى النفسِ وسياستِه فيها، ولا يعرفُ أنَّ الحقيقةَ كالأنثى: إنْ لم تُزَيّنْ بزينتِها لم تَسْتَهْوِ أحداً؛ وأنَّ الموعظةَ إنْ لم تَتأدَّ في أسلوبِها الحيِّ كانَتْ بالباطلِ أشبَه، وأنَّهُ لا يُغيِّرُ النفسَ إلَّا النفسُ التي فيها قوةُ التحويلِ والتغيير، كنفوسِ الأنبياءِ ومَنْ كان في طريقة رُوحِهم، وأنَّ هذه الصناعةَ إنَّما هي وضعُ نورِ البصِيرة في الكلام، لا وضعُ القِياسِ والحُجَّة،

(١) توفي مفتي بلخ هذا سنة ٣٣٩هـ.

(٢) المستغلات: أصول الأموال، وتغلّل واستغل بمعنى.

وأنَّ الرجل الزاهدَ الصحيحَ الزهد، إنَّما هو حياةٌ تلبسُها الحقيقةُ لِتكونَ به شيئاً في الحياة والعمل. لا شيئاً في القولِ والتوهُم، فيكون إلهامُها فيه كحرارة النارِ في النار: مَنْ وَاتَاها أحسَّها.

ولعَمْري، كم من فقيهٍ يقولُ للناس: هذا حرام. فلا يزيدُ هذا الحرامَ إلَّا ظهوراً وانكشافاً ما دامَ لا ينطقُ إلَّا نطقَ الكتب، ولا يُحسنُ أنْ يصِل بين النفسِ والشَّرْع، وقد خلا من القوَّة التي تجعلُهُ روحاً تتعلَّقُ الأرواحُ بها وتضعُهُ بين الناسِ في موضعٍ يكون به في اعتبارِهم كأنَّهُ آت من الجنة منذُ قريب، راجعٌ إليها بعد قريب.

والفقيهُ الذي يتعلَّقُ بالمالِ وشهواتِ النفس، ولا يجعلُ هَمَّهُ إلَّا زيادةَ الرزقِ وحظَّ الدنيا ـ هو الفقيهُ الفاسدُ الصورة في خيالِ الناس، يُفْهِمُهم أول شيءٍ ألَّا يَفْهموا عنه؛ إذ حِرْصُهُ فوقَ بصيرتِهِ، ولهُ في النفوسِ رائحةُ الخبز، ولهُ معنى: خمسٌ وخمسٌ عشرة[1]. . . . وكأنَّ دنياهُ وضَعَتْ فيه شيئاً فاسداً غريباً يُفسِدُ الحقيقةَ التي يتكلَّمُ بها؛ ولسْتُ أدري ما هو هذا الشيء، ولكنِّي رأيتُ فقهاءَ يعِظونَ ويتكلمونَ على الناسِ في الحرام والحلالِ وفي نصِّ كتابِ الله وسُنَّة رسولِه ﷺ، ثمَّ لم أجدْ لِكلامِهم نفعاً ولا ردًّا، إذْ يُلْهِمُون الناسَ بأرواحِهم غيرَ المعنى الذي يتكلمون فيه؛ وتَسْخَرُ الحقيقةُ منهم ـ على خَطَرِهم وجلالِ شأنِهم ـ بذاتِ الأسلوبِ الذي تسخَرُ به من لِصٍّ يعِظُ لِصًّا آخرَ فيقول له: لا تَسرِق. . .

* * *

قال ابنُ مسكين: فلمَّا دارَ يومُ السبتِ أقبل الناسُ على المسجدِ أفواجاً، وكانوا قد تَعَالموا إزْمَاعِي الرحيل عن بلدِهم ـ وجاءَ (لقمانُ الأمَّة) في أشياعِه وأصحابِه، وجاءَ أبو إسحاقَ المُفتي في جماعتِه؛ واستقرَّ بيَ المجلسُ فنفَذْتُ الناسَ بنظَري، فكأنَهُم من كثرتِهِم نَبَاتٌ غطَّى الأرض، فأذكرني هذا شيخَنا السريَّ بْنَ مُغلِّسٍ السقَطيّ[2]، وكان قد لزمَ دارَهُ في بغدادَ لا يخرجُ منها ولا يراهُ إلَّا من قَصَدَ إليه، وهممْتُ أنْ أجعل الموعظةَ في شرحِ كلمتِه المشهورة: «لا تَصِحُّ المحبَّةُ بين اثنين حتى يقول أحدُهما للآخر: يا أنا». وما نقلوا عنه من أنَّهُ قال مرةً

(١) يريد أنه في هذا الدنيا (عملية حسابية. . .) وفي أيام ضعفة الدين يكون الفقه استخراج الدراهم من النصوص. . .

(٢) السقط: رديء المتاع (روبابيكيا)، وبائعه السقطي. وهذا الإمام العظيم كان أوحد أهل زمانه في الورع، وله كلام إلهي مشرق، وقد توفي عن سن عالية في سنة ٢٥٣هـ.

لِبعضِ أصحابِه: منذُ ثلاثينَ سنةً وأنا في الاستغفارِ من قولي: (الحمدُ لله). فقال صاحبُه: وكيف ذلك؟ قال: وقعَ ببغدادَ حريقٌ، فاستقبلني رجلٌ فقال: نجا حانوتُك. فقلْتُ: الحمدُ لِلّه فأنا نادمٌ من ذلك الوقتِ على ما قلْت؛ إذْ أردْتُ لنفسي خيراً من الناس!

قال ابْنُ مسكين: ولكنّي أحببْتُ أنْ أكلِّمَ المُفتي ومال المُفتي؛ فحدَّثْتُهُم حديثَ معرفتي بالسَّريّ: أنّي سمعْتُ يوماً (غَيْلانَ الخياط) يقول: إنَّ السريَّ كان اشترى كُرَّلوز(١) بستين ديناراً، وأثبتَهُ في رزنامجه(٢) وكتبَ أمامَهُ: ربحُهُ ثلاثةُ دنانير(٣)؛ فلم يلبثْ أنْ غلا السعرُ فبلغَ تسعينَ ديناراً؛ فأتاهُ الدلالُ الذي كان اشترى له فقال: أريدُ ذلك اللوز. قال الشيخ: خذْهُ. قال: بكَم؟ فقال: بثلاثةٍ وستينَ ديناراً. وكان الدلالُ رجلاً صالحاً، فقال لِلشيخ: إنَّ اللوزَ قد صارَ الكُرُّ بتسعين. قال السريّ: ولكنّي عقدْتُ بيني وبين الله عقْداً لا أحلُّه، فلسْتُ أبيعُ إلّا بثلاثةٍ وستينَ ديناراً. فقال الدلّال: وأنا قد عقدْتُ بيني وبين الله عقداً لا أحلّه، ألّا أغشَّ مسلماً، فلسْتُ أشتري منك إلّا بتسعين؛ فلا الدلّالُ اشترى منه، ولا السريُّ باعه. . . !

قال أحمدُ بْنُ مسكين: فلمّا سمعْتُ ذلك لم تكنْ لي هِمَّةٌ إلّا أنْ ألقى الشيخَ وأصحَبَهُ وآخذَ عنه، فلم أعرِّجْ على شيءٍ حتى كنْتُ في المسجدِ الذي يُصلّي فيه، فأجدُهُ في حَلْقتِه وعندَهُ مِمَّنْ كنْتُ أعرفُهم: عبدُ الله بْنُ أحمد بْن حنبل، وإدريسُ الحداد، وعلي بْنُ سعيدِ الرازي، وحولهُ خلقٌ كثيرٌ وهو فيهم كالشجَرة الخضراءِ بين الهشيم تعلوهُ نَضرةُ روحِه، وكأنَّما يُمدُّهُ بالنورِ عِرقٌ من السماء، فهو يتلألأُ لِلعين؛ ولا يملكُ الناظرُ إليه إلّا أنْ يُحِسَّ في ذاتِ نفسِه أنَّهُ الأدنى، من رؤيتِهِ في ذاتِ نفسِه أنَّ هذا هُوَ الإنسانُ الأعلى.

ورأيْتُ على وجهِه آلاماً تمسَحُهُ مَسْحَةَ الأشواقِ لا مَسْحَةَ الآلام، آثارُ ما يجدُهُ في روحِه القويّة، لا كآلام الناسِ التي هي آثارُ الحِرمان في أرواحِهِمُ الواهنة الضعيفة فلا تمسحُ وجوهَهم إلّا مِسحةَ الغمِّ والكآبة.

وما يُخطىءُ النظرُ في تمييزِ آلامِ السماءِ على هذِه الوجوه السعيدة مِنْ آلامِ الأرضِ في الوجوه الأخرى، فإنَّ الأولى تَتَندّى على رُوحِ الناظرِ بمثلِ الطَّلِّ إذا

(١) الكر (بضم الكاف): مكيال عظيم يقدرون به في الحساب، وهو أربعون إردباً مصرياً.
(٢) أي دفتر حسابه.
(٣) خمسة في المائة.

قَطْرَهُ الفجر، والأخرى تَتَثَوَّرُ في روحِه كما تَهيجُ الغَبَرَةُ إذا ضربَتِ الريحُ الأرض.

كان الشيخُ في وجودٍ فوقَ وجودِنا؛ فلا تتلوَّنُ له الأشياءُ ولا تعدو عندَهُ ما هي في نفسِها، ولا يحملُ الشيءُ له إلَّا معناهُ من حيثُ يَصلُحُ أو لا يصلُح، ومن حيثُ ينبغي أو لا ينبغي. فإنَّما تتلوَّنُ الأشياءُ عند ما يضعُ الشيطانُ عينَهُ في عين الناظرِ إليها؛ وإنَّما تزيدُ وتنقُصُ في القلبِ عندَما يكون روحُ الشيطان في القلْبِ؛ وإنَّما يَشتبِهُ ما ينبغي وما لا ينبغي عند ما يأتي الشيءُ من جهتين: جهتِه من طبيعتِه هو، وجهتِه من طبيعتِنا نحن. وبهذا قد يجمعُ الإنسانُ المال ثُمَّ لا يجدُ في المالِ معنى الغِنى، وقد تتَّفِقُ أسبابُ النعيم ولا يكون منها إلَّا الذُّلّ. وكم مِن إنسانٍ يجدُ وكأنَّهُ لم يجدْ إلَّا عكسَ ما كان يبغِي، وآخَرَ لم يجدْ شيئاً ووجدَ بذلك راحتَه.

* * *

قال ابنُ مسكين: وما كان أشدَّ عجبي حينَ تكلَّمَ الشيخ، فقد أخذَ يُجيبُ عَمَّا في نفسي ولم أسألْه، كأنَّ الذي في فكري قد انتقل إليه؛ فروَى الحديث: «إذا عظَّمَتْ أمتي الدينارَ والدرهمَ، نُزِعَ منها هيبةُ الإسلام؛ وإذا تركوا الأمرَ بِالمعروف والنهيَ عن المنكر، حُرموا بركةَ الوحي». ثُمَّ قال في تأويلِهِ:

إنَّ مَلكَ الوحي ينزلُ بالأمرِ والنهي لِيُخضعَ صَوْلةَ الأرضِ بصَولة السماء، فإذا بقيَ الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، بقي عملُ الوحي إلَّا أنَّهُ في صورة العقل، وبقيَتْ روحانيَّةُ الدنيا إلَّا أنَّها في صورة النظام، وكان مَعَ كلِّ خطأٍ تصحيحُه؛ فيُصبحُ الإنسانُ بذلك تنفيذاً لِلشريعة بين آمرٍ مُطاعٍ ومأمورٍ مُطيع، فيتعاملُ الناسُ على حالةٍ تجعلُ بعضَهُم أستاذاً لِبعض، وشيئاً منهم تعديلاً لِشيء، وقوةَ سنداً لِقوّة؛ فيقومُ العزْمُ في وجه التهاون، والشدَّةُ في وجه التراخي، والقدرةُ في وجه العجز؛ وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين، وتعودُ صِفاتُهُمُ الإنسانيَّةُ وكأنَّها جيشٌ عاملٌ يُناصِرُ بعضُهُ بعضاً، فتكونُ الحياةُ مفسَّرةً ما دامَتْ معانيها الساميةُ تأمرُ أمرَها وتُلهِمُ إلهامَها، وما دامَتْ ممثَّلةً في الواجبِ النافذِ على الكُلّ.

والناسُ أحرارٌ متى حكمتْهم هذه المعاني، فليسَتْ حقيقةُ الحريَّة الإنسانيَّة إلَّا الخضوعَ لِلواجبِ الذي يحكم، وبذلك لا بغيرِه يتَّصلُ ما بين الملكِ والسُّوقة، وما بين الأغنياءِ والفقراءِ، اتصالَ الرحمة في كلِّ شيءٍ، واتِّصالَ القَسوة في التأديبِ وحدَه. فبركةُ الوحي إنَّما هي جعلُ القوَّة الإنسانيَّة عملاً شرعيًا لا غير.

أمَّا تعظيمُ الأمة لِلدنيا والدرهم، فهو استعبادُ المعاني الحيوانيَّة في الناسِ

بعضِها لِبعض، وتقطُّعُ ما بينَهم من التشابُك في لُحْمَة الإنسانيَّة؛ وجعلُ الكبيرِ فيهم كبيراً وإنْ صَغُرَتْ معانيه، والصغير فيهم صغيراً وإنْ كَبُرَ في المعاني؛ وبهذا تموجُ الحياةُ بعضُها في بعض، ولا يستقيمُ الناسُ على رأيٍ صحيح؛ إذْ يكون الصحيحُ والفاسدُ في مِلْكِ الإنسان لا في عمل الإنسان، فيكْنزُ الغنيُّ مالاً ويكنزُ الفقيرُ عداوةً، كأنَّ هذا قَتَل مال هذا، وكأنَّ أعمالاً قتلتْ أعمالاً، وترجعُ الصفاتُ الإنسانيَّةُ متعاديةً، وتُباعُ الفضائلُ وتُشترى، ويزيدُ من يزيدُ ولكنْ في القسوة، وينقُصُ مَنْ ينقصُ ولكنْ في الحريَّة، وتكونُ المنفعةُ الذاتيَّةُ هي التي تأمرُ في الجميعَ وتنهَى، ويدخُل الكذبُ في كلِّ شيءٍ حتى في النظرِ إلى المال، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنَّما دِرْهمُهُ وديناره أكبرُ قيمةً من دينارِ الآخرِ ودرهمِه، فإذا أعطى نقَصَ فغَشَّ، وإذا أخذ زادَ فَسَرَق؛ وتُصبحُ النفوسُ نفوساً تجاريَّةً تُساوِمُ قبل أنْ تنبعثَ لِفضيلة، وتُماكِسُ إذا دُعِيَتْ لأداءِ حقّ، ويتعاملُ الناسُ في الشرف على أصولٍ من المَعِدة لا من الروح، فلا يُقالُ حينئذٍ، إنَّ رغيفين أكثرُ من رغيفٍ واحد. كما هي طبيعةُ العددِ، بل يُقال: إنَّ رغيفين أشرفُ من رغيفٍ. كما هي طبيعةُ النفاق.

أمَّا التجارةُ ـ وهي التفسيرُ الظاهرُ لِمعاني النفوس ـ فتُصبحُ بين الغِشِّ والضررِ والمماكَرَة، وتكونُ يقَظَةُ التاجرِ من غفلة الشاري، وتَفسُدُ الإرادةُ فلا تُحدِثُ إلَّا آثارَها الزائغة. وما التاجرُ في الأمَّة القويَّة إلَّا أستاذٌ لِتعليم الصدقِ والخُلُقِ في الموضع المتقلِّب، فكلمتُهُ كالرقْم من العددِ لا يحتملُ أزيدَ ولا أنقصَ مِمَّا فيه، ويُمتَحَنُ بالدنيا والدرهم أشدَّ مِمَّا يُمتحنُ العابدُ بصلاتِه وصِيامِهِ. وقد شهدَ رجلٌ عند عمرَ بْن الخطابِ في قضيَّة، فقال له عمر: اِئتني بمَنْ يعرفُك. فأتاهُ برجلٍ أثنى عليه خيراً، فقال له عمر: أنتَ جارُهُ الأدنى الذي يعرفُ مَدْخَلهُ ومخرجَه؟ قال: لا. قال: فكنْتَ رفيقَهُ في السفرِ الذي يُستدَلُّ به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فعاملْتَهُ بالدينارِ والدرهم الذي يَستبِينُ به ورَعُ الرجل؟ قال: لا.

قال عمر: أظنُّكَ رأيْتَهُ قائماً في المسجدِ يُهَمْهِمُ بالقرآن، يَخفِضُ رأسَهُ طوْراً ويرفعُهُ أخرى؟ قال: نعم.

قال: فاذهبْ فلسْتَ تعرفُه!

وإنَّما التاجرُ صورةٌ من ثِقة الناسِ بعضِهم ببعض، وإرادة الخيرِ واعتقادِ الصدق، وهو في كلِّ ذلك مظهرٌ توضَعُ اليدُ عليه كما تَجسُّ اليدُ مرضَ المريضِ وصحتَه.

فإذا عظَّمَتِ الأمةُ الدينارَ والدرهم، فإنَّما عظَّمَت النفاقَ والطمع والكذبَ والعداوةَ والقسوةَ والاستعبادَ؛ وبهذا تُقيمُ الدنانيرَ والدراهِمَ حُدوداً فاصلةً بين أهلِها، حتى لَتكونَ المسافةُ بين غنيٍّ وفقيرٍ كالمسافة بين بلدين قد تباعَدَ ما بينهما. وإنَّما هيبةُ الإسلام في العِزة بالنفسِ لا بالمال، وفي بذلِ الحياة لا في الحِرْصِ عليها، وفي أخلاقِ الروحِ لا في أخلاقِ اليد، وفي وضع حُدودِ الفضائلِ بين الناسِ لا في وضع حُدودِ الدراهم، وفي إزالة النقائصِ من الطباعِ لا في إقامتِها، وفي تَعَاوُن صِفاتِ المؤمنينَ لا في تعاديها، وفي اعتبارِ الغِنى ما يُعْمَلُ بالمالِ لا ما يُجمَعُ من المال، وفي جعلِ أولِ الثروة العقل والإرادة، لا الذهبَ والفضة...

هذا هو الإسلامُ الذي غلبَ الأمم، لأنَّهُ قبل ذلك غَلبَ النفسَ والطبيعة.

دُعابةُ إبليس (*) (١)

أَمَا إنّي سأقصُّ هذه الحكايةَ كما اتَّفقَتْ، لا أزيِّنُها بخيال، ولا أتزَيَّدُ فيها بخبر، ولا أولِّدُ لها معنى؛ فإنَّما هي حِكايةُ خُبْثِ الخبيثِ: فنُّها حِذْقُهُ ودَهاؤه، ورقَّتُها غِلْظتُهُ وشرُّه، ومعانيها بلاؤُهُ ومِحْنتُه؛ وأعوذُ باللهِ منَ الشيطان الرجيم، والله المستعان.

لمَّا فكرْتُ في وضعِ مقالة (إبليسَ) من أحاديثِ (ابن مسكين)، وأدرْتُ رأيي في نهجِها وحدودِها ومعانِيها، جعل فكرِي يتقطَّعُ في ذلك، يذهبُ ويجيءُ كأنَّ بيني وبينَه منازَعة، أو كأنَّ في نفسي شيئاً يَثنيني ويقطعُني عن العَزم؛ وخُيِّل إليَّ حينئذٍ أنَّ (إبليسَ) هذا منفعةٌ من المنافع. . . وأنَّهُ هو قانونُ الطبيعة الذي نَصُّ مادَّتِهِ الأولىٰ: ما أعجبَك فهو لك. ونَصُّ مادتِهِ الأخيرة: ما احتجَتَ إليه فثمنُهُ أنْ تقدرَ على أخْذه. . .

وهَجَسَ في نفسي هاجسٌ: أنَّ (إبليسَ) قائمٌ في لفظِ الحريَّة كما هو قائمٌ في لفظ الإثم، وأنَّهُ إنْ يكنْ في قلوبِ الفُسَّاقِ فهو أيضاً في أدمغة الفلاسفة وإنْ كان في سقوطِ أهل الرذيلة إلى الرذيلة، فهو كذلك في سموِّ أهلِ الفنِّ إلى الفنّ. . . قال الهاجس: وإنَّ (إبليسَ) أيضاً هو صاحبُ الفضيلة العمليَّة في هذا العصرِ الماديّ، فهو من ثَمَّ حقيقٌ أنْ يلقِّبوه «صاحبَ الفضيلة».

ولكنِّي لم أحفِلْ بهذه الوساوسِ ولم أُعْجْ على شيءٍ منها، واستعنْتُ الله وأمضيْتُ نيَّتِي على الكِتابة، وأخذْتُ أقلِّبُ الموضوع، وأنبِّهُ فكري له، وأستَشْرِفُ لِمَا يؤدِّي إليه النظر، وأتطلَّعُ لِمَا يجيءُ به الخاطر، وألتمسُ ما أبني عليه الكلامَ كما هي عادتي؛ فلم يقعْ لي شيءٌ ألبتة، كأنَّما ذهَبَ أولُ ابتداءِ الموضوعِ فلا أول له ولا سبيل إلى اقتحامِه، وكأنَّهُ من وراءِ العِلْم فلا يُبلغُ إليه، وكأنَّه من التعذُّرِ كمحاولة تصويرِ حماقَة الحياة كلِّها في كلمة. وإبليسُ كلمةٌ فيها حماقةُ الحياة كلِّها.

* * *

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) الدعابة: المزاح واللعب، وكل ما سيرد في هذه المقالة فهو صحيح لم نخترع منه شيئاً.

ومن عادتي في كتابة هذه الفصولِ التي تنشُرُها (الرسالة)[1]، أنْ أدعَ الفصل منها تقلّبُهُ الخواطرُ في ذِهني أيامَ الثلاثاءِ والأربعاءِ والخميس، وأترك أمرَهُ لِلقوة التي في نفسي، فتتولَّدُ المعاني من كلِّ ما أرى وما أقرأ، وتَنْثَالُ من هٰهنا وهٰهنا، ويكون الكلامُ كأنَّهُ شيءٌ حيٌّ أريدَ له الوجودُ فوُجِد.

ثُمَّ أكتبُ نهارَ الجمعة، ومن ورائِه ليلُ السبتِ وليلُ الأحدِ كالمددِ من وراءِ الجيشِ إذا نالتْني فترةٌ أو كنتُ على سفرٍ أو قطعَني عن الكتابة شيءٌ مِمّا يَعْرِض.

وفي أسبوعِ إبليس (لعنَهُ الله)، مرَّتِ الأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوان: ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه، وكَسَلٌ لا نشاطَ معه، واضطرابٌ لا مِساكَ له. وأطلْتُ التفكيرَ يومَ الخميس، فكانَتْ تعتريني خواطرُ مضحكة: فيعرضُ لي مرةً أنْ أصوِّر إبليس امرأةً لِيكونَ إبليس الجميل... وتارةً أتوهَّمُ أنَّ إبليس يُريدُ أنْ يكونَ شيخاً كبعضِ رجالِ الدين الذينَ لا تزالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم، لِيُقال إبليسُ التقيُّ المصلّي... وحِيناً أظنُّ أنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ كاتباً مؤلفاً شهيراً لِيقال إبليسُ المفكِّرُ المصْلِح... وخطرَ لي أخيراً أنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ حاكماً مُلْحِداً فاجراً، لِيكونَ إبليس التامّ لا إبليس الناقص...

* * *

ولمَّا ذهبَتِ الأيامُ الثلاثةُ باطلاً، خُيِّل إليَّ أنَّ إبليس (أخزاهُ الله) يسألُني عن المقالة: إلى أيِّ شيءٍ انقلبَتْ...؟ فشقَّ ذلك عَليَّ واغتَمَمْتُ بهِ، غيرَ أنّي اطمأننْتُ إلى يوم الجمعة وأنْ وراءَهُ ليلتين. وكانَتْ قد غربَتْ شمسُ الخميس، فقلْتُ: فَلأخرجْ لأتفرَّجَ مِمّا بي، وعسى أنْ أجمع نفسي لِلتفكيرِ إذا جلسْتُ في النديّ، ولعلّهُ يقعُ ما أستَوْحيه أو ينفتحُ لي بابٌ في القراءة.

وخرجْتُ، فلم أجاوِزِ الدارَ حتى ابتدرني مَنْ هَبَطَ عليه الخبرُ من القاهرة أنَّ نسيباً لنا من العظماءِ توفي أخوه اليوم. فقلْتُ: لا حول ولا قوةَ إلَّا بالله؛ ضاعَ يومُ الجمعة. إذْ لا بدَّ من السفرِ لتشييعِ الجنازة وحضورِ المأتم ثُمَّ قلْتُ: لعلَّ في هذا السفرِ استجماماً ونشاطاً فأستدركَ الأسبوعَ كلَّهُ في يومينِ، وإنَّما الاستكثارُ بالقوَّة لا بالزمن، ولا يدَ لإبليس في الموتِ والحياة، فليس إلَّا اطِّراحُهُ وقلةُ المبالاة به، وإنَّما هي خَطَراتٌ من وساوسِه.

وأصبحْتُ في القاهرة، ومشيْتُ في الجنازة قبل الظهرِ مَسِيرَةَ ساعةٍ كاملة؛

(١) مجلة الرسالة، وكل مقالات هذا الجزء والجزء الأول كتبت لها ونشرت فيها، إلا فصولاً قليلة.

وكانَتِ الشمسُ ساطعةً تتلألأ، وأنا مُثقَلٌ بثيابِ الشتاءِ وكنْتُ أتوقَّعُ أنْ يكونَ اليومُ من أيام الريح المجنونة، فلمَّا انتهيْنا إلى الصحراء، هبّتِ الريحُ هبوباً ليِّناً، ثُمَّ زفَّتْ فكانَتْ إلى الشدَّة ما هي: ولكنَّها ماضيةٌ تَسْفي الرمل في الأعين فيأخذُ في أجفاني أكالٌ وتَهييج، وليس معي شيءٌ أتّقيها به؛ غيرَ أنّي شغلْتُ، فكري برؤية المقابر، وجعلْتُها في نفسي كالمقالة المكتوبة سَطراً وراءَ سطر؛ وقلْت: هٰهنا الحقيقةُ في أولِ تفسيرِها، وغيرُ المفهوم في الحياة يُفْهَم هنا.

ثُمَّ رجعْتُ مُنَدًى الجسم بالعرقِ وعَليَّ نَضْحٌ منه، وكان القميصُ من الصوف، وبصدري أثرٌ من النَزلة الشُّعبيَّة، وإذا تَنَدَّى الصوفُ وجبَ نزعُهُ وإلّا فهي العِلَّةُ ما منها بُدّ.

ثُمَّ لم تكنْ إلَّا ساعةٌ حتى انخرقَتِ الريحُ وجعَلتْ تَعْصِفُ وبَرَدَ الجوُّ، فأيقنْتُ أنّه الزكامَ، وقلْتُ في نفسي: هذا بابٌ على حِدَة، والمقالةُ ذاهبةٌ لا محالة، فسيتخَلّفُ الذهنُ ويتبلَّدُ؛ والشيطانُ كريمٌ في الشرّ يُعطي من غير أنْ يُسأل . . .

وثَقُل ذلك عَليَّ فكان الغمُّ به عِلَّةً جديدة، بيدَ أنّي لم أزلْ أرجو الفرصةَ في أحدِ اليومين: السبت والأحد. وقلْت: إنَّ من البلاءِ الفكرَ في البلاء، ولعلّ من السلامة الثقةَ بالسلامة؛ فإذا نبَّهْتُ العزيمةَ رجوْتُ أنْ يتغلغل أثرُهَا في البدن كلّه فيكونَ علاجاً في الدم يَحْدُثُ به النشاطُ ويُرهَفُ منهُ الطبعُ وتجمُّ عليه النفس. وفي قوة العصَبِ كهربائيَّةٌ لها عملُها في الجسم إذا أحسنَ المرءُ بعْثَها في نفسِه وأحكَمَ إفاضتَها وتصريفَها على طريقةٍ رياضيَّة؛ ولهِيَ الدواءُ حينَ يَعجزُ الدواء، وهيَ القوَّةُ حينَ تُخذَلُ القوَّة.

فاعتزمْتُ وصمَّمتُ، واحتَلْتُ على الإرادة، وتكثّرْتُ من أسبابِ الثقة وترصَّدْتُ لها السوانِحَ العقليَّةَ التي تَسْنَحُ في النفس، وقلْتُ لإبليسَ: اِجهَدْ جُهْدَكَ، فما تذهبُ مذهباً إلّا كان لي مذهب. ولكنَّ اللعينَ أخطَرَ في ذِهني قول القائلِ يسخَرُ فيه من ذلك الكاتبِ البغداديّ[1].

لو قيل: كم خمسٌ وخمسٌ؟ لاغتَدى	يوماً وليلتَهُ يَعُدُّ ويَحْسُبُ
ويقول: مُعْضِلةٌ عجيبٌ أمرُها	وَلئِنْ فهمْتُ لها، لأَمْرِيَ أعجبُ

---

(١) قيل هذا الشعر في وصف مروان الكاتب، وهو رجل من بغداد، وكان كاتباً على الخراج فسخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع.

خمسٌ وخمسٌ ستةٌ، أو سبعةٌ قولان قالهما الخليلُ وثعلبُ

* * *

ثُمَّ أجمعْتُ الرجوعَ من يومي إلى (طنطا)، لأتقيَ البردَ بعلاجِه إنْ نالني أثرُهُ، وكان عَليَّ وقتٌ إلى أنْ يقومَ القطار، فذهبْتُ فقضيْتُ واجباً مِنْ زيارة بعضِ الأقاربِ في ضاحية (الجيزة)، ثُمَّ ركبْتُ الترامَ الذي أعلمُ أنَّهُ ذاهبٌ إلى محطة سكة الحديد.

وجلسْتُ أفكرُ في إبليس ومقالتِه، والترامُ ينبعِثُ في طريقه نحوَ ثلثِ الساعة، حتى بلغ الموضعَ الذي ينعرجُ منه إلى المحطة، وهو بحيالِ (جمعية الإسعاف)، حيثُ تنشعبُ طرقٌ أخرى؛ وكنْتُ منصرفاً إلى التفكيرِ مستغرقاً فيه، طائفَ النظَراتِ على الجوّ، فما راعني إلّا اختلافُ منظرِ الطريق؛ وأنتبهُ، فإذا الترامُ يَمْرُقُ مروقَ السهم في تلك السبيلِ الصاعدة إلى (الجيزة)... من حيثُ جئت.

فلعنتُ الشيطانَ وتلبثْتُ حتى وقفَ هذا الترام، فغادرتُهُ ورجعْتُ مُهَرْولاً إلى ذلك المنشَعَب، فصادَفْتُ تراماً آخر، فوثبْتُ إليه كأنّي أُحْمَلُ إليه حملاً، ودفعْتُ الأجرة، وانطلق، فإذا هو مُنْصَبٌ في تلك الطريقِ عينِها الذاهبة إلى الجيزة من حيثُ جِئت... ولا أستطيعُ الانحدارَ منه وهو منطلِق، فتَسخَّطْتُ ولعنْتُ الشيطانَ مرةً أخرى، ورأيْتُ أنَّ عَبثَهُ قد تَرادفَ؛ فلمَّا سكَنَ الترامُ رجعْتُ مهرولاً إلى ذلك المنشَعَبِ ولم يبقَ من الوقت غيرُ قليل.

وأنظرُ ثَمَّ، فإذا ترامٌ وراءَ ترام، وإذا قد وقعَتْ حادثةٌ لإحدى السياراتِ واجتمع الناسُ وسُدَّتِ الطريق... فجعلْتُ أغلي من الغيظ، ولعنتُ هذا الدَّعَابَةَ الخبيث. وأذكرَني اللعينُ نادرةَ الأعرابي الذي عضَّهُ ثعلب، فأتى راقياً، فقال له الراقي: ما عضَّك؟ فاستَحى أنْ يقول ثعلب، وقال: كلب. فلمَّا ابتدأ الرجلُ برُقْيَة الكلب، قال له الأعرابيّ: واخلِطْ بها شيئاً من رُقْية الثعالب...

* * *

ثُمَّ إنّي لم أرَ بُدًّا من بلوغ المحطة على قدميَّ لِأتِمَّ على عزيمتي في مُراغمَة اللعين، فأسرعْتُ أطوي الأرض وكأنّما أخوضُ في أحشائِهِ وكان بصدري التهابٌ فهاجَ بي، غيرَ أنّي تجلَّدْتُ واتسَعْتُ لاِحتمالِه وبَلغْتُ حيثُ أردْت. ثُمَّ ذهبْتُ ألتمسُ في القطارِ عربةً خاصَّةً أعرفُها، كانَتْ من عرباتِ الدرجة الأولى فجعلوها في الثانية يرفِّهونَ بها بعضَ الترفيه على طائفةٍ من المسافرين؛ وأصبْتُ فيها مكاناً خالياً كأنَّما كان مهيَّأً لي بخاصة... فانحطَطْتُ فيه إلى جانبِ رجلٍ أوروبيّ أحسبُهُ

ألمانيا لِتَفاوُتِ خَلْقِه وعُنْجُهِيَّتِه؛ وجلسْتُ أنفُسُ عن صدري، ثُمَّ أقبلْتُ أسخَرُ من إبليس ونِكايَتِه، وجعلْتُ أتعجَّبُ مِمَّا اتفقَ من هذا التدبير.

وتحرَّكَ القِطارُ وانبعثَ، وكان الأوروبيُّ إلى جانبي مِمَّا يَلي النافذةَ وقد تركَها مفتوحةً، فأحسسْتُ الهواءَ ينصبُّ منها كالماءِ الباردِ وأنا مُتَنَدٍّ بالعرَق؛ وترقبْتُ أنْ يُغلِقَها الرجلُ فلم يفعل، فَصابرْتُهُ قليلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئنٌ يتَرَوَّحُ بالهواءِ وكأنَّما يَشرَبُه، وتأملتُهُ فإذا شيخٌ في حدودِ الستينَ أو فوقَها، غيرَ أنَّهُ على بقيةٍ من قوة مصارعٍ في اكتنازِ عَضَلِه واجتماع قوَّتِه ووَثاقة تركيبِه، فأيقنْتُ أنَّ الهواءَ من حاجتِه، وهَمَمْتُ أنْ أنبهَهُ أو أقومَ أناَ فأغلِقَ النافذةَ، ولو شئْتُ أنْ أفعل ذلك فعلْت، غيرَ أنَّ الشيطانَ (أخزاهُ الله) وسَوْسَ لي: أنَّ هذا رجلٌ أجنبيٌّ غَربيٌ، وأنت مصريٌّ شرقيٌ، فلا يَحسنُ بك أنْ تُعلِمَهُ وتُعلِمَ الحاضرين أمامَكما أنَّك أنت الأضعفُ على حين أنَّهُ هوَ الأسَنُّ، وكيف لا تقومُ لِمَا يقومُ له وقد كنتَ تُباكرُ الماءَ الباردَ في صميم الشتاء، وكنتَ لا تلبسُ في أشدِّ أيام البردِ غيرَ ثيابِ الصيف، وكنتَ تحملُ كذَا وكذا ثِقْلاً لِلرياضة، وتُعاني كذا وكذا من ضروبِ القوَّة، وكنتَ تلوي بيديك عودَ الحديد، وكنْتَ وكنْت....

فتذمَّمْتُ ـ والله ـ مِمَّا خطَرَ لي؛ وأنِفتُ أنْ أنبِّهَ الرجل، ورأيْتُ عملي هذا ضعفاً وفُسولة، ولم أعبأ بالهواءِ ولا بالعرَقِ ولا بالنزلة الشعبيَّة ولا بالزكام، وتركْتُ الأوروبيَّ وشأنَه، وأقبلْتُ على كتابٍ كَانَ في يدي، وتناسيْتُ أنَّ هذِه النافذةَ جهةٌ من تدبيرِ إبليس؛ وكان القِطارُ مزدحِماً بالراجعينَ منَ المعرضِ الزراعيِّ الصناعيّ، وبعضُ الناسِ وقوفٌ فلا مطمع في مكانٍ آخر...

ولبثْتُ ساعةً ونصفَ ساعةٍ في تيَّارٍ من هواءِ (فبراير) ينصبُّ انصباباً، ويَعْصِفُ عَصْفاً، وكأنّي أسبحُ منه في نهرٍ تحتَ ظلمة الليلِ الماطر، والناسُ معجَبُونَ بي وبالأوروبّيّ، وهذا الأوروبّيُّ معجَبٌ بي أكثَر منهم، وقد رأى مكاني وعرفَ موضعي؛ وكان إلى يميني مجلسٌ بقيَ خالياً ولم يُقْدِمْ أحدٌ على أنْ يجلسَ فيه خوفاً من الهواء ومن الرجل الأوروبّيّ...

ثُمَّ تراءيتُ أنوارَ محطة (طنطا)، ولم يبقَ من هذه المحنة غيرُ دقيقتين؛ فوالله الذي لا يُحْلفُ بغير اسمه ـ عزَّ وجلَّ ـ، لقد كان إبليسُ رقيعاً جِلْفاً بارداً ثقيل المُزاح؛ إذْ لم أكَدْ أتهيأ لِلقيام، حتى رأيتُ الرجل الأوروبّيّ قد مدَّ يدَهُ فأغلقَ النافذة....

* * *

ورجعتُ إلى داري وأنا أقول: ثُمَّ ماذا يا إبليس؛ ثُمَّ ماذا أيُّها الدُّعْبُبُ[1] وحاولتُ بجهدِي أنْ أكتبَ أو أقرأ فلم أتحرَّكْ لِشيءٍ من ذلك، وكانَتِ الساعةُ العاشرةُ ليلاً، فصليْتُ وأويتُ إلى مضجعي.

ثُمَّ أصبحْتُ يومَ السبت، فإذا كتابٌ من الأستاذِ صاحبِ (الرسالة): أنَّهُ سيطبعُ عددين معاً فيُريدُ لهما مقالتين، إذْ تُغلقَ المطبعةُ في أيام عيدِ الأضحى. وكان أملي في المقالة الواحدة مخذولاً مِمّا قاسيْت، فكيف لي باثنتين؟

واختلطَ في نفسي همٌّ بهمّ، وما يُفسِدُ عَليَّ أمري شيءٌ مثلُ الضيق، فإذا تَضايقْتُ كنْتُ غيرَ من كنت؛ ولكنّي تيقظْتُ وتنبهْتُ وأمَّلتُ العافيةَ مِمَّا أجِدُهُ من ثُقْلة البردِ وضَعْفَتِه، وأحدثْتُ طمعاً في النشاطِ إذا جلسْتُ لِلكتابة في الليل، فإنِّي بالنهارِ أعملُ لِلحكومة.

فلمّا كان الليلُ لم أجدْ أمري على ما أحبّ، وجلسْتُ متفتِّراً مُعْتَلّاً، وثقُل رأسي من ضَرْبَة النافذة، وتسلَّطَ عليَّ ظَنُّ المرضِ والعجزِ عن الكتابة، وانتقَضَ الأمرُ كلُّهُ فرأيْتُني أشقُّ على نفسي بلا طائل، فكانَ من صوابِ التدبيرِ عندي أنْ أستجِمَّ بالنوم ثُمَّ أنهضَ في السَّحَرِ لِلكتابة؛ فأوصيْتُ من يُوقظني؛ وحرَّرنا الساعةَ المنبِّهةَ على تمام الثانية بعدَ منتصف الليلِ.

وأحسسْتُ أنّي جائع، وأنَّ معدتي مَشحوذة، ونسيْتُ كلّ ما أعرفُ من الطبّ؛ وجاؤوني بشِواءٍ وحَلوى وما بينَهما، فحططْتُ فيه ولففْتُ الآخرَ بالأول، ثُمَّ قمْتُ أريدُ النوم، فإذا الطعامُ كان أشدَّ عليَّ من نافذة القِطارِ، وكان الذي في الفكرِ من المقالة أثقل من الذي في المعدة من الطعام، وساءَ الهضمُ في الدماغِ والبطن جميعاً!

وجعلْتُ أتناومُ وأرخي أعضائي وأتوهَّمُ الكرى وأستَدْنيه بكلِّ ما أعرفُ من وسيلة، ثُمَّ لا أزدادُ على ذلك إلّا أرَقاً، وتمرَّدَ الفكر، وأحسسْتُ رأسي يكادُ ينفجر، وصِرْتُ أتَمَلْملُ ولا أتَقارُّ، وتوهَّمْتُ أنْ لو كان لي عقلان ما استطعْتُ كِتابةَ المقالة عن إبليس ـ لعنَهُ الله ـ؛ وأذكرني الخبيثُ نادرةً مضحكَة: أنَّ رجلاً كان يركبَ حماراً ضعيفاً، وكان يبعثُهُ فلا ينبعث، فجعل يضربُه، فقيل لهُ: ارفُقْ به. فقال إذا لم يقدرْ يمشي فَلِمَ صارَ حماراً. . . . ؟

* * *

(١) الدعبب والمداعب والدعابة (بتشديد العين): كلها بمعنى.

وقذفْتُ بنفسي من الفراشِ ونظرْتُ في الساعة، فإذا هي موشكَةٌ أنْ تبلغَ الثانيةَ ولم أحِسَّ الرقادَ بعد، فأسْرعتُ إلى المنبِّهة وحرّرتْها على تمام الساعة الرابِعة صباحاً، وأيقنتُ أنَّ الشيطانَ يُرهِقُنِي طُغياناً وكَيداً، فطَفِقْتُ ألعنهُ، وما أحسبُه إلَّا قد رأى اللعنَ مَدْحاً فهو يستزيدُني...

ثُمَّ رجعْتُ أحاولُ النَوم، فما كان هذا الليلُ إلَّا شيئاً واحداً أولُهُ آخرُهُ إلى أنْ طلعَ الفجر.

وجاءَ يومُ الأحدِ وهو يومُ عُطْلة الأوروبِّيين، فما أشدَّ عجبي إذ تركني فيه إبليسُ كأنَّهم لا يَدَعُونَ له وقتاً في هذا اليوم...

والآنَ يُزيِّنُ ليَ الخبيثُ أنْ أختمَ هذه المقالة بـ.......بـ.... ولكن لا. لا.

الشيطان...(*)

قال الشيخُ أبو الحسن بنُ الدَّقَّاقِ: كان شيخي أبو عبدِ الله محمدٌ الأزهريُّ العجميُّ (رضيَ الله عنه) رجلاً صاحبَ آيات وخَوَارِق مِمَّا فوقَ العقلِ، كأنَّما هو سِرٌّ من الأسرارِ الجارية في هذا الكون، قد بلغَ بنفسِه رتبةَ النَّجم في أُفُقِه البعيد؛ ففيه أهواء الإنسان وشهواته وطباعه، إلا أنها كنوز النجم في تألقه ولألائِه مِن إشراقِ روحِه وصفائِها؛ وقد ارتفعَ بآدميَّتِه فوقَ نفسِها؛ فأصبحَ في الناسِ ومعهُ سماؤُه، يجعلُها بين قلبِه وبين الدنيا.

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حيًّا كالميتِ ساعةَ احتضارِه: ينظرُ إلى كلِّ ما في الحياة نظرةَ مَنْ يتركُ لا من يأخذ، ومَنْ يعتبرُ لا مَنْ يَغْتَرُّ، ومن يَلْفِظُ لا من يَتذوّق، ومَنْ يُدركُ السرّ لا مَنْ يتعلَّقُ بالظاهر؛ ويرى الشهواتِ كأنَّها من لغةٍ لا يعرفُها، فهي ألفاظٌ فيها معاني أهلِها لا معانيه، وإنَّما تلبسُ كلماتُنا معانِيها من أنفسِنا. وفي النفوس مثلُ الهشيم: إذا وقَعتْ فيه المعاني المشتعلةُ استطارَ حَريقاً وتَضرَّمَ، وفيها على المجاهَدَة مثلُ الماء؛ فإذا خالطَتْهُ تلك المعاني انطفأتْ به وخمدَتْ.

وقد سألْتُ الشيخَ مرة: كيف تَحدُثُ الكراماتُ والخوارقُ لِلإنسان؟ فقال: يا ولدي إنَّ الإنسانَ من الناسِ المحجوبين يتصرَّفُ في جسمِه ولا يكادُ يملكُ لِروحانِيته شيئاً، فإذا أَبلَى في المجاهدة ووقَعَ في قلبه النور، تصرَّفَ في روحانيته ولا يكادُ يملكُ لِجسمِه شيئاً، فَمنْ أطاقَ أنْ يَنسلخَ من بشريتِه، واتسَعتْ ذاتُهُ في معاني السماءِ بمقدارِ ما ضاقَتْ من معاني الأرضِ، وكان مُعَدًّا لأنْ يتحقَّقَ في روحانيَّتِه، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق الاعتدال ـ فقد شاعَ في الكون، وأصابَ له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التي تَهدِمُ في العالم وتبني، وتُفرِّقُ وتَجمع، وتنقلُ الصُّوَرَ بعضَها إلى بعض؛ فإنَّ الكونَ كلَّهُ جوهرٌ واحدٌ هو النور، حتى الجبلُ هو نورٌ صَخريّ، وحتى البحرُ هو نورٌ مائيّ، وحتى الحديدُ

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

والذهب والتراب، كلُّ ذلك نورٌ[1] صرَّفَتْهُ القدرةُ الإلهيَّةُ تصريفَها المعجز، فكانَ، على ما نرى: ظاهراً مخيَّلٌ يُلائمُ نقصَنا وعجزنا، وحقيقةً قارَّةً على غير ما نرى. ومَنْ ذا يعقلُ أنَّ الصخرَ نورٌ متجمدٌ إذا لم يكنْ له إلَّا عقلُ عينه وحواسِّه؟ ومَنْ ذا يُطيقُ أنْ يفهمَ بحواسِهِ وعينِهِ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]؟ فالجبالُ جامدةٌ ثابتة، غيرَ أنَّها تمرُّ بأرضِها وتموجُ في نفسِها؛ ومتى تأذَّنَ الله أنْ ينكشفَ نورُ كلامِهِ لِلعقلِ الإنسانيِّ، فستكونُ هذه الآيةُ عِلْماً جديداً في الأرض، يُثبتُ أنَّ السحابَ والجبل مادةٌ واحدةٌ وصُنعٌ واحد.

ويا لها سُخريةً بالإنسان وجهلِهِ! فإنَّهُ إذا كانتِ الحقيقةُ غيرَ ما نرى، فكلُّ شيءٍ في الدنيا هو ردٌّ على النظرِ الإنسانيِّ، ويكادُ الجبلُ العظيمُ يكون كلمةً عظيمةً تقولُ لِلإنسان: «كذَبْت!»

فالشأنُ في الخوارقِ والكراماتِ راجعٌ إلى القدرة أنْ يُسَلِّطَ الإنسانُ الروحانيُّ ما فيه مِن سرِّ النورِ على ما في بعضِ الأشياءِ من هذا السرِّ، وتلك هي طاعةُ بعضِ الكوْن لِمنْ ينصَرفُ عن المادة ويتَّصلُ بخالقِها.

فإذا بقيَ في الرجل الروحانيِّ شيءٌ من أمرِ جسمِه يقول: «أنا....» لم يكنْ في الرجلِ من تلكَ القدرة ذَرة؛ فإنْ هو حاول أنْ يَخرِقَ العادَة، أبى الكونُ أنْ يَعرفَهُ إلَّا كما يعرفُ حجراً مُلقًى يُحاولُ أنْ يتصرَّفَ بالجبلِ الذي هو منه فينقلهُ أو يُزحزحَهُ أو يُزلزله.

ولا خيرَ على الأرض مطلقاً إلَّا وهو أخْذٌ من حقوقِ هذه الـ «أنا...» في إنسانِها، ولا شرَّ على الأرض مطلقاً إلَّا وهو إضافةُ حقوقٍ إليها: فحينَ لا يبقَى لها حقٌّ في شيءٍ عند نفسِها، يجبُ لها الحقُّ عندئذٍ على كلِّ شيء. وهذه هيَ الكرامةُ؛ تُكرِمُ الخليقةُ مَنْ أكرمَهُ الخالق.

فمَنْ أرادَ أنْ تتَّصل نفسُهُ بِالله، فلا يكنْ في نفسِه شيءٌ من حظِّ نفسِه، ولا يؤمنْ إيمانَ هؤلاءِ العامَّة: يكون إيمانُهم بالله فكرةً تُذكَرُ وتُنسَى، أمَّا عملهم فهو إيمانُهمُ الراسخُ بالجِسم وشهواتِهِ يُذكرُ ولا يُنسى.

وأنت ترى رجال الروحِ يأكلونَ ويشربون ويلبسون، ولكنَّ هذا كلَّهُ ليس فيه ذَرَّةٌ من أرواحِهم، على خِلاف غيرِهم من الناس؛ فهؤلاءِ كلُّ أرواحِهم في مَطاعِمِهم ومناعمهم؛ ومن ثَمَّ لا يَجري الشيطانُ من الأوَّلينَ إلَّا في مَجارٍ ضيقةٍ

---

(١) كلمة (النور) هذه هي التي يعبر عنها اليوم بالكهرباء، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون.

أشدَّ الضيقِ لا يكادُ ينفذُ منها إلى فكر أو شهوةٍ أو حُلُم من أحلام الدنيا، أمَّا الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيَّارُ الدم، يَعُبُّ عُبابُه في الأَسفلِ والأعلى.

* * *

قال أبو الحسن: وكنَّا يومئذٍ في دمشق، فنبهني كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأْتُهُ عن كثيرينَ مِمَنْ رأوْا الشيطانَ أو حاوَرُوهُ أو صارَعُوه؛ فقلْتُ لِلشيخ: إنَّ من حقِّكَ عليّ أنْ أسألكَ حقّي عليك، وما في نفسي أحبُّ إليّ ولا أعجبُ من أنْ أرى الشيطانَ وأكلِّمَهُ وأسمعهُ؛ وأنت قادرٌ أنْ تنقلني إليه كما نقلْتَني إلى ما دخلْتَ بي عليه من عوالم الغيب.

قال الشيخ: وماذا يردُّ عليكَ أنْ ترَى الشيطانَ وتكلمَه؟

قلتُ: سبحانَ الله! لا يُجدي عليّ شيئاً إلَّا أنْ أسخَرَ منه.

قال الشيخ: فإنِّي أخشى يا ولدي، أنْ يكونَ الشيطانُ هوَ الذي يُريدُ أنْ تراهُ وتسمَعه...!

قلْت: فإني فأريد أنْ أسألهُ عن سِّره، فيكون عِلماً لا سُخريةٍ.

قال: لو كَشَفَ لك عن سرِّه لمَا كان شيطاناً، فإنَّما هو شيطانٌ بسرِّه لا بغيرِه.

قلْت: فأريد أنْ أرى الشيطانَ لأكونَ قد رأيْتُ الشيطان!

قال الشيخ: لا حول ولا قوةَ إلَّا بالله! لو كنْتَ يا أبا الحسن بأربعِ أرجُلٍ لهربْتَ من الشيطان بثلاثٍ منها وتركْتَهُ يجرُّك من واحدة!

قلْتُ: يا سيدي، فلو كنْتُ حماراً لبطَل عملُ الشيطان في أرجلي الأربعِ كلِّها؛ إذْ لا حاجةَ به إلى إغواءِ حِمار!

فتبَسم الشيخُ وقال: ولا بدَّ أنْ ترى الشيطانَ وتُكلمَه؟

قلْت: لا بدّ.

قال: إنَّهُ هو يقولها، فَقُم!

* * *

قال أبو الحسن: وكان الشيخُ إذا مشى إلى أمرٍ خارقٍ بقيْتُ معهُ غائباً عن الحس، كأنَّهُ يُبْطِلُ منيّ ما أنا به أنا، فأصبحُ ظِلَّا آدميًّا معلَّقاً به. ولا تقعُ الخوارقُ إلَّا لِمَنْ وجدَ القوَّةَ المُكمِّلةَ لِروحِه، وهذه القوةُ تُستمَدُّ منَ الشيخِ الواصل، فلا بُدَّ من إمامٍ يأخذ عن إمام، كأنَّها سلسلةٌ نفسيَّةٌ متميِّزةٌ في الأرض، فتتغيَّرُ الواحدةُ منها بالواحدة، إذْ تقعُ في جوّها فتُورِقُ وتُثمر؛ كالشجرة: جَوٌّ يكسوها، وجَوٌّ يُذْبِلُها، وجَوٌّ يسلُبها سلباً؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كان لها جَوّ.

وخرجْنا من دمشقَ وأنا خلفَ الشيخ كالمحمول، فرأيْتُنا وقد أشرفْنَا على بناءٍ عظيم، ورأيْتُ أقواماً يَتلقَّوْنَ الشيخَ ويُسلمونَ عليه ويتبرّكونَ بمقدَمِه؟ فأنكرَتْهم نفسي ووجدْتُ منهم وَحْشَةً، فالتَفتَ إليَّ الشيخُ وقال: هؤلاءِ من الجِنّ، وما إليهم قَصَدْنا، فلا تشتغلْ بما ترى واشتغلْ بي.

ثُمَّ ننتهي إلى البناءِ العظيم، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى، ويُدْخِلون الشيخَ وأنا خلفَه، ويمرون بنا على دنيا مخبوءةٍ تُعجِزُ الوصفَ، مِمَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ؛ فيقولون: هذه كنوزُ سليمانَ وذخائرُهُ، ويطوفون بالشيخِ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً، فرأينا ثَمَّ نعيماً ومُلكاً كبيراً، ثُمَّ انتهينا آخِراً إلى مغارةٍ خسيفةٍ كأنَّها عِرقٌ من عُروقِ جسمِ الأرضِ، يتفجَّرُ منها دويٌّ كالرعدِ القاصفِ، إلَّا أنَّهُ في السمعِ كخُوَارِ الثور، إلَّا أنَّه ثورٌ خُيّل إليَّ أنَّ رأسَهُ في قَدرِ جَبَلٍ عظيم، يتعلَّقُ به غَبْغَبٌ[1] في قَدْرِ جبلٍ آخر، على جسم يَسُدُّ الخافقين، فخُوارُهُ كأنَّهُ صُراخُ الأرض، وإذا أنا بأقبحِ مكانٍ منظراً، وأنتنِهِ رِيحاً، كأنَّه سجنٌ بناؤهُ من الجِيَفِ.

فقلْت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجنُ إبليس، وهو هنا في هذه المغارة منذُ زمن سليمانَ ـ عليه السلام ـ.

قلْت: أفَمَسْجونٌ هو؟

قالوا: وإنَّهُ مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ الجبالِ حديداً يَرْبِضُ به في مَحْبسِه، فلا يتزحزحُ ولا يَتَحَلْحَل.

قلْت: وإنَّهُ مع ذلك قد ملأَ الدنيا فساداً، فكيف به لو كان طليقاً؟

قالوا: فلو أنَّهُ كان طليقاً لَاسْتَحْوَذَ على الناسِ كافَّةً؛ فيجتمعُ أهلُ الأرضِ على شهوةٍ واحدةٍ لا شيءَ غيرُها، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة كلُّ تدبيرٍ بينَهم، فلا تقومُ لهم سياسة، ولا يكون بينهم وازع؛ فيرجعونَ كالكلابِ أصابَها الكَلَبُ وهاجَ بها، فأنيابُها في لحمِها، لا يزالُ يَعَضُّ بعضُها بعضاً، فليس لِجميعِها إلَّا عملٌ واحدٌ يُسلِمُها إلى الهلاك، ويُصبحُ ظهرُ الأرضِ أعْرَى من سَراة أديم.

وإنَّما يَصلُحُ الناسُ باختلاف شهواتِهم وتَنَافُرِها وتنازُعِها: فبعضُها يحكمُ بعضاً، وشيءٌ منها يَزَعُ شيئاً، ومن تخلَّصَ من نَزوَةٍ قَمَعَ بها نزوةً أخرى؛ كالمتزوِّج المحْصَنِ: يَحكُمُ بِالجلدِ والرجْم على مَنْ ليسَتْ له امرأةٌ فزنا؛ وكالغنيِّ الواجد: يَحكمُ على اللصِّ الذي لم يجدْ فسرَق، وهلمَّ جرا.

---

(١) غبغب الثور وغببه: ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل.

وما ينشأ الناسُ في ثلاثة أعمار، فيَشِبُّون ويكتهِلون ويهرَمُون، إلّا لِتختلفَ شهوَاتُهم وتختلفَ مقاديرُ الرغبة فيها، فتتحقَّقُ من ثَمّ تلك الحكمةُ الإلهيَّةُ في التدبيرِ ويجدُ الشرعُ محلَّهُ بينهم، كما يجدُ العِصيانُ بينَهم محلَّه.

ولو أنَّ أمَّةً كلُّها أطفالٌ أو كُهولٌ أو شيوخ، لبادَتْ في جيلٍ واحد؛ وإنَّهُ ليس أسمجَ من الرذيلة تكونُ وحدَها في الأرض إلَّا الفضيلةُ تكونَ وحدَها، فلا بدَّ من شيءٍ يَظهرُ به شيءٌ غيرُهُ كالضّدِ والضّد؛ والمعركةُ إذا انتصَرَ كلُّ مَنْ فيها كانَتْ هَزْلاً وكانَتْ شيئاً غيرَ المعركة.

قال أبو الحسن: وقلْتُ لهم: فإذا كان الشيطانُ سجيناً قد ربَضَتْ به أثقالُه، حتى لهُو في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كفِّه والتضييقِ عليه ـ فكيف يَفتِنُ الناسَ في أرجاءِ الأرضِ ويُوسْوِسُ في قلوبِهم، حتى لهو يَدٌ بينَ كلّ يدَين، وحتى لهو العينُ الثالثةُ لعينيَ كلِّ إنسان؟

قالوا: إنَّ في روحِه الناريَّة قوةً تَفصِلُ منها وتنتشِرُ في الأرض، كَشُعاعِ الشمسِ من الشمس: هذه كُرَةٌ ناريَّةٌ ميّتةٌ معلّقةٌ على الأجسام مُرْصَدَةٌ لها، وتلك كرةٌ ناريَّةٌ حيَّةٌ معلَّقةٌ على النفوسِ مُرصَدَةٌ لها، وبهذه وتلك عَمارُ الدنيا وأهلِ الدنيا.

قلْت: لعلَّكم أردْتُمْ أنْ تقولوا: خرابُ الدنيا وأهلِ الدنيا. فغَلِطْتُم، فكان ينبغي أنْ يجيءَ بَدَلُ الغلط...

فقال أحدُهم: يا أبا الحسن، خَرَقَ الثوبُ المسمَار. جازَ هنا لأمْنِ اللَّبْسِ أنْ يكونَ المفعولُ به ـ وهوَ الثوبُ ـ مرفوعاً وفاعلُه ـ وهو المسمار ـ منصوباً، هل جئْتَ ـ ويحك ـ تطلبُ النحوَ أو تطلبُ الشيطان...؟

***

قال أبو الحسن: فقطَعني الجنيُّ ـ والله ـ وأخجلني، ونظرْتُ خِلْسةً إلى الشيخِ أراهُ كيفَ يسخَرُ منّي، فإذا الشيخُ وقد امَّلسَ فلا أراه، وإذا أنا وحدي بين الجِنِّ وبإزاءِ هذا الساحرِ وُضِعَتْ عينُهُ في جبهتِه وشُقَّ فمُهُ في قفَاه..! فَسُرِّيَ عني وزال ما أجدُه، وقلْتُ في نفسي: الآنَ أبلغُ أرَبي من الشيطان ويكون الأمرُ على ما أريد، فلا أجِدُ مَنْ أحتَشِمُ ولا تَقْطَعُني هيبةُ الشيخ..!

ووَقعَ هذا الخاطرُ في نفسي، فاستعذْتُ بالله ولعنْتُ الشيطانَ وقلْت: هذا أولُ عَبَثِه بي وجعلُهُ إيايَ من أهلِ الرياءِ، كأنَّ لي شأناً في حضور الشيخ وشأناً في غِيابِه، وكأنّي مُنافقٌ أعلِنُ غيرَ ما أسِرّ، وقلْت: إنَّا لِلّه! كِذتَ يا أبا الحسن تَتَشَيطن!

ثُمَّ همتُ أنْ أنكصَ على عقبيَّ، فقد أيقنتُ أنَّ الشيخَ إنَّما تخلَّى عنِّي لأكونَ هنا بنفسي لا بِه، وما أنا هنا إلَّا به لا بنفسي، فيُوشِكُ إذا بقيْتُ في موضعي أنْ أهلِكَ! بَيْدَ أنَّ المغارةَ انكَشَفتْ لي فجأةً فما ملكْتُ أنْ أنظر؛ ونَظَرْتُ فما ملكْتُ أنْ أقِف، ووقفتُ أرى، فإذا دخانٌ قد هاجَ فارتفعَ يثُور ثَوَرَانَهُ حتى تملأ المكانُ بِهِ، ثم رقَّ ولطُفَ.

واسْتَضْرَمَتْ منه نارٌ عظيمةٌ لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضرَّم بعضُها في بعض، ويُسمَعُ من صوتِها مَعمَعةٌ قويَّة، ثُمَّ خَمدَت.

وانفجرَ في موضِعِها كالسَّدِّ المنْبثِقِ من ماءٍ كثيفٍ أبيضَ أصفرَ أحمرَ، كأنَّهُ صَديدٌ يَتَقَيَّحُ في دم، ثُمَّ غاض.

وتَنبَّعَتْ في مكانِه حَمْأَةٌ منتِنةٌ جعلتْ تَربُو وتَعظُمُ حتى خِفْتُ أنْ تبتَلِعَني وأذهبَ فيها، فسميْتُ الله ـ تعالى ـ فغارَتْ في الأرض.

ثُمَّ نظرْتُ فإذا كلبٌ أسودُ مُحْمَرُّ الحَماليق، هائِلُ الخِلْقة مستأسِد، قد وقفَ على جيفةٍ قَذِرةٍ غابَ فيها خَطْمُهُ يَعُبُّ مِمَّا تَسِيلُ بهِ.

فقلْت: أيُّها الكلبُ، أأنت الشيطان؟

وأنظرُ فإذا هو مَسْخٌ شائِهٌ كأنَّهُ إنسانٌ في بهيمةٍ قدِ امتزَجا وطغَى منهما شيءٌ على شيء، وأمَّا وجهُهُ فأقبحُ شيءٍ منظراً، تحسبُهُ قد لبِسَ صورةَ أعمالِه..

ونطقَ فقال: أنا الشيطان!

قلْت: فما تلك الجِيفة؟

قال: تلك دنياكم في شهواتِها، وأنا ألْتَقِمُ قلبَ الفاسقِ أوِ الآثم منكم، كما ألتقِمُ دودةً من هذه الجِيفة.

قلْت: عليكَ لعنةُ الله وعلى الفاسقينَ والآثمين، فكيف كنْتَ دخاناً، ثمَّ انقلبْتَ ناراً، ثُمَّ رجعْتَ قَيحاً، ثُمَّ صِرْتَ حمأة، ثُمَّ كنْتَ كلباً على جِيفة؟

قال: لا تلعن الفاسقينَ والآثمين؛ فإنَّهم العُبَّادُ الصالحون بأحدِ المعنيين، وأنت وأمثالُك عُبَّادٌ صالحون بالمعنى الآخر، أليس في الدنيا حياءٌ ووقاحة؟ فأولئك يا أبا الحسن هم وقاحتي أنا على الله! أنا منكم في زهدِكم حِرمانُ الحرمان، وفقرُ الفقر، ولقد أهلكتموني بُؤساً؛ غيرَ أنِّي معهم لذَّةُ اللذة، وشهوةُ الشهوة، وغِنى الغِنى، لا تتمُّ لذةٌ في الأرض، ولا تحلو لذائِقها وإنْ كانَتْ حلالاً،

إلَّا إذا وضعْتُ أنا فيها معنًى من معانيّ أو وقاحةً مِن وقاحتي! حتى لأجعلُ الزوجةَ لِزوجِها مثل الشعرِ البليغ إذا استعارَ لها معنى مِنّي، وكلُّ ما فسَدتْ به المرأةُ فهو مَجازي واستعارتي لها أَجعلُها به بليغة. . .

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتَكم كلَّها تُجاهدون إثْمَ ساعةٍ واحدةٍ من حياة عبَّادي، فانظرْ ـ رحمَكَ الله ـ لئن كانَتْ ساعةٌ من حياتِهم هي جهنَّمُكم أنتم، فكيف تكونُ جهنمُ هؤلاءِ المساكين؟

إنَّكَ رأيتَني دُخاناً لأنِّي كذلك أنبعثُ في القلبِ الإنسانيّ، فمتى تَحرَّكَتْ فيه حركةُ الشرِّ كنتُ كالاحتيالِ لإضرام النارِ بالنفْخِ عليها؛ فمِنْ ثَمّ أكونُ دُخاناً، فإذا غَفَل عني صاحبُ القلبِ تضرَّمتُ في قلبِه ناراً تطلبُ ما يُطفئُها؛ ثُمَّ يُواقعُ الإثْمَ والمعصيةَ ويقضي نَهْمَتَهُ فأُبرِّدُ عن قلبِهِ، فيكون في قلبِه مثلُ الحرقِ الذي بَردَ فتأكَّل موضعُهُ فتقيَّح، ثُمَّ يختلطُ قيحُ أعمالِه بمادتِه الترابيَّة الأرضيَّة، فينقلبُ هذا المسكينُ حمأةً إنسانيةً لا تزالُ تربو وتنتفخُ كما رأيْت.

قلْت: أعوذُ بالله منك! أفلا تعرفُ شيئاً يردّكَ عن القلبِ وأنت دخانٌ بَعْد؟

فقَهقهَ اللعينُ وقال: ما أشدَّ غفلتَك يا أبا الحسن، إذْ تسألُ الشيطانَ أنْ يخترعَ التوبة! أمَا لو أنَّ شيئاً يَخترعُ التوبةَ في الأرض لاخترعَها القبرُ الذي يَدْفنُ فيه بعضُكم بعضاً كلَّ طرفة عينٍ من الزمنِ، فتُنزلونَ فيه الميتَ المسكينَ قدِ انقطعَ من كلِّ شيءٍ وتتركونَهُ لِآثامِهِ، وحِسابِ آثامِه، والهلاكِ الأبديِّ في آثامِه؛ ثُمَّ تعودون أنتم لاِقتراف هذه الآثام بعينِها!

قلْتَ: عليك وعليك أيُّها اللعين؛ ولكنْ ألا يتبدّدُ هذا الدخانُ إذا ضربَتْهُ الريحُ أوِ انطفأ ما تحته!

قال: أوّه! لقد أوجعْتَني كأنَّما ضرَبتني بحبلٍ من نارٍ، إنَّ نبيَّكم عَرفَها ولكنَّكم أغبياء؛ تأخذون كلامَ نبيِّكم كأنَّما هو كلامٌ لا عَمل، وكأنَّهُ كلامُ إنسانٍ في وقته لا كلامُ النبوّة لِلدهرِ كلِّه ولِلحياة كلِّها؛ ولِهذا غلبْتُ أنا الأنبياءَ على الناس، فإنِّي أضعُ المعانيَ التي تعمل، لا الحِكمةَ المتروكةَ لِمَنْ يعملُ بها ومَنْ لا يعمل.

أتدري يا أبا الحسن، لِماذا أعجزني أسلافُكمُ الأوّلونَ مثل: عُمرَ وأبي بكر؟ حتى كان إسلامُهم من أكبرِ مصائبي، فتركوني زمناً ـ وأنا الشيطانُ ـ أرتابُ في أنِّي أنا الشيطان. . .؟

قلْت: لِماذا؟

قال: أراكَ الآنَ لم تَلْعَنْ، فلستُ قائِلها إلَّا إذا ترَحَّمْتَ عليَّ.

قلْت: عليك وعليك من لعَنَاتِ الله! قلْ لِماذا؟

قال: أسائِلٌ ويأمرُ؟ وطُفَيْلِيٌّ ويَقْتَرِح؟ لا بدَّ أنْ تترحَّم!

قلْت: يرحمُنا الله منك! قلْ لِماذا؟

قال: وهذه لعنةٌ في لفظة رحمة؛ لا، إلَّا تترحَّم عليّ أنا إبليس الرجيم!

قلْت: فيُغني الله عن عِلْمِك؛ لقد أَلهَمْتَنيها روحُ النبيِّ ﷺ: إنَّ النبوّةَ كانت هي بأعمالِها وصِفاتِها تفسيراً لِلألفاظِ على أسمى الوجوه وأكملِها، فكأن روحُ النبيِّ ﷺ لِتلك الأرواح كالأمِّ لأبنائِها؛ وقد رأوْهُ لا يغضبُ لِنفسِه ولا لحظِّ نفسِه، وذلك لا يستقيمُ إلَّا بالقَصْدِ في أمرِ النفس، وجعلِ ناحية الإسراف فيها إسرافاً في العملِ لِسعادة الناس. وكلَّما ارتدَّ الإنسانُ لِنفسِه وحظوظِها ارتدّ إليك ـ أيُّها اللعين ـ وأقبل على شَقاءِ نفسِه، وكلَّما عمل لِسعادة غيرِه ابتعدَ عنك ـ أيُّها الرجيم ـ وأقبل على سعادة نفسِهِ، وترْكُ الغضبِ وحظوظِ النفسِ هوَ الصبر؛ وصبرُ الأنبياءِ والصّدِّيقينَ ليس صبراً على شيءٍ بعينه في الحياة، بلْ هو الصبرُ على حوادِثِ العمرِ كلّه، كصبرِ المسافرِ إنْ كان عزيمةً مدةَ الطريقِ كلِّها، وإلَّا كان فساداً في القوَّة ووقعَ به الخِذلان.

فهذا الصبرُ المُعْتزِمُ المصمِّم، الذي يُوطِّنُ به الرجلُ نفسَهُ أنْ يكونَ رَجلاً إلى الآخر ـ هو تعبُ الدنيا، ولكنَّهُ هو رَوْحُ الجنَّة مَعَ الإنسان في الدنيا. والمؤمنُ الصابرُ رجلٌ مُقْفَلٌ عليه بأقفالِ الملائكة التي لا يَقْتَحِمُها الشيطانُ ولا تفتحُها مصائبُ الدنيا؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُنْضي شيطانَهُ كما يُنْضي أحدكُم بعيرَهُ في سفرِه». كأنَّهُ يقول: لو لم يصبرِ المسافرُ دائباً معتزِماً مدةَ سفرِه كلِّها لَمَا أنضى بعيره، ولو لم يصبر المؤمن دائباً معتزماً مدة حياته كلها لما أنضى شيطانَه.

فصاحَ الشيطان: أوَّه، أوَّه! ولكنْ قلْ لي يا أبا الحسن: ما صَبْرُ رجلٍ مؤمنٍ قويِّ الإيمان، قدِ استطاعَ بقوة إيمانِه أنْ يُفيقَ من سُكْرِ الغِنى، فتخلَّصَ من نزوَاتِ الشياطين الذهبيَّة الصغيرة التي تسمُّونها الدنانير؛ وقد أردْتُهُ على أنْ يكذبَ، فرأى الإيمانَ أنْ يَصْدُق؛ وجَهَدْتُ به أنْ يغضبَ، فرأى الحِكمةَ أنْ يهْدأ؛ وحاولْتُ منه أنْ يطمع، فرأى الراحةَ أنْ يرضَى؛ وسَوَّلتُ له أنْ يَحْسُدَ، فرأى الفضيلةَ ألَّا يُبالي؛ وأخذَ لِنفسِه من كلِّ شيءٍ في الحياة بما يثقُ أنَّهُ الإيمانُ والصبرُ والهدوءُ والرضا والقناعة؛ وأحاطَ نفسَهُ من هذه الأخلاقِ بالسعادة القلبيَّة واجْتزأ بها؛ وقَصرَ نظَرَهُ على الحقيقة؛ ووجَد الجمال في نفسِه الطيِّبة الصافية؛ وأجرى ما يُؤلِمُهُ وما يَسُرُّهُ

مَجرىً واحداً؛ ونظرَ إلى العمرِ كلّه كأنَّهُ يومٌ واحدٌ يَرْقُبُ مغربَ شمسِه؛ وأخذَ من إرادتِه قوةً أنسَتْهُ ما لم تُعطِه الدنيا، فلمْ يَحْفَلْ بِمَا أعطَتِ الدنيا وما مَنَعتْ؛ وعاشَ على فقرِه بِكلِّ ذلك كما يعيشُ المؤمنُ في الجنَّة: هذا في قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زَبَرْجَدَةٍ، وذاكَ في قصرٍ من الحِكمة أو من الإيمان أو من العقل.

قال الشيطان: فلمَّا أعجَزني صلاحاً ورضًى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً، وكان رجلاً عالماً فقيها ـ سوَّلْتُ له أنْ يخرجَ إلى المسجدِ لِيعِظَ الناسَ فينتفعوا به، ويُبَصِّرهمْ بدينِهم ـ ويتكلَّمَ في نصِّ كلام الله؛ فَعقَدَ المجلسَ ووَعظ، وانصرفوا وبقيَ وحدَه.

فجاءَتِ امرأةٌ تسألُهُ عن بعضِ ما يحتاجُ إليه النساءُ في الدين من أمرِ طبيعتِهن؛ وكانتِ امرأةً جَزْلةً غَضَّةً رابيةً، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها، وتمشي قصيرَةَ الخَطْوِ مُتَّاقِلةً كالمتضايقة من حَمْلِ أسرارِ جمالِها وأسرارِ بدنِها الجميل؛ فبَعْضُ مِشيتِها يَقَظَةٌ وبعضُها نومٌ فاترٌ تُخالطُهُ اليقَظة؛ ولا يراها الرجلُ الفَحْلُ التامُّ الفُحولة إلَّا رأى الهواءَ نفسَهُ قد أصبحَ من حولِها أنثى، مِمَّا تَعْصِفُ به ريحُها العَطِرةُ عِطْرَ زينتِها وجسمِها.

وكان الواعظُ قد ترمَّل من أشهر، وكانتِ المرأةُ قد تأيَّمَتْ من سنَوات؛ فلمَّا رآها غَضَّ طرْفَهُ عنها؛ ولكنَّها سألتْهُ بألفاظِها العذْبة عن أمورٍ هي من أسرارِ طبيعتِها، وسألتْهُ عن طبيعتِها بألفاظِها؛ فسمع منها مثل صوتِ البلَّور، يتكسَّرُ بعضُهُ على بعض.

وتحدّثتْ له وكأنّها تتحدّثُ فيه: فسمِعَ بأذنِه ودمِه، ثُمَّ كان غَضُّ عينِه أقوى لِرؤية قلبِه وجمْعِ خواطِره.

ورأى صوتَها يَشْتَهِي؛ وعانَقتْهُ رائحتُها العطريَّةُ النفَّاذة؛ وأحاطتْهُ بجوٍ كجوِّ الفَراشِ؛ وعادَتْ أنفاسُها كأنّها وسْوَسَةُ قُبَلٍ؛ وصارَتْ زَفَراتُها كالقِدْرِ إذا استَجمعتْ غَلَيَاناً؛ وطَلعَتْ في خيالِه عُريانَةً كما تَطلعُ لِلسكران من كأسِ الخمرِ حُوريَّةٌ عُريانةٌ، لها جِسمٌ يبدو من اللِّين والبَضاضة والنِّعمَة كأنَّهُ من زَبَدِ البحرَ؟

قال أبو الحسن: وكنْتُ كالنائم، فما شعرْتُ إلَّا بصوت كصَكِّ الحجرِ بِالحجر، لا كتكسُّرِ البلورِ بعْضِه على بعض، وسمعْتُ شيخي يقول:

أفَسقت. . .؟

تاريخٌ يتكلّم...(*)

أيعرفُ القرَّاءُ أنَّ في الأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليَّةٌ كاملةُ الأجزاءِ محكمَةُ الوضعِ مُتَّسِقةُ التركيبِ بديعةُ التأليفِ، تجعلُ المرءَ حينَ ينامُ كأنَّهُ أسلمَ نفسَهُ إلى (شركةٍ من الملائكة)، تَسيحُ به في عالمٍ عجيبٍ كأنَّما سُحِرَ فتحوَّل إلى قصة؟

إنْ يكنْ في القراءِ مَنْ لا يعلمُ هذا فلْيعلمْهُ منِّي؛ فإنِّي كثيراً ما أكتبُ وأقرأ في النوم؛ وكثيراً ما يُلْقِي عَليَّ من بارعِ الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دوّنْتُهُ لعُدّ من الخوارقِ والمعجزات.

وهذه القصةُ التي أرويها اليومَ، كانَتِ المعجزةُ فيها أنّي مشيْتُ في التاريخِ كما أمشي في طريقٍ ممتدّة؛ فتقدمْتُ إلى أهلِ سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فعِشْتُ معهم وتَخَبَّرْتُ من أخبارِهم، ثُمَّ رجعْتُ إلى زمني لأقِصَّ ما رأيْتُهُ على أهلِ سنة ١٣٥٣...(**)

أمسيْتُ البارحةَ كالمغموم في أحوالٍ ثقيلةٍ على النفسِ ما تَنطلقُ النفسُ لها، أوّلُها سوءُ الهضم؛ ومتى كان البدءُ من هُنا لم تكن الحركةُ في النفسِ إلّا دائرةً: تَذهبُ ما تذهبُ ثُمَّ لا تنتهي إلّا في سوءِ الهضم عينِهِ. فجلسْتُ في النَّديّ الذي أسْمُرُ فيه أحياناً، فكان لِجوِّه وزنٌ أحسسْتُهُ كمَا يُحس الغائصُ في الماءِ ثِقَلَ الماءِ عليه؛ ودخَّنْتُ الكَرْكَرَةَ[1] فلم تكنْ هواءً ودُخاناً يَترَوَّحُ، بلْ كانَتْ من ثِقَلِها كالطعام يدخلُ على الطعام؛ ونظرْتُ ناحيةً فأخذَتْ عيني رجُلاً فِيليَّ الخِلْقة، مُنْطادَ البطنِ كأنَّما نُفِخَ بطنُهُ بالآلات، يَحمِلُ منه مقدارَ أربعةٍ من بطونِ البديناتِ الحواملِ

(*) يعني بهذه المقالة والتي بعدها (كفر الذبابة) تركيا الحديثة وزعيمها المغفور له ـ وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(**) تاريخ إنشائه هذه المقالة.

(١) الكركرة: اسم وضعناه (للشيشة) أو النارجيلة، أخذاً من صوتها، كما صنع العرب في تسميتهم (القطا) أخذاً من صوت هذا الطير، وكما هي طريقتهم؛ وتجمع الكركرة: كراكير، بالياء للخفة.

كلٌّ منهنَّ في الشهرِ التاسعِ من حَمْلها... وكان معي إلى كلِّ هذا البلاءِ خمسُ صُحُفٍ يوميَّةٍ أريدُ قراءتَها...!

ثُمَّ جِئْتُ إلى الدارِ والمعركةُ حاميةٌ في أعصابي؛ وما كان سوءُ الهضم مَنْوَمَةً فيدعوَ إلى النوم، فدخلْتُ بيتَ كُتُبي وأردْتُ كتاباً أيَّ كتابٍ تنالُهُ يدي، فخرجَ لي كتابٌ في خُرافاتِ الأوّلينَ وأساطيرِهم وهَذَيانِهم وسوءِ هضمِهِمُ العقلي... كالكلام عن أدُونيس وأرطاميس وديونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأترغتيس.... فاستعذْتُ بالله وقلْتُ: حتى الكتُبُ لها في هذه الليلة أعصابٌ قد نالتْها الثِّقْلةُ والألم؟

وباتَ الليلُ يقظانَ معي، وبقيْتُ مُتَمَلْمِلاً أتقلَّبُ حتى أخذَ الصداعُ في رأسي، فانقلبَ التعبُ نوماً، وجاءَ من النوم تعبٌ آخر، وقُذِفْتُ إلى عالم الأحلام في قُنبلةٍ تستقرُّ بي حيثُ تُريدُ لا حيثُ أريد:

* * *

ورأيتُني في قومٍ لا أعرفُ منهم أحداً قدِ اجتمعوا جمَاهير، وسمعْتُ قائلاً منهم يقول: «الساعةَ يمرُّ مولانا العالي». فقلْتُ لِمَنْ يليني: «مَنْ يكون مولانا العالي؟» قال: «أوَ أنتَ منهم؟» قلْت: «مِمَن؟» فألهاهُ عن جوابي تَشَوُّفُ الناسِ وانصرافُهم إلى رجلٍ أقبل راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: «القمر القمر»[1] ورَفَعَ الرجلُ الذي يُناكِبُني صوتَهُ يقول: «البركاتُ والعَظَماتُ لك يا مولانا العالي!».

قلْت: إنَّا لله! لقد وقعْتُ في قومٍ من الزنادقة، يُعارضون «التحياتُ والصّلواتُ والطَّيباتُ لله»؛ ثُمَّ مرّ صاحبُ الحمارِ بحذائي، وغمزَهُ الرجلُ عَليَّ، فقال: ما بالُك لا تقولُ مثلَه؟ قلْت: أعوذُ بِالله من كُفرٍ بعدَ إيمان. فكأنَّما أرادَ أنْ يَلْطُمَني فرفَع يدَه، فصِحْتُ فيه: كما أنتَ ـ ويلكَ ـ وإلّا قبضْتُ عليك، وأسلمْتُك لِلبوليس، وشكوْتُكَ إلى النيابة، ورفعْتُكَ إلى محكمة الجُنَح!

قال: ماذا أسمع؟ الرجلُ مجنونٌ فخذوه! وأحاطَ بي جماعةٌ منهم، ولكنَّهُ تَرَجَّل عن حمارِه وأخذَ بيدي ومشيْنا، فقلْت: مَنْ أنت يا هذا؟ قال: أراكَ من غير هذا البلد؛ أمَا تَعرفُ الحاكمَ بأمرِ الله؟ فأنا هو. قلْت: انظُرْ ـ ويحكَ ـ ما تقول. فما أظنُّكَ إلّا مَمْرُوراً؛ لقد كتبْتُ أمسِ كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرّخته ١٣ من ذي

---

(١) القمر: اسم ذلك الحمار، وسيمر ذكره في القصة.

الحجة سنة ١٣٥٣ و١٨ من مارس سنة ١٩٣٥، وأرسلْتُ به مقالةَ «الخروفين»[١]..

قال: ماذا أسمع؟ نحن الآن في سنة ٣٩٥؛ فالرجلُ مجنون، أوْلا فأنت أيُّها الرجلُ من معجزاتي. لقد جئتُ بك من التاريخ، فسترى وتكتب، ثُمَّ تعودُ إلى التاريخ فتكونُ من معجزاتي، وتقصُّ عنيَّ وتشهدُ لي...!

قلْتُ: فإنِّي أعرفُ أعمالك إلى أنْ قُتِلْتَ في سنة ٤١١...!

قال: أوَ إلهٌ أنت فتَخلُقَ ستَّ عشرةَ سنةً بحوادِثها؟ لقد كِذْتَ من أفَنِك وغَباوتِك تُفسدُ عليَّ دعوى المعجزة!

وهاجَ الصداعُ في رأسي، وبلغَ سوءُ الهضم حدَّه، واشتبكَتْ سيناتُ إيسيس وأتوبيس الخ بسينِ إبليس، ومرَّتْ بين كلِّ هذا حوادثُ الطاغية المعتوه المتجبرّ، فرأيتُهُ يبتدعُ في كلِّ وقت بِدَعا، ويخترعُ أحكاماً يُكْرِهُ الناسَ على أنْ يعملوا بها، ويعاقبُهم على الخروج منها، ثُمَّ يعودُ فينقُضُ أمرَه، ويُعاقِبُ على الأخذِ بهِ، كأنَّ الذي نَقضَ غيرُ الذي أبْرَم، وكأنَّهُ حينَ يتبلَّدُ فيُعجزُهُ أنْ يخترعَ جديداً ـ يَجعلُ اختراعَهُ إبطال اختراعِه.

ورأيْتُهُ كأنَّما يعتدُّ نفسَهُ مُخَّ هذه الأمَّة، فلا بُدّ أنْ يكونَ عقلاً لِعقولِها، ثُمَّ لا بُدّ أنْ يَسْتَعْلِيَ الناسَ ويستبدَّ بهمُ استبْدادَ الشريعة في أمرِها ونَهيِها، فكانَتْ أعمالُهُ في جُملتِها هي نقضَ أعمال الشريعة الإسلاميَّة، وظنَّ أنَّهُ مستطيعٌ محوَ ذلك العصر من أذهان الناسِ وقَتْل التاريخِ الإسلاميِّ بتاريخِ قاتلٍ سفَّاك.

وسَوَّل له جنونُهُ أنَّهُ خُلِقَ تكذيباً لِلنبوَّة؛ ثُمَّ أفرَطَ عليه الجنونُ فحصَّل في نفسه أنَّهُ خُلِقَ تكذيباً لِلألوهيَّة؛ وفي تكذيبِهِ لِلنُّبوَّة والألوهيَّة يحملُ الأمَّةَ بالقهرِ والغلبة على ألَّا تصدِّقَ إلَّا به هو؛ وفي سبيلِ إثباتِه لنفسِه صَنَعَ ما صَنع، فجاءَ تاريخُهُ لا ينفي ألوهيَّةً ولا نبوَّة، بلْ ينفي العقل عن صاحبِه؛ وجاءَ هذا التاريخُ في الإسلام لِيتكلَّمَ يوماً في تاريخِ الإسلام...

***

رأيتُني أصبحتُ كاتباً لِهذا الحاكم، فجعلْتُ أشهدُ أعمالهُ وأدوِّنُ تاريخَه، وأقبلْتُ على ما أفْرَدَني به وقلْتُ في نفسي: لقد وضعتني الدنيا مَوْضِعاً عزيزاً لم يرتفعْ إليه أحدٌ من كتَّابها وأدبائها، فسأكتبُ عن هذا الدهرِ بعقلِ بينه وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً في العِلْم.

---

(١) مرت هذه المقالة في الجزء الأول.

ودوّنتُ عشرةَ مجلَّدات ضخمةٍ انتبهْتُ وأنا أحفظُها كلَّها، فإذا هي جُملٌ صغيرة، جَعل الحُلُمُ كلَّ نبذةٍ منها سِفْراً ضخماً كما يُخيَّلُ لِلنائم أنَّهُ عاشَ عمراً طويلاً وأحدثَ أحداثاً ممتدَّة، على حين لا تكونُ الرؤيا إلا لحظة.

وهذه هي المجلَّداتُ التي قلْتُ: إن التاريخ يتكلَّمُ بها في التاريخ...

المجلدُ الأول

ابتُلِيَ هذا الطاغيةُ بنقيصتين: إحداهما من نفسِه، والأخرى من غيرِه؛ فأمَّا التي من نفسِه فإنّي أراهُ قد خُلِقَ وفي مُخِّه لُفافَةٌ عَصَبِيَّةٌ من يَهودية جَدّه رأسِ هذه الدعوة؛ فهو الحاكمُ بْنُ العزيزِ بْن المعزِ بْن القاسم المهديّ عُبيدِ الله، ويقولون: إنَّ عبيدَ الله هذا كان ابنَ امرأةٍ يهوديَّةٍ من حدَّادٍ يهوديّ، فاتفقَ أنْ جرى ذكرُ النساءِ في مجلسِ الحسينْ بن محمدِ القدَّاح، فوصفوا له تلك المرأةَ اليهوديَّة، وأنَّها آيةٌ في الحسنُ؛ وكان لهَا من الحدادِ ولد، فتزوَّجها الرجلُ وأدَّبَ ابنَها وعلَّمه، ثُمَّ عرَّفَهُ أسرارَ الدعوة العَلوية وعَهدَ إليه بها.

ومن بعضِ اللفائف العصبيَّة في المخِّ ما ينحدِرُ بالوراثة مطبوعاً على خيرِه أو شرِّه، لا يَدَ لِلمرْءِ فيه ولا حِيلةَ له في دفعِه أوِ الانتفاءِ منه، فيكون قَدَراً يَتسَلْسلُ في الخُلْقِ لِيُحدِثَ غاياتِه المقدورة، فمتى وقعَ في مخِّ إنسانٍ فالدنيا به كالحُبْلى ولا بدّ أنْ تتمخَّضَ عنه.

هذه اللُّفافةُ اليهوديَّةُ في مخِّ هذا الطاغية ستُحَقِّقُ به قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢] فهو لنْ يكونَ العدوَّ لِلإسلام دونَ أنْ يكونَ الأشدَّ في هذه العداوة، ولنْ يكونَ فيها الأشدَّ حتى يفعل بها الأفاعيل المنكَرَة. وما أرى هذه المآذنَ القائمةَ في الجوِّ إلَّا تخرقُ بمنظرِها عينَهُ مِن بُغضِه لِلإسلام وانطوائِه على عداوتِهِ؛ فويلٌ لها منه!.

وأمَّا النقيصةُ الثانيةُ فقدِ ابتُلِيَ بقومٍ فتنُوهُ بآرائِهم ومذهَبِهم، وهم حمزةُ بْنُ عليّ، والأخرمُ، وفلان، وفلان.. وقدْ لفَّقوا لِلدنيا مذهَباً هو صورةُ عقولِهِمُ الطائشة، لا يجيءُ إلَّا لِلهدم، ثُمَّ لا يضعُ أول مَعاوِلِه إلَّا في قُبة السماءِ لِيهدمَها...! ولو أنا جمعْتُ هذا المذهبَ في كلمَة واحدةٍ لقلْتُ: هو حماقةٌ حمقاءُ تُريدُ إخراجَ الله من الوجودِ لإدخالِ الله في بعضِ الطغاة!

ويتلقَّبون في مذهبِهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل...!

أظهرَ الطاغيةُ أنَّ الله يؤيّدُ به الإسلام، لِيتألَّفَ الجندَ والشعبَ ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لئيمَ الكَيْدِ، دنِيءَ الحِيلة، يهوديَّ المكْر؛ فأمرَ بِعِمارة المدارسِ لِلفقه والتفسيرِ والحديثِ والفُتْيا، وبَذَل فيها الأموال، وجعل فيها الفقهاء (والمشايخ)، وبالغَ في إكرامِهم، والتَّوْسِعَة عليهم، والتَّخَضُّع لهم، ودَخَل في ظلالِ العمائم. . . وأحضرَ لِنفسه فقيهَين مالكيَّين (اثنين لا واحد) يعَلِّمانه ويُفقِّهانِه، وكان أشبَهَ بمُريدٍ مع شيخ الطريقة يَتسعَّدُ به ويَتَيمَّن؛ أشرفُ ألقابِه أنه خادمُ العِمامة الخضراء، وأسعدُ أوقاتِه اليومُ الذي يقولُ له فيه الشيخ: رأيْتُكَ في الرؤيا ورأيْتُ لك. . .!

وكانَتْ هذه المعاملةُ الإسلاميَّةُ الكريمةُ من هذا الطاغية، هي بعينِها رِبا اللُّفافة اليهوديَّة في مُخِّه؛ تُصْلِحُ بإقراضٍ مائة، وفيها نيةُ الخرابِ بالستينَ في المائة. . .! فإنَّهُ ما كادَ يتمكَّنُ من الناسِ ويعرفُ إقبالهم عليه وثِقَتَهم به، حتى طَلَبتِ اللفافةُ اليهوديةُ رأسَ المال والرِّبا؛ فأمرَهم بهدم تلكَ المدارسِ وإخرابِها، وأبطَل العيدَين وصلاةَ الجمعة، وقَتَل الفقهاء وقَتَل معهم فقيهيه وأستاذَيه، وعادَ كالمُريدِ المنافقِ مع شيخِ الطريقة، يقولُ في نفسِهِ: إنَّ هناك ثلاثةَ تعملُ عملاً واحداً في الصيَّد: الفخّ، والعِمامة، واللّحية. . .!

إنَّ هذا الطاغيةَ ملِكٌ حاكم، يستطيعُ أنْ يجعل حماقتَهُ شيئاً واقعاً، فيقتل علماءَ الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارِسَ الدين بإخرابِها، ولو شاءَ لاسْتطاعَ أنْ يشنُقَ من المسلمينَ كلَّ ذي عِمامةٍ في عِمامتِه. ويبلغُ من كفرِه أنْ يتبجَّحَ ويرى هذا قوةً، ولا يعلمَ أنَّهُ لِهوانِه على الله قد جعلهُ الله كالذبابة التي تُصيبُ الناسَ بالمرض، والبعوضة التي تقتلُ بالحمَّى، والقملة التي تَضْربُ بِالطاعون، فلو فَخَرَتْ ذبابةٌ، أو تَبجَّحَتْ قملةٌ، أو استطالتْ بعوضة، لجازَ له أنْ يَطِنَّ طنينَهُ في العالم. وهلْ فعل أكثرَ مِمَّا تفعل؟

لقد أوْدَى بأناسٍ يقومُ إيمانُهم على أنَّ الموتَ في سبيلِ الحقِّ هو الذي يُخلِّدُهم في الحق، وأنَّ انتزاعَهم بالسيف من الحياة هو الذي يضعُهم في حقيقتِها، وأنَّ هذه الروحَ الإسلاميةَ لا يَطْمِسُها الطغيانُ إلَّا لِيجلوَها.

إنَّهُ ـ والله ـ ما قَتَل ولا شَنَقَ ولا عَذَّب، ولكنَّ الإسلامَ احتاجَ في عصرِه هذا إلى قوم يموتون في سبيلِهِ، وأعوزَهُ ذلك النوعُ السامي من الموتِ الأولِ الذي كان حياةَ الفَكرِ ومادةَ التاريخِ، فجاءَتِ القملةُ تحملُ طاعونها. .!

لقد أحياهم في التاريخ، أمَّا هم فقتَلوهُ في التاريخ، وجاءَهم بالرحمة من جميعِ المسلمين، أمَّا هم فجاؤُوه باللعنة من المسلمين جميعاً!

المجلدُ الثالث

يرى هذا الطاغيةُ أنَّ الدينَ الإسلاميَّ خُرافةٌ وشَعْوذةٌ عن النفس، وأنَّ محوَ الأخلاقِ الإسلاميَّة العظيمة هو نفسُهُ إيجادُ أخلاق، وأنَّ الإسلامَ كان جريئاً حينَ جاءَ فاحتلَّ هذه الدنيا؛ فلا يطردُهُ من الدنيا إلَّا جَراءةُ شيطانٍ كالذي توَقَّحَ على الله حينَ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. ولِهذا أمرَ الناسَ بسبِّ الصَّحابة، وأنْ يُكْتبَ ذلك على حِيطان المساجدِ والمقابرِ والشوارع!

أخزاهُ الله! أهي روايةٌ تمثيلية يُلْصَقُ الإعلانَ عنها في كلِّ مكانٍ؟ لو سمع لسمع المساجدَ والمقابرَ والشوارعَ تقول: أخزاهُ الله.... !

المجلدُ الرابع

هذا الفاسقُ لا يركبُ إلَّا حماراً أشهبَ يُسمِّيه: (القمر)، وقد جعل نفسَهُ مُحتسَباً لِغاية خبيثةٍ؛ فهو يدورُ على حِمارِه هذا في الأسواقِ ومعهُ عبدٌ أسود، فمَنْ وجَدهُ قد غَشَّ؛ أمرَ الأسودَ ف...! ووقف هو ينظرُ ويقولُ لِلناس: انظروا...!

ومن غَلبَة الفُسوقِ على نفسِه وعلى شيعتِه أنَّ داعيتَهُ (حمزَة بْنَ عَليّ) نَوَّهَ بالحمارِ في كتابِه وأومأ إليه بالثناء، لِخصال: منها أن...! وكتبَ حمزةُ هذا في بعضِ رسائلِهِ: أنَّ ما يرتكبُهُ أهلُ الفسادِ بجوارِ البساتين التي يمرُّ بها (الفاسقُ) من المنكَرِ والفحشاء ـ إنما يُرتكَب في طاعتِه...!

هذه طبيعةُ كلِّ حاكم فاسقٍ مُلحد، يرى في نفسِه رذائلهُ عُريانةً، فلا يكون كلامُهُ وعملُهُ وفكرُهُ إلَّا فُحشاً يتعَرَّى؛ وإنَّ في هذا الرجلِ غريزةَ فسق بهيميّةً متصلةً بطَوْرِ الحيوان الإنسانيِّ الأول؛ فما من رَيْب أنَّ في جسمِه خليَّةً عصبيَّةً مُهْتاجَةً، ما زالتْ تَسْبَحُ بالوراثة في دماءِ الأحياء، متلفِّفةً على خصائصِها، حتى استقرَّتْ في أعصابِ هذا الفاسق، فانفجَرتْ بكلِّ تلك الخصائص.

ولسْتُ أرى أكثَرَ أعمالِه ترجعُ في مَرَدِّها إلَّا إلى طغيان هذه الغريزة فيه؛ فهو يُحاولُ هدمَ الإسلام، لأنَّهُ دينُ العِفَّة ودينُ صَوْن المرأة، يُلزمُها حِجابَ عِفَّتِها وإبائِها، ويمنعُها الابتذال والخلاعة، ويُعينُها أنْ تتخلَّصَ مِمَنْ يشتهيها، ولو كان الحاكم... إنَّهُ يَمقتُ هذا الدينَ القويّ، كما يمقتُ اللصُّ القانون؛ فهو دينٌ يَثْقُلُ

على غريزتِه الفاسقة، ولِكلِّ غريزةٍ في الإنسان شعورٌ لا مهَناً لها إلّا أنْ يكونَ حرًّا حتى في التوهُّم؛ وهلْ يُعجِبُ السكِّيرَ شيءٌ أو يُرضيه أو يَلذُّه، كما يُعجبُهُ أنْ يرى الناسَ كلَّهم سُكارى؛ فَيَنتشي هو بالخمر، وتسكر غريزتُهُ برؤية السكْر؟

وما زال رأيُ الفُسَّاقِ في كلِّ زمنٍ أنَّ الحريةَ هي حريةُ الاستمتاع، وأنَّ تقييدَ اللذة إفسادٌ لِلَّذَّة.

المجلدُ الخامس

يزعمُ الطاغيةُ أنَّهُ يُعِزُّ قومَه، وما أراهُ يُعزِّهم، لكنَّهُ يمتحنُ ذلَّهم وضعفَهم وهوانَهم على الأمم؛ يتجرَّأ شيئاً فشيئاً، مُتَنَظِّراً ما يَتَسَهَّل، مترقِّباً ما يُمكن؛ وهو يرى أنَّ أخلاقَنا الإسلاميَّةَ هي أمواتُنا دَفنوا أنفسَهم فينا؛ فمن ذلك يَهدمُ الأخلاقَ ويظنُّ عند نفسِه أنَّهُ يهدمُ قبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سَخِرَ منهُ المصريون بنكتةٍ من ظَرفِهِمُ البديع، وجاؤوه من غريزتِه، فصنعوا امرأةً من الورقِ الذي يُشْبِهُ الجلد، وألبسوها خُفَّها وإزارَها، حتى لا يشكَّ مَنْ رآها أنَّها آدميَّة، ثُمَّ وضعوا في يدها قَصَّةً وأقاموها في طريقه؛ فلمَّا رآها عَدَلَ إليها وأخذَ من يدِها القَصةَ وقرأها، فإذا فيها سَبٌّ له ولِآبائِهِ؛ وسخريةٌ من جنونِه ورُعونتِه المضحكة؛ فغضِب وأمرَ بقتلِ المرأة؛ فكانَتْ هذه سخريةً أخرى حينَ تحقَّق أنَّها من الورق، وأخذتْهُ النكتةُ الظريفةُ بمثلِ البرقِ والرعدِ؛ فاستَشاطَ وأمرَ عبيدَهُ من السودان بتحريقِ الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبْيِ النساءِ والفُجورِ بهنّ؛ حتى جاءَ الأزواجُ يشترون زوجاتِهم من العبيد، بعدَ أنْ طارَتِ الزوبعةُ السوداءُ في بياضِ الأعراض.

إندلعَتْ ثورةُ الفجورِ في المدينة، لا مِن العبيد، ولكنْ من الحيوان العتيقِ المستقرِّ في هذا الطاغية.

المجلدُ السادس

وهذه رُعونَةٌ من أقبحِ رُعوناتِهِ، كأنَّ هذا الحيوانَ لا يحسبُ نساءَ الأمَّة كلَّها إلَّا نساءَه، فيأمُرهنَّ بأمر امرأتِه، وكأنَّ النساءَ في رأيه إنْ هُنَّ إلَّا استجاباتٌ عصبيَّةٌ تُطْلَقُ وتُرَدّ.

إنَّ لِموجة الفِسْقِ في الغريزة الطاغية جَزْراً ومداً يقعان في تاريخ الفسَّاق؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجة، فأمرَ أنْ يُمنَعَ النساءُ من الخروجِ ليَلاً ونهاراً،

لا تطأ أرضَ المدينة قَدَمُ امرأة، وأمرَ الخفَّافينَ ألَّا يصنعوا لهنَّ الأخفاف والأحذيَةَ؛ ولمَّا عَلِمَ أنَّ بعضَ النساءِ خرجْنَ إلى الحماماتِ هَدَمَ الحماماتِ عليهِنّ!

ولو مدَّتِ الموجةُ في تفسُّقِ الفاسقِ لفَرَضَ على النساءِ الخروجَ والاتصال بالرجال والتعرضَ لِلإباحة.

إنَّ الصلاحَ والفسادَ كلاهما فسادٌ ما لم يكن الصلاحُ نظافةً في الروحِ وسموًّا في القلب.

المجلدُ السابع

يزعمُ الطاغيةُ أنَّهُ سيَهدمُ كلَّ قديم؛ وإنيّ لأخشى ـ والله ـ أنْ يأمرَ الناسَ في بعضِ سَطَواتِ جنونِه: أنَّ كلَّ مَنْ كان له أبٌ أو أمٌ بلغ الستينَ فلْيقتلْه، لِتتخلَّصَ الأمةُ من قديمِها الإنسانيّ...!

كأنَّهُ لا يعرفُ أنَّهُ إنَّما يتسلطُ على أيَّام مُعاصريه لا على التاريخ؛ ويحكمُ على طاعة قومِه وعِصيانِهِم لا على قلوبِهم وطِباعِهم ومِيراثِهم من الأسلاف؛ فما هو إلَّا أنْ يهلَكَ حتى ينبعثَ في الدنيا شيئان: نَتْنُ رِمَّتِهِ في بطن الأرض، ونتْنُ أعمالِه على ظهرِ الأرض. إنَّ هذا الرجل المسلَّطَ، كالغُبارِ المُستطَارِ لا يُكْنَسُ إلَّا بعدَ أنْ يقعَ...

ولقد رأى المأفونُ أنَّ أكل الناسِ الملوخيَّا الخضراءَ والفُقَّاع، والتُّرمُسَ والجِرْجيرَ، والزبيبَ والعنب ـ هوًى قديمٌ في طِباعِ الناس، فنهى عن كلِّ ذلك، لا يُباعُ ولا يُؤكل، وظهرَ على أنَّ جماعةً باعُوا أشياءَ منها فضَرَبهُم بالسيَّاط، وأمرَ فَطيفَ بهم في الأسواق، ثُمَّ ضَربَ أعناقَهم؛ كأنَّ الذي يحملُ الملوخيَّا الخضراءَ على رأسِه لِيبيعَها يلبسُ عِمامةً خضراء...

أهذا ـ وَيْحَه ـ تجديدٌ في الأمة، أم تجديدٌ في المعِدة...؟

المجلدُ الثامن

لا يرضَى الطاغيةُ إلَّا أنْ يَمْحَقَ روحانيَّةَ الأمَّة كلِّها، فلا يتركُ شيئاً رُوحانيًّا له في أعصابِ الناسِ أثرٌ من الوقار، وبِمَنْ يَستَظهِرُ ـ ويْله ـ إذا مُحِقَتْ روحانيَّةُ الأمَّة وأشرفَتْ نَزْعتُها الدينيةُ على الانحلال؟ كأنَّهُ لا يعلمُ أنَّ حقيقةَ الوجود لأمةٍ من الأمم إنَّما تُستَمدُّ من إيمانِها بالمثَلِ الأعلى الذي يدفعُها في سِلْمِها إلى الحياة بِقوة، كما يدفعُها في حربِها إلى الموتِ بقوَّة؛ وكأنَّهُ لا يعلمُ أنَّ التاريخَ كلَّه تُقرِّرُه في الأرض بِضعةُ مبادىءَ دينيَّة.

هذا الحاكمُ الأخرقُ هو عندي كالذي يقولُ لِنفسِه: لم أستطِعْ أنْ أفتحَ دولة، فلأفتحْ دولةً في مملكتي. . . لقد أمرَ بهدم الكنائسِ والبِيَع، حتى بلغَ ما هدَم منها ثلاثينَ ألفاً ونيِّفاً.

أيُّ مجنونٍ أسخفُ جنوناً من هذا الذي يحسبُ النفوسَ الإنسانيَّةَ كالأخشاب؛ تَقْبَلُ كلُّها بغير استثناءٍ أنْ تُدقَّ فيها المسامير. . . ؟

سيعلمُ إذا نشبَتْ حربٌ بينَهُ وبين دولةٍ أخرى، أنَّهُ كسرَ أشدَّ سيوفِه مضاءَ حينَ كسَرَ الدين!

المجلدُ التاسع

هذه هي الطامَّةُ الكُبرى؛ فلا أدري كيف أكتُبُ عنها: لقد تطاوَل المجنونُ إلى الألوهيَّة فادَّعاها، وصارَ يكتبُ عن نفسِهِ: باسم الحاكم الرحمن!

لو كان أغبى الأغبياءِ في موضعِه لاتَّقى شيئاً، لا أقولُ تقوى الدين والضمير، ولكنْ تقوى النِّفاقِ السياسيّ؛ فكان يحملُ الناسَ على أنْ يقولوا عنه: «أبانا الذي في الأرضين. . . . !».

وإلَّا فأيُّ جهلٍ وخَبْطٍ، وأيّ حُمقٍ وتَهوُّر، أنْ يكونَ إلٰهٌ على حمارٍ، وإنْ كان اسمُ حمارِه القمر!

المجلدُ العاشر

سيأخذُهُ الله بامرأة؛ ولِكلِّ شيءٍ آفةٌ من جِنسِه؛ لقد بلغَ من وقاحة غريزتِه أنْ اتْتَفَكَ أختَهُ الأميرةَ (ستّ المُلك)، ورماها بالفاحشة، وهي من أزكى النساءِ وأفضلِهِنّ، واتَّهمها بالأمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس) وقد علمْتُ أنَّها تُدبِّرُ قتله، وأنَّها اجتمعتْ لذلك بسيف الدين. فسأمسك عن الكتابة في هذا المجلد، وأدعُ سائرَهُ بياضاً حتى أذهبَ إليهما فأعينَهما بما عندي من الرأي، ثُمَّ أعودُ لِتدوين ما يقعُ من بَعد. . .

* * *

ورأيتُ أنّي اجتمعتُ بهما واطمأنّا إليّ، فأخذْنا نُديرُ الرأي:

قالتِ الأميرةُ لِسيف الدين فيما قالتْه: «والرأيُ عندي أنْ تُتْبِعَهُ غِلماناً يقتلونَهُ إذا خرجَ في غدٍ إلى جبلِ المقطَّم، فإنَّهُ ينفرِدُ بنفسِه هناك!».

فقلْتُ أنا: «ليس هذا بالرأيِّ ولا بالتدبير».

قالتْ: «فما الرأيُ والتدبيرُ عندك؟».

قلت: «إنَّ لنا عِلْماً يسمونَهُ (علم النفس)، لم يقعْ لِعلمائِكم، وقد صحَّ عندي من هذا العِلْم أنَّ الرجل طائشُ الغريزة مجنونُها، وأنَّ الأشعةَ اللطيفةَ الساحرةَ التي تنبعثُ من جسم المرأة هي التي تنفجرُ في مُخِّه مرّةً بعدَ مرّة؛ فإذا خَبَتْ هذه الأشعة، وبطَلتِ الغريزة، بَطَلتْ دواعي أعمالِه الخبيثة كلُّها، وكَفَّ عن محاولتِه أنْ يجعَل الأمَّةَ مملوءةً من غرائزِ جسمِه وشهواتِهِ، لا من فضائِلها ودينِها. فلو أخذْتم برأيي وأمضيتُموه فإنَّهُ سيُنكِرُ أعمالهُ إذا عرَضَها على نفسِه الجديدة، وبهذا يُصلحُ ما أفسد، وتكونُ حياتُهُ قد نطقَتْ بكلمتِها الصحيحة كما نطقَتْ بكلمتِها الفاسدة؛ فإذا. . . .».

قال الأمير: «فإذا ماذا؟».

قلْت: «فإذا خُصِيَ. . . .».

فضحكَتْ سِتُّ الملكِ ضحكةً رنَّتْ رنيناً.

قلْت: «نعم إذا خُصيَ هذا الحاكم».

فغلبَها الضحكُ أشدَّ من الأول، ورمتْني بمنديلٍ لطيفٍ كان في يدِها أصَابَ وجهي، فانتبهتُ وأنا أقول:

«نعم إذا خُصِيَ هذا الحاكم. . .».

كُفْرُ الذُّبابة... (*)

قال كَلِيلةُ[1] وهو يَعِظُ دِمْنةَ ويُحَذِّرُهُ ويَقضي حقَّ الله فيه؛ وكان دِمنةُ قد داخلَهُ الغرورُ وزَهَاهُ النَّصر، وظهرَ منهُ الجفاءُ والغِلْظة، ولقِيَ الثعالبَ من زيغِهِ وإلحادِهِ عنَتاً شديداً.

... واعلمْ يا دِمنةُ أنَّ ما زعَمتَهُ من رأيك تامٌّ لا يعتريه النقص، هو بعينِه الناقصُ الذي لم يتمَّ؛ والغرورُ الذي تُثبِتُ به أنَّ رأيكَ صحيحٌ دونَ الآراء، لعلَّهُ هو الذي يُثبت أنَّ غيرَ رأيكَ في الآراءِ هوَ الصحيح.

ولو كان الأمرُ على ما يتخيَّلُ كُلُّ ذي خيال، لصدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعم، ولو صدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعمُ، لكذَبَ كلُّ إنسان؛ وإنَّما يدفَعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض، لِيجيءَ حقُّ الجميعِ من الجميع، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبر، ويثْبُتَ الكبيرُ من الصوابِ على موضعِه فلا يُنتقص، ويصحَّ الصحيحُ ما دامتِ الشهادةُ له، ويفسُدَ الفاسدُ ما دامَتِ الشهادةُ عليه، وما مثلُ هذا إلَّا مَثَلُ الأرنبِ والعلماء.

قال دِمنة: وكيفَ كان ذلك؟

قال: زعموا أنَّ أرنباً سمَعتِ العلماءَ يتكلَّمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذَّنُ الله بانقراضِها، وكيف تكونُ القارعة؛ فقالوا: إنَّ في النجوم نجوماً مُذَنَّبةً، لوِ التفَّ ذنَبُ أحدِها على جِرْمِ أرضِنا هذه لطارَتْ هَوَاءً كأنَّها نفخةُ النافخ، بلْ أضعفُ منها كأنَّها زَفرةُ صدرِ مريض، بلْ أوهى كأنَّها نَفْثَةٌ من شفتين. فقالتِ الأرنب: ما أجهلكم أيُّها العلماء! قد والله خَرِفتُم وتكَذَّبتم واستَحْمَقْتُم؛ ولا تزالُ الأرضُ بخيرٍ مع ذَواتِ الأذناب؛ والدليلُ على جهلِكم هو هذا ـ قالوا: وأرَتهُم ذَنَبَها...!

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(1) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي، يعمد إليه حين يريد تقرير المعاني بالتمثيل والمحاورة.
وانظر مقالة (فلسفة الطائشة) في الجزء الأول.

قال كليلة: وكم من مغرورٍ يُنزِلُ نفسَهُ من الأنبياءِ منزلةَ هذه الأرنبِ من أولئك العلماء؛ فيقول: كذَبوا وصدَقْتُ أنا، وأخطأوا جميعاً وأصبْتُ، والْتَبَسَ عليهم وانكشَفَ لي، وهم زعموا وأنا المستَيْقِن. ثُمَّ لا دليل له إلّا مثلُ دليلِ الأرنبِ الخرقاءِ من هَنَةٍ تتحرّكُ في ذنبِها.

وكان يُقال: إنَّهُ لا يُجاهِرُ بالكفرِ في قوم إلّا رجلٌ هانَ عليهم فلم يَعبؤوا به، فهو الأذلُّ المستضعف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلَم يعبأ بهم، فهوَ الأعزُّ الطاغية؛ ذاك لا يخشَونَهُ فيَدَعُونَهُ لِنفسِه وعليه شهادةُ حُمقِه، وهذا يخشونَهُ فيتركون مُعارضَتَهُ وعليه شهادةُ ظُلمِه؛ وما شرٌّ من هذا إلّا هذا.

وقالتِ العلماء: إنْ كنتَ حاكماً تَشْنُقُ مَنْ يُخالِفُكَ في الرأي، فليس في رأسِكَ إلا عقلٌ اسمُهُ الحبل؛ وإنْ كنتَ تَقتلُ مَن يُنكرُ عليك الخطأ، فليس لكَ إلّا عقلٌ اسمُهُ الحديد؛ وإنْ كنتَ تحبِسُ مَنْ يُعارضُك بِالنظر، ففيك عقلٌ اسمُهُ الجِدار؛ أمّا إنْ كنتَ تُناظِرُ وتُجادِل، وتقنعُ وتقتنع، وتدعو الناسَ على بَصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى ـ ففيكَ العقلُ الذي اسمُهُ العقل.

* * *

قال كليلة: وأنا يا دِمنة، فلو كنتُ قائداً مُطاعاً، وأميراً مُتَّبَعاً، لا يُعصَى لي أمر، ولا يُردُ عَليَّ رأيٌ، ولا يُنكَرُ مني ما يُنكَرُ من المخلوقِ إذا أخطأ، ولا يُقالُ لي دائماً إلّا إحدى الكلمتين: أصبتَ، ثُمَّ هي دائماً أصبْت؛ ولا يَلْقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى، رَهبةً من سَخَطِي، رَهبَةَ الجُبناء، أو رغبةً في رِضايَ رغبةَ المُنافقين، وزعموا أنهم على ذلك قد صَحَّتْ نِيّاتُهم وخلصَ لي باطنُهم جميعاً ـ فلو كنتُ وكانوا على هذا، لأحالني نقصُهم إلى نقصِ العقلِ بعدَ كمالِه، وردَّتني فُسولتُهم إلى فُسولة الرأي بعدَ جَوْدتِه، فأخْلِقْ بي أنْ أعتبرَ وضْعَهم إيايَ في موضعِ الآلهة، هو إنزالهم إيايَ في منزلة الشياطين؛ وإلّا كنتُ حقيقاً أنْ يُصِيبَني ما أصابَ العَنْزَ التي زعموا لها أنّها أنثى الفيل. . .

قال دِمنة: وكيفَ كان ذلك؟

قال: زعموا أنَّهُ كان في إحدى خَرائبِ الهندِ جماعةٌ مِنَ العظماء، وكان فيها عَضْرَفُوطٌ كبير[1]، فملّكَتْهُ الجماعةُ وذهبَتْ تأتَمِرُ على أمْرِه وتنتَهي. فمرّ بهذه الخَرِبة

---

(١) العظاء: جمع عظاءة وعظاية، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية)، والعضرفوط: ضرب من العظاء يكون أكبر منها.

فيلٌ جسيمٌ من الفِيَلة الهنديَّة العظيمة، لم يُحِسَّ بالعَظَاء، ولم يُميِّزْ فَرْقاً بين هذه الأمَّة من الحشراتِ وبين الحصى منثوراً يلْتَمِعُ في الأرضِ هنا وهنا؛ قالوا فغضبَ العَضْرَفُوطُ، وكان قائداً عظيماً، ثُمَّ تدبَّر أمْرَ الفيلِ ينظرُ كيفَ يصنعُ في مُدافَعَتِه، وكيف يحتالُ في هَلاكِه، فرآهُ لا يتحركُ إلَّا بأقدامِه يَنقلُها واحدةً واحدة؛ فقدَّرَ عند نفسِه أنَّهُ لو أزال قدَمَ الفيلِ عن الأرضِ زال الفيلُ نفسُه؛ فجاءَ فاعترضَ الطريقَ، ودَبَّ دبيبَه؛ فلمَّا رفعَ الفيلُ قدمَه اهْتَبَل هذه الغَفْلَةَ منه. وانْدسَّ تحتها، فاندسَّ مقبوراً في التراب!

ثُمَّ إن العَظَاءَ افتَقَدَتْ أميرَها. فلمَّا مضى الفيلُ لِسبيلِه ورأتْ ما نزل بها، نَفَرَتْ إلى أحجارِها، واستكنَّتْ فيها ترتَقِبُ وتَترَبَّص، فدخلتْ إلى الخِربة عَنْزٌ جعلتْ تتقممُ منها وتَرْتَعُ فيها، ورأتْها العَظَاءُ فاجتمعْنَ يأتَمِرْن...

فقال منها قائل: هذه أنثى الفيل. فسألتْ عَظَايةٌ منهنّ: وأين النابان العظيمان؟

قالتِ الأولى: إنَّ الإناثَ دونَ الذكورة في خَلْقِها، والأنثى هي الذكَرُ مقلوباً أو مختصراً أو مشوَّهاً، ولذلك هنَّ يَقْلِبْنَ الحياةَ أو يختصرْنَها أو يشوِّهْنَها، أفلا ترينَ النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيلِ الجسيم، كيف نَبَتَا صغيرين منقلبين فوقَ رأس أنثاه...؟

فقالتْ واحدة: إنْ جازَ قولُك في الرأي فأين الخُرْطُوم؟

قالتِ الأخرى: هو هذه الزَّنمةُ المتَدلِّيةُ من حَلْقها، وذلك خُرطومٌ على قدْرِ أنوثة الأنثى...!

قالوا: ثُمَّ اجتمع رأيُهُنَّ على أنْ يُمَلِّكْنَ أنثى الفيلِ هذه؛ وأنْ يَهَبْنَ لها الخَرِبةَ وأمَّتَها. وسمعتِ الماعِزَةُ كلَامُهُنَّ فقالتْ في نفسِها: لا جَرَمَ أنَّ تكونَ العنزُ فيلةً في أمَّةٍ من العَظَاء، فقد قَالتِ العلماء: إنَّهُ لا كبيرَ إلَّا بصغير، ولا قَوِيَّ إلَّا بضعيف، ولا طاغيةَ إلَّا بذليل؛ وإنَّ العظمةَ إنْ هي إلَّا شهادةُ الحقارة على نفسِها، وإنَّهُ رُبَّ عظيم طاغيةٍ متَجَبِّرٍ ما قامَ في الناس إلَّا كما تقومُ الحِيلة، ولا عاشَ إلَّا كما يعيشُ الكَذِب، ولا حَكَمَ إلَّا كما يَحكمُ الخِداع. وهذه الدنيا لِلمحظوظِ كأنَّها دنيا له وحدَه، فمتى جاءَتْ إليه فقد جاءَت، ولو أنَّها أدبرَتْ عنه من ناحيةٍ لرجعَتْ من ناحيةٍ أخرى، لِيثبتَ الحظُّ أنَّهُ الحظ.

وتقدَّمَ العَظَاءُ إلى العنز، فقُلْنَ لها: أيَّتُها الفِيلةُ العظيمة، إنَّ قَرِينَكِ العظيمَ قد مسَّ أميرَنا العَضْرَفُوطَ بقدمِه فغيَّبَهُ تحتَ سبْعِ أرَضِين، وأنتِ أنثاهُ وسيِّدتُه، فقدِ اخترناكِ مَلِكةً علينا، ووهبْنَا لك الخَرِبَةَ وما فيها.

قالتِ العنز: فإنّي أتّهِبُ منكُنَّ هذه الهِبَة، ونِعِمَّا صَنَعْتُنّ؛ غيرَ أنَّ بينكُنّ وبيني ما بين العَظَايَة والفيل. وما بين الحصاة والجبل، فإذا أنا قلْتُ، فأنا قلْت؛ وإذا أنا أمرْتُ، فأنا أمَرْت؛ وإذا أنا فعلْتُ، فأنا فعلْت. هنا في هذه الأمَّة كلِّها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرُها؛ لأنَّ هٰهنا في هذا الرأسِ دماغَ فِيلة، وفي هذا الجسم قوةَ فِيلة، وفي الخَربَة كلِّها فيلةٌ واحدة؛ فلا أعْرِفَنَّ منكُنَّ على الصوابِ والخطأ إلّا الطاعةَ طاعةَ الأعمى لِلبصير. ألا وإنَّ أوّل الحقائقِ أنّني فيلةٌ وأنكُنَّ عَظَاء؛ ومتى بدأ اليقينُ من هنا سَقَطَ الخِلافُ من بينِنا وبَطَل الاعتراضُ منكُنّ، وقوّتي حقٌّ لأنَّها قوّة، وباطلي كذلك حقٌّ لأنَّهُ من قوّتي؛ وقد قال أسلافُنا حكماءُ الفِيَلَةَ: إنَّ القويَّ بين الضعفاءِ مَشِيئةٌ مُطْلقة، فهو مُصْلِحٌ حتى بالإفساد، حكيمٌ حتى بِالحماقة، إمامٌ حتى بالخرافة، عالمٌ حتى بالجَهَالة نَبِيٌّ حتى بالشَعوذَة.... !

قالوا: وتُنكِرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانَتْ ذاتَ رأيٍ ودِينٍ في قومِها، وكُنّ يُسمِّينَها: (العِمامَة)، لِبياضِها وصلاحِها وطهارتِها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيتُها الفيلة؛ لقد تَخَرَّصْتِ غيرَ الحق؛ فإنَّكِ تحكمينَنا من أجْلِنا لا من أجلِكِ، وما قولُكِ إلَّا كلماتٌ تُحققُها أعمالُنا نحن؛ فَلكِ الطاعةُ فيما يُصْلِحُنا، وما كان من غيرِه فهو رَدٌّ عليك، ورأيُكِ شيءٌ ينبغي أنْ تكونَ معه آراؤنا، لِتَتَبيَّنَ الأسبابُ أسبابُ الموافقَة والمخالفة، فنأخذَ عن بيِّنَةٍ ونتركَ عن بيِّنة؛ وقد كان يُقالُ في قديم الحِكمة: إنَّهُ يجبُ على مَنْ يُقدِّمُ رأياً لِلأمَّة الحازِمة كي تأخذَ به، أو يضَعُ لها شرعاً لِيحْمِلها عليه، أو يَسنُّ لها سنَّةً لِتَتَّبعَها ـ إنَّهُ يجبُ على هذا المتقدّم لِتحويلِ الأمَّة أو تحريرِها أن يتقدَّمَ لأهلِ الشُّورَى وفي رأسِه الرأيُ، وفي عنقِه حَبْل؛ ثُمَّ يتكلَّمَ برأيه ويَبْسُطَهُ ويدْفعَ عنه، ويُجادلَهم ويُجادلونَه؛ فإنْ كان الرأيُ حقًّا أخذوا الرأي، وإنْ كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوِّر.

وفي دينِنا أنَّ الطاعةَ في المعصية معصيةٌ أخرى؛ ولقد كان لنا عَضْرفُوطٌ بَحّاثَةٌ في الأديان دَرَّاسَةٌ لِكتُبِها عَلّامَةٌ نَقّابٌ؛ فكان مِمَّا علَّمنا: أنَّ المخلوقَ مبنيٌّ على النقص إذْ هو ماضٍ إلى الفناء، فيجبُ ألّا يتمَّ منه شيءٌ إلّا بمقدار، وألّا تكونَ القوةُ فيه إلَّا بمقدار؛ ولهذا كان العقلُ التامُّ في الأرضِ هو مجموعَ العقولِ العظيمة كلِّها، وكان أتمُّ الآراءِ وأصحُّها ما أثبَتتِ الآراءُ نفسُها أنَّهُ أصحُّها وأتمُّها. فلا الدينَ اتَّبعْتِ أيتُها الفيلةُ، ولا اتَّبعْتِ فينا العقل، وليس إلّا هذا (التفيُّلُ) الكاذب.

فلمَّا سمَعتِ العنزُ ذلك تنفَّشَتْ وغضبَتْ، وقالت: إيَّاكم وهذه الترهّاتِ من ألسنتِكم، وهذه الأباطيل في عقولِكم؛ لا أسْمَعَنَّ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ

الأنبياءِ ولا العَضَافيط. . . فذلك وحيٌ غيرُ وحيي أنا؛ وإذا كان غيرَ وحْيي أنا فأنا لستُ فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يَصْلُحُ لِلحكم الذي شَرْطُهُ أنَّ الدولةَ ليس فيها إلّا أنا واحدة. وذلك إنْ لم يجعلْكم غُرباءَ عني جعلني غريبةً عنكم، ما بُدٌّ من إحدى الغُرْبتين، فهو أوّلُ القَطيعة، والقطيعةُ أوّلُ الفساد. وما دامَ في الدين أمرٌ غيرُ أمري، ونَهْيٌ غيرُ نَهْيي، وتحليلٌ وتحريمٌ لا يتغيران على مشيئتي ـ فأنا مجنونةٌ إنْ رضيْتُ لكم هذا. . . !

فضَحِكَتِ (العِمامةِ) وقالتْ لِلماعزة: بل قولي: أنا مجنونةٌ بـ (أنا)؛ أفلا يجوزُ وأنتِ خَلْقٌ من الخلْقِ أنْ يَعْتَرِيَ عقلكَ شيءٌ مِمَّا يعتري العقول؟ ولسْنَا نُنكرُ أنَّكِ قويَّةُ الرأي في ناحية القوة، حَسَنَةُ التدبيرِ في ناحية الشجاعة، متجاوِزةُ المِقدارِ في ناحية الحَزْم والحِرْصِ على مصالحِ الدولة؛ ولكنْ ألم يقل الحكماء: إنَّ الزيادةَ المسْرِفةَ في جهةٍ من العقل، تأتي من النقصِ المتحيِّفَ لِجهةٍ أخرى؛ وإنَّهُ رُبَّ عقلٍ كان تامًّا عَبْقَريًا في أمورٍ، لأنَّهُ ضعيفٌ أبلهُ في غيرِها؛ يُحسِنُ في تلك ما لا يُحسِنُهُ أحد، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمُهُ أحد، ثُمَّ يَغلطُ في الأخرى ما لا يغلطُ أحدٌ فيه؟

قالوا: فجاشَتِ العنزُ وفارَتْ من الغضبِ فَوْرةَ الجبَّار، وخُيِّل إليها من عَمَى الغيظِ أنَّها ذهبَتْ بين الأرضِ والسماء، وأنَّ زنَمَتَها امتدَّ منها خُرطومٌ طويل، وأنَّ قرْنيها انْبعَجَ منهما نابان عظيمان؛ وقالت: ويْحَكُم! خذوا هذه (العِمامة) فاشنقوها؛ فإنَّها كما قالت؛ تقدَّمَتْ إلينا بالرأي والحبل. . . !

وكان في العَظَاءِ ضِعافٌ ومَهازيلُ وجُبناء، ومأكولون لِكلِّ آكل؛ فَتَشَبَّحَ[1] لهم أنَّ أنثى الفيل هذه. . . ستَخْلُقُهُم فِيَلةً إنْ هم أطاعوها؛ فإذا مَرَدُوا عليها فإنَّها من صرامة البأسِ بحيثُ تجعلُ كلَّ ظِلْفٍ من أظلافِها جبلاً فوقَهم كأنَّهُ ظُلَّةٌ فتَسُوخُ بهمُ الأرض. ثُمَّ إنهم انْخزلوا وترَاجَعوا، وأُخِذَتِ (العِمامةُ) الصالحةُ فشُنِقَتْ، وخَمدَ الرأيُ من بعدِها، وانقطعَ الخِلافُ والدِّينُ والعقلُ الحرّ. . . ؛ وأقبلتْ دولةُ العَظَاءِ على العنزِ تُجرّرُ أذيالَها.

قالوا: واغترَّتِ الماعِزةُ وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن، وعرفَتْ لِنفسِها وهي ماعزةٌ نَباهَةَ شأن الفيلِ القويّ، فَلجَّتْ في عَمَايتِها وكفَرتْ بجنسِها، وقالت: لم يخلقني الله فِيلةً وخلقْتُ نفسي؛ فأنا لا هو. . .

---

(١) أي خيل إليهم وتمثل.

وثبتَ عندَها أنّها ليسَتْ بعنزٍ وإنْ أشبهَتْها كلُّ عنزٍ في الدنيا؛ وذهبَتْ تُقلِّدُ وتعيشُ على مذاهبِ الفِيَلة بين العَظَاء؛ فإذا مَشَتْ ارتجَّتْ وتخطَّرَتْ كأنّها بِناءٌ يتقلقل، وإذا اضطجعَتْ أنذرَتِ الأرضَ أنْ تتمسَّكَ لا تَدُكَّها بجنبِها....!

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرّةً أخرى، فلاذَتِ العَظَاءُ كلُّهنّ بالفِيلة... وتأهَّبَتْ هذه لِلقتال، وتحصَّفَتْ في المبارزَة والمناجزَة... (والمعانَزَة) فنَصَبَتْ قرنيها، وحرّكَتْ زنمتَها، وطأطأت، وشدَّتْ أظلافَها في الأرض، وثبَّتَتْ قوائمَها، وصلَّبَتْ عظامَهَا، ونفشَتْ شعرَها، وتَشَوّكَتْ كالقُنفذ، وأصرَّتْ بكلِّ ذلك إصرارَها، وكانَتْ عنزاً نَطِيحةً منذ كانَتْ تَتْبَعُ أمَّها وتتلوها، فكيف بها وقد تَفَيَّلتْ...؟

ثُمَّ إنّها ثبتَتْ في طريقِ الفيلِ لِيرى بعينيه هذا الهوْل الهائل... فأقبَلَ فمدَّ خرطومَه، فنالها به، فلفَّها فيه، فقَبَضَه، فرفَعَه، فطوَّحَها، فكأنّما ذهبَتْ في السماء...!

وتهارَبَتِ العَظَاءُ ولُذْنَ بأجْحَارِهِنّ، ثُمَّ غَدَوْنَ على رِزقِهِن؛ فإذا جِيفةُ العنزِ غيرَ بعيد، فَدبَبْنَ عليها وارتَعَيْنَ فيها، وعَلِمْنَ أنّها كانَتْ ماعِزَةً فَيَّلها جنونُها، وأدركْنَ أنَّ الكذبَ على الحقائقِ قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتلُه، وأنَّ مَنْ غلبَ أمَّةَ العَظَاءِ على أمرِها فليسَتِ الأيامُ والليالي عَظاءً فيغلبَها؛ وأنَّ تغييرَ المخلوقات، إنَّما يكون بتحويلِ باطنِها لا بتحويلِ ظاهرِها، وأنَّ الإناءَ الأحمرَ يُريكَ الماءَ محمرًّا والماءُ في نفسِه لا حُمرةَ فيه، حتى إذا انكسرَ الإناءُ ظهرَ كما هو في نفسِه؛ وكلُّ ما يُخفي الحقَّ هو كهذا الإناء: لونٌ على الحقِّ لا فيه؛ ثُمَّ أيقَنَّ أنَّ مُحاولةَ إخراجِ أمَّةٍ كاملةٍ من نَزَعاتِ ماعزةٍ مأفونة، هي كمحاولة استيلادِ الفيلِ من الماعزة...!

* * *

قال كليلة: واعلمْ يا دِمنةُ أنّهُ لولا أنَّ هذه العنزَ الحمقاءَ قد كفرَتْ كُفْرَ الذبابة، لما أخذَها الله أخْذَ الذبابة.

قال دِمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أنَّ ذبابةً سوداءَ كانَتْ من حَمْقى الذِّبّان، قُدِّرَتِ الحماقةُ عليها أبديَّة، فلوِ انقلبَتْ نقطةَ حبرٍ في دواةٍ لَمَا كُتبَتْ بها إلا كلمةُ سُخف.

ووقَعَتْ هذه الذبابةُ على وجه امرأةٍ زَنجيَّةٍ ضخْمة، فجعلتْ تُقابلُ بين نفسِها وبين المرأة؛ وقالت: إنَّ هذا لمِنْ أدلِّ الدليل على أنَّ العالَمَ فوضى لا نِظامَ فيه، وأنَّهُ مُرسَلٌ كيف يتَّفقُ على ما يتَّفق، عَبَثاً في عبث، ولا ريبَ أنَّ الأنبياءَ قد كذَبوا الناس،

إذْ كيف يستوي في الحِكمة خَلْقي (أنا) وخلْقُ هذه الذبابة الضخمة التي أنا فوقَها. . . ؟

ثُمَّ نظرَتْ ليلةً في السماء، فأبصرَتْ نجومَها يتلألأُ وبينَها القمر؛ فقالت: وهذا دليلٌ آخرُ على ما تحقَّقَ عندي من فوضى العالم، وكذبِ الأديان، وعَبثِ المصادَفات؛ فما الإيمانُ بعينِه إلَّا الإلحادُ بعينِه، ووضْعُ العقلِ في شيءٍ هو إيجادُ الألوهيَّة فيه، وإلَّا فكيفَ يستوي في الحِكْمة وضعي (أنا) في الأرضِ ورفعُ هذا الذِّبان الأبيضِ ويَعْسُوبِه الكبيرِ[1] إلى السماء. . ؟

ثُمَّ إنَّها وقعَتْ في دارِ فلّاح، فجعلَت تمورُ فيها ذهاباً وجيئةً، حتى رجعَتْ بقرةُ الفلّاح من مرعاها، فبُهتَتِ الذبابةُ وجمدَتْ على غُرّتِها من أوّلِ النهارِ إلى آخرِه، كأنَّها تُزاوِلُ عملاً؛ فلمَّا أمْسَتْ قالتْ: وهذا دليلٌ أكبرُ الدليلِ على فوضى الأرزاقِ في الدنيا، فهاتان ذبابتان قد ثَقبتَا ثُقْبين في وجه هذه البقر. . . واكْتنَّتا فيهما تأكلان من شَحمِها فتعظمان سمنا؛ والناسُ من جهلِهم بالعِلْم الذُّبابيِّ يسمونَها عينين. وأنا قضيْتُ اليومَ كلَّهُ أخْمِشُ وأعضُّ وألْسَعُ لأثقُبَ لي ثُقْباً مثلهما فما انتزعْتُ شعرة؛ فهل يستوي في الحِكْمة رزقي (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين في وجه البقرة. . . ؟

ثُمَّ إنَّها رأتْ خُنفُساءَ تَدِبُّ دبيبَها في الأرواثِ والأقذار؛ فنظرَتْ إليها وقالت: هذه لا تَصْلُحُ دليلاً على الكفر؛ فإنِّي (أنا) خيرٌ منها؛ (أنا) لي أجنحةٌ وليس لها، (وأنا) خفيفةٌ وهي ثقيلة؛ وما كأنّها إلَّا ذبابةٌ قديمةٌ من ذُبابِ القرون الأولى، ذلك الذي كان بليداً لا يتحرّكُ فلم تجعلْ له الحركةُ جَناحاً[2]. ثُمَّ إنَّها أصْغَتْ فسمعتِ الخنفساءَ تقولُ لأخرى وهي تُحاورُها: إذا لم يجدِ المخلوقُ أنَّهُ كما يشتهي فلْيكْفُرْ كما يشتهي؛ يا وَيحنا! لِمَ لَمْ نكنْ جاموساً كهذا الجاموسِ العظيم، وما بينَنا وبينَهُ فرقٌ إلَّا أنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَنْفُخُهُ ولم نجد. . . ؟

فقالتِ الذبابة: إنَّ هذا دليلُ العقلِ في هذه العاقلة، ولعمري إنَّها لا تمشي متَّاقِلةً من أنَّها بطيئةٌ مُرهَقَةٌ بعَجْزِها، ولكنْ من أنّها وقُورٌ مُثقَلةٌ بأفكارِها، وهيَ الدليلُ على أنِّي (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة. . . !

وجَعَلتِ الذبابةُ لا يُسْمعُ من دَنْدَنتِها إلا، أنا، أنا، أنا، أنا. . . من كُفرٍ إلى كفرِ غيرِه، إلى كفرِ غيرِهما؛ حتى كأنَّ السماواتِ كلَّها أصبحَتْ في معركةٍ مع ذبابة. . .

---

(١) اليعسوب: أمير النحل والذبان ونحوهما، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض. . . .

(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا.

ثُمَّ جاءَتِ الحقيقةُ إلى هذا الإلحادِ الأحمقِ تَسعى سَعْيَها؛ فبينَا الذبابةُ على وجه حائط، وقد أكلتْ بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبتْها نفسُها، فوقفَتْ تحكُّ ذراعَها بذراعِها ـ دَنَتْ بطةٌ صغيرةٌ قدِ انفلقَتْ عنها البَيضةُ أمس، فمدَّتْ منقارَها، فالتقطَتْها.

ولمَّا انطبقَ المِنقارُ عليها قالت: آمنْتُ أنَّهُ لا إله إلَّا الذي خلقَ البطة... !

يا شباب العرب!(*)

يقولون: إنَّ في شبابِ العربِ شيخوخةَ الهِمَم والعزائم؛ فالشبانُ يمتدّون في حياة الأمم وهم ينكمشون.

وإنَّ اللهوَ قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلتْ عليهم حياةُ الجِدّ، فأهملوا الممكناتِ فرجعَتْ لهم كالمستحيلات.

وإنَّ الهزل قد هوَّنَ عليهم كلَّ صَعْبَةٍ فاختصروها؛ فإذا هَزؤُوا بالعدوّ في كلمةٍ فكأنَّما هَزمُوهُ في معركة...

وإنَّ الشابَّ منهم يكون رجلاً تامًّا، ورجولةُ جسمِه تحتجُّ على طفولة أعمالِه.

ويقولون: إنَّ الأمرَ العظيمَ عند شبابِ العربِ ألَّا يحملوا أبداً تَبِعةَ أمرٍ عظيم.

* * *

ويزعمون أنَّ هذا الشبابَ قد تمَّتِ الأُلفةُ بينَهُ وبين أغلاطِه، فحياتُهُ حياةُ هذه الأغلاطِ فيه.

وأنَّهُ أبرعُ مُقلّدٍ لِلغربِ في الرذائلِ خاصّة؛ وبهذا جعلهُ الغربُ كالحيوان محصوراً في طعامِه وشرابِهِ، ولذّاته.

ويزعمون أنَّ الزجاجةَ من الخمرِ تعملُ في هذا الشرقِ المسكين عمل جنديٍّ أجنبيٍّ فاتح...

ويتواصَوْنَ بأنَّ أول السياسة في استعبادِ أمم الشرق، أنْ يُتْركَ لهمُ الاستقلالُ التامُّ في حرية الرذيلة...

ويقولون: إنَّهُ لا بدَّ في الشرقِ من آلتَيْن لِلتخريب: قوة أوروبّا، ورذائلِ أوروبّا.

* * *

يا شبابَ العرب! من غيرُكم يُكذّبُ ما يقولونَ ويزعمونَ على هذا الشرقِ المسكين؟

مَن غيرُ الشبابِ يضعُ القوّةَ بإزاءِ هذا الضعف الذي وصفُوهُ لِتكونَ جواباً عليه؟

(*) أنشأها في إبان ثورة فلسطين لحقها سنة ١٩٣٦.

من غيرُكم يجعلُ النفوسَ قوانينَ صارِمَة، تكونُ المادةُ الأُولى فيها: قَدَرُنا لأَنَّنا أردْنا؟

ألا إنَّ المعركةَ بينَنا وبين الاستعمارِ معركةٌ نفسيَّة، إنْ لم يُقْتَلْ فيها الهزلُ قُتِلَ فيها الواجب!

والحقائقُ التي بينَنا وبين هذا الاستعمارِ إنَّما يكون فيكم أنتم بحثُها التحليليّ، تكْذِبُ أو تَصْدُق.

* * *

الشبابُ هوَ القوة؛ فالشمسُ لا تملأُ النهارَ في آخرِه كما تملؤُهُ في أولِه.

وفي الشبابِ نوعٌ من الحياة تَظهرُ كلمةُ الموتِ عندَهُ كأنَّها أختُ كلمة النوم.

ولِلشبابِ طبيعةٌ أولُ إدراكِها الثقةُ بالبقاء، فأولُ صِفاتِها الإصرارُ على العزْم.

وفي الشبابِ تَصْنَعُ كلُّ شجرةٍ من أشجارِ الحياة أثمارَها؛ وبعدَ ذلك لا تصنعُ الأشجارُ كلُّها إلَّا خَشَبا...

يا شبابَ العرب! اِجعلوا رسالتَكم: إمَّا أنْ يحيا الشرقُ عزيزاً، وإمَّا أنْ تموتوا.

* * *

أنقِذوا فضائلنا من رذائلِ هذه المدنيَّة الأوروبيَّة، تُنقِذوا استقلالنا بعدَ ذلك، وتنقذوه بذلك.

إنَّ هذا الشرقَ حينَ يدعو إليه الغرب؛ «يدعو لمَنْ ضَرُّهُ أقربُ من نفعِه؛ لبِئْسَ المَوْلى ولبئْسَ العَشير».

لبئسَ المولى إذا جاءَ بقوتِه وقوانينِه، ولبئسَ العشيرُ إذا جاءَ برذائلِه وأطماعِه.

أيُّها الشرقيُّ! إنَّ الدينارَ الأجنبيَّ فيه رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدنانير.

أيُّها الشرقيُّ! لا يقولُ لكَ الأجنبيُّ إلَّا ما قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

* * *

يا شبابَ العرب! لم يكن العسيرُ يَعْسُرُ على أسلافِكمُ الأولين، كأنَّ في يدهِم مفاتيحَ من العناصرِ يفتحون بها.

أتُريدونَ معرفةَ السرّ؟ السرُّ أنَّهمُ ارتفعوا فوقَ ضعف المخلوق، فصاروا عملاً من أعمالِ الخالق.

غَلبوا على الدنيا لمَّا غلبَوا في أنفسِهِم معنى الفقر، ومعنى الخوف، والمعنى الأرضي.

وعلَّمَهُمُ الدينُ كيف يعيشون باللذاتِ السماويَّة التي وَضعَتْ في كلِّ قلبٍ عظمتَهُ وكِبرياءَه.

واخترعَهُمُ الإيمانُ اختراعاً نفسيًّا، علامتُهُ المسجَّلةُ على كلٍّ منهم هذه الكلمة: لا يَذِلّ.

* * *

حينَ يكون الفقرُ قِلةَ المال، يفتقرُ أكثرُ الناس، وتنخذِلُ القوةُ الإنسانيَّة، وتَهلِكُ المواهب.

ولكنْ حينَ يكون فقرَ العملِ الطيِّب، يستطيعُ كلُّ إنسانٍ أنْ يَغْتَني، وتنبعثُ القوةُ وتعملُ كلّ موهبة.

وحينَ يكون الخوفُ من نقصِ هذه الحياة وآلامِها، تفسِّرُ كلمةَ الخوف مائةُ رذيلةٍ غير الخوفِ.

ولكنْ حينَ يكون من نقصِ الحياة الآخرة وعذابِها، تُصبحُ الكلمةُ قانونَ الفضائلِ أجمع.

هكذا اخترعَ الدينُ إنسانَهُ الكبيرَ النفسِ الذي لا يُقالُ فيه: انهزمَتْ نفسُهُ.

* * *

يا شبابَ العرب! كانَتْ حِكمةُ العربِ التي يعملونَ عليها: أُطلُبِ الموتَ تُوهَبُ لك الحياة.

والنفسُ إذا لم تخشَ الموتَ كانَتْ غريزةُ الكِفاحِ أول غرائزِها تعْمل.

ولِلكفاحِ غريزةٌ تجعلُ الحياةَ كلَّها نصراً، إذْ لا تكونُ الفِكرةُ معها إلَّا فكرةً مُقاتِلة.

غريزةُ الكفاحِ يا شباب، هي التي جعلتِ الأسَدَ لا يُسَمَّنُ كما تسمَّنُ الشاةُ لِلذبح.

وإذا انكسَرَتْ يوماً، فالحجَرُ الصَّلْدُ إذا تَرضرَضَتْ منه قِطعةٌ كانَتْ دليلاً يكشِفُ لِلعين أنَّ جميعَهُ حجرٌ صَلد.

* * *

يا شبابَ العرب! إنَّ كلمةَ (حقيّ) لا تحيا في السياسة إلَّا إذا وضعَ قائلُها حياتَهُ فيها.

فالقوَّةَ القوَّةَ يا شباب! القوَّةُ التي تقتلُ أول ما تقتلُ فكرةَ الترَف والتخنُّث.
القوةُ الفاضلةُ المتساميةُ التي تضعُ لِلأنصارِ في كلمة (نعم) معنى نعم.
القوَّةُ الصارمةُ النفَّاذةُ التي تضعُ لِلأعداءِ في كلمة (لا) معنى لا.
يا شبابَ العربِ اِجعلوا رسالتكم: إمَّا أنْ يحيا الشرقُ عزيزاً، وإمَّا أنْ تموتوا.

لـوْ...!

رأيتُني جالساً في مسرحٍ هزليّ بمدينة اسكندرية، كما يجلسُ القاضي في جريمةٍ يحملُ أهلُها بين يديه آثامَهم وأعمالَهم، ويحملُ هو عقلهُ وحُكمَه.

وقد ذهبْتُ لأرى كيفَ يتَساخَفُ أهلُ هذه الصناعة؛ فكان حُكْمي أنَّ السخافةَ عندَنا سخيفةٌ جدًا. . . .

رأيْتُهم هناك ينقُدونَ العيوبَ بما يُنشيءُ عيوباً جديدة، ويَسْبَحون بأيديهم سِباحةً ماهرةً؛ ولكنْ على الأرضِ لا في البحر، وتكادُ نظرتُهم إلى الحقيقة الهزليَّة تكونُ عمًى ظاهراً عمَّا هي به حقيقةٌ هزليَّة؛ ولا غايةَ لهم من هذا التمثيل إلَّا الرَّقاعةُ والإسفافُ والخَلْطُ والهذَيان، إذْ كان هذا هو الأشبَهَ بجمهورِهمُ الذي يَحضُرهمُ، وكان هو الأقربَ إلى تلك الطباعِ العاميَّة البليدة التي اعتادَتْ من تكلُّف الهزْلِ ما جعلها هي في ذاتِ نفسِها هزْلاً يُسْخَرُ منه.

ولا أسخفَ مِن تكلُّفِ النكتة الباردة قد خلتْ من المعنى، إلَّا تكلُّفُ الضحِكِ المصنوع يأتي في عَقِبها كالبرهان على أنَّ في هذه النكتة معنًى.

فالفنُّ المضحِكُ عند هؤلاء، إنَّما هوَ السخفُ الذي يُوافقون به الروحَ العاميَّةَ الضئيلةَ الكاذبةَ المكذوبَ عليها، التي يبلغُ من بلاهتِها أحياناً أن تضحكَ لِلنكتة قبل إلقائِها، لِفَرْطِ خِفَّتِها ورُعونتِها، وطولِ ما تكلفَتْ واعتادَت. فما ذلك الفنُّ إلَّا ما ترى من التخليط في الألفاظ، والتضريبِ بين المعاني، وإيقاعِ الغلطِ في المعقولات؛ ثُمَّ لا ثُمَّ بعدَ هذا. فلا دِقَّةَ في التأليف، ولا عُمْقَ في الفكرة، ولا سياسةَ في جمعِ النقائض، ولا نَفاذَ في أسرارِ النفس، ولا جِدَّ يُؤخذُ من هزليَّة الحياة، ولا عظمَةَ تُستخرجُ من صغائرِها، ولا فلسفةَ تُعرفُ من حماقاتِها.

والفرقُ بعيدٌ بين ضحكٍ هو صناعةُ ذِهْنٍ لِتحريكِ النفس، وشَحْذِ الطبع، وتصويرِ الحقيقة صورةً أخرى، وبين ضحكٍ هو صناعةُ البلاهة لِلَهوِ والعبث، والْمَجانة لا غير.

* * *

وكان معي قريبٌ من أذكياءِ الطلبة المتخصصينَ لِلآدابِ الإنجليزية، فلم نلبثْ إلّا يسيراً حتى جاءَ ثلاثةٌ من ضباطِ الأسطولِ الإنجليزي، فجلسوا بحذائنا صفًّا تلوحُ عليهم مَخايِلُ الظفَر، ولهم وَقَارُ البُطولة، وفيهم أرواحُ الحرب؛ وهم يبدون في ثيابِهِمُ البيضِ المطرَّاةِ[1] كأنَّهم ثلاثةُ نُسورٍ هبطَتْ منَ الغمام إلى الأرض، فلأعينِها نظراتٌ تدورُ هنا وهناك تُنكِرُ وتُعرِّف.

وأعجبني أنْ أراهم في هذا المكان الهزليِّ الممتلىءِ بالضعفاء، كأنَّهم ثلاثُ حقائقَ بين الأغلاط، أو ثلاثُ أغلاطٍ كبيرة. . . وكان أبدعَ ما أراهُ على هيئة وجوهِهِم وأسَرُّ له، تواضعُ هذا الاستعدادِ الحربيِّ وتحوُّلُهُ إلى استعدادٍ لِلسخرية. .

ثُمَّ تأملْتُهم طويلاً؛ فإذا صَرامةٌ وشهامةٌ، وسَكينةٌ ووَداعة، وحُسْنُ سَمْت وحلاوةُ هيئةٍ في جِلْسةٍ رزينةٍ متوقِّرة، لا يُشبهُها في حسِّ النفسِ التي تعرفُ معانيَ القوة إلّا وضعُ ثلاثة مدافعَ مُصوَّبة.

وجعلْتُ أقلّبُ عينيَّ في الناسِ الموجودينَ ومَلامحِهِم وهيئاتِهِم، ثُمَّ أرجعُ البصرَ إلى هؤلاءِ الثلاثة، فأرى المصريَّ كالمقتنع بأنَّهُ محدودٌ بمدينة أو قريةٍ لا يعرفُ لِنفسِه مكاناً في غيرهِما، فهو من ثمَّ لا يَرحلُ ولا يُغامرُ، ولا تتقاذفُهُ الدنيا؛ وأرى الإنجليزيَّ كالمقتنعِ بأنَّ كلَّ مكانٍ في العالم ينتظرُ الإنجليز. . .

وخيِّل إليَّ والله أنَّ رجلاً من هؤلاءِ الإنجليزِ الأقوياءِ المعتدِّين بأنفسِهِم لا يُهاجرُ من بلادِهِ إلّا ومعهُ نفسُهُ واستقلالُه، وتاريخُهُ وروحُ دولتِه، وطبيعةُ أرضِه؛ فهو مستيقِنٌ أنَّ الله لا يرزقُهُ رِزقاً أيَّ الرزقِ كان على ما يتَّفِق، بل رزقاً إنجليزيًّا: أي فيه كِفايتُه.

ورأيتُ شيئاً عجيباً من الفرقِ بين طابعِ السِّلم على وجوه، وبين طابعِ الحربِ على وجوهٍ أخرى؛ ففي تلك معاني السهولةَ والملاينَة والحِرْصِ على مادة الحياة، وفي هذه معاني العزْم والمُقاومة والحِرْصِ على مجدِ الحياة لا على مادتِها.

وتبيَّنْتُ أسلوبين منَ الأساليبِ الاجتماعيَّة: أحدُهما في فردٍ قد بَنَى أمرَهُ عَلى أنْ أمَّةً تحملُه، فهو يعيشُ بأضعف ما فيه: والآخرُ في فردٍ قد وَضَعَ الأمرَ عَلى أنَّهُ هو يحملُ أمَّةً فلا يدعُ في نفسِه قوةً إلّا ضاعَفَها.

---

(١) أي المكوية؛ والكلمة العربية التي استعملت قديماً في معنى (المكوجي) هي: المطري (بتشديد الراء).

وعرفْتُ وجهين من وجوه التربية السياسية: أحدُهما بالطنطنة، والتهويلِ والصُّراخ، واستعارة ألفاظِ غير الواقعِ لِلواقع، وتحميلِ الألفاظِ غيرَ ما تحمل؛ والآخرُ بالهدوءِ الذي يَقْهَرُ الحوادث، والصبرِ الذي يغلبُ الزمن، والعقيدة التي تفرضُ أعمالها العظيمةَ على صاحبِها وتجعلُ أعظَمَ أجرِه عليها أنْ يقومَ بها.

وميَّزتُ بين أثَرين من آثارِ الأرضِ في أهلِها: أحدُهما في المصريّ السَّمْحِ الوادعِ الألوف الحييِّ الذي هو كَرَمُ الطبيعة، والآخرُ في الإنجليزيِّ العَسِرِ المغامِرِ النَّفورِ الملحِّ على الدنيا كأنَّهُ تطفّلُ الطبيعة...

* * *

وألقى ابنُ العمِّ الذي كان معي سمعهُ إلى هؤلاءِ الضباط، وهم من فلاسفة الرأي على ما يظهرُ من حديثِهم، ثُمَّ نقل إليَّ عنهم، فقال كبيرُهم: لقد فرغْتُ من بحثي الذي وضعْتُهُ في فلسفة خُمولِ الشرقيين، وأفضيْتُ منه إلى حقائقَ عجيبة، أظهرُها وأخفاها معاً أنَّ أمَّةً من هذه الأمم لا يُمَكّنُ لِلأجنبيِّ فيها، ولا تثقُلُ وطْأتُهُ عليهم، ولا يَطولُ ثَواؤُهُ في أرضِهم، ولا يحتلّها مَنْ يطمعُ فيها، ما لم يكنْ سادتُها وأمراؤُها وكبراؤُها كأنهم فيها دولةٌ محتلّة.

وهؤلاءِ الكبراءُ هم آفةُ الشرق؛ فمِنْ أعظم واجباتِنا أنْ نزيدَ في تعظيمِهم، وأنْ نَمدَّ لهم في المالِ والجاه، ونَبْسُطَ لهمُ اليمينَ والشِّمال، ونُوهِمَهُمْ أنَّ عظمَتَهم هكذا وُلِدَتْ فيهم وهكذا وُلدوا بها من أمهاتِهم كما وُلِدوا بأيديهم وأرجلِهم... وخاصةً عظماءَ رجالِ الأديان المفتونينَ بالدنيا؛ فإنَّنا نصنعُ بغُرورِ الجميع وسخافاتِهم وحِرْصِهم وطمعِهم أشياءَ اجتماعيَّةً ذاتَ خطَرٍ لا يصنعُ لنا مثلها إلَّا الشياطينُ ومَنْ لنا بالحكم على الشياطين؟ وهذا ما تنبَّهَ له (غاندي) ذلك المهزولُ الهنديُّ الذي تُقوِّمُ دنياهُ بأربعة شلنات، ولا يزنُ أكثرَ من بضعة أرطالٍ من الجِلْدِ والعظم، ولا بطشَ عندَهُ ولا قوةَ فيه، وهو مع ذلك جبَّارٌ سماويٌّ في يدِه البرقُ والرعدُ يُرى ويُسمَعُ في أرجاءِ الدنيا.

قال ضابطُ اليمين: وبصناعة الكِبرياءِ هذه الصناعة يكون رجلُ الشعبِ من هؤلاء الشرقيينَ رجل تقليدٍ بالطبيعة، ورجل ذُلٍّ بالحالة، ورجل خُضوع بالجُملة؛ فليس في نفسِه أنَّهُ سيدُ نفسِه ولا سيدُ غيرِه، بلْ أكبرُ معانيه أنَّ غيرَهُ سيِّدٌ عليه فيكون معهُ دائماً خيالُ استعبادِه.

وتكلمَ ضابطُ اليسار: ولكنَّ المترجِمَ لم يميِّز أقواله، لأنَّ ثلاثَ عشرةَ امرأةً كنَّ

يصرخْنَ في الرواية الهزلية بلحنٍ طويلٍ يقلْنَ في أولِه: «عاوزين رجَّالة تدلَّعْنا. . .» وكانَتِ الموسيقى تصرخُ معهُنَّ وتُولولُ كأنَّها هي أيضاً امرأةٌ محرومة. . .

* * *

ثُمَّ أرهفَ المترجِمُ أذنَهُ فقال كبيرُهم: إنَّ لِهؤلاءِ الشرقيينَ ستَّ حواس: الخمسُ المعروفةُ، وحاسةُ الخمولِ الذي خدَعتْهم عنهُ الطبيعةُ البليدةُ فسمَّوهُ الترفَ والهزل واللهو؛ والأمةُ الأوروبيَّةُ التي تحتلّ بلاداً شرقيةً تجدُ فيها لصغائرِ الحياة جيشاً أقوى من جيشِها؛ فعشرةُ آلاف جنديّ بعَتادِهِم وآلاتِهم، لا يصنعون شيئاً إلّا الاستفزازَ والتحدِّي وإثباتَ أنَّهم غاصبون؛ ولكنْ ما أنت قائلٌ في عشرة آلاف مكانٍ كهذا المسرحِ براقصاتِه ومومساتِه وخمورِه ورواياتِه، وبهؤلاءِ الرجالِ المخنثينَ الهزليينَ الرُّقعَاءِ الذين هم وحدَهم مُعاهدَةٌ سياسيَّةٌ ناجحةٌ بينَنا وبين شبابِ الأمَّة. . .؟

قال ضابطُ اليمين: نعمْ إنَّ فنَّ الاحتلالِ فنٌّ عسكريّ في الأول، ولكنَّهُ فنٌّ أخلاقيٌّ في الآخر؛ ولِهذا يجبُ تعيينُ نقطة اتجاهٍ للشبابِ تكونُ مضيئةً لامعةً جذَّابةً مُغريةً؛ ولكنَّها في ذاتِ الوقتِ مُحرِقةٌ أيضاً، وهذه هي صِناعةُ إهلاكِ الشبابِ بالضوءِ الجميل، وما على السياسي الحاذقِ في الشرقِ إلّا أنْ يحميَ الرذيلة، فإنَّ الرذيلةَ ستعرفُ له صنيعَهُ وتَحميه. .

فتكلَّمَ ضابطُ اليسار، ولكنَّ صوتَهُ ذهبَ في عِشرينَ صوتاً من رجالِ المسرحِ ونسائِه يصيحون جميعاً: «يا حلوة يا خفَّافي، يا مجنِّنه الشبان. . .».

* * *

ولمَّا ألممْتُ بحوارِ الضباطِ الثلاثة قلْتُ لِصاحبي: إستأذِنْ لي عليهم أكلمُهم. ففعل وعرَّفني إليهم، وترجَم لهم مقالةَ (يا شبابَ العرب) وكان يحملُها. فكأنَّما رماهم منها بالجيشِ والأسطول.

ثُمَّ قلْتُ لِكبيرِهم: لسْتُ أنكرُ أنَّ الإنجليزيَّ لو دخل جهنَّمَ لدخلها إنجليزياً. ولا أجحدُ أنَّ له في الحياة مثل هِداية الحيوان، لأنَّهُ رجلٌ عمليٌّ: دليلُ منفعتِه أنَّها منفعتُهُ وحَسْبُ، ثُمَّ لا دليل غيرُ هذا ولا يقبلُ إلّا هذا. فإذا قال الشرقيّ: حقيّ، وقال الإنجليزيّ: منفعتي، بطَلتِ الأدلَّةُ كلُّها، ورأى الشرقيُّ أنَّهُ مَعَ الإنجليزي كالذي يُحاولُ أنْ يُقنِعَ الذئبَ بقانون الفضيلة والرحمة.

وقد عرفْنَا أنَّ في السياسة عجائب، منها ما يُشبِهُ أنْ يَلقَى إنسانٌ إنساناً فيقول له: يا سيدي العزيز، بكلِّ احترامٍ أرجو أنْ تتلقَّى مني هذه الصفعة. . .

وفي السياسةِ مواعيدُ عجيبة، منها ما يُشبهُ غرسَ شجرةٍ لِلفقراءِ والمساكين، والتوكيدَ لهم بالأيمان أنَّها ستُثمرَ رُغْفاناً مخبوزة... ثُمَّ بعدَ ذلك تُطْعَّمُ فتُثمِرُ الرغفانَ المخبوزةَ حَشْوُها اللحمُ والإدام...

وفي السياسة محاربةُ المساجدِ بالمراقص، ومحاربةُ الزوجاتِ بالمومسات، ومحاربةُ العقائدِ بأساتذة حرية الفكر، ومحاربةُ فنون القوَّة بفنون اللَّذة. ولكنْ لو فَهِمَ الشبابُ أنَّ أماكنَ اللهوِ في كلِّ معانيها ليسَتْ إلَّا غَدْراً بالوطن في كلِّ معانيه!

ولو عرفَ الشبابُ أنَّ محاربةَ اللَّهْوِ هي أولُ المعركة السياسية الفاصلة!

ولو أدركَ الشبابُ أنَّ أول حقِّ الوطن عليه أنْ يحمل في نفسِه معنى الشعبِ لا معنى نفسِه!

ولو رجعَ الدينُ الإسلاميُّ كما هو في طبيعتِه آلةً حربيةً تصنعُ من الشبابِ رجال القوَّة!

ولو عَلِمَ الشبابُ أنَّ روحَ هذا الدين ليْسَت: اعتَقِدْ ولا تعتقدْ. ولكن افعلْ ولا تفعل!

ولو أيقنَ الشبابُ أنَّ فرائضَ هذا الدين ليسَتْ إلَّا وسائل عمليَّةً لاِمتلاءِ النفسِ بمعاني التقديس!

ولو فَهِمَ الشبابُ أنْ ليس في الكَوْن إلَّا هذه المعاني تجعلُ النفسَ فوقَ المادة وفوقَ الخَوْف وفوقَ الذلِّ وفوقَ المَوْتِ نفسِه!

ولو بحثَ الشبابُ النفسَ الإنجليزيَّةَ القويَّةَ لِيعرفَ بِالبرهان أنَّها نصفُ مسلمةٍ فكيفَ بها لو كانَتْ مسلمة؟...

***

وكان المترجِمُ ينقلُ إليهم كلامي، فما بلغَتُ إلى حيث بلغتُ، حتى شدَّ الضابطُ على يدي وهزَّها؛ فنظرْت، فإذا أنا قد كنتُ نائماً بعدَ سهرةٍ طويلةٍ في ذلك المسرح، وإذا يدُ المترجِم نفسِه هي التي تهزُّني لانتبه...

أيُّها المسلمون!

نهضَتْ فِلسْطِينُ تَحِلُّ العقدةَ التي عُقِدَتْ لها بين السيفِ، والمكرِ، والذهب.

عقدةٌ سياسيةٌ خبيثة، فيها لِذلك الشعبِ الحرِّ قتلٌ وتخريبٌ، وفقر.

عقدةُ الحُكْم الذي يحكمُ بثلاثة أساليب: الوعدِ الكذب، والفَناءِ البطيء، ومطامعِ اليهودِ المتوحشَة.

أَيُّها المسلمون! ليسَتْ هذه محنةَ فلسطين، ولكنَّها محنةُ الإسلام؛ يُريدونَ ألّا يُثبِتَ شخصيَّتَهُ العزيزةَ الحرّة.

كلُّ قرشٍ يُدفعُ الآنَ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناك لِيجاهدَ هو أيضاً.

* * *

أولئك إخوانُنا المجاهدون؛ ومعنى ذلك أنَّ أخلاقَنا هي حُلفاؤهم في هذا الجِهاد.

أولئك إخوانُنا المنكوبون؛ ومعنى ذلك أنَّهم في نكبتِهم امتحانٌ لِضمائِرِنا نحن المسلمين جميعاً.

أولئك إخوانُنا المضطَهَدون؛ ومعنى ذلك أنَّ السياسةَ التي أذَلَّتهم تسألُنا نحن: هل عندنا إقرارٌ لِلذلّ؟

ماذا تكونُ نكبةُ الأخِ إلّا أنْ تكونَ اسماً آخرَ لِمروءة سائرِ إخوتِه أو مَذَلَّتِهِم؟

أيُّها المسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناكَ لِيفرضَ على السياسة احترامَ الشعورِ الإسلاميّ.

* * *

اِبتَلوْهُم بِاليهودِ يحملونَ في دمائِهم حقيقتين ثابتتين: من ذلِّ الماضي وتشريدِ الحاضر.

ويحملونَ في قلوبِهم نِقْمتين طاغيتين: إحداهما من ذهبَهِم، والأخرى من رذائِلهم.

ويُخَبِّئونَ في أدمغتِهم فكرتين خبيثتين: أنْ يكونَ العربُ أقليّة، ثُمَّ أنْ يكونوا بعد ذلك خَدَمَ اليهود.

في أنفسِهمُ الحِقْد، وفي خيالهمُ الجنون، وفي عقولهمُ المكر، وفي أيديهمُ الذهبُ الذي أصبحَ لئيماً لأنَّهُ في أيديهم.

أيُّها المسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناك لِيتكلَّمَ كلمةً تردُّ إلى هؤلاءِ العقل.

* * *

اِبتَلَوْهُم باليهودِ يَمرُّونَ مرورَ الدنانيرِ بالربا الفاحِشِ في أيدي الفقراء.

كلُّ مائة يهوديٍّ على مذهب القوم يجبُ أنْ تكونَ في سنةٍ واحدةٍ مائةً وسبعين...

حسابٌ خبيثٌ يبدأ بِشيءٍ من العقل، ولا ينتهي أبداً وفيه شيءٌ من العقل.

والسياسةُ وراءَ اليهود، واليهودُ وراءَ خيَالِهمُ الدينيّ، وخيالُهمُ الدينيُّ هو طردُ الحقيقة المسلمة.

أيُّها المسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناكَ لِيُثبِّتَ الحقيقةَ التي يُريدونَ طردَها.

* * *

يقولُ اليهود: إنَّهم شعبٌ مضطهَدٌ في جميعِ بلادِ العالم.

ويزعمون: أنَّ من حقِّهِم أنْ يعيشوا أحراراً في فلسطين، كأنهَا ليسَتْ من جميعِ بلادِ العالم...

وقد صنعوا لِلإنجليزِ أسطولاً عظيماً لا يسبحُ في البحار، ولكنْ في الخزائن...

وأرادَ الإنجليزُ أن يطمئنُّوا في فلسطينَ إلى شعبٍ لم يتعودْ قطُّ أنْ يقول: أنا.

ولكنْ لِماذا كنَسَتْكُم كلُّ أمةٍ من أرضِها بمكنَسةٍ أيُّها اليهود؟

* * *

أَجَهِلْتُمُ الإسلام؟ الإسلامُ قوةٌ كتلكَ التي تُوجِدُ الأنيابَ والمخالبَ في كلِّ أسد.

قوةٌ تُخرجُ سلاحَها بنفسِها، لأنَّ مخلوقَها عزيزٌ لم يُوجدْ لِيُؤكل، ولم يُخلقْ لِيَذلّ.

قوةٌ تجعلُ الصوتَ نفسَهُ حينَ يُزَمْجِر، كأنَّهُ يُعلنُ الأسديةَ العزيزةَ إلى الجهاتِ الأربع.

قوةٌ وراءَها قلبٌ مشتعلٌ كالبركانِ، تتحوَّلُ فيه كلُّ قطرة دم إلى شرارة دم وَلِئنْ كانَتِ الحوافرُ تُهيّىءُ مخلوقاتِها لِيركبَها الراكب، إنَّ المخالبَ والأنيابَ تُهيّىءُ مخلوقاتِها لِمعنًى آخر.

* * *

لو سُئلْتُ ما الإسلامُ في معناهُ الاجتماعيّ؟ لسَألْتُ: كم عددُ المسلمين؟

فإنْ قيل: ثلاثمائة مليون. قلْتُ: فالإسلامُ هو الفكرةُ التي يجبُ أنْ يكونَ لها ثلاثمائة مليون قوة.

أيجوعُ إخوانُكم أيُّها المسلمونَ وتشبعون؟ إنَّ هذا الشِّبَعَ ذنبٌ يُعاقِبُ الله عليه.

والغِنَى اليومَ في الأغنياءِ المُمْسِكينَ عن إخوانِهم، هو وصفُ الأغنياءِ باللؤم لا بِالغِنى.

كلُّ ما يبذلُهُ المسلمونَ لِفلسطين، يدلُّ دَلالات كثيرة، أقلّها سياسةُ المقاومة.

* * *

كان أسلافُكم أيُّها المسلمونَ يفتحونَ الممالكَ، فافتحوا أنتم أيديَكم...

كانوا يرمون بأنفسِهم في سبيلِ الله غيرَ مكْتَرِثين، فارمُوا أنتم في سبيلِ الحقِّ بالدنانيرِ والدراهم.

لِماذا كانَتِ القِبْلةُ في الإسلام إلّا لتِعتادَ الوجوهُ كلُّها أنْ تتحول إلى الجِهة الواحدة؟

لماذا ارتفعَتِ المآذنُ إلّا لِيعتادَ المسلمونَ رفعَ الصوتِ في الحقّ؟

أيُّها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانِكم بمعنًى من المعاني.

* * *

لو صامَ العالَمُ الإسلاميُّ كلُّهُ يوماً واحداً وبذَل نفقاتِ هذا اليوم الواحدِ لِفلسطينَ، لأغناها.

لو صامَ المسلمونَ كلُّهم يوماً واحداً لإِعانة فلسطين، لقال النبيُّ مُفاخراً الأنبياء: هذه أمتي!

لو صامَ المسلمونَ جميعاً يوماً واحداً لِفلسطين، لقال اليهودُ اليومَ ما قالهُ آباؤهم من قبل: إنَّ فيها قوماً جَبَّارين. . .

أيُّها المسلمون! هذا موطنٌ يزيدُ فيه معنى المالِ المبذولِ فيكون شيئاً سماويًّا.

كلُّ قِرشٍ يبذلُهُ المسلمُ لِفِلسطين، يتكلَّمُ يومَ الحسابِ يقول: يا ربّ، أنا إيمانُ فلان!

قصةُ الأيدي المتوضّئة...

قال راوي الخبر: ذهبْتُ إلى المسجدِ لِصلاة الجمعة؛ والمسجدُ يجمعُ الناسَ بقلوبِهم لِيُخرِجَ كلَّ إنسانٍ من دنيا ذاتِه، فلا يفكّرُ أحدٌ أنّهُ أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبِك الصانعُ أوِ الأجيرُ أوِ الفقيرُ أوِ الجاهل، وأنتَ الرئيسُ أوِ العظيمُ أوِ الغنيُّ أوِ العالم، فتنظرُ إليه وإلى نفسِكَ فتُحسُّ كأنَّ خواطِرَكَ متوضّئةٌ متطهّرة، وترى كلمةَ الكِبرياءِ قد فقدَتْ روحَها، وكلمةَ التواضعِ قد وجدَتْ روحَها؛ وتشعرُ بالنفسِ المجتمعة قد نصبَتِ الحربَ لِلنفسِ المنفردةِ؛ ولو خطرَ لكَ شيءٌ بِخِلاف ذلك رأيْتَ الفقيرَ إلى جانبِك توبيخاً لك، ونظرْتَ إليه ساكتاً وهو يتكلّمُ في قلبك، وشعرْتَ بِالله من فوقِكُما، واستعلنَتْ لك روحُ المسجدِ كأنَّها تَهُمُّ بطردِك منه، وخُيِّل إليكَ أنَّ الأرضَ ستلطمُ وجهَكَ إذا سجدْتَ عليها، وأيقنْتَ من ذاتِ نفسِكَ أنْ لسْتَ هناك في دنياكَ وليسَ صاحبُكَ في دنياه، وإنَّما أنتما هناك في إنسانيَّةٍ ميزانُها بيدِ الله وحدَه؛ فلا تدري أيّكما الذي يَخِفُّ وأيّكما الذي يثقُل[1].

قال: والعجيبُ أنَّ هذا الذي لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِ الدين، يعرفُهُ بعضُ علماءِ الدين على وجهٍ آخر، فتراهُ في المسجدِ يمشي مختالاً، قد تحلَّى بحليتِه، وتكلَّفَ لِزَهْوِه، فلبِسَ الجُبَّةَ تَسَعُ اثنين، وتَطاوَل كأنَّهُ المِئذَنة، وتَصَدَّرَ كأنَّهُ القِبْلة، وانتفخَ كأنَّهُ ممتلىءٌ بالفُروقِ بينَهُ وبين الناس؛ وهو بعدَ كلِّ هذا لو كشفَ الله تمويهَهُ لانكشَفَ عن تاجرِ عِلْم بعضُ شروطِه على الفضيلة أنْ يأكل بها، فلا يجدُ دنيا ذاتِه إلّا في المسجد، فهو نَوعٌ من كَذِبِ العالم الدينيِّ على دينِه.

* * *

قال الراوي: وصَعِدَ الخطيبُ المنبرَ وفي يدِه سيفُهُ الخشبيُّ يتوكأ عليه؛ فما استقرَّ في الذّروة حتى خُيل إليَّ أنَّ الرجلَ قد دخل في سِرِّ هذه الخشبة، فهو يبدو كالمريضِ تُقيمُهُ عصاه، وكالهَرِمِ يُمسكُهُ ما يتوكأ عليه؛ ونظرْتُ فإذا هو كَذِبٌ

---

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد في مقالات كثيرة.

صريحٌ على الإسلام والمسلمين، كهيئة سيفِه الخشبيِّ في كذبِها على السيوف ومعدنِها وأعمالِها.

وتالله ما أدري كيفَ يستحلُّ عالمٌ من علماءِ الدين الإسلاميِّ في هذا العصر، أنْ يخطبَ المسلمينَ خُطبَةَ جُمعتِهم وفي يدِه هذا السيفُ علامةُ الذلِّ والضَّعة والتراجُع والانقلابِ والإدبارِ والهزْلِ والسخرية والفضيحة والإضحاك؛ ومتى كان الإسلامُ يأمرُ بِنَجْرِ السيوف من الخشبِ ونَحْتِها وتسويتِها وإرهاف حدِّها الذي لا يقطعُ شيئاً، ثُمَّ وضعِها في أيدي العلماءِ يَخْتَلُونَ بها ذُؤابَةَ كلِّ منبر، لِتتعلَّقَ بها العيونُ، وتشهدَ فيها الرمز والعلامة، وتستوحِيَ منها المعنويَّةَ في الدينيَّةَ التي يجبُ أنْ تتجسَّمَ لِترى؟

أفي سيفٍ من الخشبِ معنويَّةٌ غيرُ معنى الهزْلِ والسخافة، وبلاهة العقلِ وذلّة الحياة، ومسْخِ التاريخِ الفاتحِ المنتصر، والرمزِ لِخضوعِ الكلمة وصِبيانيَّة الإرادة؟

قال: وكان تمامُ الهزءِ بهذا السيف الخشبيِّ الذي صنعتْهُ وزارةُ أوقاف المسلمين، أنَّهُ في طولِ صَمْصَامةِ عمرِو بْن مَعْدِيكَرِبِ الزُّبيديِّ فارسِ الجاهليَّة والإسلام[1]، فكان إلى صدرِ الخطيب، ولولا أنَّهُ في يدِه لظهرَ مَقْبِضُهُ في صدرِ الرجلِ كأنَّه وِسامٌ من الخشب...

قال: وكان الخطيبُ إذا تكلَّفَ وتصنَّعَ وظهرَ منه أنَّهُ قد حَمِيَ وثارَ ثائرُهُ، ارتجَّ وغفَل عن يدِه، فتضطربُ فيها قبضةُ السيف فَتلكِزُهُ في صدرِه كأنَّما تذكِّرُهُ أنَّ في يدِه خشبةً لا تَصلُحُ لِهذه الحماسة....![2]

* * *

قال: وخطبَ العالمُ على الناس، وكان سيفُهُ الخشبيُّ يخطبُ خطبةً أخرى: فأمَّا الأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهي حتى ينتهيَ أثرُها، إذْ هي كالقراءة لإقامة الصلاة؛ وكانَتْ في عهدِها الأولِ كالدرسِ لإقامة شأنٍ من شؤون الاجتماع والسياسة، فبينَها وبين حقيقتِها الإسلاميَّة مثلُ ما بين هذا السيف مِنَ الخشبِ وبين حقيقتِه الأولى. وأمَّا الخطبةُ الثانيةُ فقدَ عقلْتُها أنا عن تلك الخشبة وكتبْتُها، وهذه هي عبارتُها:

ويحَكُم أيُّها المسلمون! لو كنْتُ بقيةً من خشبِ سفينة نوحٍ التي أنقذَ فيها

---

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر.

(٢) القاعدة الشرعية: أن البلد الذي يفتح بالسيف يخطب فيه بالسيف. ولما ضعف المسلمون السيف منهم وأطاعهم الخشب...!

الجنسَ البشريَّ، لمَا كان لكم أنْ تضعوني هذا الموضع؛ وما جعلكُمُ الله حيثُ أنتم إلَّا بعدَ أنْ جعلْتُموني حيث أنا، تكادُ شرارةٌ تذهبُ بي وبكم معاً، لأنَّ فيَّ وفيكمُ المادةَ الخشبيةَ والمادةَ المتخشِّبة.

ويحكم! لو أنَّهُ كان لِخطيبِكم شيءٌ من الكلام الناريِّ المضطرم، لمَا بقيَتِ الخشبةُ في يدِه خشبة. وكيف يمتلىء الرجلُ إيماناً بإيمانه، وكيف يصعدُ المنبرَ لِيقول كلمةَ الدين من الحقِّ الغالبِ، وكلمةَ الحياة من الحقِّ الواجب ـ وهو كما ترونَه قدِ انتهى من الذلِّ إلى أنْ فقد السيفُ روحَهُ في يدِه؟

أيُّها المسلمون! لنْ تُفلحوا وهذا خطيبُكُمُ المتكلمُ فيكم، إلَّا إذا أفلحْتُم وأنا سيفُكم المدافعُ عنكم. أيُّها المسلمون، غَيِّروه وغَيِّروني.

* * *

قال راوي الخبر: ولمَّا قُضِيَتِ الصلاةُ ماجَ الناسُ إذِ انبعَثَ فيهم جماعةٌ من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم لِيخطبوهم؛ ثُمَّ قامَ أحدُهم فخطب، فذكرَ فلسطينَ وما نزل بها، وتغيُّرَ أحوالِ أهلِها، ونكبتَهم وجهادَهم واختلال أمرِهم، ثمَّ استنجدَ واستعان، ودعا المُوسِرَ والمُخِفَّ إلى البذلِ والتبرعِ وإقراضِ الله تعالى؛ وتقدمَ أصحابُهُ بصناديقَ مختومة، فطافُوا بها على الناسِ يجمعون فيها القليل والأقلَّ من دراهِمَ هي في هذه الحالِ دراهمُ أصحابِها وضمائرُهم.

قال: وكان إلى جانبي رجلٌ قَرَوِيٌّ من هؤلاءِ الفلاحينَ الذين تَعرفُ الخيرَ في وجوهِهم، والصبرَ في أجسامِهم، والقناعةَ في نفوسِهم، والفضل في سجاياهم؛ إذا امتزجَتْ بهم روحُ الطبيعة الخِصبة فتُخرجُ من أرضِهم زُروعاً ومن أنفسِهم زروعاً أخرى ـ فقال لِرجلٍ كان مَعه: إنَّ هذا الخطيبَ خطيبَ المسجدِ قد غشَّنا وهؤلاءِ الشبانُ قد فضحوه؛ فما ينبغي أنْ تكونَ خطبةُ المسلمينَ إلَّا في أخصِّ أحوالِ المسلمين.

قال: ونبَّهني هذا الرجلُ الساذَجُ إلى معنًى دقيقٍ في حِكمة هذه المنابرِ الإسلاميَّة؛ فما يُريدُ الإسلامُ إلَّا أنْ تكونَ كمحطاتِ الإذاعة، يلتقطُ كلُّ منبرٍ أخبارَ الجهاتِ الأخرى ويُذيعُها في صيغة الخطابِ إلى الروح والعقلِ والقلْب، فتكونُ خطبةُ الجمعة هي الكلمةَ الأسبوعيَّةَ في سِياسة الأسبوعِ أو مسألة الأسبوع؛ وبهذا لا يجيءُ الكلامُ على المنابرِ إلَّا حيًّا بحياة الوقت، فيُصبحُ الخطيبُ ينتظرُهُ الناسُ في كلِّ جمعةٍ انتظارَ الشيءِ الجديد؛ ومن ثَمَّ يستطيعُ المنبرُ أنْ يكونَ بينَهُ وبين الحياة عمل.

قال: وخُيِّل إليَّ بعدَ هذا المعنى أنَّ كلَّ خطيبٍ في هذه المساجدِ ناقصٌ إلى النصف، لأنَّ السياسةَ تُكرهُهُ أنْ يخلعَ إسلاميَّتَهُ الواسعةَ قبل صعودِه المنبر، وألَّا يصعدَ إلَّا في إسلاميتِه الضيِّقة المحدودة بحدودِ الوعْظِ هو مع ذلك نصفُ وعظ... فالخطبةُ في الحقيقة نصفُ خطبة، أو كأنَّها أثرُ خطبةٍ معها أثرُ سيف...

قال: وأخرجَ القرويُّ كِيسَهُ فعزَل منه دراهم وقال: هذه لِطعام أتبلَّغُ به ولِأوْبتي إلى البلد، ثم أفرغَ الباقي في صناديقِ الجماعة؛ واقتديْتُ أنا به فلم أخرج من المسجدِ حتى وضعْتُ في صناديقِهم كلَّ ما معي؛ ولقد حسبْتُ أنَّهُ لو بقيَ لي درهمٌ واحدٌ لمضى يَسبُّني ما دامَ معي إلى أنْ يخرجَ عنِّي.

* * *

قال الراوي: ثُمَّ دخلْتُ إلى ضريح صاحبِ المسجدِ أزورُهُ وأقرأ فيه ما تيسَّرَ من القرآن، فإذا هناك رجالٌ من علماءِ المسلمين، إثنان أو ثلاثةٌ: (الشكُّ في ثالثِهم لأنَّهُ حليقُ اللحية). ثُمَّ تَوَافَى إليهم آخرون فتمُّوا سبعة؛ ورأيْتُهم قد خلطوا بأنفسِهم صاحبَ (اللا لِحية)، فعلِمْتُ أنَّهُ منهم على المذهبِ الشائعِ في بعضِ العصريينَ من العلماءِ والقضاة الشرعيِّين، أحسبهُم يحتجُّون بقولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ وكلُّ امرىءٍ فإنَّما تُبَصِّرهُ مرآتُهُ كيف يظهرُ في أحسن تقويم، أبلحيةٍ أم بلا لِحية...؟

وأدرْتُ عيني في وجوههم، فإذا وقارٌ وسَمْتٌ ونورٌ لم أرَ منها شيئاً في وجه صاحبِ (اللا لِحية)؛ وأنا فما أبصرْتُ قطُّ لِحيةَ رجلٍ عالمٍ أو عابدٍ أو فيلسوفٍ أو شاعرٍ أو كاتبٍ أو ذي فنٍّ عظيم، إلَّا ذكرْتُ هذا المعنى الشعريَّ البديعَ الذي وردَ في بعضِ الأخبارِ، من أنَّ للّه (تعالى) ملائكةً يُقْسِمون: والذي زيَّن بني آدمَ باللُّحى.

وكان من السبعة رجلٌ تركَ لِحيَتَهُ عافيةً على طبيعتِها؛ فامتدَّتْ وعظُمَتْ حتى نَشَرَتْ حولها جوًّا روحانيًّا من الهيبة تشْعرُ النفسُ الرقيقةُ بتيَّارِه على بُعد، فكان هذا أبلغَ ردٍّ على ذلك.

* * *

قال؛ وأنصَتَ الشيوخُ جميعاً إلى خطبِ الشبان، وكانَتْ أصواتُ هؤلاءِ جافيةً صُلبةً حتى كأنَّها صَخَبُ معركةٍ لا فنُّ خطابة، وعلى قدرِ ضعف المعنى في كلامِهم قَويَ الصوت؛ فهم يصرخونَ كما يصرخُ المستغيثُ في صيحات هاربةٍ بين السماءِ والأرض.

فقال أحدُ الشيوخِ الفضلاء: لا حول ولا قوةَ إلَّا بالله! جاءَ في الخبَر: «تَعِسَ عبدُ الدينارِ تَعِسَ عبدُ الدرهم». ووالله ما تعسَ المسلمونَ إلَّا منذُ تعبَّدوا لِهذين حِرْصاً وشُحًّا؛ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، ولو تعارفَتْ أموالُ المسلمينَ في الحوادثِ لمَا أنكرَتْهمُ الحوادث.

فقال آخر: وفي الحديث: «إنَّ الله يُحبُّ إغاثةَ اللَّهفان»، ولكن ما بالُ هؤلاءِ الشبان لا يُوردون في خطبِهم أحاديثَ مع أنَّها هي كلماتُ القلوب؟ فلو أنَّهم شرحوا لِلعامة هذا الحديث: «إنَّ الله يُحبُّ إغاثةَ اللهفانِ» لأسرعَ العامَّةَ إلى ما يُحبّهُ الله.

قال الثالث: ولكنْ جاءَنا الأثرُ في وصف هذه الأمَّة: «إنَّها في أولِ الزمان يتعلَّمُ صغارُها من كِبارِها، فإذا كان آخرُ الزمان تعلَّمَ كِبارُهم من صِغارِهم». فنحن في آخرِ الزمان، وقد سُلِّطَ الصغارُ على الكبارِ يُريدونَ أنْ يَنقُلوهم عن طِباعِهِم إلى صِبيانيَّةٍ جديدة.

قال الراوي: فقلْتُ لِصديقٍ معي: قلْ لِهذا الشيخ: ليس معنى الأثرِ ما فهمْتَ، بل تأويلُهُ أنَّ آخرَ الزمان سيكون لِهذه الأمَّة زمنَ جِهادٍ واقتحام، وعزيمةٍ ومُغالبةٍ على استقلالِ الحياة؛ فلا يصلحُ لِوقاية الأمَّة إلَّا شبابُها المتعلِّمُ القويُّ الجريءُ، كما نرى في أيَّامِنا هذه، فينزلون من الكِبارِ تلكَ المنزلةَ؛ إذْ تكونُ الحماسةُ مُتممةً لِقُوة العِلْم. وفي الحديث: «أمَّتي كالمطرِ: لا يُدرَى أولُهُ خيرٌ أم آخرُه».

* * *

قال الراوي: ولم يكدِ الصديقُ يحفظُ عنِّي هذا الكلامَ ويَهُمَّ بتبليغِهِ، حتى وقعَتِ الصَّيحةُ في المكان؛ فجاءَ أحدُ الخطباءِ ووقفَ يفعلُ ما يفعلُهُ الرعد: لا يكرِّرُ إلَّا زمجرةً واحدة؛ وكان الشيوخ الأجِلَّاءُ قد سمعوا كلَّ ما قيل، فأطرقوا يسمعونه مرةً رابعةً أو خامسة؛ وفرغَ الشابُّ من هَديرِه فتحوَّل إليهم وجلسَ بين أيديهم متأدِّباً متخشِّعاً ووضَع الصندوقَ المختوم.

فقال أحدُ الشيوخ: لم يَخفَ علينا مكانُك، وقد بذلْتُم ما استطعْتُم؛ فباركَ اللهُ فيك وفي أصحابِك.

وسكَتَ الشابُّ، وسكَتَ الشيوخ، وسكَتَ الصندوقُ أيضاً...

ثُمَّ تحركَتِ النفسُ بوخي الحالة؛ فمدَّ أولُهم يدَهُ إلى جيبِه، ثُمَّ دسَّها فيه، ثُمَّ عَيَّثَ فيه قليلاً[1]؛ ثم... ثم أخرجَ الساعةَ ينظرُ فيها.

(١) أي بحث بأصابعه.

وانتقَلتِ العدوى إلى الباقين، فأخرجَ أحدُهُم مِنديلهُ يتمخَّطُ فيه، وظهَرتْ في يدِ الثالثِ سُبحةٌ طويلة، وأخرجَ الرابعُ سِواكاً فمرَّ به على أسنانِه، وجرَّ الخامسُ كُراسةً كانَتْ في قَبائِه، ومدَّ صاحبُ اللِّحية العريضة أصابعَهُ إلى لِحيتِه يُخَلِّلُها؛ أمَّا السابعُ صاحبُ (اللاحية)، فثبتَتْ يدُهُ في جيبِه ولم تخرج، كأنَّ فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهرَه، أو يخشى إذا هو أظهَرَه من تخجيلِ الجماعة.

وسكَتَ الشابُّ، وسكَتَ الشيوخ، وسكَتَ الصندوق أيضاً. . .

قال الراوي: ونظرْتُ فإذا وجوهُهُم قد لبَستْ لِلشابِّ هيئةَ المدرِّسِ الذي يُقرِّرُ لِتلميذِه قاعدةً قرَّرها مِنْ قبلُ ألفَ مرةٍ لألِف تلميذ؛ فخجل الشابُّ وحمل صندوقَهُ ومضى. . .

* * *

أقولُ أنا: فَلمَّا انتهى الراوِي من (قصة الأيدي المتوضئة)، قلْتُ له: لعلَّكَ أيُها الراوي استيقظْتَ من الحُلُم قبل أنْ يملأَ الشيوخُ الأجلَّاءُ هذا الصندوق، وما ختمَ عقلُكَ هذه الروايَةَ بهذا الفصلِ إلَّا بما كَدَذتَ فيه ذهنَكَ من فلسفة تحوُّلِ السيف إلى خشبة؛ ولو قدِ امتدَّ بِكَ النومُ لسمعْتَ أحدَهم يقول لِسائِرهم: بِمَنْ ينهضُ إخوانُنا المجاهدونَ وبمنْ يصولون؟ لهذا قال رسولُ الله ﷺ: «جاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله من عالمٍ بخيل». ثُمَّ يملؤون الصندوق. . . .

نجوى التمثال (١)

أيُّها المفترِشُ الصخرةَ يشُدُّ ذراعيه أقوى الشدِّ كأنَّما يُريدُ أنْ يقتلعَ الصخرةَ فيهما، مُتَنَاهِضاً بصدرِهِ لِيَدلَّ على أنَّهُ وإنْ رَبضَ فإنَّ الوثبةَ في يديه، مُتَمَطِّياً بصُلْبِه لِيُشيرَ من جِسمِهِ الهادىء إلى معانيه المفترِسة، مُقْعياً على ذَنَبِهِ ومتحفِّزاً بسائرِه كأنَّهُ قوةُ اندفاعٍ تَهُمُّ أنْ تَنفلِتَ من جاذبية الأرض.

وأنتِ أيَّتُها الهيفاءُ تمثِّلُ الإنسانيَّةَ المتمدِّنةَ في نَحافتِها وهي كهذه الإنسانيَّة ضاربةٌ بذراعَيْ أسدٍ في غِلظِ مِدْفعين. . . .

حكيمةً في النظرِ كأنَّما تَمُدُّ في سرائِرِ الأمم نظرةَ المتأملِ، ولكنَّ يدَها كَيَدِ الحِكمة السياسيَّة على تركيبٍ عقليٍّ تحتَهُ المخالب. . .

ساكنةً كأنَّها تمثالُ السلام على أنَّها في جِوارِ الأسدِ كَالسلام بين الشعوب: تَلْمَحُ فيه إنسانَ العالم ووحشَ العالم. . .

يا أبَا الهول.

أأنتَ جوابٌ عن ذلك اللُّغزِ القديم الذي هو كلامٌ لا يتكلَّمُ وسكوتٌ لا يسكُت.

والذي أشارَ برأسِ الإنسان على جسم اللَّيثِ أنَّهُ قوةٌ عمياءُ كَالضرورة ولكنَّها مُبْصِرَةٌ كالاختيار.

والذي أخرجَ من فَنَّي الغريزة والعقل فنًّا ثالثاً لا يزالُ في الأرضِ ينتظرُ المرأةَ التي تَلِدُ إنساناً عِظامُهُ من الحجَر؟

وأنتِ يا مصر:

أواقفةٌ ثَمَّةَ لِلشرحِ والتفسير، تقولينَ لِلمصريِّ: إنَّ أجدادَك يسألونك مِنْ

---

(١) تمثال نهضة مصر الذي صنعه المثال مختار رمزاً لهذه النهضة، وهو أبو الهول متحفزاً تقف إلى جانبه امرأة.

آلاف السنينَ بهذا الرَمز: ألَا معجزةٌ من القوَّة تمطُّ عَضَلاتِ الحجَر؟

ألا بَسْطَةٌ من العِلْم تجعلُك أيُها المصريُّ وكأنَّك رأسٌ لِجسم الطبيعة؟ ألا فنٌ جديدٌ ترفعُ به أبا الهولِ في الجوّ فتزيدُهُ على قوّة الوحشِ وذكاءِ الإنسان خِفَّةَ الطير؟

أمْ تقولينَ لِلمصريّ: إنَّ أجدادَك يُوصونك بهذا الرمزِ أنْ تكونَ كالظَّهرِ الأسديّ لا يُركَبُ مَطَاهُ، وكالرأسِ الإنسانيّ لا تُقيِّدُ حريتَهُ، وكالرَّبْضَة الجبليَّة لا تَسْهُلُ إزاحتُها، وكالإبهام المركَّبِ من غامضَين لا يتيسَّرُ به عَبَثُ العابثِ، وكالصراحة المجتمعة من عنصرٍ واحدٍ لا يغلطُ في حقيقتِها أحد؟

أمْ تقولينَ يا مصر: إنَّ تفسيرَ أبي الهولِ الأولِ أنَّ النهضةَ المصريَّةَ إنَّما تكونُ يومَ تُخرِجُ البلادُ مَنْ يصنعُ أبا الهولِ الثاني؟

* * *

تمثالُ النهضة أم صفحةٌ من الحجرِ قد صَوَّرَ الشعبُ فكره عليها، ودوَّنَ فيها إحساسَهُ بتاريخِه، ووصفَ بها إدراكَهُ حياةَ المعاني السامية؟

أمْ هو كتابةُ فصلٍ من التاريخ بقلم الحياة وعلى طريقةٍ من بلاغتِها، خشيَتْ عليه الفناءَ فدوَّنَتْهُ في أسلوبٍ مِن أساليبِ البقاءِ الحجريّ الصَّلْد؟

أمْ ذاك يومٌ من أيام الأمَّة أحالهُ الفنُّ من زمنٍ إلى مادة؛ ومن معنًى إلى حسٍّ، ومن خبرٍ إلى مَنْظَر، وكانوا يتكلَّمون عنهُ فجعلَهُ الفنُّ يتكلَّمُ عن نفسِه؟

أمْ هو تعبيرٌ عن تلك المعاني التي خلقتْها نفوسُ هذا الجِيلِ تُخاطبُ به النفوسَ الآتيةَ لِتُتمِّمَ عليها، وتُضيفَ فيه إلى المعنى سرَّ المعنى، وتضعَ الكلمةَ الإنسانيَّةَ على لِسان الطبيعة تتكلَّمُ بالتمثالِ كما تتكلَّمُ بالجيلِ؟

أمْ تركيبٌ سِياسيٌّ إذا فسَّرتْهُ اللغةُ كان معناهُ أنَّ الثابتَ إذا احتاجَ إلى مَنْ يُثبتُهُ... فلنْ يمحوَهُ من يُنكرُهُ، وأنَّ الظاهرَ إن احتاجَ إلى مَنْ يَدلُّ عليه... فلنْ يُخفيَهُ مَنْ لا يراه؟

* * *

بلْ أراكَ لا هول فيكَ يا أبا الهولِ الجديد.

أفذاكَ من رِقَّةٍ داخلتْك ورحمةٍ جاءَتْك من مَسِّ يدِ المرأة...؟

أم الهولُ اليومَ قد أصبحَ في العقلِ والعاطفة ومدّ العين النسائيَّة إلى بعيد...؟

أمْ لا يتمُّ في هذِه المدينة رأسُ رجلٍ وجسمُ سَبُعٍ إلَّا . . . إلَّا بأناملِ امرأة؟

ألَا مَنْ يُعْلِمُني أهذه المرأةُ منك هي تهذيبٌ لِلإنسان والوحشِ أمْ تكملةٌ عليهما؟

ألا مَنْ يأتيني بالحِكْمة فيكَ من وضْع الرجلِ القويِّ رأساً ولا جسم، والأسدِ المفترسِ جسماً ولا رأس، ثُمَّ لا يكملُ دُونَهما إلَّا المرأةُ وحدَها.

إنَّما كنتَ يا أبا الهولِ لُغزَ الصمْت، فَلمَّا أضيفَتِ المرأةُ إليكَ أصبحْتَ لُغْزَ النطقِ. . . فيا للْهول!

فاتحُ الجوّ المصريّ [1]

يا طيرَ المثَلِ الأعلى!

لقدِ انفَلتَّ من رذيلة الخوف وتركْتَها في الترابِ مَوْطِىءَ القَدمَ، وقلْتَ لها: ويحكِ، لقد آنَ لِلشباب المصريّ؛ فهو مُغَامِسٌ في ماءِ الصواعق[2]، مُتَطَوِّحٌ في اللُّجَة الأزليَّةِ التي تغوصُ فيها الكواكبُ[3]، يطيرُ برُوح الشَّرارة، ويَهْبِطُ برُوحِ الغيث، ويُلجِمُ الجوَّ ويُسْرِجُهُ، ويتعلَّمُ كيفَ يَشْوي عدوَّهُ في عَيْنِ الشمس.

وكنْتَ بطلاً مُغَامراً فخطوْتَ في طريقِ الملائكة بهذه الفضيلة وحمَلكَ الجوُّ؛ ولو أنَّكَ خِفْتَ وكنْتَ على جَنَاحَيْ جِبريلِ لا على طيَّارة، لخَافَ جبريلُ على جناحَيه من حَطْمَة هذا المعنى الترابيِّ الطاغية الذي يَحكُمُ على الأحياءِ بالموتِ بلا موت، لأنَّهُ الذلُّ والخضوعُ والرذيلة.

وحملكَ الجوُّ إلى قُبَة السماء، وهنالِكَ نَظَرَ العالَمُ فرأى لِمِصرَ الناهضة عَلمَها الإنسانيَّ يتنفَّسُ تحتَ الكواكب.

وحملكَ الجوُّ إلينا، فلمَّا رفعْنَا رؤوسَنَا لِنراك، رفعْناها في الوقتِ بين شعوبِ الأرض.

* * *

وضربْتَ يا جَنَاحَ مصرَ في الهواء، وأعْنَانُ السماءِ[4] مملوءةٌ بِالزَّعْزَعِ والهَوجاءِ والعاصف، والسماءُ في فصلِها المكْفَهِرِ الذي تخلعُ فيه كلَّ ساعةٍ وتلبسُ وتَمزِّقُ[5] وتَطْوِي، فزِدْتَ بجُرْأتِكَ في براهين القضيَّة المصريَّة برهانَ قوَّة المُخاطَرة، وأضفْتَ إلى مَنطِقها وضعاً جديداً مُفْحِماً من روحِ التضحية.

---

(١) كتبت في أول طيار مصري قدم إلى مصر من أوروبا على طيَّارته، في شهر فبراير سنة ١٩٣٠، وهو الطيار صدقي وطيارته فائزة، وكان مقدمه يوماً مشهوداً.

(٢) كناية عن السحاب.

(٣) كناية عن أجواز الفضاء.

(٤) نواحيها، جمع عنان (بالفتح).

(٥) كناية عن طبيعة الشتاء، من الغيم والصحو وما بينهما.

وطِرْتَ بين حياةٍ وموت فجعلْتَهما يستويان في اعتقادِك؛ إذْ وصلْتَ فكرةَ الموتِ بسرِّ الإيمان، والحياةَ بسرِّ العزيمة.

وكنْتَ رَجُل أمَّتِكَ بإنكارِ ذاتِ نفسِكَ من أجلِها.

واتسَعْتَ لِلتاريخ بِوضعِك عُمرَكَ المحدودَ على الطيَّارة، وقذفِكَ بِهَا وبِه في مَسْبَحِ الأجل.

وتجرَّدْتَ لِلأَبديَّة لِتُعطيَ بِلادَكَ: إمَّا شهيدَ مجدٍ في الآخرة، وإمَّا شهادةَ فخرٍ في الدنيا.

وكنْتَ على طيَّارتِكَ الصغيرة المُتَطَارِدة تحتَ الريح، وحَولكَ رُوحُ الهرَمِ الأكبرِ القائم بإرادة مصرَ وكأنَّهُ مِسْمارٌ مدقوقٌ في كُرَة الأرضِ بين القطْبِ والقطب.

* * *

وأنتِ يا «فائزة» يا هذه الصغيرةُ الخارجةُ من مالِ صاحِبها وجُهدِه وعزيمتِه كما تخرجُ القوَّةُ من ضَعف، أعلمْتِ إذْ أنتِ ترتفعينَ وتهبطينَ بين السحُبِ كما تتواثبُ الفَراشةُ على النوَّارِ في رَوضةٍ مُزهرة، وإذا أنتِ تَفتُقينَ وتحُوكينَ في مُلاءة السحابِ كأنَّكِ بِمُحَرِكِكِ الدَّوَّارِ تَنسِجِينَ في السماءِ بمغْزَل، وإذْ أنتِ بين صَفْقِ الرياحِ الهُوج[1]، تحتَ السماءِ المُدَجَّجةِ[2]، في كَبَّة الشتاء[3]، كأنَّك مناظَرةٌ تجري بين العزيمة في الإنسان والعزيمة في الطبيعة، وإذْ أنتِ بين ذئابِ الأعاصيرِ، ونُمورِ السحابِ[4] وسِباعِ الغيم ذواتِ اللِّبدة الكثيفة المُتَشَعِّثَةِ، كأنَّكِ بِصوتِكِ وأزيزكِ تُطلقينَ على وحوشِ الجوِّ مِدفعاً رشاشاً يترُكها صَرْعَى.

وإذْ تراكِ الريحُ فتقولُ عنكِ: ريحٌ صَنَعَها الإنسان. وَيَراكِ النجمُ فيقول: نجمٌ أفلتَ من النِّظام الأرضيّ. وتَراكَ الملائكةُ فتقول: ويحكَ يا ابنَ آدمَ، كأنَّك بما خَلقَهُ العقلُ تطمعُ مِنَّا في سَجْدَةٍ أخرى كالتي سجدْناها لِآدمَ يومَ خلقَهُ الله.

... أعلمْتِ إذْ أنتِ كذلك يا «فائزة»، أنَّ التاريخَ المصريَّ سيحوِّلُكِ من

---

(١) اضطراب الرياح المتقلبة.

(٢) المتغيمة.

(٣) كبة الشتاء: شدته ودفعته.

(٤) يقال: ريح متذئبة؛ إذا كانت تجيء من هنا مرة ومن هنا مرة كما يساور الذئب، فوضعنا من هنا كلمة ذئاب الرياح، والنمر من السحاب: قطع صغار متدان بعضها من بعض، تشبيهاً بجلد النمر، فوضعنا منها نمور السحاب.

طيَّارةٍ إلى آيةٍ كآية بَدْءِ الخَلْق، لأنَّ فيكِ بَدْءَ الطَيران في مصر؟

* * *

سلاماً يا فاتحَ الجوِّ المصري. لقدْ أجالتِ الأيامُ قِداحَها فخرجَتِ القُرعةُ عليك، وأوحَى إليك الواجبُ آيةَ: بسم الله مَصْعَدُها ومَجراها.

وطِرْتَ فإذا أنت بها عابرٌ فوقَ الحاضرِ لِتجيئَنا من جانبِ المستقبل.

وهبطْتَ علينا كأنَّكَ في بَريدِ السماءِ كتابُ مَجْدٍ حَيٍّ لِلوطنيَّة الظافرة.

بلْ كِتابُ قصَّةٍ رائعةٍ ألَّفتْها العواصفُ من فنَّين: ثورة الجوِّ وثورة نفسِكَ المصريَّة. وحَكَتْها في صوتين: زَفيف الطيَّارة وصَرْخة ضميرِكَ الوطنيّ. وجعلتْها فصلين: أنتَ والمجهول. ألَا حسبُك مجداً أنْ يحيا الشعبُ كلُّهُ بضعةَ أيام في قصتِك!

* * *

فعلى مَهْدِ الجوّ، وفي حَريرِ الشعاع، وتحتَ كِلَّة السحاب ـ وُلِدَ لِمصرَ يومٌ تاريخيّ.

وخرجَتِ التهانيءُ التي طال احتباسُها في القلوبِ المصريَّة لا يُفْرَجُ عنها لأنَّ سجَّانَها ظُلْمُ السياسة.

واتجهَتْ أفراحُ شعبٍ كاملٍ إلى الفتى الجريءِ الذي رَمَتْ به هِمَّتُهُ فوقَ هاوية الموتِ فتخطاها.

وتلقَّى شعورُ الأمَّة رسوله المِقدامَ الذي لم يكنْ له ملجأً في خِطَارِه إلَّا شعورَهُ بهذه الأمَّة.

وارتجَّ الوادي كلّهُ كأنَّه غِمْدٌ يتقلقلُ حينَ يُسَلُّ منهُ السيف.

ثُمَّ أُهْدِيَتْ كلمةُ مِصرَ لأبنِها الذي كتَبَ في جوِّها الكلمةَ السماويَّةَ الأولى. وكانَتْ ساعةٌ تلاشَى عندَها الزمنُ فارتفعَتْ منه أربعةُ آلاف سنةٍ وهتَف معنا الفراعنة: بوركْتَ يا «صدقي»!

* * *

لِله درُّكَ أيُّما ابن عزيمة! كأنَّما كَشفتَ أهاويل الوحْيّ وهبطْتَ في سحابةٍ مُجَلْجِلةٍ إنْ لم تحملْ كتاباً مُنزَلاً فكأنَّما حملتْ شخصاً منزلاً.

ولعلَّكَ رسولُ الغَيم العابِسِ لِهذا الجوِّ المصريِّ الذي يضحكُ دائماً ضحكةَ الفيلسوف الساخرِ في حين أصبَحتِ الحياةُ قوةً لا فلسفةٍ. . .

ولعلَّكَ مبعوثُ البرقِ والرعدِ لِهذا السكون النائم الذي يطوى كلَّ يومٍ في طيِّ النسيان ما حَدَثَ في اليوم الذي قبله . . .

ولعلَّكَ نبيُّ الجِدّيةِ والمرارةِ لِهذه الحلاوةِ النيليَّةِ المُفْرِطةِ التي كادَ منها الشعبُ أنْ يكونَ سُكَّرَ أخلاقٍ يُذابُ ويُشْرب . . .

ولعلَّكَ تفسيرٌ مصحّحٌ لِعقيدتِنا المغلوطةِ في القضاءِ والقدر، أنَّ القضاءَ أنْ تُقْدِمَ بِلا خوف، وأنَّ القدرَ أنْ تَثِقَ بِلا مُبالاة.

أمَا ـ والله ـ لقدْ غَمرْتَ الشعبَ بموجةِ هواءٍ جديدةٍ جِئْتَ بها في جناحَيْك، ونفخْتَ روحَ طيَّارتِكَ المجيدةِ في القلوبِ فجعلْتَها كلَّها ترفرِفُ كأنَّ لكَ في ضلوعِ كلِّ مِصريٍّ طيَّارة.

أجنحةُ المدافعِ المصرية(1)

إِسْتَجْنحي(٢) يا مَدافعَ مِصرَ وطيري، إنَّ المجدَ يطلبُ مِنَّا إنسانَهُ البرْقيّ. لقد مَدَّتْ لُغةُ القوَّةِ في هذا العصرِ مَدَّها حتى أصبحَ الطَّيرَانُ بعضَ معاني المشيْ، ولم يَعدِ العالمُ يدري كيفَ تكونُ الصورةُ الأخيرةُ التي يستقرُّ فيها معنى إنسانِه.

فَلْتَتَمَجَّدْ مِصرُ بإنسانِها البَرقِّي الذي تَخرج النارُ بيدِه من أغْراضِ السحاب، وتُفَرقِعُ في أصابعِه هَزّاتُ الرَّعد، ويجعلُ في قُبّةِ السماءِ صَلْصَلةً وجَلْجَلة، ويحملُ الاسمَ المصريَّ إلى مُعلَّقِ النجم، فيضعُ له هناكَ التعريفَ الناريَّ الذي وضعتْهُ الدولُ العظمى لأسمائِها.

وَلْتتمجدْ مصرُ بإنسانِها البرقيِّ الذي يُشْعِرُها حقيقةَ العلوِّ العالي، والعُمقِ العميق، والسَّعَةِ التي لا تُحدُّ؛ وَيزيدُ في معاني أحيائِنا معنًى جديداً لأحياءِ السُّحب، وفي معاني أمواتِنا معنًى جديداً لِموتَى الكواكب.

إنسانٌ برقيٌّ يُتمِّمُ بشجاعتِه في السماء بُطولةَ فلَّاحِنا الإنسان الشمسيِّ في الأرض، ويعلو بِكِبرياءِ مصرَ في ذِرْوةِ العالمْ، فتظهرُ طيَّاراتُها العظيمةُ قدرةً في الجوِّ كما ظَهرتْ آثارُها العظيمةُ قدرةً في الثرَّى.

إنَّها مصر، مصرُ القادرةُ التي سَحَرَتِ القِدَمَ بقوَّتِها وفنِّها، فَبقِيَ فيها على حالِه وجلالتِهِ، وانهزمَ الدهرُ عنهُ كأنَّه قوةٌ على قوةِ الزمن نفسِها.

فاستَجْنِحي يا مدافعَ مصرَ وطِيري. إنَّ المجدَ يطلبُ مِنَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

ولمَّا فُتِحَ السِّجلُّ ذاتَ صباحٍ لِتكتبَ مصرُ أسماءَ الفَوْجِ الأولِ من نُسُورِها الحربيِّين، صاحَ مجدُها الخالدُ من أعماقِ التاريخ:

---

(١) كتبت في احتراق أول طيارة حربية مصرية في قدومها إلى مصر من أوروبّا، وقد احترق فيها الشهيدان: (حجاج ودوس)، وذلك في شهر ديسمبر سنة ١٩٣٣.

(٢) أي اتخذي الأجنحة، ولم تأت الكلمة في اللغة بهذا المعنى، ولكنا استعملناها فيه قياساً على كلامهم.

«أضرمي الشعلةَ الآدميَّةَ الأولى يا مصر، وافتحي القبرَ الجويَّ الأول، وألحِدي فيه من عنصرَيك المسلمينَ والأقباط، وضَعي الحياةَ في أساسِ الحياة، واستقبلي عصرَكِ الجديدَ بأذان المسجدِ ودقِّ الناقوسِ لِيُبارِكَهُ الله، ولْيتلقَّ الشعبُ أول طيَّاريه بقلوبٍ فيها رُوحُ المعركةِ، وأكبادٍ عرفَتْ مَسَّ النار؛ ولا ينظرَنَّ إلى طيَّاراتِه الأوَلِ إلَّا بعدَ أنْ ينظرَ النعشين فيرى مجدَ الموتِ في سبيلِ الوطن، فتسطعَ نظراتُه ببريقِ الكِبرياءِ، ولمعةِ العزيمةِ، وشُعاعِ الإيمان؛ ويأتَلِقَ فيها النورُ السماويُّ الذي يجعلُ الناسَ في بعضِ ساعاتِهِم كواكبَ نورِ صلاةِ الشعبِ على موتاهُ الشهداء».

* * *

واستجابَ القَدرُ لِصوتِ المجد، فَالتَجَّ الظلامُ في وَضَحِ الصبح، وانطفأ سِراجُ النهارِ في قبةِ الفلك، وأطْبقَتْ نواحي الجوِّ إطباقَ ليلةٍ تَساقَطَتْ أركانُها وأقبل الضبابُ يَعترِضُ اعتراضَ جَبَلٍ عائم يتَذَبْذَبُ في بحر، واستأرَضَ السحابُ فتَخلَّى عن طبيعتِه السماويَّةِ الرقيقة، وتذامَرتِ العناصرُ على القِتالِ يَحُضُّ بعضُها بعضاً، وتغشَّتِ السماءُ بوجه الموت: كلَّحَ فاربَدَّ وانتفخ، وتكسَّرَتْ فيه الغُضونُ كلُّ غَضنٍ كِسْفَةُ ظلام، وعادَ أوسعُ شيءٍ أضيقَ شيء، فكان الفضاءُ كصدرِ المحتضرِ: ليس معهُ إلَّا عمْرُ ساعةٍ وأنفاسُها.

وابْتَدَرَتْ إلى مجدِ الموتِ الطيَّارةُ المصريةُ الأولى؛ وكان فيها إنكليزيان يقودانِها فأباها الموتُ، فذهَبتْ فانتحرتْ أسفاً وتردَّتْ متحطمة، وانسلَّ الرجلان من مخالبِ الردى، وكانا في الطيارةِ كورقتين من النَّبْتِ في فَم جَرادةٍ هَمَّتْ تَقْضِمُهما...

وتَسْتَبِقُ الثانيةُ فإذا فيها وَديعةُ الكرم من عُنْصُري مصرَ: «حجَّاج ودوس»[(١)] وكان سرّاً من أسرارِ مصرَ اجتماعُهمَا في مَداحِضِ الغَمام ومزالِقِه، لِيكونا هديَّةَ مصرَ الأولى إلى مجدِها الحربيّ، ثُمَّ لِيكونا هديةَ المجدِ إلى إحساسِ هذا الشعبِ يُحسُّ منهما العالَمَ المنطَويَ له في مستقبلِ النصر.

واعتسَفَتْ طيارةُ الشهيدين طريقَ الفَناءِ ومتَاهةَ الحياة، فذَهَبَتْ عنها مَعارِفُ الأرض، وعُمِّيَتْ عليها معالِمُ السماء، وخرجَتْ من تصريف أيدي البطَلين إلى تصريف أجلِهِما، وأصبَحتْ كأنَّها تطيرُ في الأنفاسِ الباقيةِ لهما؛ فما تتقدَّمُ ولا تتأخَّر؛ ولم تكنْ طيارةً تحملُهما، بلْ جناحاً ممدوداً لهما من رحمةِ الله.

---

(١) هما فؤاد حجاج، وشهدي دوس؛ وكان في الطيارة الأخرى التي تحطمت المستر بليت، والمستر سميث.

ثُمَّ اجترَّها الموتُ إلى غَوْرٍ، فانحطَّتْ من الهواءِ جانحةً كالطائرِ يطلُبُ ملجأً في العاصفة، ثُمَّ انتهضَتْ واثبةً، وتمطَّرَتْ منقلِبةً، فاشتعَلتْ فاستعَرَتْ فأنضجَتْ راكبَيْها، رحِمهُما الله!

وكثيراً ما يكون منظرُ الحزن في الحياةِ هو انهماكَ الحياةِ في عملٍ جديدٍ تُبدعُ منهُ السرورَ والقوَّة. احترقَ البَطَلان لِتتسَلَّمَ مصرُ في نعشيهما رماداً لنْ يُبْنى تاريخُ العِزَّةِ الوطنيَّةِ إلَّا به.

فاستجْنِحي يا مدافعَ مصرَ وطِيري. إنَّ المجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيَّ.

* * *

صنعَتْ النارُ الآدميَّةُ الحقيقة، ووضَعتْ لنا الاسمَ البديعَ الذي نُطلقُهُ على طيَّارينا الأبطال، فلا تُسَمُّوهم نُسُورَ الجوّ، ولكنْ سمّوهم «جَمَراتِ الجوّ».

صنعَتِ نارُنا الحقيقة، وأوحَتْ إلينا أنْ نستبدل من أنفسِنا حالةً بحالةٍ، وأنْ نُفاجىءَ شعورَنا الحالمَ فنصدمَهُ بآلام اليقَظةِ المرّة، وأنْ نغيِّرَ قاعدةَ الحياةِ في التربيةِ المصريةِ فلا تكون: العيشَ العيش، ولكن القوَّةَ القوَّة.

صنعَتِ النارُ الحقيقة، وأثبتَتْ لنا أنَّ الحياةَ إنْ هي إلَّا أداةٌ لِلحيّ، وليس الحيُّ أداةً لِلحياة، فَلْيتصرَّفْ بها على قوانين الروحِ وآمالِها فيسمُوَ وتسمو، ولا يَدَعْها تتصرفُ على مذاهبِ أقدارِ المادةِ وتصاريفِها فيُذلَّها وتُذلَّه. وفي قانون الروح: لا قيمةَ لِعالم الأشياءِ إلَّا كما تَصْلُحُ لنا؛ وفي قانون المادَّةِ وضَغْطَةِ الحياة: كما تَصْلُحُ لنا وكما نصلُحُ لها...

بَلى، قد صنعَتِ النارُ الآدميَّةُ الحقيقةَ، وأعطتْنا قصةَ الحريَّةِ كاملةً في معنًى واحد: وهو أنَّ هذه الحريَّةَ لِعاشقيها كأجملِ الجميلاتِ لِلمتنافسِينَ عليها: جمالُها متوحِّش، وخَلَاعتُها مُفترِسة، وظَرْفُها سَفَّاكٌ لِلدم.

فاستجنِحي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إنَّ المجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيَّ.

* * *

وإلى السماءِ يا «جمَراتِ الجوّ»، فإذا استويْتُم على السحاب، فليسَتِ الطيَّارةُ ثَمَّ طيَّارةً، بلْ حقيقةً حيةً عاملةً لِلمجد، فلْتحملْ معناها المصريَّ من بطَلِها المصريّ.

وإذا سبحْتم في مَهْبِط القدَر، فليس الطيَّارُ ثَمَّ طياراً، بل حياةً عبقريَّةً أرسلتْها مصرُ تستنزلُ لِلحياةِ أقداراً سعيدة.

وإذا خُضتُمْ في المعْرَكِ الضَّنكِ تتبعثَرُ فيه الآجالُ على الرياح، فليس الجسمُ المصريُّ هناك من لحم ودم، بلْ ناموساً طبيعيًا ماضياً إلى غاية.

وإذا تَقَاذَفْتُم في بحر الشمس، فأنتم هناك على شِباكٍ طرحْتُموها لِصيدِ أيامٍ مضيئةٍ تلتمِعُ في تاريخِ مصر.

وإذا نفذْتُم من أقطارِ السماوات، فانظروها بأعينِكم معاليَ مصر، وافهموها بقلوبِكم ذاتيةَ الوطن المِصريِّ تعلو وتعلو ولا تزالُ أبداً تعلو.

إنَّما الطيَّارةُ وسلاحُها وطيَّارُها تأليفٌ من الإنسانيَّةِ والعناصِر، معناهُ في العزيمةِ «لا بدَّ». ومتى هَدَرَتِ الطيارةُ هَديرَها فإنَّما تقولُ للبطلِ منكم: هَلُمَّ من عالٍ إلى أعلى، إلى أكثرَ علوًا، إلى أقصى حدودِ الواجبِ على النفسِ حينَ يأخذُ الواجبُ الكلّ وحينَ تُعطي النفسُ الكلَّ.

فاستجْنحي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إنَّ المجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

الطماطمُ السياسي...

كان (م) باشا(*) رحمَهُ الله ـ داهيةً من دُهاةِ السياسةِ المصريَّة، يلتوي مرةً في يدِها التواءَ الحبل، ويستوي في يدِها مرةً استواءَ السيف، ولا يُرى أبداً إلَّا منكمِشاً مُتَحرِّزاً كأنَّ له عدوًّا لا يدري أين هو ولا متى يقتحِمُ عليه، ولكنَّه كغيرِه من الرؤساءِ الذين كانوا آلاتٍ لِلكذِبِ بين طالبِ الحقِّ وغاصبِ الحقِّ ـ يعرفُ أنَّ عدوَّهُ كامنٌ في أعمالِهِ.

وكان ذكيًّا أريباً، غيرَ أنَّ مُلابَسَتَهُ لِلسياسةِ الدائرةِ على مِحورِها، جعلتْ نصفَ ذكائِه من الذكاءِ ونصفَهُ من المكر؛ فكان في مُراوغتِه كأنَّ له ثلاثةَ عقول: أحدُها مصريّ، والآخرُ إنجليزيّ، والثالثُ خارجٌ من الحالين.

وبهذا تقدَّمَ وعاشَ أثيراً عند الرؤساءِ من الإنجليز، واستمرَّتْ مجاريه مُطَّرِدةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة، إذْ كان حَسَنَ الفهْم عنهم، سريعَ الاستجابةِ إليهم؛ يفهمُ معنى ألفاظِهم، ومعنى النيَّةِ التي تكونُ وراءَ ألفاظِهم، ومعنًى آخرَ يتبرعُ هو به لألفاظِهم. . . فكان هو وأمثالُهُ في رأيِ تلك السياسةَ القديمة، رجالاً كالأفكار: يُوضعُ أحدُهم في مكانِه من الحكم كما تُوضعُ صِيغةُ الشكِّ لإفسادِ اليقين، أو صِيغةُ الوهم لِتوليدِ الخيال، أو صيغةُ الهوى لإيجادِ الفِتنة.

* * *

وكان صديقي (فلانٌ) ـ رحمَهُ الله ـ صاحبَ سِرِّه (السكرتير)، وقدْ وَثِقَ به الباشا حتى أنَّهُ كان يُعالِنُهُ بِما في نفسِه، ويبثُّهُ همومَهُ وأحزانَه، ويرى فيه دنيا حرَّةً يخرجُ إليها كلَّما ضاقَتْ به دنيا وظيفتِه، ويستعيرُ منهُ اليقينَ أحياناً بِأنَّهُ لا يزالُ مِصريًّا لم يتمَّ بعدُ تحويلُهُ في الكرسي. . .

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

فحدَّثني الصديقُ بعدَ موتِ هذا الباشا قال: إنَّهُ دعاهُ يوماً لِيُفاتِحَهُ الرأيَ في أمرٍ من أمورهِ، ثُمَّ قال له: إنَّ الرئيس الإنجليزيَّ غيرُ مطمئنٍ إليكَ لأنَّ حقيقةً من الحقائقِ الصريحةِ ظاهرةٌ على وجهِك، فأنت تنظرُ إليه وكأنَّكَ تقولُ له بعينيك إنَّكَ مصريٌّ مستقل.

قال صاحبُ السرّ: لئِنْ كان ذلك ما يُغضِبُهُ إنَّ الخطْبَ لهيِّن، فلسْتُ أنظرُ إليه بعدَ اليوم إلَّا من وراءِ نظَّارةٍ سوداء...

فضحكَ الباشا وقال: يا بُنيَّ، هذا الإنجليزيُّ عندَنا كالشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ووالله يا بُنيَّ إنِّي لأشدُّ أنفَةً منك، وإنَّ صدري لشَجِيٌّ مِمَّا أنا فيه من هذا الكرْب، ولكنَّنا ـ نحن الشرقيينَ ـ قد ضِعْنا منذُ فقدْنَا الشخصيَّةَ الاجتماعيَّة.

أتُراكَ تفهمُ شيئاً لو قلْتُ لك: رجلٌ، أسد، جبلٌ، مدينةٌ، أسطول؟ إنَّ تركيبَنا الاجتماعيَّ شيءٌ كهذا الكلام: فيه من ضخامةِ اللفظِ بقدرِ ما فيه مِن انحلالِ المعنى واضمحلالِه. ولِكلِّ كلمةٍ إذا أفردِتْ معنًى صحيحٌ يقومُ بها وتقومُ بهِ، غيرَ أنَّهُ يتحوَّلُ في الجملةِ إلى معنًى كَلَا معنى.

أصبحَ الشرقيُّ يعيشُ في أمَّتِه على قاعدةِ أنَّهُ منفرِدٌ لا صِلةَ بينَهُ وبين الأطراف لا في الزمان ولا في المكان، ونَسِيَ معنى الحديثِ الشريف: «إعملْ لِدنياكَ كأنَّكَ تعيشُ أبداً». فماذا كان يُريدُ أعظمُ المصلحينَ الاجتماعيينَ من قوله: «كأنَّك تعيش أبداً»؟ إلَّا أنْ يقرِّرَ لِأمَّتِه أنَّ الفردَ ينبوعُ الأجيالِ المُقبلةِ كلِّها، فلْيعملْ لها ولِنفسِه كأنَّها موقوفةٌ عليه وكأنَّهُ مستمرٌّ فيها.

هذه حِكمةٌ إسلاميَّةٌ دقيقةٌ، عندَنا نحن لفظُها ولسْنَا نعرفُ معناها، وعند الإنجليزِ معناها ولا يعرفون لفظَها. أهُمُ المسلمون أم نحن؟

وعلى قاعدةِ الانفرادِ انفردَ كلُّ شيء؛ فآثرَ الشرقيُّ حياتَهُ على وطنِه، وقدَّمَ لذَّتَهُ على واجبِه، وتعامَل بالمالِ في مواضعِ المُعاملةِ بالأخلاق؛ وكان طبيعيًا مع هذا أنْ يَختصِرَ الدينَ اختصاراً يجعلُهُ مِقداراً بين مقدارين، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دين؛ وبذلك يُناسبُ فرديتَهُ ويقعدُ تحتَ حُكمِه وهو خارجٌ عليه؛ فترى الرجل من هذه الملايين يؤمنُ بالله وهو يَحلِفُ به كَذِباً على درهم، ويُصلِّي ويَفْجُرُ في يومٍ واحد، ويتعبَّدُ في نفسِه ويخونُ سواهُ في وقت معاً.

ومتى كانتِ الحالةُ النفسيَّةُ لِلأُمَّةِ هي هذه الفرديةَ ومصالحَها ودواعيَها،

كان الكذِبُ أظهرَ خِلالِ هذه الأمَّة، إذْ هو انفرادُ الكاذبِ بحظِّه ومصلحتِه وداعيتِهِ؛ ولا يكذبُ عليك إلّا مَنْ يرجو أنْ تكونَ مغفَّلاً، أو من قدَّرَ في نفسِه أنَّ المعاملةَ العامَّةَ في الأمَّةِ هي على قاعدةِ المغفلين. . ويكذبونَ في هذا أيضاً فيُسمونَهُ حِذاقاً وبراعةً (وشطارة).

وإذا عَمَّ الكَذِبُ فشا منهُ الهزل؛ فكلُّ كاذبٍ هازل، وهلْ يَجِدُ الكاذبُ وهو يكذبُ إلّا إذا كان مجنوناً؟ ومنَ الهَزلِ ضَرْبٌ هوَ المباسطةُ بالكذب، ومنه ضَرْبٌ من كذبِ الحقائق، ومنه مِنْ كذبِ الخيال، وكيفما دارتِ الحالُ لا تجدُهُ إلّا كذباً.

ومتى صارَ الكذِبُ أصلاً يعْمَلُ عليه، تقرَّرَ عند الناسِ أنَّ الكلامَ إنَّما يُقالُ لِيُقال فقط. أفلسْتَ ترى الرجُلين إذا أخبرَ أحدُهما صاحِبَهُ بالخبرِ فيه شيءٌ من الغرابةِ أوِ البعد، لا يكلِّمُهُ الآخَرُ أول ما يتكلَّمُ إلّا أنْ يسألَهُ: صحيح؟ صدق؟

ولا أضرَّ على الأُمَّةِ من هذه العقيدة - عقيدةِ أنَّ الكلام يُقالُ لِيُقال فقط - فإنَّها هي طابَعُ الهَزلِ على أخلاقِ الأُمَّة، وعلى كلِّ أحوالِها، وعلى حكومتِها أيضاً.

ومن الهَزلِ والكذبِ ترانا مبالغينَ في كلِّ شيء، حتى ليكون لنا الواحدُ كالآحادِ في غيرِنا فنجعلُهُ مائةً بصِفْرين، نجيءُ بأحدِهما من اعتيادنا الكذبَ على الحقيقة، ونجيءُ بالآخَرِ من حقيقةِ إفلاسِنا.

هذه مبالغةٌ خطِرة، وأخطرُ ما فيها أنّنا بها نُريدُ المبالغةَ في الدَّلالةِ على الأشياء، فتنقلبُ مبالغةً في الدلالةِ علينا نحن، وعلى كَذِبِ طِباعِنا، وعلى فَوضى العقْلِ فينا. نعم وحتى تُثبتُ أنّنا لا عزْمَ لنا، من كونِها مبالغةً لا تدقيقَ في معناها؛ وأنْ لا صبرَ لنا، من أنَّها لا ثباتَ لِحقيقتِها المهزومة؛ وأنْ لا شِدَّةَ لنا في طلبِ الحقّ، لأنّنا بها من أهلِ الغفلةِ في وصف الحقّ؛ وأنّنا لا نتمثلُ العواقبَ إذْ نُرسلُ الكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكون من عاقبتِه.

وأيسرُ ما يُفهمُ من هذه المبالغاتِ التي أصبحَتْ طريقةً من طرقِ الشعبِ في التعبير، أنَّ هذا الشعبَ لا يصلحُ في شيءٍ إلّا بالحُكُومةِ، فهو نفسُهُ كالمبالغة، والحكومةُ له كالتصحيح؛ وهذه هي العِلَّةُ في أنَّ الشعبَ الكَذوبَ يلجأ إلى حُكومتِه في كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في العمل، كما أنَّها هيَ العِلَّةُ في أنَّ حُكومتَهُ تُكذِبُ عليه بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في السياسة.

ومن أثرِ الكذبِ الشعبيّ والمُبالغةِ الشعبيَّة، ما نراهُ من اهتمام كلِّ فردٍ بِمَا يقولُ الناسُ عن أعمالِه، فيُديرُها على ذلك وإنْ قلَّتْ منفعتُها، وإنْ فَسَدتْ

حقيقتُها، وإنْ جَلبَتْ عليه من الضررِ في مالِه ونفسِه ما هي جالبة؛ فقاعدتُهم هي هذه: ليس الشأنُ في الحياةِ لِلعملِ في نفسِه، ولكنْ فيما يُقالُ عنه؛ فإنْ لم يُقَلْ شيءٌ فلا تعملْ شيئاً. . .

هذه يا بُنيَّ أمَّةٌ لا يكون حكّامُها إلَّا مبالغات أيضاً. . .

* * *

قال صاحبُ السرّ: وارتفعَ من الطريقِ صوتُ بائعٍ يُنادي على سِلعتِه: أحسنُ من التفَّاحِ يا طماطم. .

فضحكَ الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسيِّ العَفِن: إنَّهُ ليس تفاحاً وحَسْبُ، بل هو أحسنُ من التفاح. .

إنَّ الأُمَّةَ لنْ تكونَ في موضعِها إلَّا إذا وضعَتِ الكلمةَ في موضعِها، وإنَّ أول ما يدلُّ على صِحَّةِ الأخلاقِ في أمَّةٍ كلمةُ الصدقِ فيها، والأُمَّةُ التي لا يحكمُها الصدقُ لا تكونُ معها كلُّ مظاهرِ الحُكْم إلَّا كَذِباً وهَزْلاً ومُبالغة.

البك والباشا

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: جاءَ يوماً إلى زيارةِ الباشا رجلٌ دخل عليَّ متهلّلاً مُشرِقَ الوجه كأنَّهُ مُضَاءٌ من داخلِه بشمعة... ويترنَّحُ عِطْفاهُ كأنَّما تهزُّه أسرارُ عظَمتِه؛ ويمشي متخلّعاً كالمرأةِ الجميلةِ التي أثقلها لحمُها وأثقلتْها المعاني الكثيرةُ من أعين الناظرينَ إليها، وعلى شفتيه خيَالٌ من فكرةِ هؤلاءِ الكُبراءِ المغرورينَ الذينَ لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيراً إلَّا ليُعْلِمَهُ أنَّهُ هو كبير، فيكون في الأمرِ شيئان: الأمرُ واللؤم؛ وأقبل عليَّ في هيئةٍ شامخةٍ لو نطَقَتْ لقالت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾. سبْحِ الله الذي خلقَ في الأسَدِ شعرةً جبَّارةً خرجَ منها الأسَدُ كلُّهُ.

سُبحانَ الله ولا إلهَ إلَّا الله. هذا (فلان باشا) الذي قرأتُ في الصحف أمسِ أنَّهم أنعموا عليه برتبةِ الباشوية؛ خلقَهُ الله من ترابٍ وحوَّلتِ الرتبةُ هذا الترابَ الذي فيه إلى ذهبٍ خالص... ينظرُ إليَّ وبرغمِه أنْ تَقِفَ عيناهُ عليَّ وعلى الحائط؛ ولا تجدُ نفسُهُ المزهوَّةُ سبيلاً إلى التعبيرِ عن الرتبةِ إلَّا هذا الازدراءَ المنبعثَ من شخصِه العظيم لِمَنْ لم يكُنْ كشخصِه. ما بين أمسِ واليوم زادَ هذه الزيادةَ الآدميَّة، أو كأنَّما كانَتْ صورتُهُ خُطوطاً فقطْ فوُضِعَتْ فيها الألوان...

(باشا)! هذه الباءُ وهذه الألفُ وهذه الشينُ الممدودةُ ليسَتْ حروفاً خارجةً من الأبجدية العامَّة؛ فإنَّ الأبجديةَ قد تجعلُ الباءَ في بليدٍ مثلاً، والألفَ في أبله، والشينَ الممدودةَ في شاهدِ زُورٍ مثلاً مثلاً... بلْ تلك حروفٌ من حروف الدولة، منتزعةٌ من قوَّةٍ قادرةٍ على أنْ تجعل لِحياةِ صاحبِها من الشكلِ ما يُسْبِغُهُ الفنُّ على الحجَرِ من شكلِ تِمثالٍ يُنْصَبُ لِلتعظيم.

قال: وكنتُ أعرفُ هذا الرجل، وهو رجلٌ أميٌّ لا يُحسنُ إلَّا كتابَةَ اسمِه كما تكتبُ الدَّجاجةُ في الأرض... فكانَتِ الرتبةُ عليه كإطلاقِ لفظِ الحديقةِ على صخرةٍ من الصخورِ الصَّلْدة؛ وهذا مِمَّا يحتملُهُ المجازُ بَعلاقةٍ ما؛ ولكنَّ الذي لا يَسُوغُ في المجاز، ولا في مبالغاتِ الاستعارة، ولا في خُرافاتِ المستحيلِ، أنْ تزعمَ الصخرةُ

لِلناسِ أنَّ لفظَ الحديقةِ الذي أطلِقَ عليها قد أنبتَ فيها أشجارَ الحديقة. . .

* * *

قال صاحبُ السرّ: واستأذنتُ له على الباشا فسهَّل له الإذنَ وقال: هذا رجلٌ أصبحَ كالورقةِ المبصومةِ بخاتَم الدولة، فَلْتكُنْ ما هي كائنةٌ فإنَّ لها اعتبارَها. ثُمَّ تلقَّاهُ تلقِّيَ الهازلِ المتهكِّم وقال له: أهنئُكَ بالنَّحْوِي. . . مُبَارَكون يا باشا. وأقبل عليه وبَسَطَ له وجهَه.

وكان في الباشا دُعابةٌ ظريفةٌ يُعرفُ بها، وهو كثيرُ النوادرِ والمُلح، ولهُ خَصِيصةٌ عجيبةٌ، فيكون بين يديه كُدْسٌ من الأوراقِ التي تُعرضُ عليه ينظرُ فيها ويقرؤُها ويتدبَّرُها، وهو في ذلك يستمعُ إلى محدّثِه ويُراجعُهُ ويردُّ عليه، فيُصرِّفُ الناسَ والأوراقَ في وقت واحد، ويستعملُ ناحيتين من فكرِه استعمالاً واحداً لا يُخِلُّ بالإصابةِ في شيءٍ من هذه ولا من تلك.

ثُمَّ قال لِلباشا الحديثِ وعينُهُ إلى ما بين يديه: هذه أوراقُ سرقةِ ثورٍ عظيم، فكم يُساوي الثورُ العظيمُ الآن. . .؟

قال صاحبُنا الذكيُّ الفَطِن: إذا كان من الثيران التي تُعرضُ في المعارضِ وتنالُ المداليات الذهبيةَ فقدْ يَبْعُدُ سعرُهُ ويُغَالى بهِ.

قال الباشا: نعم نعم، إنَّ من الثيران ثيراناً يُنْعَمُ عليها بالأوسمة، ولكنَّ هذا الثور الذي سألْتُك عنهُ يا باشا هو ثورُ محراثٍ لا ثَورُ معرض. . .

قال الآخر: إذا كان ثورَ مِحراثٍ فمثلُهُ كثيرٌ فلا يكون ثوراً عظيماً كما قلْتَ وليسَتْ له إلَّا قيمةُ مثلِه.

قال الباشا: أراني أخطأت، ولعَنَ الله العَجَلة، فهذه أوراقُ سرقةِ حمار!

* * *

قال صاحبُ السرّ: وانصرفْتُ عنهما بأوراقي، وقد رأيْتُ يدَ الباشا مملوءةً لِصاحبنا بتحيَّات كلُّها صفَعَات؛ فلم يكنْ إلَّا يسيرٌ حتى خرجَ مبتهجاً يَميدُ السرورُ بعِطْفيه. ثُمَّ دعاني الباشا ودفَع إليَّ بِطاقةً بالحاجةِ التي جاءَ فيها الرجل، ثُمَّ قال:

يا ليت لنا في ألقابِ الدولةِ لقبَ (رحمَه الله). . . يُنْعَمُ به على مثلِ هذا. أتدري يا بُنيَّ أنَّ هذه الرتَبَ وهذه الألقابَ لم تكنْ في القديم إلَّا كوضعِ علامةِ الشرِّ على أهلِ الشرِّ لِيهابَهُمُ الناسُ، حتى كأنَّما يُكْتَبُ على أحدِهم من لقبِ بك أو باشا: مُلْحَقٌ بالدولة. . .

وكان الشعبُ أميًا جاهلاً لا يستطيعُ الإدراكَ ولا يُحسنُ التمييز، فكانَتِ الألقابُ كالقوانين الشخصيةِ الموضوعةِ في صيغةٍ موجزَةٍ مفهومةٍ متعيِّنةِ الدَّلالة، وكان كلُّ مَنْ يحملُ لقباً من الحكومةِ يستطيعُ أنْ يقول للناس: لقد وضعَت الحكومةُ كلمةَ الأمرِ في شفتيّ. . .

وكأنَّ اللقبَ إعلانٌ من الحكومةِ المستبِدَّةِ لِشَعبِها الجاهل: إنَّ هذا البك والباشا مَنْ يحقُّ له أنْ يُحترم.

من الهزْلِ أنْ يُشترى اسمُ النصرِ الحربيِّ أو يُوهَبَ أو يُعار؛ وأقبحُ منه في بابِ الْهزْلِ أنْ يُنعمَ على مثلِ هذا الأميِّ بلقبِ باشا. وأنا أعرفُ أنَّهُ قد بَذَل في سبيلِه ما بَذَل، وأضاعَ ما أضاع، فكأنَّ الذين مَنحُوهُ إيَّاهُ لم يفعلوا شيئاً إلَّا وضعَ توقيعِهِم على أخْذِ الثمن.

ولقدْ أصبحَ الرجلُ تحتَ تأثيرِ الكلمةِ العظيمةِ مخبولاً بسحْرِها الوهميّ، فحسِبَ ذلك إدخالاً له في وظيفةِ كلِّ حاكم، وإشراكاً له في الحكم متى اقتضتْهُ مجاري أمورِه وأحوالِهِ، أو حاجاتُ أسبابِه وأتباعه؛ وها هو ذا قد جاءَ يطلبُ حقَّه، فإنَّ مثلهُ لا يفهمُ من لقبِ (باشا) إلَّا أنَّ الحكومةَ قد سوَّغَتْ سلطتَهُ الظهورَ والعمل، فمدَّتْ باعَهُ وقوَّتْ أمرَهُ ونوَّهَتْ باسمِهِ لِمصالِحِها وعُمَّالها؛ فهو عند نفسِه قدِ الْتَحَمَ منذُ اليوم بالنسبِ الحكوميّ، وفي كلمةٍ واحدة، هو قدْ وُلِدَ من بطن الحكومة. . .

ألا ترى أنَّ الشعبَ لوِ استردَّ سُلْطَتَهُ الكاملةَ، وأنَّ الناسَ لو أيقنوا أنَّ الألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ من الأمرِ والنهي والوسيلةِ والشفاعةِ، لمَا بقيَ مَنْ يعبأ بها، ولكان حاملُها هو أول مَنْ يسخرُ منها؟

فهي إذن شَعْبَذَةٌ[1] من الحكومةِ وتضليلٌ في مثلِ هذا الرجلِ الأميّ، وهي ضربٌ من التهويلِ والمُبالغةِ في سواهُ من الكُبراءِ والعُظماء، كأنَّ الوزيرَ الذي يُلقَّبُ بالباشا، يجعلُ فيه لقبُهُ وزيرين، وكأنَّ مثل هذا الأميِّ المغفَّل، يجعلُ فيه لقبُهُ شخصاً، آخرَ غيرَ الأميِّ المغفّل. .

أنا قلَّما رأيْتُ رجلاً يحتاجُ إلى ألقابٍ يتعظَّمُ بها إلَّا وهو لا يستحقها، وقلما رأيت رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاجُ إليها؛ فأين يكون موضعُ هذِه الرتبِ والألقاب؟

---

(١) الشعبذة والشعوذة بمعنى واحد.

ساكنو الثياب..

قال صاحبُ سرّ (م) باشا: وجاءني يوماً اثنان من شيوخ الدين من ذَوِي هيئاتِهم وأصحابِ المنزلةِ فيهم، كلاهما هامَةٌ وقَامَة، وجُبَّةٌ وعِمامة، ودَرجةٌ من الإمامة؛ ولهما نسيمٌ يَنفحُ عِطراً حَسِبتُهُ من تَرويحِ أجنحةِ الملائكة؛ وعليهما من الوقارِ كظلِّ الشجرةِ الخضراءِ في لهَبِ الشمسِ تفيءُ به يَمْنَةً ويَسْرةً. فتوجَّهتُ إليهما بنظري، وأقبلْتُ عليهما بنفسي، ووضعْتُ حواسّي كلَّها في خدمتِهِما؛ وقلْتُ: هؤلاءِ هم رجالُ القانون الذي مادتُهُ الأولى القلْب.

ما أسخفَ الحياةَ لولا أنّها تدلُّ على شرفِها وقَدْرِها ببعضِ الأحياءِ الذين نراهم في عالم الترابِ كأنَّ مادتَهم من السُّحب، فيها لِغيرِهِمُ الظلُّ والماءُ والنسيم، وفيها لأنفسِهِمُ الطهارةُ والعلوُّ والجمال؛ يُثبتونَ لِلضعفاءِ أنَّ غيرَ المُمكن ممكنٌ بالفعل، إذْ لا يرى الناسُ في تركيبِ طِباعِهِم إلّا الإخلاصَ وإنْ كان حِرماناً، وإلَّا المروءةَ وإنْ كانَتْ مَشَقة، وإلّا محبةَ الإنسانيَّةِ وإنْ كانَتْ ألماً، وإلّا الجِدَّ وإنْ كان عنَاء، وإلَّا القناعةَ وإنْ كانَتْ فقراً.

هؤلاءِ قومٌ يؤلَّفونَ بيدِ القدرة، فهم كالكتبِ قدِ انطوتْ على حقائِقِها وخُتِمَتْ كما وُضِعَتْ، لا تستطيعُ أنْ تُخرِجَ لِلناسِ من حقيقةٍ نصفَ حقيقةٍ ولا شِبهَ حقيقةٍ ولا تزويراً على حقيقة.

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياةِ الإنسانيةِ القائمةِ على النواميسِ الاقتصاديَّة! فالسماءُ نفسُها تحتاجُ فيها إلى سماسرةٍ لِعرْضِ الجنَّةِ على الناسِ بالثمن الذي يملكُهُ كلُّ إنسانٍ وهوَ العملُ الطيِّب.

قال: ونظرْتُ إلى الشيخين على اعتبارِ أنّهما من بقيةِ النبوَّةِ العاملةِ فيها شريعةُ نفسِها. تلك الشريعةُ التي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ كيلا يتغيَّرَ الناسُ ولا يتبدَّلوا. ثُمَّ سألْتُهما عن حاجتِهِما، فإذا أحدُهما قد عمل أبياتاً من الشعرِ جاءَ يمدحُ بها

الباشا لِيزدلِفَ إليه؛ فقلْتُ في نفسي: «ما أشبَهَ حَجَل الجبالِ[1] بألوان صخرِها!» هذا عالِمُ دنيا يحدُّها من الشرقِ الرغيفُ، ومن الغربِ الدينار، ومنَ الشَّمالِ الجاه، ومن الجنوبِ الشيطان...

ثُمَّ نَشَرَ ورقةً في يدِه وأخذَ يَسْرُدُ عَليَّ القصيدةَ، وهي على رَوِيّ الهاء، تنتهي أبياتها: ها. ها. ها. فكان يقرؤُها شعراً ـ أو كما يُسميه هو شعراً ـ وكنْتُ أسمعُها أنا قهقهةً من الشيطان الذي رَكِبَ أكتافَ هذا العالم الدينيّ: ها. ها. ها. ها...

* * *

قال صاحبُ السرِّ: وأدخلْتُهما على الباشا، فوقفَ المدَّاحُ يمدحُ بقصيدتِهِ، وأخذَتْ لِحيتُهُ الوافرةُ تهتزُّ في إنشادِه كأنَّها مِنْفَضَةٌ ينفُضُ بها الملَلَ عن عواطف الباشا. وكان لِلآخر صمتٌ عاملٌ في نفسِه كصمتِ الطبيعةِ حينَ تَنْفَطِرُ البذرةُ في داخلِها، إذْ كانَتِ الحاجةُ حاجتَه هو، وإنَّما جاءَ بِصاحبِه رافِداً وظَهيراً يحملُ الشمسَ والقمرَ والليثَ والغَيثَ، لِتتقلَّبَ الأشياءُ حول الممدوحِ فيأخذَهُ السحْر، فيكونَ جوابُ الشمسِ على هذه اللغةِ أنْ تُضيءَ يومَ الشيخ، وجوابُ القمرِ أنْ يملأَ ظلامَه، وجوابُ الليثِ أنْ يفترِسَ عدوَّه، وجوابُ الغيثِ أنْ يَهْطِلَ على أرضِه.

والباشا لا يدعُ ظَرفَهُ ودُعابتَه، وكان قد لمحَ في أشداقِ العالم المتشاعرِ أسناناً صناعية، فلمَّا فرغَ من نظمِه الركيكِ قال لهَ: يا أستاذ، أحسبُني لا أكونُ إلَّا كاذباً إذا قلْتُ لك: لافُضَّ فوك.

ثُمَّ ذكرَ الآخرُ حاجتَه: وهي رجاؤُهُ أنْ يكونَ عمدةُ القريةِ من ذوي قرَابتِه لا من ذوي عداوتِهِ. فقال له الباشا: ولِقريتِكم أيضاً أبو جَهْل...؟

* * *

ولمَّا انصرفا قال لِيَ الباشا: لأمرٍ ما جعل هؤلاءِ القومُ لأنفسِهم زِيًّا خاصًّا يتميَّزون به في الناس، كأنَّ الدينَ بابٌ من التحرُّف والتصرُّف، بعضُ آلتِه في ثِيابِه؛ فهؤلاءِ يسكنون الجُبَبَ والقفاطينَ وكأنَّها دواوينُهم لا ثيابُهم...

قد أفهمُ لِهذا معنًى صحيحاً إذا كان كلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ عملِه كالجنديِّ في معاني سلاحِهِ، فيكون التعظيمُ والتوقيرُ لِثوبِ العالم الدينيِّ

(١) هذا مثل عربي، والحجل: الطائر المعروف، يكون في الجبل من لون صخره للعلة المقررة في التاريخ الطبيعي.

كأداءِ التحيَّةِ لِلثوبِ العسكريِّ: معناهُ أنَّ في هذا الثوبِ عملاً سامياً أولُهُ بيعُ الروحِ وبذلُ النفسِ وتركُ الدنيا في سبيلِ المجتمع؛ هذا ثوبُ الموتِ يَفرِضُ على الحياةِ أنْ تُعظِّمَهُ وتُجلَّه، وثوبُ الدفاعِ تجبُ له الطاعةُ والانقياد، وثوبُ القوَّةِ ليس له إلَّا المَهابةُ والإعزازُ في الوطن.

ولكنْ ماذا تصنعُ الجُبَّةُ اليوم؟ إنَّها تُطْعِمُ صاحبَها...

أثرُ الجيشِ معروفٌ في دِفاعِ الأُمَمِ العدوَّةِ عن البلاد، فأين أثرُ جيشِ العلماءِ في دِفاعِ المعاني العدوَّةِ عن أهلِ البلاد، وقدِ احتلَّتْ هذه المعاني وضَربَتْ وتملكَتْ وتركَتْ هذا العالمَ الدينيَّ في ثوبِه كالجنديِّ المنهزم: يحملُ من هزيمتِه فضيحةً ومن ثوبِه فضيحةً أخرى؟

أنت يا بنيَّ قد رأيْتَ (الشيخ محمد عبده) وعرَفتَه؛ فرحمَ الله هذا الرجل، ما كان أعجبَ شأنَه! لكأنَّهُ - والله - سحابةٌ مطويَّةٌ على صاعقة. ولو قلْتُ إنَّهُ قد كان بين قلبِه ورأسِه طريقٌ لِبعضِ الملائكة. لأشْبَهَ أنْ يكونَ هذا قولاً.

كان يزورني أحياناً فأراني مُرغَماً على أنْ أقدِّمَ له مجلسين أحدُهما قلبي. وكان له وجهٌ يأمرُ أمراً، إذْ لا تراهُ إلَّا شعرْتَ به يرفعُكَ إلى حقيقةٍ سامية(١).

رجلٌ نَبَتَ على أعراقٍ فيها إبداعُ المُبدعِ العظيمِ الذي هيَّأهُ لِرسالتِه، فعواصِفُهُ كالعِطْرِ في شجرةِ العِطرِ الشَّذِيَّة، وشمائلُهُ كجَمالِ السماءِ في زُرقةِ السماءِ الصافية، وعظَمَتُهُ كرَوْعةِ البحرِ في منظرِ البحرِ الصاخب. وكثيراً ما كان يتعجَّبُ من هذا أستاذُهُ (السيدُ جمالُ الدين الأفغانيُّ) فيسألُهُ مندهشاً: بِالله قلْ لي: ابنُ أيِّ ملكٍ أنت؟

لم يكن ابنَ ملكٍ ولا ابنَ أمير، ولكنَّهُ ابنُ القوَّاتِ الروحيَّة العاملة في هذا الكوْن؛ فهي أعدَّتْه، وهي ألهمتْه، وهي أنطقَتْه، وهي أخرجتْهُ في قومِه إعلاناً غيرَ كِتمان، ومُصارحةً غيرَ مُخادعة، وهي جعلتْ فيه أسديَّةَ الأسد، وهي ألقتْ في كلامِه تلكَ الشهْوةَ الروحيَّةَ التي تُذاقُ وتُحَبُّ، كالحلاوة في الحَلْوى.

هذا هو العالمُ الدينيّ: لا بدَّ أنْ يكونَ ابْنَ القوّاتِ الروحيَّة، لا ابْنَ الكُتبِ وحدَها، ولا بدَّ أنْ يَخرجَ بعملِه إلى الدنيا، لا أنْ يُدخِلَ الدنيا تحتَ سقفِ الجامع...

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاءِ العلماءِ الذين هم بَقَايا تَتضاءَلُ بجانبِ

---

(١) وصفنا الشيخ (رحمه الله) في كتابنا (السحاب الأحمر) واستهلمنا روحه فصلا طويلاً تجده هناك.

الأصل؛ يبحثون في سُنَن النبيّ ﷺ: كيف كان يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي ويتحدَّث؛ كأنَّهم من الدنيا في قانون المائدة، وآدابِ الولائم، ورُسوم المجتمعات؛ أمَّا تلك الحقيقةُ الكُبرى، وهي كيف كان النبيُّ ﷺ يُقاتلُ ويُحاربُ لِهداية الخلْق، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتِها؟ وكيف كان بِطِباعِه القوِّية الصريحة تعديلاً فعَّالاً في هذه الإنسانيَّة لِلنواميسِ الجائرة؟ وكيف كان يحملُ الفقرَ لِيكْسِرَ به شِرَّةَ النواميسِ الاقتصاديَّة التي تَقضي بجعلِ الأخلاقِ أثراً من آثارِ السَّعَة والضيق، فتُخرجُ من الغنيِّ مُتعففاً ومن الفقير لِصًّا؟ وكيفَ استطَاعَ ﷺ بفقرِه السامي أنْ يُحوّل معنى الغِنى في نفوسِ أصحابِه، فيجعلهُ ما استغنى عنهُ الإنسانُ من شهواتِ الدنيا وتَرَكَ، لا ما نال منها وجَمَعَ؟ أمَّا هذا ونحوُهُ من حقائقِ النبوَّة العاملة في تنظيم الحياة، فقد أهملُوه، إذْ هو لا يُوجدُ في الكُتبِ وشروحِها وحواشِيها، ولكنْ في الحياة وأثقالِها وأكدارِها؛ وبذلك أصبحَ شيوخُنا من الأُمَّة في مواضعَ لم يضعْهم فيها الدينُ ولكنْ وضعَتْهم فيها الوظيفة.

ألا ليتَهُم يكتبونَ على أبوابِ الأزهرِ هذه الحِكمة: سُئل بعضُ العرب: بِمَ سادَ فلانٌ فيكم؟ قالوا: احتجْنا إلى علمِه واستغنى عن دُنيانا...

الأخلاقُ المحاربة

وحدَّثني صاحبُ سرّ (م) باشا بهذا الحديثِ قال: كنَّا في ثورة سنة ١٩١٩ سنة الهزَاهِزِ والفِتَن، وقدْ تفاقمتِ الثورةُ، وأخذَ الشبابُ يعملُ ويُفكرُ فيما يستطيعُ أنْ يعمل، وما يجبُ أنْ يعمل؛ وكان السَّخْطُ العامُ هو ميراثَ الوقت، فكانَتْ قلوبُ الشعب تُلهَمُ واجباتِها إلهاماً، إذْ لم يكنْ في هذه القلوبِ كلِّها إلَّا لذعةُ الدم تُعيِّنُ اتجاهَ أعمالِها وتُحدِّدُه.

كانَتِ الثورةُ زلزلةً وقعَتْ في التاريخ، فجاءَتْ تحتَ زمنٍ راكدٍ لا يتغيَّرُ إلَّا بأنْ يُنسَف، ولا ينسِفُهُ إلَّا مادةٌ إلهيةٌ كالحركة الكونية التي تُخرِجُ اليومَ الجديدَ من اليوم القديم؛ فكان القَدَرُ يعملُ بأيدي الإنجليزِ عملاً مِصرياً، ويعملُ بأيدي المصريينَ عملاً آخر.

وتعلَّمَ الشعبُ من دفْنِ شُهدائِه كيفَ يَستَنْبِتُ الدمَ فيُنْبِتُ به الحريَّة، وكيف يزرعُ الدمع فيُخرِجُ منهُ العزم، وكيف يستثمِرُ الحزنَ فيُثمرُ له المجد.

وكان رصاصُ الإنجليزِ يُصيبُ هَدَفين معاً: فيصرعُ شهداءَنا، ويقتلُ الموتَ السياسيَّ الذي احتلَّ مَعهم هذه البلاد. وقد أنعموا على الشعبِ بِالصدمة الأولى، فنَشبَتِ المعركةُ التي تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القوميَّةُ لِتنتصِرَ؛ وشعرَتْ مصرُ في جِهادِهَا بأنَّها مِصرُ، فالتمسَ رُوحُها التاريخيُّ رمزَهُ العظيمَ في الأُمَّة لِيظهرَ فيه عاتياً جبَّاراً؛ فكان هذا الرمزُ الجليلُ العظيمُ هو سعد زغلول.

* * *

قال صاحبُ السرِّ: وكان الطلبةُ قد غَدَوا من أولِ النهارِ يتظاهَرونَ، وقد جعلَتْهُمُ الثورةُ كالأرواحِ تخلَّصَتْ من الموتِ بِالموتِ فلا تخشاهُ ولا تُباليه، واستقلَّتْ عن العقلِ بتحوُّلِها إلى شعورٍ مَحْض، وخرجَتْ عن القوانين كُلِّها إلَّا القانونَ الخفيَّ الذي لا يُعلمُ ما هو.

كانوا في معاني قلوبِهِم لا في غيرِها، فلسْتَ تراهم إلَّا عظماءَ فِي عظمة

المبدأ الذي ينتصرون له، أقوياءَ في قوّة الإيمان الذي يعملونَ به، أجِلّاءَ في جلالِ الوطَن الذي يحيَوْنَ ويموتونَ في سبيلِهِ.

وكانوا في الشعبِ هم خيال الأُمَّة العامل المُدرك، وشعورَها الحيَّ المتوثّب، وقُواها البارزةَ من أعماقِها، وأملها الزاحفَ لِيَقهرَ الصُعوبة.

يُفَادُونَ بأنفسِهِمُ الغالية ويُؤْثِرونَ عليها، وليس في أحدٍ منهم ذاتُهُ ولا أغراضُ شخصِه. فما أجلَّ وما أعظَم! وما أروعَ وما أسمى! أيَّتُها الحياة! هل فيكِ أشرفُ من هذه الحقيقة إلّا حقيقةَ النبوَّة؟

***

قال: وكان أخي هو زعيمَ هؤلاءِ الطلبة في مدينتِنا؛ قويٌّ على الزَّعامة وفيٌّ بها؛ يحملُ قلباً كالجمرة الملتهبة، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ الرعدَ يُقَعْقِعُ به. إذا مشى في جِهادِه كان كلُّ ما على الأرضِ تراباً تحتَ قدميه، فلا يمشي إلّا مُحتقِراً هذه الدنيا وما فيها، غيرَ مقدِّسٍ منها إلّا دينَهُ ووطنَه؛ وسِلاحُهُ أنَّ كلَّ شيءٍ فيه هو سِلاحٌ على الظلْم وضدُّ الظلْم.

وكان في ذلك اليوم يقودُ «المُظاهرة»، وحولهُ جماعةٌ من خالِصَتِه وصَفْوة إخوانِهِ، يمشون في الطليعة تحتَ جوٍّ متَّقِدٍ كأنّ فيه غضبَ الشباب، عنيفٌ كأنّما امتزج به السخطُ الذي يفورون به، رهيبٌ كأنّهُ مُتهيِّئٌ لِينفجر؛ فلمَّا بلغوا موضعاً من الطريقِ ينعطِفون عندَهُ انصبَّ عليهمُ المدفعُ الرشّاش...

قال: فإنّي لجالسٌ بعدَ ذلك في الديوان إذْ دخل عَليَّ أخي هذا ينتفِضُ غضباً كأنَّ المعانيَ تنبعِثُ من جسدِه لِتقاتل، ورأيْتُ له عينين ينظرُ الناظرُ فيهما إلى النارِ التي في قلبِه؛ فخشيْتُ أنْ يكونَ القومُ أطلقوا عليهمُ الجنونَ والرصاصَ معاً.

واستنبأتُهُ خبرَ أصحابِه فقال: إن الذين كانوا حَولهُ وقعوا يتشَحَّطون في دِمائِهِم، فوقفَ هو شاخصاً إليهم كأنّهُ ميتٌ معهم، وقد أحسَّ كأنّما خَلعَ عن جسمِهِ نواميس الطبيعة، فلا يعرفُ ما هي الحياةُ ولا ما هوَ الموت؛ وكان الرصاصُ يتطايرُ من حولِه كأنَّ أرواحَ الشهداءِ تتلقَّاهُ وتُبعثِرُهُ لا ينالُهُ بِسوء.

قال: وما أنسَ لا أنس ما رأيْتُهُ في تلكَ الساعة بين الدنيا والآخرة؛ فلقد رأيْتُ بعيني رأسي الدمَ المِصريَّ يُسلِّمُ على الدم المِصرِيِّ، ويسعى إليه فيُعانقُهُ عِناقَ الأ-نباب.

ثُمَّ قال: أين هذا الباشا؟ وما بالُه لم يصنعْ شيئاً في الاحتياطِ لِهذِه الفَوْرة؟ يَكادُ الخزيُ ـ والله ـ يكون في هذه الوظائف على مِقدارِ المرتَّب...

* * *

قال صاحبُ السرّ: ولم يُتِمّ كلمَتَه حتى خرجَ علينا الباشا متكَسِّرَ الوجه من الحزن قد تغرغَرتْ عيناه، فأخذَ بيدِ أخي إلى غرفتِه وتبعْتُهما، ثُمَّ قال: هَوْناً ما يا بُنيَّ، إنَّ العِلَّةَ فيكم أنتم يا شبابَ الأُمَّة، فكلُّ ما ابتلينا أو نُبتلى به هو مِمَّا يستدعيه خمولُكم وتستوجبُه أخلاقُكمُ المتخاذِلة؛ إنّنا من غيرِكم كالمدافعِ الفارغة من ذَخيرتِها: لا تَصلُحُ إلَّا شكلاً، وبهذِه العِلَّة كان عندَنا شكلُ الحكومة لا الحكومة.

أتدري يا فتى ما هي الحكومةُ الصحيحةُ في مثلِ حالتِنا؟ هي أنْ تحكموا أنتم في الشعبِ حُكومةً أخلاقيَّةً نافِذةَ القانون، فتضْبِطوا أخلاقَ النساءِ والرجال، وتردُّوها كلَّها أخلاقاً مُحاربةً لا تعرفُ إلَّا الجِدَّ والكرامةَ وصرامةَ الحقّ؛ وإلَّا فكما تكونون يُولّى عليكم...

هذا وحدَهُ هوَ الذي يُعيدُ الأجانبَ إلى رُشدِهم وإلى الحقيقة، فما أراهم يُعاملونَنا إلَّا كأنَّنا ثيابٌ معلّقةٌ ليس فيها لابسوها...

كيفَ يَتَصَعْلكُ المِصريُّ لِلأجنبيِّ لو أنَّ في المصريِّ حقيقةَ القوَّة النفسيَّة؟ أترى بارجةً حربيَّة تتصعلكُ لِزورقِ صيدٍ جاءَ يرتزق؟

إنّ في بلادِنا المِسكينة الأجانب، وأموال الأجانب، وغطرسةَ الأجانب؛ لا لأنّ فيها الاحتلال، كلا، بلْ لأنَّ فيها ضعفَ أهلِها، وغفلةَ أهلِها، وكرمَ أهلِها... بعضُ هذا يا بُنيَّ شبيهٌ ببعض، وإلَّا فما هو كَرمُ الشاة الضعيفة إلَّا لذَّةُ لحمِها...؟

نُريدُ لِهذا الشعبِ طبيعةً جِدِّيَّةً صارِمةً، ينظرُ من خلالِها إلى الحياة فيستشعرُ ذاتَهُ التاريخيَّةَ المجيدةَ فيعملُ في الحياة بقوانينِها؛ وهذا شعورٌ لا تُحدثُهُ إلَّا طبيعةُ الأخلاقِ الاجتماعيَّة القويَّة التي لا تتساهلُ من ضعف، ولا تتسمَّحُ من كذب، ولا تترخَّصُ من غفلة. والحقيقةُ في الحياة كالحقيقة في المنطق: إذا لم يَصْدُقِ البرهانُ على كلِّ حالاتِها، لم يَصدُقْ على حالةٍ من حالاتِها؛ فإذا كنّا ضعفاءَ كُرماء، أعِزَّاء، سادةً على التاريخِ القديم، فنحن ضعفاءُ فقط...

إنَّ الكبراءَ في الشرقِ كلِّه لا يصلحونَ إلَّا لِلرأي، فلا تَسُومُوهم غيرَ هذا، فهم قد تلقَّوا الدرسَ من أغلاطِهمُ الكثيرة، وبهذا لنْ تُفلحَ حُكومةٌ سِياسيَّةٌ في

الشرقِ الناهضِ ما لم يكنْ شبابُها حُكومةً أخلاقيَّةً يُمِدُّها من نفسِه ومنَ الشعبِ في كلِّ حادثةٍ بالأخلاقِ المحارِبة.

يا بُنيَّ، إنَّ القويَّ لوِ اتفقَ مع الضعيف على كلمةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر، لكان معناها لِلأقوى أكثرَ مِمَّا هو لِلأَضعف؛ فإنَّ هذا القويَّ الذي يعملُ مَعَ الضعيف يكون فيه دائماً شخصٌ آخرُ مختف، هوَ القويُّ الذي يعملُ مع نفسِه.

هكذا هِيَ السياسة؛ أمَّا في الإنسانيَّة فلا، إذْ يكون الحقُّ دائماً بين اثنين أقوى من الاثنين.

خضع يخضع...

وقال صاحبُ سرّ (م) باشا فيما حدَّثني به: جاءَ ذاتَ يوم قنصلُ (الدولة الفلانيَّةِ) من هذه الدولِ الصغيرةِ؛ التي لو عَلِمَ الذبابُ في بلَادِها أنَّ في مِصرَ امتيازات أجنبيَّةً، لطمِعَتْ كلُّ ذبابةٍ أنْ يكونَ لها في بلادِنا اسمُ الطيَّارة الحربيَّة....

ورأيْتُهُ قد دخل عليَّ شامِخاً باذِخاً متجبِّراً، كأنَّهُ قبل أنْ يجيءَ إلى هذا الديوان لِمقابلة الحاكم المِصريَّ ـ قد تكلم في (التلفونِ) مع إسرافيل يأمرُهُ أنْ يكونَ مستعِدًّا لِلنَّفخِ في الصُّور....

جَنى صُعلوكٌ من رعَايا دولتِه على مِصريّ، فأخِذَ كما يُؤخَذُ أمثالُه، وقضَى ساعةً أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونَهُ الأسئلةَ الهيِّنَةَ اللَّيِّنَةَ التي تُحيطُ بتعريفِه من ظاهرِه، ولا يُشبِهُهَا في سَخافة المعنى إلَّا أنْ يسألوهُ عن ثيابِه من أيِّ مصنعٍ هي في أوروبّا.... فزعمَ القنصلُ أنَّهُ كان يجبُ أنْ يكونَ حاضراً يشهدُ التحقيقَ، لأنَّ جِنايةَ أجنبيٍّ على مِصريٍّ تقعُ أجنبيَّة... فَلها شأنٌ ورِعايةٌ وامتياز، وادَّعى أنَّ المُحققينَ ضايقوا المجرمَ وعاسروهُ وتجهَّمُوهُ بِالكلام، ولِهذا جاءَ يحتجّ.

ورأيتُهُ جلسَ متوقِّراً كأنَّما يشعرُ في نفسِه أنَّه أثقلُ من مدفعٍ ضخْم، لأنَّ في نفسِه وَهْمَ القوَّة؛ وخيِّل إليَّ أنَّهُ يرى موضِعَهُ بين السقفِ والأرض؛ إذْ يحملُ في رأسِه فكرَةَ أنَّهُ الأعلى، وكانَتْ له هيئةٌ صريحةٌ في أنَّ الأجنبيَّ المُقيمَ هنا ليس هو كلَّ الأجنبي، بلْ لا تزالُ منهُ بقيَّةٌ تُتَمِّمُها دولتُه، وفي الجملة كان الرجلُ كلمةً واضحةً مفسَّرةً تنطقُ بأنَّ لِلقانون المصريِّ قانوناً يحكمُهُ في بلادِهِ!

وأنا قد درسْتُ القانونَ الدوليّ، وعرفْتُ ما هيَ الامتيازاتُ وما أصلُها، وهي لا تعدو كرَمَ الأرنبِ التي زعموا أنَّها كانَتْ تملِكُ حماراً تركبُهُ وترتَفِقُ به، فسألَتْها أرنبٌ أخرى أنْ تُردِفَها خلفَها، فلمَّا اندفعَ بهما الحمارُ استوطَأته، فقالتِ لِصاحبتِهِ: يا أختي، ما أفرَهَ حِمارَك! ثُمَّ سكتَتْ مدةً وأعجبَها الحمارُ فقالتْ: يا أختي، ما أفرَهَ حمارَنا!...

وكنَّا ـ نحن الشرقيينَ ـ من الضعف والغفْلةِ؛ بحيثُ لم نبلغْ مبلغَ الأرنبِ في

حِكمتِها وتدبيرِها وحذرِها، فإنَّها أسرَعتْ ودفَعتْ صاحبتَها وقالتْ لها: اِنزلي ـ ويلكِ ـ قبل أنْ تقولي: ما أفرَهَ حِماري.

قال: غيرَ أنِّي في تلك الساعة نسيْتُ القانونَ الدوليَّ وكنْتُ في إلهام مِصريَّتي وحدَها، فظهَر لي ظهوراً بَيِّناً أنْ لا شيءَ اسمُهُ القانونُ الحقُّ في هذه الدنيا؛ ولكنَّ هناك اتفاقاً بين كلِّ خضوعٍ وكلِّ تسلط، هو قانونُ هاتين الحالتين بخصوصِهما.

وأسرعْتُ إلى الباشا فأنبأْتُهُ، وأسرعَ الباشا فغيَّرَ وجههَ، وتبسَّط، وتهلَّل، وتهيَّأ بهذا لاِستقبالِ القادم العزيز، كأنَّهُ أخصُّ محبيهِ يتطلَّعُ إلى مؤانَسَتِهِ، وقد جاءَ يزورُهُ في دارِه. ثُمَّ دخل القنصلُ، ولم أسمعْ مِمَّا دارَ بينَهما إلَّا الكلمةَ الأولى، وهي قولُ الباشاَ: لَنبدأ يا سيدي من الآخر...

* * *

وكانَتْ في الباشا موهِبةٌ عجيبةٌ في اختلابِ الأجانبِ خاصَّة، يُديرُهم بلبَاقةٍ كالخاتمِ في إصبعهِ؛ حتى قال لي أحدُهم: إنَّ لِهذا الباشا حاسَّةً زائدةً، لو سُمِّيَتْ حاسة الإرضاءِ لكَانَ هذا اسمَها الطبيعيَّ، وإنَّهُ يعملُ بها كما يعملُ المُفكِّرُ بِتفكيرِهِ؛ فهو يبتكرُ الأساليبَ الغربيَّةَ التي يصعَدُ ويَهبِطُ بها ميزانُ الحرارة النفسيَّةَ، وإنَّ جليسَهُ يكادُ يشعُر من مَهارتِه في التمثيلِ أنَّ في جوِّ المكان سِتاراً يُرفعُ وستاراً يُسْدَلُ بين الفصول.

فما لبِثَ القنصلُ أنْ خرجَ بغير الوجه الذي دخل بهِ، ولكنَّهُ عَبَسَ في وجهي أنا وتكرَّهُ لي كأنَّهُ أصْغَرَ شأني؛ فازدرتْني عينُه، فوثَبتْ إلى رأسِه فكرةُ الامتيازات.

وهذه القوةُ الظالمةُ (الامتيازات)؛ لو أنَّها كانَتْ قوَّةً قاهِرةً نافذة، وأعينَ بها طُفيْليٌّ لِيقتحمَ دُورَ الناسِ آمناً مطمئنًا ـ لاستحى هذا الطفيْليُّ أنْ يأكل بها؛ إذْ تجمعُ عليه التطفل والمَقْتَ معاً، ولو قِيل لِحُسام بتَّار: إنَّ لك امتيازاً على بعضِ السيوف ألَّا تقارِعَك، وإنَّكَ محميٌّ أنْ تنالك سَطْوَتُها إذا قارعْتَها ـ لأَنِفَ أنْ يسمَّى سيفاً بهذا أو بمثلِ هذا، فإنَّ القوَّةَ الظالِمَةَ التي يُعِيرُونَهُ إيَّاها، ليسَتْ إلَّا مَهَانةً لِشرف القوَّة العادلة التي هي فيه.

* * *

قال صاحبُ السرِّ: ووصفْتُ لِلباشا هيئةَ القنصلِ التي انصرفَ بها، وتقطيبَهُ في وجهي، وقلْتُ لهُ: إنَّ الذبابةَ وقعَتْ في صَحْفتيَ أنا من هذه الوليمة... فضحكَ بملءِ فيه، ثُمَّ قال:

ستبطلُ هذه الامتيازات، وليس بينَنا وبين نِهايتها إلَّا أنْ ينتهيَ الشعبُ إلى حقيقتِهِ القوميَّة، فما تركُها في مكانَتِها إلَّا نزولُ الشَّعْبِ عن مكانِتِهِ، وتالله لكأنَّ هؤلاءِ الأجانبَ يسألوننا بهذِهِ الامتيازات: أين مكانُكم في بلادِكم...؟

أتدري ما قالهُ هذا القنصلُ حينَ تجاذَبْنا الحديثَ فيها، بعدَ أنْ وضعْتُ نفسي منه في موضعِ المحامي الذي يخذلُهُ الدليلُ، فيحاولُ أنْ يستنزل كرمَ القضاة بعَرْضِ بؤسِ المتَّهم علَى شفقتِهِم، لِيستعطِفَ القانونُ الذي في أيديهم بِالقانون الذي في أنفسِهِم؟

إنَّهُ قال: لا يلومَنَّ الشرقيونَ إلَّا أنفسَهم، فهم علَّموا الأجانبَ أنَّ نتفَ ريشِ الطيرِ أولُ أكلِه. وهذِهِ الامتيازاتُ إنْ هيَ إلَّا مُعاملةٌ بينَنا وبين طبيعة الخضوعِ في الشعب. نعم إنَّها مَضَرَّةٌ ومَعَرَّةٌ، وظلمٌ وقسوة؛ ولكنَّها على ذلك طبيعيَّةٌ في الطبيعة؛ فما دامَ هذا الشعبُ لَيِّنَ المأخذِ، فإنَّ هذا يُوجِدُ له من يأخذُه؛ وما دامتِ الكلمةُ الأولى في مُعْجَم لُغتِهِ السياسيَّة هي مادةَ (خَضَعَ يَخْضَع)، فهذه الكلمةُ تحملُ في معناها الواحدِ ألفَ معنًى، منها: ظلم يظلِم، ورَكِب يركَب، ومَلَك يملِك، واستبدَّ يستبِدُّ، ودجَّل يُدجِّل، وخَدَع يخدَع؛ فهل يكثُر أنْ يكونَ منها للأجانبِ امتازَ يمتازُ؟

* * *

قال صاحبُ السرِّ: ثم زمَّ الباشا فمَهُ وسكت: ففهمْتُ الكلماتِ التي انطبقَ فمُهُ عليها وإنْ لم يتكلَّمْ بها، ثُمَّ غلبَهُ الضحكُ فقال: ـ والله ـ يا بنيَّ لو أنَّ بَرْغوثاً طَمَرَ من ثوبِ صُعلوكٍ أجنبيٍّ، فوقعَ في ثوبِ صعلوكٍ وطنيّ، فتقاتَلَا فقُبِضَ عليهما، فأخِذا ـ لَمَا رضِيَ بُرغوثُ الأجنبيِّ أنْ يُحاكَمَ إلَّا في المحاكِم المختلطة...

ثُمَّ سكَتَ الباشا مرةً أخرى كأنَّهُ يقولُ كلاماً آخرَ لا يجوزُ نشرُهُ، ثُمَّ قال: يا بُنيَّ، إنَّ الأجانبَ لا يضعونَ الحِمل إلَّا على مَنْ يحمل؛ فإذا نحن توخَّينا مُرادَهم أرادوا لأنفسِهِم لا لنا؛ وإذا وافقْنا لهم غرضاً جعلوه كالدينارِ فيه مائةُ قرش، وأبَوْا إلَّا أنْ نُصَارِفَهم عليه بمائة. هم ـ ويحَكَ ـ يمتازون في معامَلتِنا لا في سطورِ القوانين والمعاهدات، فلْتَبْطِلْ هذه المعاملةَ يَبْطُلْ هذا الامتياز.

إنَّ الحقَّ يا بُنيَّ استحقاقٌ لا دعوى؛ وهذا التنازعُ على الحياة يجعلُ وسائلهُ الطبيعيَّةَ الانتزاعَ والمُطالبةَ والتجرّدَ له والدأبَ فيه والإصرارَ عليه. وكلُّ الأقوياءِ يعلمون أنَّ موضِعَ الاعتدالِ بين غَضْبِ الحقِّ وبين استردادِهِ موضعٌ لا مكان له في الطبيعة: والأجنبيُّ يعتمدُ علينا نحن في جعلِهِ أكبرَ مِنّا وأوفرَ حُرمة؛ فإذا أسْقطَ

الشعبُ هذه الامتيازاتِ من فكرِهِ وروحِه وأعصابِه، وثارَتْ فيه كبرياءُ الوطنيَّة فاستنكَفَ من الاستخذاء، ونفرَ من الاختضاع، وأبى إلَّا أن يُعلِنَ كرامته، وصرفَ اهتمامَهُ إلى حقوقِ هذه الكرامة، وأصرَّ ألَّا يُعامِلَ أجنبيًا يرى لِنفسِه امتيازاً على وطنيّ، وقرَّر ذلك في نفسِه، ومكَّنهُ في رُوعِه، وأجمع عليه إجماعَهُ على الدين - إذا جاءَتْ (إذا) هذه بشَرْطِها من الشعب، جاءَ جوابُ الشرْطِ من الأجانبِ بنزولِهِم عن الامتيازاتِ وانحلَّتِ المشكلة. إنَّنا يا بُنيَّ لا نملِكُ ضغطَ السياسة، ولكنَّا نملكُ ما هو أقوى؛ نملكُ ضغطَ الحياة.

لهُمُ الامتيازُ بأنَّهم أجانبُ عنّا، فلْيكُنْ لنا الامتيازُ الآخرُ بأنَّنا أجانبُ عنهم في المعاملة، مِثْلاً بمِثْل، وما يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحديد.

يقولون: النظامُ الاقتصاديُّ والمالُ الأجنبيّ. ولكنْ أرأيْتَ المال في يدِ الأجنبيِّ إلَّا مالاً وتدبيراً وسُلْطةً وسِيادة، من أنَّهُ في يدِ الوطنيِّ دَينٌ وإسرافٌ ورِقٌّ وذل؟

لم يظهرْ لي إلَّا الساعةَ أنَّ من حِكمة تحريم الربا في شريعتِنَا الإسلاميَّة، وقايةَ الأمَّة كلِّها في ثروتِها وضياعِها ومُستغَلَّاتِها، وحِمايةَ الشعبِ وملوكِه من الإسراف والتخرُّقِ والكرم الكاذبِ، وردَّ الاستعمارِ الاقتصاديّ، وشلَّ النفوذِ الأجنبيّ.

أمَا لو أنَّنا كتبْنَا من الأولِ على أبوابِ «البنك العقاري» وأبوابِ ذرِّيتِه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا﴾ [البقرة: ٢٧٦] فهلْ كانَتْ تُقرأ هذه الكلماتُ الثلاثُ على أبوابِ تلك البنوكِ الأجنبية إلا هكذا: «محالٌ خاليةٌ لِلإيجار». . . .؟

فلْنتعصبْ...!

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءَني يوماً صَحَفِيٌّ إنجليزيٌّ من هؤلاءِ الكُتَّابِ المتعصّبين الذين تُطلقُهم إنجلترا كما تُطلقَ مدافعَها؛ غيرَ أنَّ هذه لِلبارودِ والرصاصِ والقنابل وأولئك لِلكَذِبِ والتُّهم والمُغالطَات.

وهو أذُنٌ وعينٌ ولِسانٌ وقَلمٌ لِجريدةٍ إنجليزيَّةٍ كبيرة، معروفةٍ بِثقَلِ وطأتِها على الشرقِ والإسلام؛ تُصْلِحُ بإفساد، وتُداوِي الحُمَّى بِالطاعون، وتعملُ في نهضة الشرقيِّينَ واستقلالِهم ما يُشْبِهُ قطعَ ثَدْيِ الأُمِّ وهو في شفتَيْ رضيعِها المسكين.

ودخل عليَّ هذا الكاتبُ في الساعة التي خرجَ فيها من غرفتي صاحبُ جريدةٍ أسبوعيَّةٍ في مدينتِنا؛ كان قد نفخَ الضِّفْدعَ لِيجعلها ثَوْراً، فحوّل صحيفتَهُ إلى جريدةٍ يوميَّة، وهو لا يجدُ مادتَها ولا يستطيعُ أسبابَها، إلَّا أنَّهُ كدأْبِ الناسِ عندَنا كان يحسبُ الكذِبَ في العملِ سَهْلاً مَهْلاً[1] كالكذبِ في القوْل، فلمْ يَتعاظَمْهُ الأمرُ العظيم، واقترضَ لِعملِه كلَّ ألفاظِ النجاحِ من اللغة. . .

وظنَّ عند نفسِه أنَّهُ سيُخَوِّفُ بجريدتِه الكُبراءَ والأعيانَ والمياسيرَ حتى يَغْلبَ على جميعِهم، ويُشْرِكَ أصابعَهُ مع أصابِعِهم في استخراجِ ما يحتاجُ إليه من جُيوبِهم؛ فلم تعِشْ جريدتُهُ إلَّا أيَّاماً وأتلفَ ما جمع، ورهنَ فيها دارَهُ التي لا يملِكُ غيرَها؛ وعَلِمَ آخراً أنَّ الذي يكذبُ فيسمِّي الخروفَ جملاً، لا يقبَلُ منه أنْ يكذبَ على الكذبِ نفسِه، فيزعمَ أنَّ الناقةَ هي التي نَتَجَتْ هذا الخروف. . .

ولـمَّا انقلبَتْ هذه الجريدةُ يوميَّةً كان الباشا هو ملجأ الرجلِ وَوَزَره، وكان لِكلِّ يوم في الجريدة أخبارٌ عن الباشا لا تقعُ في الدنيا ولا تُجمعُ من الحوادث، ولكنْ تقَعُ في ذِهْن الكاتب، وتُجمعُ من صناديقِ الحروف؛ حتى قال ليَ الباشا مرة: إنَّ اسمي قد أصبحَ موظَّفاً في هذه الجريدة لِجمعِ الاشتراك. . .

---

(١) هذا الاستعمال مما وضعناه نحن وليس في اللغة، وهو من باب الاتباع كقولهم: حسن بسن، وشيطان ليطان الخ.

وتحرَّى هذا الصحَفيُّ أنْ يستأذِنَ يوماً على الباشا وفي مجلسِه حَشْدٌ عظيمٌ من السَّراة والأعيان والعُمَد، وكان جَمَعَهم لأمِر، فما هو إلّا أنْ دخل الصَحفيُّ حتى ابتدَرَهُ الباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافاتُ أوروبّا عن الحوادثِ التي ستقعُ غداً. . . ؟

فضجَّ المجلسُ بالضحك، وفقدَ المسكينُ بهذِه النكتة أربعينَ ديناراً كان يؤمِّلُ أنْ يخرجَ بها، وأعلنَ الباشا في أظرف إعلانٍ وأبلغِه كذِبَ الرجلِ ونِفاقَهُ وإسفافَه، وأنّه من رجالِ الصحافة المدوَّرَة تدويرَ الرغيف. . .

* * *

قال: ونظرْتُ إلى الصحفيِّ الإنجليزيِّ نظرةً أكْشِفُهُ بها، فإذا أولُ الفرقِ بينَه وبين أمثالِه عندَنا ـ شعورُهُ أنَّ بلادَهُ قد ربَّتْهُ (لِلخارج)، فهو عند نفسِه كأنَّهُ إنجليزيٌّ مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسُهُ بعِزَّة المالكِ وقوَّة المستعمرِ، فلا يكون حيثُ يكون إلّا في صراحة الأمرِ النافذِ، أو غموضِ الحيلة المبهَمة؛ ويستحكمُ بهذا وذاكَ طبعُهُ العمليُّ، فهو بغريزتِه مُقاتِلٌ من مقاتلة الفكر، يلتمسُ مَيدَانَهُ بين القوى المتضاربة لا يُبالي أنْ يكونَ فيه الموتُ ما دامَ فيه العمل؛ وبهذا كلِّه تراهُ نافذَ البصيرة قائماً على سَواءِ الطريقِ، لأنَّ الإنجليزيَّ الباطنَ فيه يُوجِّهُ الإنجليزيَّ الظاهرَ منهُ ويُسَانِدُهُ؛ وفي أعماقِ الاثنين تجدُ إنجلترا، وليس غيرَ إنجلترا.

ثُمَّ تفرَّسْتُ في الرجلِ أريدُ كُنْهَهُ وحقيقتَه، فإذا له نفسٌ مفتوحةٌ مقْفَلةٌ معاً، كغُرَف الدار: الواحدة يُفتحُ بعضُها لِمَا فيه كيما يُرى، ويُقْفَلُ بعضُها على ما فيه كيلا يُرى.

ولهُ وجهٌ عمليٌّ يكادُ يُحاسِبُكَ على نظراتِكَ إليه؛ تدورُ في هذا الوجه عينان قدِ اعتادتا وزْنَ الأشياءِ والمعاني؛ يتلألأُ في هاتين العينين شُعاعُ النفسِ القويَّة الممرَّنةِ، قد نَفَتِ الثقةُ بها نصفَ هموم الحياة عن صاحبِها، تُمِدُّ هذه النفسَ طبيعةٌ مؤمنةٌ بأنَّ أكبرَ سرورِها في أعمالِها، فواجبُها في الحياة أنْ تعمل كلَّ ما يحسُنُ بها وكلَّ ما يحسُنُ منها.

لقد خُيِّل إلي، وأنا أنظرُ إلى نفسيَّةِ هذا الإنجليزيِّ أنَّ كلمةَ الخيْبَة عند هؤلاءِ الإنجليزِ غيرُ كلمة الخيبة عندَنا ـ نحن الشرقيين ـ، فإنَّ خيبةَ النفسِ لا تَتِمُّ معانيها أبداً في النفسِ العاملة الدائبةِ، التي يُشعرُها الواجبُ أنَّهُ شيءٌ إلهيٌّ لا يَخيب، وأنَّ ما يُرْفَضُ على هذه الأرضِ من العملِ الطيِّبِ لا يُرفضُ في السماء.

وكأنَّ الرجل قد أدركَ غرضي بملكَتِه الصحافيَّة الدقيقة، فأجابني عن السؤالِ الذي لم أسأله، وقال لي مبتدئاً: إنَّ أساسَنا الشخصيَّةُ وحاسةُ الواجب؛ وإنَّ فيكم أنتم كلَّ شيءٍ إلَّا هذين؛ فأخلاقُنا تَظهرُ دائماً في العمل، وأخلاقُكم تظهرُ دائماً في الكلام الفارغ؛ ونحن نطلبُ الحقيقة، وأنتم تطلبونَ الألفاظ، حتى أنَّهُ لو خَسِرَ المِصريُّ ألفَ دينار، ثُمَّ أعلنَ أنها مائةٌ فقط، وصدَّق الناسُ أنَّها مائة؛ لكان عند نفسِه كأنَّهُ ربحَ تسعَمائة. . .

* * *

قال صاحبُ السرّ: واستأذنْتُ له على الباشا فسهَّل ورحَّب؛ ثُمَّ همَمْتُ بالانصراف عنهما، ولكنّ الإنجليزيَّ قال: يا باشا! إنَّهُ قد تمكنَ في رُوعي أنَّ صاحبَ سِرِّكَ هذا متعصبٌ دينيّ، وقد علمْتُ أنَّهُ ابنُ فلان القاضي الشرعيّ، فطربوشُهُ ابنُ العِمامة؛ ولقد كان ينظرُ إليَّ، وكأنَّهُ يتأمّلُ من أين يذبحُني. . .

فضحِكَ الباشا وقال لي: يا فلانُ إنَّ هذا الكاتبَ مِنْ تلاميذِ برناردشو، فهو كأستاذِه يجعلُ لِكلِّ حقيقةٍ ذَنباً كذيلِ الهرّ، ثُمَّ يُمسكُها منهُ فإذا هي تَعَضُّ وتتلوَّى. . .

والتفتَ بعدَ ذلك إلى الإنجليزيِّ ثُمَّ قال لهَ: جاءَني كتابُك فإذا كنْتَ تُريدُ رأيي فيما تُسميه التعصبَ الدينيَّ عند المسلمين، فعجيبٌ أنْ تضعوا أنتم الغلطةَ ثُمَّ تسألونا نحن فيها! إنَّكَ لتعلمُ أنَّ هذا التعصبَ الكذِبَ الذي أكثرْتمُ الكلامَ فيهِ، إنَّما هو لفظٌ مِنْ ألفاظِ السياسة الأوروبيَّة، أرسلتُموهُ إلينا لِيقاتِل لفظَ التعصبِ الحقيقيّ؛ ومن قبلِ هذا اخترَعتُم لفظة (الأقليَّات)، وأجريْتُموها في لُغتِكُمُ السياسية، لِتجعلوا بها لِتعصُّبِنا الوطنيِّ شكلاً آخرَ غيرَ شكلِه فتُفسدوهُ علينا بهذه المادَّة المُفسدة؛ وبذلك تَضربون اليدَ اليمنى من غير أنْ تلمسوها، إذْ تضربونَها بشلِّ اليدِ اليسرى.

إنَّ الإسلامَ في نفسِه عدوٌّ شديدٌ على التعصبِ الذي تفهمونَه، فهو يقول لأهلِه في كتابه العزيز: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

فإذا كان العدلُ في هذا الدين عدْلاً صارِماً، وحقًّا مَحْضاً لا يُميِّزُ بشيءٍ ألبتَّة، لا ذاتَ النفسِ التي فيها اشتهاءُ الدم، ولا أصلها من الأبوين اللذين جاءَتْ منهما وِراثةُ الدم، ولا أطرافَها من الأقربين الذين يلتفُّونَ حول نَسَبِ الدم ـ إذا كان هذا، فأين في هذا العدلِ محلُّ الظلْم؟

لعلَّكَ تُشيرُ إلى هذِه الرُّعونة التي تعرفُها في الأغمارِ والأغفالِ من العامَّة، فهذِه ليسَتْ من أثرِ الدين، بلْ هي أثرُ الجهلِ بالدين؛ إنَّ هذا ليس تعصُّباً، بلْ هو معنًى من معاني الحَمِيَّة النفسيَّة الخَرقاءِ لم تجدوا أنتم له لفظاً، وكان أقربَ الألفاظِ إليه عندكم هوَ التعصبُ، فأطلقْتُمُوهُ عليه لِلمعنى الذي في نفسِه والمعنى الذي في أنفسِكم. ألا فاعلمْ أنّ إسلامَ العامَّة اليومَ هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعدَ ذلك.

قال الإنجليزيُّ: ولكنَّ لِهؤلاءِ العامَّة علماءَ دينيينَ يُدبّرونهم من ورائِهم. وهم عندَكم ورثَةُ النبيّ ﷺ أي منبعُ الفكرة وقوتُها.

قال الباشا: غيرَ أنّ هؤلاءِ قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرُهم لا يَنْدَسُّ فيهم عِرْقٌ من تلك الوراثة، وذلك هو الذي بلغَ بنا ما ترى؛ فالقومُ إلّا قليلاً منهم كالأسلاكِ الكهربائيَّة المعطَّلة: لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب؛ ولو أنَّ هؤلاءِ العلماءَ كانَتْ فيهم كهرباءُ النُّبّوة، لكَهْرَبوا الأممَ الإسلاميَّةَ في أقطارِها المختلِفة. إذن لقامَ في وجه الاستعمارِ الأوروبّيِّ أربعمائة مليون مسلم جَلْدٍ صارم شديدٍ، متظاهرينَ متعاونينَ، قد أعدُّوا كلَّ ما استطاعوا من قوة العِلْمِ، وقوة النفْس، وهم لو قَذَفَ كلٌّ منهم بحجرين لردموا البحرِ.

أتريدُ معنى التعُصبِ في الإسلام؟ إنَّهُ بعينِه كتعصُّبِ كلِّ إنجليزيٍّ لِلأُسطولِ؛ فهو تَشَابُكُ المسلمينَ في أرجاءِ الأرضِ قاطبةً، وأخذُهم بأسبابِ القوَّة إلى آخرِ الاستطاعة، لدفعِ ظُلْم القوَّة بآخرِ ما في الاستطاعة.

وهو بذلك يعملُ عملين: استكمالُ الوجودِ الإسلاميِّ، والدفاعُ عن كمالِه.

وإذا أنت ترجمْتَ هذا إلى معناهُ السياسيِّ، كان معناهُ إصرارَ جميعِ المسلمينَ على نوعِ الحياة وكرامتِها، لا على استمرارِ الحياة ووجودِها فقط. وذلك هو مبدؤكُم أنتم أيُّها الإنجليز: لا تقبلون إلّا حياةَ السيادة والحكم والحريَّةِ، فأنتم مسلمون في هذا المبدأ لو عَدَلْتم.

أليس من البلاءِ أنَّ المسلمين اليومَ لا يَدْرُسُ بعضُهم بلادَ بعضٍ إلّا على الخريطة... مَعَ أنَّ الحجَّ لم يُشرَعْ في دينِهم إلّا لِتعويدِهم دراسةَ الأرضِ في الأرضِ نفسِها لا في الورق، ثُمَّ لِيكونَ من مبادئِهِمُ العمليَّة أنّ العالمَ مفتوحٌ لا مقفل؟

إنَّ التعصبَ في حقيقتِه هو إعلانُ الأُمَّة أنَّها في طاعة الشريعة الكاملة، وأنَّ

لهَا الروحَ الحادَّةَ لا البليدة، وأنَّ أساسَها في السياسة الاحترامُ الذاتيُّ لا تقبَلُ غيرَهُ، وأنّ أفكارَها الاجتماعيَّةَ حقائقُ ثابتةٌ لا أشكالٌ نظريَّة، وأنَّ مبدأها هوَ الحقُّ ولا شيءَ غيرُ الحقّ، وأنَّ قاعدتَها «لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا اهتَديتُم». فالهِداية أولاً والهِدايةُ آخِراً: الهِدايةُ في القوَّة، والهِدايةُ في السياسة، والهِدايةُ في الاجتماع. فقلْ لي بحياتِك وحياة إنجلترا: أيُعابُ ذلك على المسلمينَ إلَّا بالألفاظِ التي يَعيبُ اللصُّ بها أهل الدارِ لأنَّهم يُحْكمونَ في وجهِه إقفال الباب...؟

قال: فوَجَم الإنجليزيُّ حتى ذُهِل عن نفسِه وصاح:

إذا كان هذا فلْنتعصَّبْ، فلْنتعصَّبْ.

وزنُ الماضي

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: إنّي لجالسٌ ذاتَ يوم وفي يدي كتابٌ لِبعضِ المتفلسفة من مَلَاحِدَة أوروبّا الذين يُريدون أنْ يفهموا ما لا يُفهم؛ وكان الباشا قد رآني مرةً أنظرُ فيه وأتدبَّرُ مسائلهُ الغامضة، فقال لي: يا بُنيّ، إنَّ أحدَ الكلابِ كان شاعراً فيلسوفاً، فنظرَ ليلةً في النجوم فراعَتْهُ وحيَّرَته؛ فآلى أنْ يفهمَهَا بعقلِه وتفرَّغَ لِدرسِها مدةً طويلة، ثُمَّ وَضَعَ فيها كتاباً نفيساً ضخماً، كان أعظمَ كتبِ الفلسفة وأشدَّها غموضاً عند الكلاب، وكان اسمُه: العظامُ المبعْثَرةُ فوقَنا[1].

قال: فأنا جالسٌ أقرأ هذا الكلامَ الذي لا صحيحَ فيه إلّا أنَّهُ غيرُ صحيح. إذْ دخل عليَّ كاتبٌ متفلسِفٌ مُلْحِدٌ من هؤلاءِ المدخُولين في عقولِهم، المفتونين بأوروبّا ومذاهِبها وعُلْويَّاتِها وسُفْليَّاتها... وهو يكتبُ في الصحفُ، ويُؤلِّفُ الرسائل، وقد جاءَ يَسْتَصْرِخُ الباشا على فلّاح شاركَهُ في زراعة أرضِه، فزرعَهُ الفلاحُ فيها وحَصَدَهُ، ودَهاهُ بكَيدِهِ، وابتلاهُ بغِلْظَتِه، وتهدَّدُهُ بالنّقمة.

وكان هذا الفلاحُ الساذَجُ الغريرُ قد سبقَهُ إليَّ وعرَّفَهُ لي تعريفاً قاموسيًّا محيطاً من مادة كَفَر يكْفر... ثُمَّ قال بعد ذلك: إنَّهُ (بيّاع كلام) يَصْدُق ويكْذِبُ حسبَ الطلب.. والذِّمةُ نفسُها ليسَتْ عندَهُ إلّا (عمليةً حسابيّة)؛ وهو في أقوى جهاتِه لا ينفعُ الدنيا بما تنفعُها به البهيّمةُ من أضعف جِهاتِها.

أمّا الكاتبُ فيقولُ عن هذا الفلاح: إنَّهُ لا يدري أهو يُتمُّ بهائمَهُ أم بهائمُهُ هي التي تُتِمُّهُ، وإنَّ الذي يرفعُ القضيةَ على مثلِ هذا المخلوقِ إلى محكمةٍ لا يكون إلّا كالذي يُقَعْقِعُ بالعصا على جُحْرٍ فيه الحيَّةُ السامَّة.

ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدي، فتهلَّل واستبشرَ وقال لي: هذا نَسَبٌ بينَنَا... فأدركْتُ من كلمتِه هذه جملتَهُ وتفصيله، وخُيِّل إليَّ أنّي أرى فيه نفسَهُ

---

(١) لا ريب أن المؤلف... قد بحث في كتاب (الوسائل العملية) للانتفاع بهذه العظام المبعثرة...

الشرقيَّةَ كالمرأة المطلَّقة. . . فقلْتُ له: أنا اشتريْتُ هذا الكتابَ من أوروبّا، ولكنّي لم أشترِ منها دِماغي.

وكلَّمْتُهُ أستخرجُ ما عندَه؛ فإذا هو في قومِه وتاريخِ قومِه كالسائحِ في بلادٍ أجنبيَّة: يفتحُ لها عينَهُ ولا يفتحُ لها قلبَه.

* * *

وكان جريئاً في كلامِه مَع الباشا: يَطْرُدُ القول حيثُ شاءَ حقًّا وباطلاً، ثُمَّ لإسنادَ لِرأيه ولا تثبيتَ لِحُجَّتِه إلّا قولُ فُلانٍ ورأيُ فلان، كأنَّ في رأسِه عقلاً شحّاذاً. . . ثُمَّ ذكر آخرَ الأمرِ ما جاءَ له، فخجَّلهُ الباشا وقال: هذِه مسألةٌ ككلِّ مسائِلك: تحتاجُ إلى رأي فيلسوفٍ أوروبّي. . . وأعرضَ عنهُ ولم يدخُلْ في شيءٍ من أمرِه.

ولمَّا انصرفَ قال الباشا: يحسبُ هذا نفسَهُ عالماً، وهو صُعلوكٌ عِلْميّ. . وإنَّما يكون دِماغُهُ وأدمغةُ أمثالِه عند الفلاسفة والعلماءِ الذين يذكرونهم كما تكونُ سلَّةُ المهمَلاتِ عند الصحافيين.

إنَّ هذا الرجل يُتمُّ ضعفَ عقلِه في الرأي بقوَّة عِناده فيه، لِيجعل له ثباتَ الحقيقة فيظُنَّ حقيقة، كأنَّ خَضْخَضَةَ الماءِ باليدِ في وعاءٍ صغيرٍ يَنقُلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعةَ الموْج؛ وعند أمثالِ هذا المفتون من الصعاليكِ العلميّين، أنَّكَ إذا تناولْتَ مسألةً فأخطأْتَ فيها خطأً جريئاً، فقدْ جعلْتَها بخطئِكَ الجريءِ مسألةً من العِلْم. . . وأنَّكَ إذا عانَدْتَ فثبتَ الخطأ في وجه الناقدين سنة، كان حقيقةً مدةَ سنة. . .

هم مفتونون زائغون، ومن فِتنتِهِم أنَّهم يَروْنَ البعدَ بينَهم وبين أهلِ الفضائلِ الشرقيَّة، كالبعدِ بين العالِم والجاهل؛ ولو حقَّقوا لرأوْهُ بُعْداً في الغرائزِ لا في العقل، أي كالبعدِ بين الفجورِ وما أشبَه الفُجورَ، وبين التقوى وما أشبَه التقوى.

زعمَ الأحمقُ أنَّ خصمَهُ الفلاحَ رجلٌ راسخٌ في الماضي، كأنَّهُ باقٍ في أمسِ لم ينتقلْ منه، مَعَ أنَّ أمسِ قدِ انقطعَ من الزمن، ثُمَّ خرجَ من ذلك إلى أنَّ الأمَّةَ يجبُ أنْ تنبذَ ماضيَهَا، ثُمَّ أدَّعى أنَّ الإسلامَ يتعصَّبُ لِلماضي. هذه ثلاثُ كلمات تخرجُ منها الرابعةُ التي سكَتَ عنها. . .(١)

وأنا لو شِئْتُ أنْ أسخَرَ من مثلِ هذا الصُّعلوكِ العِلْميّ، لمَا وجدْتُ في

---

(١) الرابعة التي يستلزمها هذا السياق المنطقي: هي تجرد الأمة من الدين، وذلك ما يعمل له بعض الصعاليك العلميين.

أساليبِ السخرية أبلغَ من أنْ أبعَثَ إليه بقارورةٍ فارغةٍ وأقولُ له: املأْها لي من آراءِ الفلاسفة..

يَغفُلُ هذا وأمثالُهُ عن أنَّ الدينَ الإسلاميَّ لا يعرفُ الماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقِه؛ بل هو يشترطُ فيه ألَّا يُخالِفَ العقل ولا العلم، وألَّا يناقِضَ الهداية؛ ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]؟ وفي الثالثة: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]؟ وفي الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤]؟

فانظرْ كيف صَوَّرَ ما نُسميه اليومَ بالجمودِ في قولِه: (حسبُنا)، وكيف صَوَّرَ ما نُسميه بالرجعيَّة في قولِه (نتَّبع)، وتأملْ كيف رفضَ الجمودَ والرجعيَّةَ معاً في العِلْم والعقلِ والهداية، أي في آثارِها من العلوم والمخترعاتِ والفضائلِ الإنسانيَّة، وكيف أبطل في تلك الثلاثِ الاحتجاجَ بالماضي بهذا الأسلوبِ الدقيقِ العالي، وهو قولُهُ في كلِّ آيةٍ أولَوْ، أولَوْ. لم يغيِّرْها؛ بلْ كرَّرها بلفظِها أربعَ مرات.

فالمعجِزُ هنا مجيءُ الآياتِ بهذِه الصورة المنطقية لإسقاطِ حُجَّتِهم، ونفي معنى التقديسِ عن الماضي فيهنَّ؛ إذْ كان العِلْمُ دائمَ التغيُّر، وكان العقلُ دائمَ التجديدِ والإبداع، وكانَتِ الهِدايةُ شديدةً على الطبيعة الحيوانيَّة التي هي ماضي النفس؛ فكأنَّها جديدةٌ على النفسِ عند كلِّ شهوة.

إنَّ الإنسانَ بماضيه وحاضرِه كأنَّهُ مقسومٌ قِسمين، يقولُ أحدُهما: أريدُ أنْ أكونَ. ويقولُ الآخر: أنا قد كنتُ. فالإسلامُ بهذِه الآياتِ قد أوجبَ وزنَ الكلمتين في كلِّ زمنٍ بِما هُوَ الأصحُّ، وبِما هوَ الأنفع، وبِمَا هو الأهدى؛ وباشتراطِه الهدايةَ في جميعِها أشارَ إلى أنَّ الكمال النفسيَّ لِلفردِ يجبُ أنْ يكونَ مرتبِطاً بالكمالِ الإنسانيِّ لِلجنس.

وهذا معنًى عجيب، وأعجبُ منه ما ترى من أنَّ الإسلامَ قدْ أصلحَ فكرةَ الماضي؛ فنقَلها من معنى الآباءِ والأجدادِ لِلناس، إلى المعاني التي هي كالآباءِ والأجدادِ لإنسانيَّة الناس. والأخذُ (بالأهدى) في اجتماعِ أمَّةٍ من الأمم، إنَّما هو بعينِه ناموسُ الترقِّي والتطوُّر.

ومن أدقِّ الأسرارِ قولُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣] فكلمة (أمّة) هذه لم يعرفْها أحدٌ على حقيقتِها، ولم تفسِّرها إلَّا علومُ هذا الزمن، فهي المشاعرُ النفسيَّة التي يتكوَّنُ منها مِزاجُ الشعب، وفيها يستقرُّ الماضي؛ كأنَّ الآيةَ قد عبَّرَتْ بآخرِ ما انتهى إليه علماءُ النفس: من أنَّ الإنسانَ ابْنُ أبويه وابنُ شعبِه أيضاً.

فالتعصبُ في الإسلام هو لِلعلم النافع، ولِلمجدِ الصحيح، ولِلهداية الباعثة على الكمال؛ وتعصبُ الجِيلِ لِمثلِ هذا في ماضيه، هو في اسمِه تعصُّب، غيرَ أنَّهُ في معناهُ إنَّما هوَ العملُ لِتسليم مجدِ الأُمَّة إلى الجيلِ التالي.

المعجمُ السياسيّ

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: كنَّا في سنة ١٩٢٠، وهي بنتُ سنة ١٩١٩[1]؛ وقدِ اجتمعتِ الأمَّةُ على مُقاطعة لجنة (ملنر) لا تُكلِّمُها، فجعلتِ السكوتَ ثورة، وأعلنَ الشعبُ أنَّ كلمتَهُ في لِسان الوفدِ ينطقُ الوفدُ بها نطقَ النبيِّ بِمَا يُوحَى إليه، فما يكون لأحدٍ غيرِه أنْ يقولها، ولا أنْ يقول أوحيَ إليّ. وأبى اللورد ملنر أنْ يصدِّقَ أنَّ لِلمصريينَ إجماعاً يُعْتَدُّ به، وأنَّهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً فَرَسَخُوا فيها، وأنَّهم أصبحوا مَعَ الإنجليز كالإنجليزِ الذينَ يقولون عن أنفسِهم في مثلِهمُ السائر: ينبغي أنْ نكونَ أحراراً مثل أعمالِنا.

وزعمَ اللورد لِنفسِه، أنَّ هذه الأحزابَ المصريَّةَ لا يتَّفقُ منها اثنان أبداً إلَّا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه، وهوَ الطمعُ في مناصبِ الحكم؛ واستخرجَ من ذلك أنَّ المصريَّ والمصريَّ كشقي المِقراض: لا يتحركان في عملٍ إلَّا على تمزيقِ شيءٍ بينهما؛ فإنْ لم يكنْ بينَهما (الشيءُ) لم يكنْ منهما شيء.

وذهب الرجلُ يَتَظَنَّى ويَحْدِسُ على ما يُخيِّلُ له الظنَّ، وقد حسِبَ أنَّ إنجلترا يحقُّ لها أنْ تقول في المصريينَ ما يقولُ الله في خَلقِه كما وردَ في الأثر: «إنما يتقلَّبونَ في قبضتي». وكما تقول اليومَ لأهلِ فلسطينَ من العرب: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]... وكان اللوردُ هذا رجلاً مُمارِساً لِمشاكلِ السياسة، دَخَّالاً فيها، دَاهيةً من دُهاة القوم، له في قلبِه عينان وأذنان غيرَ ما في وجهِه كحذَّاقِ السياسيِّين؛ وهو يعرفُ أنَّ سياسَةَ قومِه لا تدخلُ في شيءٍ إلَّا دخول الإبرة بخيطِها في الثوب، إنْ خرجَتْ هي تركَتِ الخيطَ وقد جَمَعَ وشدّ... فأرادَ أنْ يمتحنَ مذهبَ المصريينَ في إجماعِهم على الاستقلال، وقدَّرَ أنَّهُ واجدٌ من الفلاحينَ عوْناً له ومادةً لِمكرِه السياسيّ، وحسِبَ الوفدَ صورةً جديدةً من طبقة (الباشوات) القديمة، ينزلونَ من الشعبِ منزلةَ اليدِ التي تُمْسِكُ القيدَ، من الرِّجْلِ التي فيها القيد، ويضعون

(١) سنة الثورة المصرية، وقد مر وصفها في مقالة (الأخلاق المحاربة).

معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة، ويقولون: الوطنُ وهم يُريدونَ الجاه، ويُقيمونَ الشعبَ كالسُّلَّم ينتصبُ قائماً بأيديهم لِيحمل أرجلهُمُ الصاعدةَ عليه.

فجاءَ اللورد إلى مصر، فوجدَ الأُمَّةَ كلَّها قد حَذِرَت منه وتيقظَتْ له، حتى نصَحَهُ رشدي باشا بأنَّهُ لنْ يجدَ في مصرَ هِرَّةً تُفاوضُه؛ ولكنَّه كان مستيقناً أنَّ أذُنَ السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين: صوتِ الدنانيرِ وصوتِ الجماهير، فمرَّ في البلادِ يرسمُ على الهواءِ علاماتِ استفهام، وانْصَفَقَ عنهُ الناسُ وأهملُوه، وكان يسيرُ في دائرة الصمتِ التي مركزُها أبو الهول، فبدأ وظلَّ يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ... وساحَ في البلادِ سياحةً طويلة، وكأنَّهُ لم يسافرْ إلَّا من شَفَةِ أبي الهولِ السُّفلى إلى شَفتِه العُليا.

* * *

قال صاحبُ السرِّ: وجاءَ الوردُ لِمقابلة الباشا، فمرَّ عليَّ مرورَ كتابٍ مقفَل: لا أعرفُ منه إلَّا العُنوان؛ غيرَ أنَّهُ رجلٌ بمِقدارِ الرجلِ الذي يُخالفُ أمَّةً كاملةً تكادُ تحسبُهُ مطويًا على زوبعة، وترى له قوَّتين تُحِسُّ من أثرِهما الرهبةَ والإعجاب، وإذا تأملْتَهُ قلْتَ إنَّ اللطفَ والظَّرْفَ أضعفُ شمائلِه، وإنَّ الدَّهاءَ والحيلةَ أقوى مواهبِه.

فلمَّا لقيْتُ الباشا من الغد، سألني: كيف رأيْتَ اللورد ملنر؟ فقلْت: واللهِ يا باشا إنَّهُ كالضرورة: ما يتمنَّاها أحدٌ ولكنَّها تجيء...

فضحكَ الباشا وقال: يا ليْتَ لنا ـ نحن الشرقيينَ ـ كلَّ يوم ضرورةً تصنعُ ما صنَع اللورد؛ إنَّهُ كشفَ لنا في ذاتِ أنفسِنا عن حقيقةٍ من أسمى الحقائقِ السياسيَّة: وهي أنَّ الشعبَ الذي يُصِرُّ ولا يزالُ يُصِرُّ يجعلُ الإغراءَ لا يُغري والخوفَ لا يُخيف.

ويا ليْتَ الأممَ الشرقيَّةَ تتعلَّمُ هذا الصمتَ السياسيَّ عن مجاوبَة الكلمة الاستعماريَّة أحياناً؛ فإنَّ صمْتَ الأمَّة المصريَّة عن جوابِ (ملنر) كان معناهُ أنَّ قدرةَ الأُمَّة هِيَ المتكلمةُ كلامَها بذا الصمت، تُعلِنُ لِلعالم أنَّ الواجبَ الشعبيَّ قد وضعَ قُفْلَهُ على كلِّ فم.

وقد فسَّرَ اللورد هذا السكوتَ بتفسيرِه السياسيّ، فأدركَ منه أنَّ في الشعبِ أَنَفَةً وحَميَّةً وقوَّة، وأنَّ حسابَ الضميرِ الوطنيِّ أصبحَ لِهذِه الأفئدة كالحسابِ الإلهيِّ لِلنفوسِ المؤمنة: كِلاهما مُسْتعلِنٌ يُخافُ ويُتَّقى، وكِلاهما كلمةٌ محرَّمة.

أيةُ معجزةٍ هذه التي جعلتْ كلمةَ الأجنبيِّ تتَّخذُ في أذهان أمَّةٍ كاملةٍ شَكْل قائلِها، فاجتمَعَتْ لها البلادُ على معنى الرفضِ، وأصبحَ كلُّ فردٍ يعرفُ محلَّهُ من الكلّ،

وخضعتِ الطبائعُ بجملتِها لِقانون العزة القوميَّة، الذي يُلزِمُها ألّا تخضعَ لِلأجنبيّ؟

إنَّ الأُمَمَ بعضُ مسائل نفسيَّةٍ كهذِه المسألة؛ فلو أنَّ لنا خمسةَ دروسٍ سياسيةٍ مختلفةٍ كدرسِ (ملنر)، لكانَتْ لنا في الإيمان الوطنيّ كالصلواتِ الخمس.

والآنَ تعلمَتِ الأُمَّةُ أنَّ الشعبَ العزيزَ هوَ الذي ينظرُ في فَضِّ مشاكلِهِ إلى الحلّ وإلى طريقة الحلِّ أيضاً، وقد كان (ملنر) هو أول أساتذَتِنا في تعليمِنا الطريقة.

وهذا الدرسُ يجبُ أنْ يكونَ درساً لِلشرقِ كلِّه، فإنَّ السياسةَ الاستعماريَّة قائمةٌ فيه على خِداعِ الطريقة في حلِّ مشاكلِهِ، فيحلونها ويُعقِّدُونَها في نصٍّ واحد؛ ويُثبتُ الكلامُ الذي يتَّفقون عليه أنَّ المُرادَ منه زوالُ الخِلاف، ويُثبتُ العملُ بعدَ ذلك أنَّ المُرادَ كان زوال المقاومة.

وفي السياسة الأوروبّيَّة موافقاتٌ دميمةٌ كالنساءِ المشوَّهات، فإذا عرضوا واحدةً منها على مَنْ يُريدون أنْ يزوّجوه... فأباها وفتَح لها عينيه بكلِّ ما فيهما من قوة الإبصار، أعفَوْهُ منها وقالوا له: سنأتيكَ بالجميلةِ، ثُمَّ يذهبونَ بها إلى معهدِ التجميلِ اللغوي، فيصقلونها ويصبغونها، ويضعونَ لها أحمرَ السياسة وأبيضَها، ثُمَّ يعرضونَها جديدةً على صاحبِهم ذاك، وما صنعوا ما به صارَتِ الدميمةُ غيرَ دميمة، ولكنّ ما به رجعَ غيرُ الأعمى كالأعمى.

ولهم عقولٌ عجيبةٌ في اختراعِ الألفاظ، حتى لتَكونُ شِدَّةُ الوضوح في عِبارة، هي بعينِها الطريقةَ لإخفاءِ الغموضِ في عبارةٍ أخرى. وكثيراً ما يأتونَ بألفاظٍ منتفخةٍ تُحسَبُ جَزْلةً بادنةً قد ملأها معناها، وهي في السياسة ألفاظٌ حُبَالى، تَستكمِلُ حملها مدةً ثُمَّ تلِد.

ولهم من بعضِ الكلماتِ السياسيَّة، كما لهم من بعضِ الرجالِ السياسيِّين؛ فيكون الرجلُ من دُهاتِهم رجلاً كالناس، وهو عندَهم مِسْمَارٌ دَقُّوهُ في أرضِ كذا أو مملكة كذا، ويكون اللفظُ لفظاً كاللغة، وهو مِسمارٌ دقّوهُ في وثيقةٍ أو مُعاهدة.

ثُمَّ ضحكَ الباشا وقال: إنَّ أرضَنا تُخرجُ القطن، وسياستَنا تُخرج ألفاظاً كالقطن: لا تُوضعُ في المِغزَل إلّا مَدَّتْ وتحوَّلتْ. وإذا ذهبْنَا نُخالفُهم في التأويلِ والتفسير، لم نجدْ عندنا المعجمَ السياسيَّ الذي يُملي النصّ. أتدري يا بُنيَّ ما هو المعجمُ السياسيّ؟

أَمَا إنَّهُ لو كان كتاباً يتألفُ من مليون كلمة، لذهبَتْ كلُّها عبثاً وباطلاً وهُراء، ولكنَّهُ ذلك المعجمُ الحيُّ، ذلك المعجمُ الذي يتألَّفُ من مليون جندي...

اللسانُ المُرَقَّع

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءَ «حضرةُ صاحبِ السعادة» فلانٌ لِزيارة الباشا؛ وهو رجلٌ مِصريٌّ وُلِدَ في بعضِ القُرى، ما نعلمُ أنَّ الله (تعالى) ميَّزهُ بجوهرٍ غير الجوهر، ولا طَبْعٍ غير الطبْع، ولا تركيبٍ غير التركيب، ولا زادَ في دمِهِ نقطةَ زهوٍ، ولا وضعَهُ موضِعَ الوسطِ بين فنَّين من الخليقة. غيرَ أنَّهُ زارَ فرنسا، وطافَ بإنجلترا، وساحَ في إيطاليا، وعاجَ على ألمانيا، ولوَّنَ نفسَهُ ألواناً، فهو مصريٌّ ملوَّن. ومن ثُمَّ كان لا يرى في بِلادِه وقومِه إلَّا الفروقَ بين ما هنا وبين ما هناك. فما يظهرُ له دينُ قومِهِ إلَّا مُقابلاً لِشهوات أحبَّها وغامرَ فيها، ولا لغةُ قومِه إلَّا مقرونةً بلغةٍ أخرى ودَّ لو كان من أهلِها، ولا تاريخُ قومِه إلا مغمًى عليه.. كالميتِ بين تواريخِ الأُمَم.

هو كغيره من هؤلاءِ المترفينَ المنعَّمين: مصريُّ المالِ فقط، إذْ كانَتْ أسبابُهم ومستَغَلَّاتُهم في مِصر؛ عربيُّ الاسم لا غير، إذْ كانَتْ أسماؤُهم من جِناية أهليهم بالطبيعة؛ مُسلمُ ما مضى دونَ ما هو حاضر، إذْ كان لا حِيلةَ في أنسابِهِمُ التي انحدروا منها.

هو كغيرِه من هؤلاءِ المترفينَ المنعَّمينَ المفتونينَ بالمدنيَّةِ: لِكُلٍّ منهم جنسُهُ المِصريُّ ولِفكرِه جنسٌ آخر.

قال: وكان حضرةُ صاحبِ السعادة يُكلِّمُ الباشا بِالعربية التي تلعنُها العربية، مرتفِعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطًّا... نازلاً بها عن لغة السُّوقة نزولاً عالياً... فكان يرتضِخُ لُكْنَةً أعجميةً، بينَا هي في بعضِ الألفاظِ جرسٌ عالٍ يطنُّ، إذا هي في لفظٍ آخرَ صوتُ مريضٍ يئنّ، إذا هي في كلمةٍ ثالثةٍ نغمٌ موسيقيٌّ يرنّ. ورأيْتُهُ يتكلَّفُ نسيانَ بعضِ الجُمَلِ العربيَّة لِيلويَ لِسانَهُ بغيرها من الفرنسيَّة، لا تظرُّفاً ولا تملُّحاً ولا إظهاراً لِقدرةٍ أو عِلْم، ولكن استجابةً لِلشعورِ الأجنبيِّ الخفيِّ المتمكن في نفسِه. فكانَتْ وطنيَّةُ عقلِه تأبى إلَّا أنْ تُكذِّبَ وطنيَّةَ لِسانِه، وهو بإحداهُما زائفٌ على قومِه، وبالأخرى زائفٌ على غير قومِه.

* * *

فلمَّا انصرفَ الرجلُ قال الباشا: أفٌّ لِهذا وأمثالِ هذا! أفٌّ لهم ولِمَا يصنعون! إنَّ هذا الكبيرَ يُلقِّبونَهُ «حضرة صاحب السعادة»، ولأَشرفُ منهُ ـ والله ـ رجلٌ قَرويّ ساذجٌ يكون لقبُهُ «حضرة صاحب الجاموسة». . . نعم إنَّ الفلاحَ عندَنا جاهلُ عِلْم، ولكنَّ هذا أقبحُ منه جهلاً، فإنَّهُ جاهلُ وطنيَّة.

ثُمَّ إنَّ الجاموسةَ وصاحبَها عاملانِ دائبان مخلصانِ لِلْوطن؛ فما هو عملُ حضرة (صاحبِ اللسان المرقَّع) هذا؟ إنَّ عملهُ أنْ يُعلِنَ بِرطانتِهِ الأجنبيَّة أنَّ لغةَ وطنِه ذليلةٌ مَهينة، وأنَّهُ مُتجرِّدٌ من الروحِ السياسيِّ لِلغة قومِهِ؛ إذْ لا يظهرُ الروحُ السياسيُّ لِلغةٍ ما، إلَّا في الحِرْصِ عليها وتقديمِها على سِواها.

كان الواجبُ على مثلِ هذا ألَّا يتكلَّمَ في بلادِهِ إلَّا بِلُغتِه، وكان الذي هو أوجبُ أنْ يتعصَّبَ لها على كلِّ لُغةٍ تُزاحِمُها في أرضِها، فتركَ هذا وهذا وكان هو المزاحمَ بنفسِه؛ فهو على أنَّهُ «حضرة صاحب سعادة»، لا يُنزِلُ نفسَهُ من اللغة القومية إلَّا مَنزِلةَ خادمٍ أجنبيٍّ في حانة.

أتدري ما هو سِرُّ هؤلاءِ الكُبراءِ وهؤلاءِ السَّراة الذين يُطمْطِمون إذا تكلموا فيما بينَهم؟ إنَّهُم عندَنا طبقات:

أمَّا واحدةٌ، فإنَّهم يصنعونَ هذا الصنيعَ منجذبين إلى أصلٍ راسخ في طِباعِهم، مِمَّا تركَهُ الظلمُ والاستبدادُ والحمقُ في زمن الحكم التركيّ؛ فهم يُبْدون جوهرَ نفوسِهم لأعينِهم وأعين الناس، كأنَّ اللغةَ الأجنبيَّةَ فيما بينَهم علامةُ الحكم والسلطة واحتقارِ الشعبِ واستمرارِ ذلك الحمقِ في الدم. . . وهم بها يتنبَّلون.

وأمَّا طبقة، فإنَّهم يتكلّفون هذا مِمَّا في نفوسِهم من طِباعٍ أحدثَها النِّفاقُ والخضوعُ والذلُّ السياسيُّ في عهدِ الاحتلالِ الإنجليزي؛ فاللغةُ الأجنَبيَّةُ بينَهم تشريفٌ واعتبار، كأنَّهم بها من غير الشعبِ المحكوم الذي فقدَ السلطة، وهم بها يتمجَّدون.

وأمَّا جماعة، فإنَّهم يتعمَّدون هذا يُريدُون به عيبَ اللغة العربيَّة وتهجينَها، إذِ اتخذوا مِنْ عداوة هذه اللغة طريقةً انتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه، وفيهِمُ العالمُ بعلوم أوروبّا، والأديبُ بأدبِ أوروبّا؛ وذلك من عداوتِهم لِلدين الإسلاميّ، إذْ جعل هذه اللغةَ حكومةً باقيةً في بِلادِهم مَعَ كلِّ حكومةٍ وفوقَ كلِّ حكومة؛ وهم يزدرون هذا الدينَ ويُسقطونَ عنْ أنفسِهم كلَّ واجباتِه. وهؤلاءِ قد خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً، إذْ يُغلونَ في مِصريَّتِهم غلوًّا قبيحاً ينتهي بهم إلى سفه الآراء، وخِفَّة الأحلام، وطيشِ النزعات، فيما يتّصِلُ بالدين الإسلاميِّ وآدابِه ولُغتِه. وما أرى الواحدَ منهم إلَّا قد غطَّى

وصفَهُ من حيثُ هو رقيعٌ، على وصفِه من حيثُ هو عالمٌ أو أديبٌ أو ما شاء. إنَّ هذا لمقتٌ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٣٥].

ومن أثرِ تلك الفِئاتِ الثلاثِ نشأَتْ فِئةٌ رابعة، تحوَّل فيهم ذلك الخلْطُ من الكلام إلى طريقةٍ نفسيَّةٍ في النفس؛ فهم يُقحِمونَ في كِتابتِهم وحديثِهِمُ الكلماتِ الأجنبيَّة، ويحسبون عملهُم هذا تظرُّفاً ومُعابثةً ومُجوناً، على أنَّهُ هو الذي يُظهِرُ لِعينِ البصيرِ مواضِعَ القطعِ التاريخيِّ في نفوسِهم، وأماكنَ الفسادِ القوميِّ في طبيعتِهم، وجِهاتِ التحلُّلِ الدينيِّ في اعتقادِهم. هؤلاءِ يكتب أحدُهم: (النرفزة) وهو قادرٌ أنْ يقول الغضب، (والفلير) وهو مستطيعٌ أنْ يجعل في مكانِها المُغازلة، (وسكالنس) وهو يعرفُ لفظةَ أنواعٍ وألوان، وهكذا وهكذا؛ ولا ـ والله ـ أنْ تكونَ المسافةُ بين اللفظين إلَّا المسافةَ بعينِها بين قلوبِهم ورُشدِ قلوبهم.

وما برِحَ التقليدُ السخيفُ لا يُعرفُ له باباً يَلِجُ منه إلى السُّخفاءِ إلَّا بابَ التهاون والتسامح؛ ونحنُ قومٌ ابتُلِينَا بتزويرِ العُيوبِ على أنفسِنا وعدِّها في المحاسن والفضائل، من قِلّة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وبهذه الطبيعة المعكوسة نُحاولُ أنْ نقتبسَ من مزايا الأوروبيِّين، فلا نأخذُ أكثرَ ما نأخذُ إلَّا عيوبَهم، إذْ كانَتْ هيَ الأسهل علينا، وهيَ الأشكلُ بطبعِنا الضعيف المتسامحِ المتهاون.

ومن هذا تجدُ مشاكلنا الاجتماعيَّة ـ على أنَّها أهونُ وأيسرُ من مشاكلِ الأوروبيِّين، وعلى أنَّ في دينِنا وآدابِنا لِكلِّ مُشكلةٍ حلّها ـ تجدُها هي علينا أصعبَ وأشدَّ، لأنَّنا ضعفاءُ ومتخاذلون ومقلِّدون ومفتونون، وكلُّ ذلك من شيءٍ واحد: وهو أنَّ أكثرَ كُبرائِنا هم أكبرُ بلائِنا.

* * *

قال صاحبُ السرّ: ثُمَّ ضحكَ الباشا ضحكتَهُ الساخرةَ وقال: كيف تصنعُ أمَّةٌ يكون أكثرُ العاملين هم أكبرَ العاطلين، إذْ يعملون ولكنْ بروحٍ غير عاملة..

سِرُّ القُبَّعة

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا، قال: نَجَمَتْ في مصرَ حركةٌ بِعقِبِ أيَّام البِدعة التركيَّة، حينَ لم تبقَ لِشيءٍ هناك قاعدةٌ إلَّا القاعدةَ الواحدةَ التي تُقرِّرُهَا المشانق... فمَنْ أبى أنْ يخلعَ العِمامةَ عن رأسِه خلعوا رأسَه؛ ومَنْ قال (لا) انقلبَتْ (لا) هذه مشنقةً فعُلِّقَ فيها.

وكانَتْ فكرةُ اتخاذِ القبَّعة في تركيا غِطاءً لِلرأس، قد جاءَتْ بعدَ نَزَعات من مثلِها كما يجيءُ الحِذاءُ في آخرِ ما يلبسُ اللابس، فلم يشكَّ أحدٌ أنَّها ليسَتْ قبَّعةً على الرأسِ أكثرَ مِمَّا هي طريقةٌ لِتربية الرأسِ المسلم تربيةً جديدةً، ليس فيها ركعةٌ ولا سَجْدة؛ وإلَّا فنحنُ نرى هذه القُبَّعةَ على رأسِ الزنجيِّ والهمَجيّ، وعلى رأسِ الأبله والمجنون، فما رأيْناها جعلتِ الأسودَ أبيض، ولا عرفْناها نقلتْ همجياً عن طبعِه، ولا زعمَ أحدٌ أنَّها أكملتِ العقل الناقصَ أو ردَّتِ العقل الذاهب، أوِ انقلبَتْ آلةً لِحلِّ مُشكلاتِ الرأسِ البليد، أو غَصَبَتِ الطبيعةَ شيئاً وقالتْ: هذا لِحاملي دون حاملِ الطربوشِ والعِمامة.

وقدِ احتجُّوا يومئذٍ لِصاحبِ تلك البِدعة أنَّهُ لا يرى الوجهَ إلَّا المدنيَّة، ولا يعرفُ المدنيَّةَ إلَّا مدنيّة أوروبّا، فهو يمتَثِلُها كما هي في حسناتِها وسيئاتِها، وما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ وما يكون في حاجةٍ إليه وما يكون في غِنًى عنه؛ حتى لو أنَّ الأوروبّيِّينَ كانوا عُوراً بالطبيعة، لجعل هو قومَهُ عُوراً بِالصناعة لِيُشبهوا الأوروبّيِّين. نعم إنَّها حُجَّةٌ تامَّةٌ لولا نقصٌ قليلٌ في البرهان، يُمكنُ تلافيه بإخراج طبعةٍ جديدةٍ من كتبِ الفُتوحِ العثمانيَّة، يظهرُ فيها الخُلفاءُ العِظامُ والأبطالُ المغَاويرُ الذين قهروا الأروبيّين لابسِينَ قُبَّعات، لِيُشبهوا الأوروبّيّين...

قال صاحبُ السرِّ: وتهوَّرَ في هذه الضلالة رَهْطٌ من قومِنا، وأخذوا يدْعون إلى التقبُّع في مصرَ احتذاءً لِتركيّا، وذهبَ بعضُهم إلى سعدِ باشا (رحمه الله) يطلبُ رأيَه، فكان رأيُهُ (لا) بمدِّ الألف... وعهدَ إليَّ بعضُهم أن أسألَ الباشا، فقال:

ويْحَهُم! ألَا يخجلون أنْ نكونَ ـ نحن المصريين ـ مقلِّدين لِلتقليدِ نفسِه؟ إنَّ

هذه بِذعةٌ تنحطُّ عندَنا درجةَ عن الأصل، فكأنَّها بِدعتان[1]. ثُمَّ ضحك الباشا وقال: كان في القديم رجلٌ سمع أنَّ البصل بِالخلّ نافعٌ لِلصفراء، فذهبَ إلى بُستانٍ يملكُهُ وقال لِوكيلِهِ: اِزرعْ لي بصلاً بخلّ... هكذا يُريدون منَ القبعات: أنْ تُخرِجَ لهم تُركاً بأوروبيّين.

ليسَتْ هذه القبعةُ في تركيا هيَ القبعة، بل هي كلمةُ سبٍّ لِلعربِ وردٌ على الأسلام. ضاقَتْ بها كلُّ الأساليبِ أنْ تُظهرَها واضحةً بيِّنَة، فلم يَفِ بها إلَّا هذا الأسلوبُ وحْدَهُ. وهي إعلانٌ سياسيٌّ بِالمناوأة والمخالفة والانحراف عنَّا وَاطِّراحِنا. فإنَّ الذي يخرجُ من أمَّتِه لا يخرجُ منها وهو في ثِيابِها وشِعارِها؛ فبهذا انفتحَ لهم بابُ الخروج في القبعة دون غيرِها مِمَّا يجري فيه التقليدُ أو يُبدِعُهُ الابتكار؛ وإلَّا فأيُّ سرٍّ في هذه القبعات، ومتى كانتِ الأُممُ تُقاسُ بمقاييسِ الخياطين....؟

هٰهنا سيفٌ أرادَ أنْ يكونَ مِقَصًّا فعمل أولاً ما يعملُ الحُسامُ البَتَّار، فأجادَ وأبدعَ وأكبرَهُ الناسُ وأعظموه؛ ثُمَّ صنعَ ما يصنعُ المِقصُّ، فماذا عساهُ يأتي به إلَّا ما يُنكرُهُ الأبطالُ والخيَّاطونَ جميعاً؟

أكُتِبَ علينا أنْ نظلَّ دهرَنا نبحثُ في التقليدِ الأعمى، وألّا يَحيا الشرقيُّ إلَّا مستعبَداً ينتظرُ في كلِّ أمورِه مَنْ يقولُ له: اِشْرَعْ لي...؟ إنْ بحثْنَا فلْنبحثْ في زيٍّ جديدٍ نتميَّزُ به، فتكونَ القُوى الكامنةُ فينا وفي طبيعة أرضِنا وجوِّنا هيَ التي اخترعَتْ لِظاهرِها ما يجعلُهُ ظاهرَها. كما يُخرِجُ زَوْرُ الأسدِ لِبْدَةَ الأسد. غايةً في المنفعة والجمالِ والمُلاءمَة.

أنا ألبسُ ما شئت، ولكنِّي عند القُبَّعَة أجِدُ حدًّا تقفُ إليه ذاتيَّتي الفرديَّةُ، فلا أرى ثَمَّةَ موضعَ انفرادٍ ولكنْ مَوضعَ مُشاكلة، ولا أعرفُ صِفةَ منفعةٍ لي بلْ صِفةَ حقيقةٍ مِنِّي، ويَعترِضُني من هناكَ المعنى الذي يَصيرُ به النوعُ إلى الجنسِ. والواحدُ إلى الجماعةُ وما دمْتُ مسلِماً أصلِّي وأركعُ وأسجد، فالقبعةُ نفسُها تقولُ لي: دعني فلسْتُ لك.

وهؤلاءِ الرجالُ الذين لبسوها في مصر، إنَّما اشتقُّوها من المصدرِ نفسِ المصدرِ الذي يَخرجُ منه التهتكُ في النساء، وكِلاهما مَنزَعٌ من المُخالفة، وكِلاهما

(١) الأصل تقليد تركيا لأوروبّا، وهذه بدعة؛ فتقليدنا لتركيا بدعة أسخف من الأول.

ضِدٌّ من صِفةٍ اجتماعيَّةٍ تقومُ بها فضيلةٌ شرقيَّةٌ عامة. وليس يَعدمُ قائلٌ وجهاً من القولِ في تزيين القبعة، ولا مذهباً من الرأي في الاحتجاجِ لها، غيرَ أنَّ المذاهبَ الفلسفيَّةَ لا يُعجزُها أنْ تُقيمَ لك البرهانَ جَدَلَا محضاً على أنَّ حياءَ المرأة وعفَّتَها إنْ هما إلَّا رذيلتان في الفنّ... وإنْ هما إلَّا مرضٌ وضعف، وإنْ هما إلَّا كيتَ وكيت، ثُمَّ تنتهي الفلسفةُ إلى عدِّهِما من البلاهة والغفلة، وما الغفلةُ والبلاهةُ إلَّا أنْ تُريدَ فلسفةٌ من فلسفاتِ الدنيا أنْ تُقحِمَ في كتابِ الصلاة مثلاً فصلاً في... في... في الدَّعارة.

لا يهولنَّك ما أقرِّرُ لك: من أنَّ القُبَّعةَ الأوروبيَّةَ على رأسِ المسلم المصريّ، تهتُّكٌ أخلاقيٌّ أو سِياسيٌّ أو دِينيٌّ أو من هذه كلِّها معاً، فإنَّكَ لتعلمُ أنَّ الذينَ لبسوها لم يلبسوها إلَّا منذُ قريب، بعدَ أنْ تهتَّكَتِ الأخلاقُ الشرقيَّةُ الكريمةُ وتحلَّل أكثرُ عُقَدِها، وبعدَ أنْ قارَبتِ الحريَّةُ العصريَّةُ بين النقائضِ حتى كادَتْ تختلِطُ الحدودُ اللغويَّة؛ فحريَّةُ المنفعة مثلاً تجعلُ الصادقَ والكاذبَ بمعنًى واحد، فلا يُقال: إلَّا أنَّهُ وجدَ منفعتَهُ فصدق، ووجدَ منفعتَهُ فكذب؛ وعند الحريَّة العصريَّة أنَّهُ ما فرَّق بين اللفظين وجعل لِكلٍّ منهما حدوداً إلَّا جهلُ القدماء، وفضيلةُ القدماء، ودينُ القدماء. وهذه الثلاثة: الجهلُ والفضيلةُ والدين، هي أيضاً في المعجم اللغويِّ الفلسفيِّ الجديدِ مُترادِفاتٌ لِمعنًى واحد، هوَ الاستعبادُ أوِ الوهمُ أو الخُرافة.

ومتى أزيلتِ الحدودُ بين المعاني، كان طبيعيًّا أنْ يلتبسَ شيءٌ بشيءٍ وأنْ يَحلَّ معنًى في موضعِ معنًى غيرِه، وأصبحَ الباطلُ باطلاً بسببٍ وحقًّا بسببٍ آخر، فلا يحكمُ الناسَ إلَّا مجموعةٌ من الأخلاقِ المتنافرة، تجعلُ كلَّ حقيقة في الأرضِ شُبْهةً مزوَّرةً عندَ مَنْ لا تكونُ من أهوائِه ونزَعاتِهِ، فيحتاجُ الناسُ بالضرورة إلى قوَّةٍ تفصِلُ بينَهم فَصْلاً مسلَّحاً، فيُكْسِبون القانونَ بمدنيَّتِهم قوَّةً همجيَّةً تضطرُهُ أنْ يُعِدَّ لِلوحشيَّة الإنسانيَّة، وتدفعُ هذه الوحشيَّةَ أنْ تُعِدَّ له.

ومن اختلاطِ الحدودِ تجيءُ القبعةُ على رأسِ المسلم، وما هي إلَّا حدٌّ يطمِسُ حدًّا، وفِكرةٌ تهزمُ فِكرة، ورذيلةٌ تقولُ لِفضيلة: ها أنَذا قد جِئتُ فاذهبي.

ما هو الأكبرُ من شيئين لا حدَّ بينَهما لِتعيين الصِّغر؛ وما هو الأصغرُ من شيئين لا حدَّ بينَهما لِتعيين الكِبَر؟ إنَّها الفوضى كما ترى ما دامَ الحدُّ لا موضعَ له في التمييزِ ولا مقرَّ له في العُرف ولا فصل به في العادةِ؛ ومن هنا كان الدينُ عند أقوامٍ أكبرَ كلماتِ الإنسانيَّة في عامَّة لغاتِها وأملأَها بالمعنى، وكان عند آخرينَ

أصغرَها وأفرغَها من المعنى؛ وما كَبُرَ عند أولئك إلَّا من أنَهُ يسعُ الاجتماعَ الإنسانيَّ وهو محدودٌ بغاياتِه العُلْيا، وما صَغُرَ عند هؤلاءِ إلَّا بأنَّ الاجتماعَ لا يسعُهُ فلا حدَّ له، وكأنَّهُ معنًى مُتوهَّمٌ لا وجودَ له إلَّا في أحرف كلمتِه.

فجماعةُ القبعة لا يَرَوْنَ لأنفسِهم حدًّا يحدونها به من أخلاقِنا أو دينِنا أو شرقيَّتِنا، وقد مَرَقُوا من كلِّ ذلك وأصبحوا لا يَرَوْنَ في زِيِّنا الوطنيِّ ما فيه من قوَّة السرِّ الخفيِّ الذي يُلهِمُنا ما أودعَهُ التاريخُ من قوميتِنا ومعاني أسلافِنا.

وأنا أعرفُ أنَّ مِنَّا قوْماً يرى أحدُهم في ظنِّ نفسِه أنَّهُ قانونٌ من قوانين التطوّر؛ فهو فيما يُلابِسُهُ لا ينظرُ إلى أنَّهُ واحدٌ من الناس، بلْ واحدٌ من النواميس... ومن هنا الثُّقَلُ والدعوى الفارغةُ، وما هو أكبرُ من الثقلِ وفراغ الدعوى. وإنَّه لحقٌّ أنْ يكونَ بعضُ الناسِ أنبياء، ولكنْ أقبحُ ما في الباطلِ أنْ يظنَّ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ نبيًّا.

واعلمْ أنَّ كثيراً مِمَّا يُزيِّنونهُ لِلشرقيِّ من رذائلِ المدنيَّة الأوروبيَّة، إن هو إلا منطق شهواته في جملته، ولقد تسمع الجائع يتكلم عن الطعام، فترى كلاماً تَحتهُ معانٍ ومعانٍ لا يعدُّها غيرُ الجائعِ إلَّا حماقةَ ساعتِها...

سعد زغلول

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: ألقي إليّ الباشا ذاتَ يوم أنَّ (سعداً) مُصَبِّحُنا زائراً[1]، وكانَتْ بين الرجُلين خاصةٌ وأسبابٌ وطِيدةٌ. ولِلباشا موقعٌ أعرفُهُ من نفسِ سعدٍ كما أعرفُ الشُّعلةَ في بركانِها؛ أمَّا سعدٌ فكان قدِ انتهى إلى النهاية التي جعلتْهُ رجلاً في إحدى يديه السِّحرُ وفي الأخرى المعجِزة، فهو من عظماءِ هذه البلادِ كقاموسِ اللغة من كلماتِ اللغةِ: يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليه في تعريفِه، ولا تصحُّ الكلمةُ عند أحدٍ إلَّا إذا كانَتْ فيه الشهادةُ على صحتِها.

وجاءَنا سعدٌ غُدْوَةً، فأسرعْتُ إلى تقبيلِ يدِه قبلةً لا تُشبِهُها القُبلات، إذْ مُثِّلتْ لي من فرحِها كأنَّها كانَتْ منفيَّةً ورجعَتْ إلى وطنِها العزيزِ حينَ وُضعَتْ على تلك اليد.

إنَّ الرجل العظِيمَ إذا كان بارًا بأبيه عارفاً قدرَهُ مُدرِكاً عظمتَه، يشعرُ حينَ يُقبِّلُ يدَ أبيه كأنَّهُ يسجدُ بروحِه سجدةً لِلَّه على تلك اليدِ التي يُقبِّلُها، ويجدُ في نفسِه اتصالاً كهربائيًا بين قلبِه وبين سرِّ وجودِه، ويَخُصُّهُ العالمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبلتَهُ نبضَتْ في الكون: وكلُّ هذا قد أحسسْتُهُ أنا في تقبيلي يدَ سعد، وزِدْتُ عليه شعوري بمثلِ المعنى الذي يكون في نفسِ البطلِ حينَ يُقبِّلُ سيفَهُ المنتصِر.

وضحكَ لي سعد باشا ضحكتَهُ المعروفة، التي يبدأها فمُه، وتُتِمُها عيناه، ويشرحُها وجهُهُ كلُّه، فتَجِدُ جوابَها في روحِكَ كأنَّهُ في روحِكَ ألقاها.

والرجلُ من الناسِ إذا نظرَ إلى سعدٍ وهو يبتسِم، رأى له ابتسامةً كأنَّها كمالُ يتواضع، فيُحسُّ كأنَّ شيئاً غيرَ طبيعيٍّ يتَّصل منه بشيءٍ طبيعيّ، فينتعشُ ويَثِبُ في وجودِه الروحيّ وثبةً عاليةً تكونُ فرَحاً أو طرَباً أو إعجاباً أو خُشوعاً أو كلَّها معاً. غيرَ أنَّ الرجل من الحُكماءِ إذا تأمل وجهَ سعدٍ، وهو يضحكُ ضحكتَهُ المطمئنَّةَ المتمكِّنةَ من معناها المقرِّ أوِ المنكرِ أوِ الساخِرِ أو أيِّ المعاني ـ حسِبَ نفسَهُ يرى

(١) يقال: صبحه (بتشديد الباء)، أي جاءه صبحاً.

شكلاً من القولِ لا من الضحك، وظهرَتْ له تلك الابتسامةُ الفلسفيَّةُ متكلِّمةً، كأنَّها مرةً تقول: هذا حقيقيّ. ومرّةً تقول: هذا غيرُ حقيقيّ.

إنَّ سعداً العظيمَ كان رجلاً ما نظرَ إليه وطنيٌّ إلا بعينٍ فيها دلائلُ أحلَامِها، كأنَّما هو شخصُ فكرةٍ لا شخصُ إنسان؛ فإذا أنت رأيتَهُ كان في فِكْرِك قبل أنْ يكونَ في نظرِك؛ فأنت تَشهدُهُ بنظرين: أحدهُما الذي تُبصِرُ به، والآخرُ ذاك الذي تُؤمِنُ به.

عبقريٌّ كالجمرة الملتهبة لا تحسبُهُ يعيشُ بلْ يحترقُ ويُحرق؛ ثائرٌ كَالزلزلة فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حوله؛ صريحٌ كَصراحة الرُّسُل، تلك التي معناها أنَّ الأخلاقَ تقولُ كلمتَها.

رجلُ الشعبِ الذي يُحِسُّ كلُّ مِصريٍّ أنَّهُ يملكُ فيه مِلكاً من المجد. وقد بلغَ في بعضِ مواقفِه مبلغَ الشريعة، فاستطاعَ أنْ يقول لِلناس: ضعوا هذا المعنى في الحياة، وانزِعوا هذا المعنى من الحياة.

* * *

قال صاحبُ السرّ: وانقضتِ الزيارةُ وخرجَ سعدٌ والباشا إلى يسارِهِ، فلمَّا رجعَ من وداعِه قال لي: ـ والله ـ يا بُنيَّ لكأنَّما زادَ هذا الرجلُ في ألقابِ الدولة لقباً جديداً، ثُمَّ ضحكَ وقال: أتدري ما هو هذا اللقب؟ قلْت: فما هو يا باشا؟

قال: ـ والله ـ يا بُنيَّ ما من (باشا) في هذه الدولة يكون إلى جانبِ سعد، إلَّا وهو يشعرُ أنَّ رتبتَهُ (نصف باشا)...

هذا رجلٌ قد بلغَ من العظمة مبلغاً تَصَاغرَ معهُ الكبير، وتضاءَل العظيم، وتقاصَر الشامخ؛ نعم وحتى تركَ أقواماً من خصومِه العظماء، كفلانٍ وفلان، وإنَّ الواحدَ منهم ليلوحُ لِلشعبِ من فراغِه وضعفِه وتَطَرُّحِهِ، كأنَّهُ ظِلُّ رجلٍ لا رجل.

وقد أصبحَ قوةً عاملةً لا بدَّ من فعلِها في كلِّ حيٍّ تحتَ هذا الأفقُ، حتى كأنَّ معانيَ نفسِه الكبيرة تنتشرُ في الهواءِ على الناس، فهو قوَّةٌ مرسَلةٌ لا تُمسَك، ماضيةٌ لا تُردّ، مقدورةٌ لا يُحتالُ لها بحيلة.

هذا وضْعٌ إلهيٌّ خاصٌّ لا يُشبهُهُ أحدٌ في هذه الأمَّة، كميدان الحربِ لا تُشبهُهُ الأمكنةُ الأخرى؛ فقد غامَرَ سعدٌ في الثورة العُرابيَّة وخرجَ منها، ولكنَّها هي لم تخرجْ منه، بلْ بقيَتْ فيه؛ بقيَتْ فيه تتعلَّمُ القانونَ والسياسةَ، وتُصلِحُ أغلاطَها، ثُمَّ

ظَهرَتْ منه في شكلِها القانونيِّ الدقيق. وبهذا تراهُ يَغْمُرُ الرجال مهما كانوا أذكياء؛ لأنَّ فيه ما ليس فيهم، وتراهم يظهرون إلى جانبِه أشياءَ ثابتةً في معانيها، أمَّا هو فتراهُ من جميعِ نواحيه يتلاطمُ كالأمواجِ العاتية.

وتلك الثورةُ هي التي تتكلمُ في فمِه أحياناً فتجعلُ لِبعضِ كلماتِه قوَّةً كقوَّة النصرِ، وشهرةً كشهرة موقعةٍ حربيَّةٍ مذكورة.

ولمَّا كان هو المختارَ لِيكونَ أباً لِلثورة ـ حرمَتْهُ القدرةُ الإلهيَّةُ النسل، وصرفَتْ نزعةَ الأبوَّة فيه إلى أعمالِه التاريخيَّة، ففيها عِنايتُهُ وقلبُهُ وهمومُهُ، وهي نسلٌ حيٌّ من روحِه العظيمة، ويكادُ معها يكون أسداً يزأرُ حول أشبالِهِ. ولنْ يُذكَرَ السياسيُّون المِصريُّون مع سعد، ولنْ يُذكرَ سعدٌ نفسُهُ إذا انقلبَ سِياسيًّا، فإنَّ المكان الخاليَ في الطبيعة الآنَ هو مكانُ رجلِ المقاومة لا رجلِ السياسة، وهذا هو السببُ في أنَّ سعداً يُشعِرُ الأُمَّةَ بوجودِه لذةً كلذة الفوزِ والانتصار، وإنْ لم يفزْ بشيءٍ ولم ينتصرْ على شيء؛ فاطمئنانُ الشعبِ إلى زعيم المقاومة، هو بطبيعتِه كاطمئنان حاملِ السلاحِ إلى سِلاحِهِ.

وسعدٌ وحدَهُ هوَ الذي أفلحَ في أنْ يكونَ أستاذَ المقاومة لِهذه الأُمَّة؛ فنسخَ قوانينَ، وأوجَد قوانين، وحمل الشعبَ على الإعجابِ بأعمالِه العظيمة، فنبَّهَ فيه قوَّةَ الإحساسِ بالعظمة فجعلهُ عظيماً، وصرفَهُ بالمعاني الكبيرة عن الصغائر، فدفَعهُ إلى طريقِ مستقبلِه يُبدعُ إبداعَهُ فيه.

إنَّ هذا الشرقَ لا يحيا بِالسياسة ولكنْ بالمقاومة ما دامَ ذلك الغربُ بإزائهِ؛ والفريسةُ لا تتخلَّصُ من الحلْقِ الوحشيِّ إلَّا بِاعتراضِ عِظامها الصلبة القويَّة في هذا الحَلْق.

وكم في الشرقِ من سياسيٍّ كبيرٍ يجعلونَهُ وزيراً، فتكونَ الوظيفة هي الوزيرَ لا نفسُ الوزير، حتى لو خلعوا ثِيابَهُ على خشبةٍ ونصَّبوها في كرسيه، لكانَتْ أكثرَ نفعاً منهُ لِلأُمَّة، بأنَّها أقلُّ شرًّا منه...

يا بُنيّ، كلُّ الناسِ يرضَونَ أنْ يتمتَّعوا بالمالِ والجاه والسيادة والحكم، فليسَتْ هذه هي مسألةَ الشرق، ولكنَّ المسألة: مَن هو النبيُّ السياسيُّ الذي يرضى أنْ يُصْلب...؟

حماسةُ الشعب

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: لمَّا رجعَ سعد باشا من أوروبّا في سنة ١٩٢١، كانَتِ الأُمَّةُ في استقبالِه كأنَّها طائرٌ مدَّ جناحيه، لا خِلافَ لِشيءٍ منه على شيءٍ منه، بلْ كلُّهُ هو كلّه؛ وكانَتِ المعارضَةُ في الاستحالة يومئذٍ كاستحالة وجودِ رُقعةٍ في ريشِ الطائر.

على أنَّ ثوبَ السياسة المصريَّة كثيرُ الرُّقعِ دائماً بالجديدِ والخَلَقْ، فرقعةٌ من المعارضين، وأخرى من المتعنّتين، وثالثةٌ منَ المتخاذلينَ، ورابعةٌ منَ المعادين، وخامسةٌ وسادسةٌ وسابعةٌ من الحاسدينَ والمنافسينَ والمختلفين لشهوة الخلاف؛ ورقاعٌ بعدَ ذلِك مِمَّا نعلمُ وما لا نعلم، فإنَّ من العجيبِ أنَّ هذا الجوَّ الذي لا يتقلَّبُ إلَّا بطيئاً، يتقلَّبُ أهلُهُ بِسُرْعَة؛ وهذه الطبيعةُ التي لا تكاد تختلف، لا يكادُ أهلُها يتّفقون.

ولكنَّ سعداً (رحمَهُ الله) رجعَ من أوروبّا رجعةَ الكرامة لِأمة كاملة، ففازَ بأنَّهُ لم يخسرْ شيئاً من الحقّ، وانتصرَ بأنَّهُ لم يُهزم، ودلَّ على ثباتِه بأنَّهُ لم يتزعزع، وذهبَ صَولةَ ورجعَ صَولةَ وعزيمة؛ فكان إيمانُ الشعبِ هوَ الذي يتلقَّاه، وكانَتِ الثورةُ هيَ التي تحتفِلُ به، وبطلتِ العللُ كُلُّها فلم يجدِ الاعتراضُ شيئاً يعترضُ عليه، واتَّفقتِ الأسبابُ فاجتمعتِ الكلمة، وظهرَ سعدٌ كأنَّهُ روحُ الأُمَّة متمثِّلاً في قُدْرة، حاكماً بقوَّة، متسلِّطاً بيقين.

نعمْ لم ينتصرِ البطلُ، ولكنَّ الأُمَّةَ احتفتْ به لأنَّهُ يمثِّلُ فيها كمالاً من نوع آخرَ هو سرُّ الانتصار؛ فكانَتْ حماسةُ الشعبِ في ذلك اليوم حماسةَ المبدإ المتمكِّن: يُظهرُ شجاعَةَ الحياة، وفَوْرةَ العزائم، وفضيلةَ الإخلاص، وشدَّةَ الصوْلة، وعِنادَ التصميم؛ ويُثبتُ بقوَّة ظاهرِه قوةَ باطنِهِ، وكان فرحُ الأُمَّة عِناداً سياسيًّا يفرحُ بأنَّهُ لا يزالُ قويًّا لم يَضعف، وكان ابتهاجُها مجداً يُشعرُ بِأنَّهُ لا يزالُ وافراً لم يُنْتَقَص، وكان الإجماعُ ردًّا على اليأس، وكَانَتِ الحماسةُ ردًّا على الضعف.

إِنبعَثَتْ صولةُ الحياة في الشعبِ كلِّه، وابتدأ المستقبلُ من يومِئِذ، فلو نزلتِ

الملائكةُ من السماءِ في سحابةٍ مُجَلْجِلةٍ يُسمَعُ تسبيحُهُمْ لِيُؤيِّدوا سعداً ـ لماَ زادوه شيئاً؛ فقد كان محلُّهُ من القلوبِ كأنَّهُ العقيدة، وكان التصديقُ مبذولاً له كأنَّهُ الكلمةُ الأخيرة، وكانَتِ الطاعةُ موقوفةً عليه كأنَّهُ الباعثُ الطبيعيّ، وكان البطلُ في كلِّ ذلك يُشبِهُ نبيًّا من قِبَلِ أنَّ كلّاً منهما صورةٌ كاملةٌ لِلسموِّ في أفكارِ أمَّة.

* * *

قال صاحبُ السرّ: ورجعَ الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس، وصِحَّة العهد، واجتماعِ الكلمة، وإعدادِ الشعبِ لِلمِراسِ والمُعاناة، فقال:

تَالله لقد أثبتَ (سعدٌ) لِلدنيا كلِّها أنَّ مِصرَ الجبارَةَ متى شاءَتْ بَنتِ الرجال على طريقة الهرم الأكبرِ في العظمة والشهرة والمنزلة والقوَّة. ولقد صنعَ هذا الرجلُ العظيمُ ما تَصنَعُ حربٌ كبيرة، فجمع الأُمَّةَ كلَّها على معنًى واحدٍ لا يتناقض، ودفَعَها بروحٍ قوميَّةٍ واحدةٍ لا تختلف، وجعل عِرْقَ السياسة يفورُ كما يفورُ العِرْقُ المجروحُ بالدم.

إنَّ هذه الأُمَّةَ بين شيئين لا ثالثَ بينهما: إمَّا الحزْمُ إلى الآخرِ وإمَّا الإضاعة. ولا حزْمَ إلَّا أنْ يبقى الشعبُ كما ظهرَ اليوم: طُوفاناً حيًّا، مُسْتَويَ الطبيعة، مندفعَ الحركةِ، غامِراً كلَّ ما يعترضُه، إلى أنْ يُقضَى الأمرُ ويقولُ أعداؤُنا: يا سماءُ اقلِعي.

هكذا يعملُ الوطنُ مع أهلِه كأنَّهُ شخصٌ حيٌّ بينَهم، حينَ يستوي الجميعُ في الثقة، ويتآزرُ الجميعُ في الأمل، ويشترِكُ الجميعُ في العطف الروحيّ، ولا يبقى لِجماعةٍ منهم حظٌّ في رغبةٍ غير الرغبة الواحدة لِلجميع؛ وهكذا يعملُ الوطنُ بأهلِه حينَ يعملُ مع أهلِه.

كان أعداؤُنا يحسبوننا ذُباباً سياسيًّا لا شأنَ له إلَّا بفَضَلاتِ السياسة، ولا عمل له في أزهارِها وأثمارِها وعِطْرِها وحَلواها؛ فأسمعهُمُ الشعبُ اليومَ طنينَ النحل، وأراهم إبَرَ النحل، لِيعلموا أنَّ الأزهارَ والأثمارَ والعِطْرَ والحلوى هي له بالطبيعة.

وكانوا يتخرّصون أنَّ مذهبَنا في الحياة لِمصلحة المعاشِ فقط، وأنَّ المِصريَّ، حاكماً أو محكوماً، لا يَمدُّ آمالهُ الوطنيَّةَ إلى أبعدَ من مدَّة عمرِه سبعينَ أو ثمانينَ سنة، فإذا أطلقوا أيدِيَنا في حاضرِ الأُمَّة أطلقْنا أيديَهم في مستقبلِها. ومن ثَمَّ طمِعوا أنْ يكونَ الحقُّ الناقصُ في نفسِه حقًّا تامًّا في أنفسِنا لِهذه العِلَّة؛ وحسِبُوا أنَّ السياسيَّ المصريَّ لا يتجرأ أنْ يقول ما يقولُهُ السياسيُّ الأوروبّيُّ: من أنَّهُ لا يخشى الموتَ ولكنَّهُ يخشى العَارَ. فإنَّهُ إذا ماتَ وحدَهُ، وإذا جلبَ العارَ جلبَهُ على نفسِه وعلى أمتِه

وعلى تاريخِ أمَّتِهِ، بيَدْ أنَّ سعداً قالها؛ وفي مثلِ هذا يكون قولُ (لا) معركة.

وها هي ذي معركةُ اليوم التاريخيَّة، فإنَّ الذرَّاتِ الحيَّةَ التي تُخلقُ من دِمائِنا ـ نحن المصريينَ ـ قد ثارَتْ في هذه الدماء، في هذا النهار، تُعلِنُ أنَّها لا ترضى أنْ تولدَ مقيَّدةً بقيود.

أتدري ماذا عرضوا على سعد؟ إنَّهم عرضوا عليه ما يُشبهُ في السخرية طاحونةً تامَّةَ الأدواتِ والآلاتِ من آخرِ طراز، ثُمَّ لا تُقدَّمُ لها إلَّا حبةُ قمحٍ واحدةٍ لِتطحنَها. . . . نتيجةٌ تسخرُ من أسبابِها، وأسبابٌ تهزأ بِالنتيجة.

إنَّ أوروبًا لا تحترمُ إلا مَنْ يحملُها على احترامِه، فما أرى لِلسياسيينَ في هذا الشرْقِ عملاً أفضل ولا أقوى ولا أردَّ بِالفائدة من إحياءِ الحماسة في كل شعب شرقي، ثم حياطتها وحسن توجيهها؛ فهذه الحماسة الشعبية الدائمة القويَّة البصيرةِ، هي قوةُ الرفضِ لِمَا يجبُ أنْ يُرفَض، وقوةُ التأييدِ، لِمَا يجبُ أنْ يُقبل، وهي بعدَ ذلكَ وسيلةُ جمعِ الأمرِ، وإحكام الشأن، وإقرارِ العزيمة في الأخلاق، وتربية الثقة بالنفس، وبها يكونُ إذكاءُ الحِسِّ وتعويدُهُ إدراكَ الأعمالِ العظيمة، والتحمسَ لها، والبذل فيها.

وما عِلَّةُ العِللِ فينا إلَّا ضعفُ الحماسة الشعبيَّة في الشرق، وسوءُ تدبيرِها، وقبحُ سياستِها؛ وإنَّا لنَأخُذُ عن الأوروبِّيِّينَ من نِظامِهم وأساليبِهم وسياستِهم وعلومِهم وفنونِهم؛ فنأخذُ كلَّ ذلكَ بروحِنا الفاترة في خمولٍ وإهمالٍ وتواكُلٍ وتَفرُّدٍ بِالمصلحة واستبدادِ بِالرأي، فإذا دينارُهم في أيدينا درهم، وإذا نحن وإيَّاهم في الشيءِ الواحدِ كَالنحلة والذبابة على زهرة. . .

ليسَتْ لنا حماسةُ الحياة، وبهذا تختلفُ أعمالُنا وأعمالُهم، وذلك هوَ السرُّ أيضاً في أنْ أكثرَ حماستِنا كلاميةٌ مَحْضةٌ؛ إذْ يكون الصُراخُ والصِياحُ والتَّشدُّقُ ونحوُها من هذه المظاهرِ الفارغة ـ تنقيحاً لِلطبيعة الساكنة فينا، وتنويعاً منها بغير أنْ نَجهدَ في التنقيحِ والتنويع. ومن هذا كانَتْ لنا أنواعٌ من الكلام ينطلِقُ اللسانُ فيها لِلخروجِ من الصمتِ لا غير. . . ومنه كثيرٌ من هذا الهُراءِ السياسيِّ الذي يدورُ في المجالسِ والأحزابِ والصحف.

إنَّ حماسةَ الشعبِ لا تكونُ على أعدائِه فقط؛ بل على معايبه أيضاً، وعلى ضَعفِه بخاصَّة، والشعبُ الفاترُ في حماستِه لو نال حقين مغصوبين لعادَ فخَسِرَ أحدَهما أو كليهما، أمَّا الشعبُ المتحمسُ القويُّ في حماستِه، فلو غُصِبَ حقين ونال أحدَهما لعادَ فابْتزَّ الآخر.

الجمهور

وقال صاحبُ سرِّ (م) باشا: كان من بعضِ عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أنْ أراقِبَ الحركاتِ والسكناتِ، وأبثَّ العيونَ والأرْصَادَ، وأعرِفَ المضطَرِبَ والمنقلبَ في أيَّام الفتن ونوازِلِ المِحْنةِ، محافظةً على الأمن، ومُبادَرةً لِمَا يُتوقَّع؛ فكنْتُ كالمرصدِ المهيَّأ بآلاتِه لِتدوين حركاتِ الزلازل.

وانتهى إلينا يوماً أنَّ راجفةً منَ هذه الزلازلِ سترجُفُ بفلانٍ من أهلِ الرأي الحرّ؛ الذي يَستقِلُّ ولا يُتابعُ، وينتقِدُ ولا يُحابي، ويُصرِّحُ ولَا يُجَمْجِمُ، وأَنَّ قوْماً ثوَّروا عليه الغُبَارَ الآدميَّ من العَامَّة وأشباه العامة، وأنَّهم يتحيَّنون الوقتَ لِتوجيه المكيدة له في شكلِها المفترسِ من هذا الجمهورِ الناقم.

أمَّا فلانٌ هذا فرجلٌ سِياسيٌّ عنيدٌ أضاعَ الحقَّ كلَّهُ لأنَّهُ لا يرضى بنصف الحقّ... وكلمتُهُ في السياسة كأنَّما تُلقَى على لِسانِه من الغيب؛ فلا يتحوَّلُ عنها ولا يملكُ أنْ يتكلَّمَ إلَّا بما يتكلَّم؛ وقد ذهبَ بصوتِه أنَّهُ في قوم لا يسمعون إلَّا ما أرادوا، فهو بينَهم كَالحقِّ المغلوبِ: لا يموتُ لأنَّهُ غيرُ باطل، ثُمَّ لا يحيا لأنَّهُ لا ينتصر. وقد كان رجلاً كالمصباحِ الوهَّاجِ فألقَوْا عليه الغِطاء، فإذا هو في طبيعته ويبدو لِلناس بغير طبيعتِه، وتركَهُ رأيُهُ الحرُّ الصريحُ كالنبيِّ المكذَّبِ يُرَدُّ صِدقُه؛ لا لأنَّهُ غيرُ صدْق، ولكنْ لأنَّهُ غيرُ مستطاعٍ، أو غيرُ ملائم.

ومن آفاتِنا ـ نحن الشرقيين ـ أنَّنا نستمرئ العداوَة، وننقادُ لأِسبابها، ونتطَاوعُ لها تطاوُعَ الصِّغارِ بأنفسِهم لِمَا في أنفسِهِم؛ كأنَّ المستبدين الذين كانوا في تاريخنا قدِ انتقلوا إلى طَبائعنا؛ فَرَدُّ الفكرِ على الفكرِ في مناقشةٍ تَجري بينَنا ـ لا يكونُ من دَفعِ الحقيقة لِلحقيقة، ولكنْ من ردِّ الاستبدادِ على الاستبداد، ومن توثُّبِ الطغيان على الطغيان؛ فهوَ الثَّلْبُ؛ والطعنُ والتجريح، وهو الجَفوةُ والخصومةُ واللَّدَد، وهو المنازعةُ والعُنْفُ والتَّحامل؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط. والجِدالُ بين العُقلاءِ يبعثُ الفكرَ فينتهي إلى الحقّ، ولكنَّهُ فينا نحن يَهيجُ الخُلقَ فينتهي إلى الشرّ، والردُّ على عظيمٍ منَّا كأنَّهُ يردُّ على منزلتِه في الناس لا على منزلته

منزلته في الرأي، وكشفُ الخطأ عندَنا تعييرٌ بِالخطأ لا تبصيرٌ بِالصواب، واسْتِلابُ الحُجَّة من صاحبِها وإفسادُها عليه كاستلابِ الملكِ من مالكِه وطردِه منه... ومن ثَمَّ كان الدفاعُ بِالمكابرة أصلاً من أصولِ الطبيعة فينا، وكان الاضطهادُ حُجَّةً لِلحُجة العاجزة، وكان الإعناتُ دليلاً لِلدليلِ الذي لا ينهضُ بنفسِهِ، ومتى اعتبَرَ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ إمبراطوراً على الحق... فلا جَرَمَ لا تَردُّ كلمةٌ على كلمةٍ إلّا بحرب.

* * *

قال صاحبُ السرّ: وكَبُرَ الأمرُ على الباشا، فجمع رؤوسَ المؤتمرينَ بذلك الرجلِ الحرّ، وأخذَ يقلِّبُهم تقليبَهُ بين التودُّدِ والملاطفة، وقال لهم فيما قال: إنَّ فضيلةَ الجمهورِ هي التي تضمنُ تربيةَ الفضيلة وحفظَها وغَلبَتَها على الرذائل، وإنَّ كلَّ صحيحٍ يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهورُ صحيحاً، وإنَّ غيرَ العقلاءِ همُ الذين يقبلون الحقيقةَ في يوم ثم يرفضونَها هي ذاتَها في يومٍ آخر، فإنْ ذَهَبْتَ تُجادِلُهم وتحتجُّ عليهم بأنَّهم قبلُوها ـ قالوا: هذا كان أمسِ... فكأنَّما الفاصلُ بين زمنين يجعلُ الشيءَ الواحدَ ضِدَّين.

ثُمَّ سألهم: ما هو ذنبُ الرجل؟ فقال منهم قائل: إنَّهُ خارجٌ علينا في الرأي. فقال الباشا: إنَّ المعنى في أنَّهُ يُخالِفُكم هو أنَّكم أنتم تُخالفونه؛ فقد تكافأتِ الناحيتان، وخلافٌ بخلاف؛ فما الذي جعل لكم حقَّ ردِّه عن الرأي دونَ أنْ يكونَ له مثلُ هذا الحقِّ في رَدِّكُمْ أنتم؟

قالوا: إنَّنا الكثرة. قال الباشا: يا أصدقائي، إنَّ خوفَ الكثرة من رأي فرْدٍ أو أفرادٍ هو أسوأ المعنَيَين في تفسيرِ رأيها هي؛ وعشرةُ جنيهات لا تعبأ بِالجنيه الواحد، فإنَّها تستغرِقُهُ؛ بَيْدَ أنَّ هذه ليسَتْ حال عشرة قروشٍ يا أصدقائي...

نعمْ إنَّ قطْعَ الخِلاف ضرورةٌ من ضروراتِ الوطنيَّة، ولكنْ إذا كان الأمرُ في ظَاهرِه وباطنه كالخِلاف في أيّهما أطولُ: العَصا أوِ المئذنة...؟ فذلك جِدالٌ محسومٌ من نفسِه بِلا جدال.

إنَّ أساسَ انخذالِنا ـ نحن الشرقيين ـ في قلوبِنا، إذْ لا نعتبرُ المعانيَ العامَّةَ إلّا من جِهة أنَّها قائمةٌ بالرجال، ثُمَّ لا نعتبرُ الرجال إلّا من ناحية ما في أنفسِنا منهم، ثُمَّ لا نعتبرُ أنفسَنا إلّا من جِهة ما يُرضينا أو يُغضبُنا، وقد لا يُغضبُنا إلّا الحقُّ والجِدُّ، وقد لا يُرضينا إلّا الباطلُ والتهاون، ولكنَّا لا نُبالي إلّا ما نَرضى وما نغضَب.

لسْتُم أحراراً في أنْ تجعلوا غيرَكم غيرَ حرّ، فإنْ يكُن الرأيُ الذي يُعارِضُكم

رأيًا حقًّا وتركتم مُنابذَتَهُ فقد نصرتُمُ الحقّ؛ وإنْ يكنْ باطلاً فإظهارُهُ باطِلاً هو بُرهانُ الحقِّ الذي أنتم عليه؛ ولن تُجرِّدوا أحداً من اختيارِ الرأي إلّا إذا تَجرّدتُمْ أنتم من اختيار العدل، فإنْ فعلتُمْ فهذه كبرياءُ ظالمةٌ، تدَّعي أنَّها الحق، ثُمَّ تَدَّعي لِنفسِها حُكْمَهُ، فقد كذَبَتْ مرتين.

اِسمعوا أيُّها السادة: قامَتْ بين اثنين من فلاسفة الرأي مناظرةٌ في صحيفة من الصحف، وتَساجَلا في مقالات عِدّة، فلمَّا عجزَ أضعفُهما حُجَّةً وكَعَمَهُ الجدال، كتبَ مقالتَهُ الأخيرةَ فجاءَتْ سقيمةً، فلم تُرضِه فبيَّتَها ونامَ عنها على أنْ يُرسلها من الغَداة بعدَ أنْ يُردِّدَ نظرَهُ فيها ويُصحِّحَ آراءَهُ بِالحُجَجِ التي يُفتحُ بها عليه. قالوا: فلمَّا نامَ تمثَّلتْ له المقالةُ في أحلامِه جِسْماً حيًّا موهوناً متَرضِضاً، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك، مجروحاً مِمَّا بينهما؛ ثُمَّ كلَّمَتْهُ فقالتْ له: ويحكَ أيُّها الأبله! إنْ أردْتَ أنْ تغلبَ صاحبَكَ وتُسكِتَهُ عنك، فاحمِلْ مقالتَك إلى رأسه في العصا لا في الجريدة...

* * *

قال صاحبُ السرِّ: وضحكَ القومُ جميعاً، وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين، قد خَلُصَتْ دِخلتُهُمْ لِذلكَ الرجلِ الحرِّ وتنصَّلوا من جريمةٍ كانَتْ في أيديهم، وما جاءَ الباشا بمُعْجزٍ من القول، ولكنَّ تصويرَهُ لِلمسألة كان حلّاً لها في نفوسِهم. فلمَّا أدبروا تنفَّسَ الباشا كأنَّما خرجَ من البحرِ وكان يتعاطى إنقاذَ غريقٍ ويُعاني فيه حتى نجا؛ ثُمَّ قال لي: إنَّ هذا كان جواباً عن شيءٍ في أنفسِهم، ولكنَّه هو سؤالٌ عن شيءٍ في أنفسِنا: ما الذي يجعلُ الناسَ عندنا يخشَوْنَ المُعارضةَ في الرأي الوطنيِّ حتى أنَّهم ليُجازُون عليها بهذه العقوبة الشعبيّة المنكرة؟ وما بالُهم لا يُعطون الرأيَ حُكْمَهُ وحقيقتَه، بل يُعطونَهُ من حُكْم أنفسِهم وحقائقِها وشهواتِها المتقلّبة، حتى لترجعُ الفروقُ الضعيفةُ المتجانِسةُ في أبناءِ الوطن الواحدِ وكأنَّها من الخِلاف والمبايَنَة فروقٌ جنسيَّةٌ كالتي تكونُ بين إنسانٍ من أمَّة، وإنسانٍ من أمَّةٍ أخرى تُعاديها.

قلت: إنَّ رأيَ الكثرة قانونٌ يا باشا.

قال: هذا صحيح، ولكنْ بشرطين لا بشرطٍ واحد: الأولُ ألّا يخرجَ الرأيُ على القانون، والثاني ألّا تكونَ الحقيقةُ في الرأي الذي يُناقِضُهُ؛ ومُحاولةُ إكراه المعارضة نقصٌ لِلشرطين معاً؛ ثُمَّ إنَّ أساسَ الوطنيَّة سلامةُ القلوبِ وصفاءُ النيّات، واستواءُ المُوافق والمُخالِف في هذا الحكم، ومتى وقعَ الخِلافُ بين اثنين وكانتِ

النيةُ صادقةَ مُخْلِصَة، لم يكن اختلافُهما إلّا من تنوُّعِ الرأي، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين، وما من ذلك بُدّ.

الحقيقةُ يا بُنيَّ أنَّ الجماهيرَ الشرقيَّةَ ليسَتْ في تربيتِها من الجماهيرِ السياسية التي يُعتدُّ بها، إذْ لا تزالُ في أولِ عمرِها السياسيّ، وبهذا السببِ وحدَهُ كان اختلافُ الكُبراءِ في السياسة لا يُشبهُهُ إلّا نِزاعُ الخصمين بغير شهودٍ ولا قاضٍ نافذُ الحكم، فهو نزاعُ قوّةٍ تفوزُ بوسائلِها، لا نِزاعُ حقٍّ يَسْتعْلي بأدلتِه.

وهذه المجالسُ النيابيَّةُ الشرقيةُ كلُّها صُورٌ ممثَّلةٌ جافَّةٌ، منقطعةُ النَّماءِ من أسبابِها، كالفرعِ المقطوعِ من الشجرة، وإنَّما يتنضَّرُ الفَرْعُ ويُثمِرُ أثمارَهُ إذا قامَ بشجرتِه لا بنفسِهِ، وما شجَرةُ الفرْعِ السياسيِّ إلّا الجمهورُ السياسيّ.

فسبيلُ الإصلاحِ في كلِّ مملكةٍ شرقيَّةٍ أنْ ينهضَ أهلُ الرأي من كلِّ مدينةٍ فيها بين عالمٍ وأديبٍ ومُحامٍ وسَريّ، ومَنْ كان بسبيلٍ مِنْ هؤلاء، فيجعلوا لِمدينتِهم دارَ ندْوةٍ لِلاْجتماعِ والبحثِ والمشُورة، وقولُ (نعم) بِالحُجَّة وقولُ (لا) بِالحُجَّة. ثُمَّ يُعلنون ذلك في جمهورِهم وينزلونَ منه منزلةَ الأستاذِ والأبِ والصديقِ في تعليمِه وهِدايته وإرشادِه؛ وتتَّصِلُ هذه الدورُ في كلِّ مملكةٍ بعضُها بِبعض، وتنتهي بالمجالسِ النيابيَّة. وبغير ذلك لا يُملأُ الفراغُ الذي نراهُ خاوياً بين الشعبِ والحكومة، وبين الكُبراءِ والجماهير، وإنَّما أكثرُ مصائبِنا من هذا الفراغ؛ فهو الذي يَضيعُ فيه ما يضيعُ فيه، ويختفي ما يختفي.

مِنّا قومٌ موظفونَ في الحكومة؛ لكنْ أين القومُ الذين تكونُ الحكومةُ نفسُها موظفةً عندَهم؟

* * *

(اعتذار): بهذا المقالِ انتهتْ أحاديثُ الباشا؛ فقد أنبأنا صاحبُ السرِّ أنَّه سيكتمُ السرّ...

المجنون (*)

(١)

جاءَ يمشي هادئاً يتخيَّلُ في مشيتِهِ، يَرْجُفُ بين الخطوة والخطوة كأنَّهُ من كِبرِه يُشعِرُك أنَّ الأرضَ مُدرِكةٌ أنَّهُ يَمشي فوقَها... ولا ينقلُ قدمَهُ إذا خَطَا حتى ينهضَ برأسِه يُحرّكُهُ إلى أعلى، فما تدري أهو يُريدُ أنْ يطمئنَّ إلى أنَّ رأسَهُ معه... أم يُخَيَّلُ إليه أنَّ هذا الرأسَ العظيمَ قد وُضعَ على جسمِه في موضعِ راية الدولة، فهو يَهزُّهُ هزَّ الرايةِ....

وأخذتْهُ عيني وليس بيني وبينَهُ إلّا طولُ غرفةٍ وعرضُها ـ فإذا هو زائغُ البصرِ كأنَّما وقعَ في صحراءَ يُقلِّبُ عينَهُ في جهاتِها متحيِّراً متردِّداً، ثُمَّ كأنَّما رُفِعَ له في أقصاها جبلٌ فأخذَ إلى ناحيتِه...

ورحَّبْتُ به، وأجلسْتُهُ إلى جانبي، فأخذَ يَسْتَغْرِفُ إليَّ بذكرِ اسمِه وجماعتِه وبلدِه، لا يزيدُ على ذلك شيئاً، كأنَّهُ عنترةُ بني عَبْسٍ: لأرضِه من طبيعتِها جغرافيا، ومن اسمِه جغرافيا على حِدَة... فلمّا رآني لا أُثْبِتُهُ مَعْرِفةً قال: إنَّ بك نِسياناً.

قلْتُ: وكثيراً ما أنسى غيرَ أنَّ اسمَك ليس من هذه الأسماءِ التي تُذكَرُ بتاريخ.

قال: هذه غلطةُ الجرائد.. ومهما تنسَ من شيءٍ فلا تنسَ أنَّكَ أستاذُ «نابغة القرن العشرين»...(١)

فسرَّحْتُ فيه نظري، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ، يكادُ برخاوتِه وتفكّكِه لا يكون رجلاً، ويكادُ يبدو امرأةً بجمالِ عينيه وفتورِهما.

وتوسَّمتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسِطُ الأساريرِ ممسوحُ المعاني، يُنبىءُ بِانقطاعِ صاحبِهِ مِمَّا حوله، كأنَّ دنياهُ ليسَتْ دنيا الناس، ولكنَّها دنيا رأسِهِ...

(*) انظر حديث هذا المجنون وخبره في «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية، ثم خولط في عقله فتركها؛ وكل ما يمر في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه.

وتأمّلتُ فإذا طفولةٌ متلبّدةٌ قد ثبتَتْ في هذا الوجه لِتُخرجَ من بين الرجلِ والطفلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجل.

وتفرّسْتُ فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصَّفحة، قَتْلاها أفكارُ المسكين وعواطفُهُ.

وتبيَّنْتُ فإذا رجلٌ مُسْتَرْخٍ، مُتَفتِّرُ البدن، حائرُ النفس، كأنَّهُ قائمٌ لِتَوِّهِ من النوم فلا تزالُ في عينِه سِنَةٌ، وكأنَّهُ يتكلَّمُ من بقايا حُلُم كان يراه...

وخُيِّل إليَّ من هذا الخُمولِ في هذا الشاب، أنَّ عليه جوًّا من تثاؤبِه، وأنَّ المكان كلَّهُ يتثاءبُ، فتثاءَبْتُ....

* * *

فلمَّا رأى ذلك منّي ضحكَ وقال: إن «نابغةَ القرن العشرين» رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليكَ النوم.. وحسبُكَ فخراً أنْ تكونَ أستاذَهُ وأخاهُ وثِقَته، «فليس على ظهرِها اليومَ أديبٌ غيري وغيرُك...».

قُلْتُ في نفسي: إنّا لِلَّه، ما يعتقدُ الرجلُ أنَّ على ظهرِها مجنوناً غيرَهُ وغيري، وكأنَّما ألمَّ بذلك فقال: لسْتُ مجنوناً؛ ولكنّي كنْتُ في البيمارستان...

قلْت: أهو البيمارستانُ الذي يسمَّى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا؛ إنَّ هذا الذي تُسميه أنت، هو هو مستشفى المجاذيبِ؛ أمَّا الذي سميْتُهُ أنا فهو مستشفًى فقط...

وذكرْتُ عندئذٍ أنَّ من المجانين قوماً ظُرفاءَ يَدْخُلُهمُ الفسادُ في عقولِهم من ناحية فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ، فلا يكونُ جنونُهم جنوناً إلّا من هذا الوجه، وسائرُ أحوالِهم كأحوالِ العُقلاء، غيرَ أنَّهم بذلك طيّاشون متقلّبون، إذا ازدُهِيَ لم يُطِقْهُ الناسُ من زَهْوه وكبريائِه وتنطّعِه، كأنَّهُ واحدُ الدنيا في هذه الفكرة، وكأنَّ بينَهُ وبين الله أسراراً؛ ويظنُّ عند نفسِه أنَّهُ أعقلُ الناسِ في أرقى طبقاتِ عقلِه، وما جنونُهُ إلّا في هذه الطبقة وحدَها.

ومَثلُ هذا لا بدَّ له ممَّنْ يستجيبُ لهذيانه كيما يُحرِّكَ فيه خِفتَهُ وطَيشَهُ وزهوَه، ولِيكونَ عندَهُ الشاهدَ على هذا الوجودِ الخياليِّ المُبدَعِ الذي لا يُوجدُ إلّا في عقلِه المختلّ. فإذا هو ظَفِرَ بمَنْ يُحاسِنُهُ، أو يُصانِعُهُ، أو يُجاريه، حَسبهُ مُذْعِناً مؤمِناً مصدِّقاً، فلا يَدَعُهُ من بعدِها ويتعلَّقُ به أشدَّ التعلُّق، ويراهُ كأنَّه في ملكِهِ.. فيتخذُهُ صفيًا وهو يعتقدُ أنَّهُ رقيق، وقد يَزعُمُهُ أستاذَهُ لِيفهمَهُ من ذلك بحسابِ عقلِه... أنَّهُ تلميذُه.

وخشيتُ أنْ يكونَ (نابغةُ القرن العشرين) لم يُسمِّني أستاذَهُ إلّا بِحِسابٍ من هذا الحِساب، فهو سيُعطي الأستاذيَةَ حقَّها، ولكنْ كما هو حقُّها في لغة جنونِه... فأصبحُ في رأيه تلميذَهُ وصنيعتَه، ومحدّثَ هذيانِه، وثِقتَهُ وملجأه، والمحاميَ من ورائِه.

قلتُ في نفسي: إذا أنا تركْتُهُ جالساً كان هذا المجلسُ مَثَابَتَهُ من بَعدُ، فلا يعرفُ له محلّاً غيرهُ، ويُصبِحُ كما يُقالُ في تعبيرِ القانون «محله المختار»، فَيَتَطرَّأ إليَّ لِسببٍ ولِغير سبب، ويقعُ في أوقاتي وقوعَ السهوِ لا حِسابَ عليه، ويَضيعُ فيه ما يضيعَ. فأجمعتُ أنْ أصرِفَهُ راضياً باليأس؛ وقدِ انتهتْ نفسُهُ من معرفتي، وانتهى عقلُهُ إلى الرأي أنّي لا أصْلُحُ له أستاذاً، لا بِحسابِه هو ولا بِحِسابِ الناس.

فقلتُ له: ظنّي بك أنَّكَ أستاذُ نفسِك، ولا يَحسنُ بنابغة القرن العشرينَ أنْ يكونَ له في القرن العشرينَ أستاذ؛ وأراكَ قد فرغْتَ لِلأدب، أمّا أنا فمشغولٌ بأعمالِ وظيفتي، وقد جاءَ من العملِ ما تراه، وتكادُ لا تفي به الساعاتُ الباقيةُ من الوقت و...

فقطعَ عليَّ وقال: إنَّ الوقتَ ليس في الساعة؛ والدليلُ أني أعطِّلُها فيتعطَّلُ الوقت، ولا يكون فيها يومٌ ولا ساعةٌ ولا ثانيةٌ ولا دقيقة.

فقلتُ: ولكنَّكَ إذا عطلْتَها لم تتعطلِ الشمسُ التي تُعيِّنُ منازِل النهار، فسيَمُرُّ الظهرُ ويَحينُ العصر و...

قال: ويأتي غد، وإنّما أنا معكَ اليومَ فقط... ويجبُ أنْ تغتبِطَ بأنَّكَ أستاذُ (نابغة القرن العشرين)، فقد قرأتُ الكثيرَ في الأدبِ وقرأتُك، فما كان لي رأيٌ إلّا رأيْتُهُ لك... ولا صحَّتْ عندي نظريَّةٌ إلّا رأيْتُكَ قد أبديْتَها، وأنا لا أعتقد أدباً في مِصرَ إلّا ما تَوافَيْنا عليه معاً «ولا أسلّمُ جدَلاً، ولا جدَلاً أسلّمُ أنَّ في مصرَ أدباءَ ينالون منّي شيئاً، فهو أنا وأنا هو»[1]، ولئنْ لم يُذعِنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلمُنَّ أنَّهم «وقعوا منّي موقعَ نملةٍ على صخرة... هذا من جِهة، ومن جهةٍ أريدُ سجائرَ وليس معي ثمنُها»...

فتهلّلْتُ واستبشرْتُ، وقلْتُ له: هذا قرشٌ فهلُمَّ فاشترِ به دخائنَك، وفي رعاية الله، ثُمَّ استوَيْتُ لِلقيام، ولكنَّه لم يقم؛ بل تمكَّنَ في مجلِسِه...

* * *

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصه كما نبهنا إلى ذلك، والباقي ترجمناه نحن عن معانيه، وأكثر ما يأتي فهذه سبيله.

وكَرِهتُ أنْ أتَغيَرَ له وما أشكُّ أنَّهُ في هذا صحيحُ التمييز؛ فما أسرعَ ما قال: إنَّ «نابغةَ القرن العشرين» فَتًى قويُّ الإرادة؛ فإذا هو لم يصبرْ عن التدخين ساعات فما هو بصبور. . . . وإذا لم يُثْبِتْ لك هذا الأمرَ عن مُعاينَة. . . فما أعطيْتَهُ حقَّه.

فقلْتُ في نفسي: لقد غرسْتُ الرجل من حيثُ أردْتُ اقتلاعَه، وأيقنْتُ أنَّهُ من عُقلاءِ المجانين الذين تتغيَّرُ فيهمُ العاطفةُ أحياناً فُتلهُمهم آيات من الذكاءِ لا يتَّفقُ مثلُها إلَّا لِنوابغِ المنطق؛ وذكرْتُ (بهلول) المجنونَ الذي حكوْا عنه أنَّ إبراهيمَ الشيبانيَّ مرَّ به وهو يأكلُ خَبِيصاً[1] فقال له: أطعمْني. قال: ليس هو لي، إنَّما هو لِعاتِكَةَ بنتِ الخليفة بعثتْهُ إليَّ لآكلهُ لها. . .

وقالوا: إنَّه مرّ بسوقِ البزَّازين فرأى قوماً مجتمعينَ على بابٍ وكان قد نُقِب، فنظرَ فيه وقال: أتعلمونَ مَنْ عمل هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا أعلم.

فقالوا: هذا مجنونٌ يراهم بالليلِ ولا يتحاشَونهُ، فألْطفُوا به لعلَّهُ يُخبرُكم. ثُمَّ قالوا: أخبِرْنا. قال: أنا جائع. فجاؤُوهُ بطعامٍ سَنِيٍّ وحلواء؛ فلمَّا شبعَ قامَ فنظرَ في النقْبِ وقال: هذا عملُ اللصوص. . .

وكانَتْ مجلةُ (الرسالة) في يدِ (نابغة القرن العشرين)، فوصل الكلامَ بها وقال: إنَّهُ يقرأ كلَّ مقالاتي، وإنَّهُ وإنَّهُ، وإنَّها وإنَّها. قلْت: فما استحسنْتَ منها؟ قال: (مقالة السيما). . .

فقلْت: متى كان آخرُ عهدِكَ برؤية السيما؟ قال: أمس.

قلت: فأنا لم أكتبْ مقالاً عن السيما، ولكنَّكَ أعجبْتَ بما رأيْتَ أمسِ فتحوَّل ما رأيْتَهُ حُلماً في مقالة.

فأعجبَهُ هذا التأويلُ وقال: بمثلِ هذا أنا (نابغةُ القرن العشرين)، فأقرأ مقالتَكَ في الغيبِ من قبلِ أنْ تكتبَها. . . .

قلْت: إنَّك تُكثرُ أنْ تقول عن نفسِك (نابغةُ القرن العشرين)، وهذا يَحصرُ نبوغَكَ في قرن بعينِهِ؛ فلو قطعْتَ الكلمَةَ وقلْت: (نابغة القرن)، لصحَّ أنْ تكونَ نابغةَ القرن التاسعَ عشرَ والثامنَ عشر، وما قبلهما وما بعدَهما.

فرأيْتُ به شَدْهَةً كأنَّهُ يُفكرُ في جنونِه، ثُمَّ أفاقَ وقال: لا. لا؛ وإنَّ هاهنا موضِعَ

---

(١) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن.

نظر، فلو رضيتُ بنابغة القرن فقط، لجاءَ مَنْ يقول: إني نابغةُ قرن خروف...

* * *

فقلْتُ في نفسي: حَمأةُ مُدَّتْ بماء[1]، وإنَّ هذه الوساوسَ لا تنفكُّ تَعرو هذا المسكينَ ما وجدَ من يُكلِّمه؛ والأفكارُ في ذهنِه مجتمعةٌ مختلِطةٌ مسترسلِةٌ كأنَّها ثورةٌ من الكلام لا نظَامَ لها، فلأَسكُتْ عنه ولأتشاغلْ بما بين يديّ.

وسكَتُّ وأعرضْتُ عنه؛ فجعل طائفةُ يعتريه، وكأنَّ السكوتَ قد سلَّطَ أفكارَه عليه، وكأنَّها أخَذَتْ تصيحُ به في رأسِه كما يصيحُ غِلمانُ الطرقِ بالمجنون، لا يزالونَ به حتى يُخرِدُوهُ ويُفقدُوهُ البقيَّةَ من صبرِه وعقلِه معاً. فغضبَ (نابغةُ القرن العشرين) ونقلهُ الغضبُ إلى حالةٍ زَمْهَرَتْ فيها عيناه[2]، وكَلحَ وجهُهُ حتى خِفْتُ أنْ يثورَ به الجنون، فأقبلْتُ عليه وتعلَّلْتُ بسؤالِهِ: ألكَ إخوة؟ ألَمْ ينبغْ فيهم نابغة...؟

قال: إنَّ له أخاً يُعذِّبه، ويُوقِعُ به ضرباً، ويعلِّلُهُ بالسلاسلِ، ويشدُّهُ «بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدل»، وأنَّهُ أنزل به العذابِ ما لو أنزَلهُ بحجرٍ لتألَّم.

قلْت: فأنت في حاجةٍ إلى راحةٍ، ويحسنُ بك أنْ تأويَ إلى مكانٍ تتمدَّدُ فيه.

قال: إنِّي منصرفٌ وسأجلسُ في نَدِيّ كذا[3] «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليس معي ثمنُ القهوة».

قلْت: فهذا قرشٌ تدفعُهُ ثمناً لها، فاذهبْ فاستمتعْ بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك النديّ، فالمكانُ ها هنا كثيرُ الضجيجِ والحركة. واستوفزْتُ لِلقيام؛ ولكنَّهُ لم يَتَحلْحَلْ من مجلسِه.

* * *

ثم قال: أراك الآن مستبصراً أنِّي (نابغةُ القرن العشرين) بعينِه.

قلْت: بل بعينيه اليمنى واليسرى معاً...

قال: لا. لا؛ إنَّك نسيْتَ أنَّ العربَ تقولُ في التوكيد: عينُهُ ونفسُهُ وذاتُهُ. «أي أنا نابغةُ القرن العشرين بعينه ونفسه وذاتِه، فليس غيري نابغةَ القرن العشرين».

وكادَتْ نفسي تخرجُ غيظاً، ولكنِّي رأيْتُ الحِلْمَ على مثلِ هذا يجري مجرى

---

(١) هذا مثل في معنى زاد الطين بلة، والحمأة إذا مدها الماء زادت واتسعت.

(٢) أي لمعت غضباً.

(٣) نحن نستعمل النّديّ لمكان القهوة.

الصَّدَقة؛ وقلْت: إنَّ أدباءَ المجانين كثيراً ما يتَّفقُ لهُم الإبداعُ الطريفُ إذا علَّلوا شيئاً، كذلك القاصُّ الذي كان يقصُّ على العامَّة سيرةَ يوسفَ ـ عليه السلام ـ، فقال لهم فيما قال: إنَّ الذئبَ الذي أكل يوسفَ كان اسمه كذا، فردُّوا عليه: إنَّ يوسفَ لم يأكلْهُ الذئب. قال: فهذا هوَ اسمُ الذئبِ الذي لم يأكلْ يوسف.

فقلْتُ لِلمجنون: فما العِلَّةُ عندَكَ في أنَّ العربَ لم يقولوا في التوكيد: عينُهُ وأذنُهُ وأنفُهُ وفمُهُ ويدُهُ ورجلُه؟

فنظرَ نظرةً في الفضاءِ ثُمَّ قال: ليسوا مجانينَ فيخلِطوا هذا الخلط، وإلا وجبَ أنْ يقولوا مع ذلك: وعِمامتُهُ وثوبُهُ ونعلُهُ وبعيرُهُ وشاتُهُ ودراهمُهُ. «هذا من جِهة، ومن جهةٍ ليس معي أجرةُ السيارة إلى بلدي وهي قرشان».

قلْت: هذه هي أجرةُ السيارة وصَحِبتْكَ السلامة، ونهضْتُ واقفاً؛ ولكنَّهُ لم يتحرَّك.

* * *

ثُمَّ قال: إنَّك لم تعرفْ بعدُ «أنِّي أقولُ الشعرَ في الغزلِ والنسيبِ والمدحِ والهِجاءِ والفخر؛ وأنِّي في الخطابة قُسُّ بْنُ ساعِدَةَ أو أكثمُ بْنُ صَيفي، وأنِّي صخرٌ لا ينفجر... يابسٌ لا ينعصر، لسْتُ كَالحجَّاجِ بلْ كعمر».

قلْت: هذا شيءٌ يطولُ بينَنا ولا حاجةَ لك بهذِه البراهين كلِّها، فقدْ آمنْتُ أنَّكَ نابغةُ القرن العشرينَ في الأدبِ والشعرِ والخطَابة والترسُّل.

قال: والفلسفة؟

قلْت: والفلسفة وكلِّ معقولٍ ومنقول؛ وقدِ انتهينَا على ذلك.

قال: ولكنَّكَ تحسبُني مجنوناً أو ممروراً «كما حسبْتني الجرائِدُ التي زعمَتْ أنَّ اختفائي في البيمارستان كان لِجنوني الفكريِّ أو لِذكائي الطبيعيِّ وهوَ الأصحَ... فبيِّنْ لِهذه الجرائِدِ أنِّي خرجت، وأني سأطبعُ الأدبَ بطابعٍ جديد».

قلْت: ولكنِّي لسْتُ مراسَل جرائد. قال: «فاجعلْني رسالةً وراسِلْها عنِّي أو أكتبُ لك أنا ما تُرسلُه، وما جئتُك إلَّا لِهذا؛ ويجبُ أنْ تُلحقني بجريدةٍ كبيرة، وهذه الجرائدُ تعرفُني كلُّها، وقد تناولتْني من جميعِ النواحي الأدبيَّة؛ فضلاً عن أني كاتبٌ فَذٌّ، وخطيبٌ فَذٌ، وشاعرٌ فَذٌ، وهذا قليلٌ من كثير، فهل أعوِّلُ عليكَ في صِلتي بالجرائدِ أولا؟».

قلْت: إنَّك تعرفُهُم ويعرفونك، وقد بلوْتَهم وبَلوْا منك، فلسْتَ في حاجةٍ إليَّ عندَهم.

قال: إنهم يخشون بأسي، وقد حسبوني مجنوناً استهوتْهُ الشياطين؛ وما عَلِموا أنَّ شيطانَ الشعرِ هو الذي استهواني، كما أنَّ شيطانَ الحُبِّ هو الذي استهواك... هذا من جِهة، ومن جِهةٍ ليس معي ثمنُ الغداء، ولا أكلِّفُكَ شيئاً...».

قلْت: فهذا قرشٌ لِلغداءِ في مطعم الشعب. وهمُ الآنَ يتغدَّون ويُوشِكُ إذا أبطأتَ أن تُوافِقَهم وقدِ استنفدوا الطعام، وأنت لا تجهلُ أنَّ القرشَ في مطعم الشعبِ هو قرشان في القيمة.

قال: صدقْت؛ يُوشِكُ أنْ أوافقَهُم وقد فرغوا من طعامِهِم وغسلوا الآنية. فلأبْقِ هذا لِلعَشاءِ وسأطوي إلى الليل...

قلْت: فمعك الآن ثمنُ الدخان، والقهوة، والغداء، وأجرةُ السيارة إلى بلدِك. وقد كان نابغةُ القرن الثالثِ لِلهجرة واسمه (طاقُ البصلِ)[1] يُغنِّي بقيراطٍ ولا يسكتُ إلَّا بدانق. هذا من جِهة، ومن جِهةٍ فخذْ هذا القِرشَ ثمناً لِسكوتِكَ وانصرِف.

* * *

فشقَّ ذلِك عليه وقامَ مُغْضَباً وتنفسْتُ بعدَهُ الصُّعَداءَ الطويلة... وفتحْتُ النافذةَ واستقبلْتُ الهواءَ النقيَّ وأخذْتُ في رِياضة التنفسِ العميق، ثُمَّ زاغَتْ عيني إلى البابِ؛ فإذا (نابغةُ القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر......

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث.

المجنون

(٢)

رأيتُ المجنونين يدخلان معاً، فكأنَّما سَدَّا البابَ وسَوَّياهُ بِالبِناءِ وتركا الغُرفَة حائِطاً مُصْمَتاً لا بابَ فيه، مِمَّا اعتراني من الضيقِ والحرَج؛ وقلْتُ في نفسي: إنَّهُ لا مذهبَ لِلعقلِ بين هذين إلَّا أنْ يُعينَ كِلاهما على صاحبِه، فأرى أنْ أدَعَهما وأكونَ أنا أصرِّفُهما؛ ويا ربّما جاءَ من النوادرِ في اجتماعِ مجنونين ما لا يأتي مثْلُهُ من عقلين يجتمعان على ابتكارِهِ؛ غيرَ أنّي خشيْتُ أنْ أكونَ أنا المجنونَ بينهما، ثُمَّ لا آمنُ أن يَثِبَ أحدهُما بالآخرِ إذا خطَرَتْ به الخطْرةُ من شيطانِه، فرأيْتُ أنْ يكونَ لي ظهيرٌ عليهما، إنْ لم يحقَّ به العَوْنُ فلا أقلَّ من أنْ يطول به الصبر. . . وكان إلى قريبٍ منّي الصديقُ (ا.ش)(*) فأرسلْتُ في طلبِهِ.

أمَّا هذا المجنونُ الثاني الذي جاءَ به (نابغةُ القرن العشرين) فقدْ رأيتُهُ من قبل، وهو كالكِتابِ الذي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بعضُها في بعضٍ فتداخَلتْ وفسدَ ترتيبُها، وانقلبَ بذلك العلمُ الذي كان فيها جَهْلاً وتخليطاً، يَثِبُ الكلامُ بعدَ كلِّ صفحةٍ إلى صفحةٍ غريبةٍ لا صِلةَ لهَا بِمَا قبلها ولا ما بعدَها.

وهو طالبٌ أزهريٌّ كان أكبرَ همِّه أنْ يصيرَ حافظاً كالحفّاظ الأقدمينَ من الرواة والفُقهاء، فجعل يستظهِرُ كتاباً بعدَ كتابٍ ومتْناً بعدَ متن؛ وكانَتْ له أذُنٌ واعيةٌ، فكلُّ ما أفرغَ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خَبر، نزل منها كالنقْرِ على آلةٍ كاتبة، فينطبعُ في ذِهنِه انطباعَ الكِتابة: لا تُمحى ولا تُنسى.

ثُمَّ الْتاثَ هذه اللُّوثَةَ وهو يحفظُ متناً في فقه الشافعيّ (رضيَ اللهُ عنه)، فغبرَ سنينَ يتحفَّظُه، كلَّما انتهى إلى آخره نَسِيَهُ من أولِه؛ فيعودُ في حفظِه وروبَّما أثبت منه الشيء بعد الشيء ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول؛ فلا يزال هذا دأبَهُ لا

(*) هو الصديق أمين حافظ شرف.

يملُّ ولا يجدُ لِهذا العَناءِ معنًى، ولا يزالُ مقبلاً على الكتابِ يَجمعُه، ثُمَّ لا يزالُ الكتابُ يتبدَّدُ في ذاكرتِه.

وتركَ المعهدَ الذي هو فيه وتخلَّى في دارِهِ لِلْحفظ، وأجمع ألّا يدعَ هذا المتنَ أو يحفظَه، كأنَّ فيه الموضعَ الذي فارَقَهُ عقلُهُ عندَه، وبذلك رجعَ المِسكينُ آلةَ حِفظٍ ليس لهَا مِساكٌ؛ وأصبحَ كالذي يرفعُ الماءَ من البحر، ثُمَّ يُلقيه في البحر، لِينْزحَ البحر...

* * *

وجاءَ (ا. ش) فقلْتُ له، وأومأْتُ إلى المجنون الأول: هذا نابغةُ القرن العشرين.

قال: وهلِ انتهى القرنُ العشرونَ فيُعرفَ مَنْ نابغتُه؟

فقلْتُ لِلمجنون: أجبْهُ أنت. فسأَله: وهلْ بدأ القرنُ الواحدُ والعشرون؟

قال: لا.

قال: فإنَّ هذا الذي إلى جانبي نابغةُ القرن الواحدِ والعشرينَ.... فكما جاز أنْ يكونَ هو نابغةَ قرنٍ لم يبدأْ، جازَ أنْ أكونَ أنا نابغةَ قرنٍ لم ينته.

قلْتُ: ولكنك زِدْتَ المشكلةَ تعقيداً من حيثُ توهَّمْتَ حلَّها؛ فكيف يكون معك في آنٍ وبينَك وبينَهُ خمسٌ وستون سنة؟

فنظَر نظرةً في الفضاء، وهو كلَّما أرادَ شيئاً عسيراً نظَرَ إلى اللاشيء..

ثُمَّ قال: هذه الأمورُ لا تَشتبهُ إلَّا على غير العاقل... وكيف لا يكون بيني وبينَهُ خمسٌ وستون سنةً وأنا أتقدَّمُه في النبوغ بأكثرَ من علم العلماءِ في خمسٍ وستين سنة..؟

قلْتُ لِلآخر: أكذلك؟

قال: مِمَّا حفظناهُ عن الحسَن: أدركْنا قوماً لو رأيْتُموهم لقلْتم: مجانين. ولو أدركوكم لقالوا: شياطين...

فضحكَ الأولُ وقال: إنَّهُ تلميذي.

قال الثاني: لقد صدقَ فهو أستاذي، ولكنَّه حين ينسى لا يذكِّرُهُ غيري...

قُلْت: لا غَرْوَ «فمما حفظناه» عن الزُّهريّ: إذا أنكرْتَ عقلك فاقدَحْه بِعاقل...

فغضبَ نابغةُ القرن العشرينَ وقال: ويحٌ لِهذا الجاهل، الأحمق، الجاحدِ لِلفضل، مع جنونِه وخَبَله. أيُذكِّرُني وهو منذُ كذا وكذا سنةً يحفظُ متناً واحداً لا

يُمسكُهُ عقلُه إلّا كما يُمسِكُ الماءَ الغرابيل؟ صدقَ ـ والله ـ مَنْ قال: عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ؛ خير، فقال الثاني: خيرٌ من صديقٍ جاهل، ها أنذا قد ذكَّرتُكَ من نِسيان، وها أنت ذا رأيْت.

فضحكَ النابغةُ وقال: ولكنّي لم أرِدْ أنْ أقول هذا، بلْ أرِيدُ أنْ أؤلفَ كلاماً آخر.... عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ، خيرٌ، خيرٌ؛ خير من مجنونٍ جاهل.......

* * *

ورأيْتُ أنَّ في التقاءِ مجنونين شيئاً طريفاً غيرَ جنونِهما، وصحَّ عندي أنَّ المجنونَ الواحدَ هوَ المجنون؛ أمّا الاثنان فقد يكون مِن اجتماعِهما وتحاورِهما فنٌّ ظريفٌ من التمثيل، إذا وَجدا مَنْ يُصرِّفُهما في الحديث، ويستخرجُ ما عندَهُما، ويستكشِفُ منهما قِصتَهما العقليّة.......

ولم أكنْ أعرفُ أنَّ (نابغةَ القرن العشرينَ) من المجانين الذين لهم أذُنٌ في غير الأذُن، وعينٌ في غير العين، وأنفٌ بغير الأنف؛ إذْ تتلقى أدمغتُهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذاتِ نفسِها لا منَ الوجود، وتُدرِكُها بِالتوهُّم لا بالحاسَّة، فَتَتَخلَّقُ هواجسُهُم خَلْقاً بعدَ خَلْقَ، وتخطرُ الكلمةُ من الكلام في ذِهْن أحدِهم فيخرجُ منها معناها يتكلَّمُ في دِماغِه أو يمشي أو يُلاطفُهُ أو يُؤذيه أو يفعلُ أفعالاً أخرى.

وبينا أنا أديرُ الرأيَ في إخراج فصلٍ تمثيلي من الحِوارِ بين هذين المجنونين[1]، إذْ قال (نابغةُ القرن العشرينَ): صَهْ، إنَّ جرسَ «التلفون» يدقّ.

قال(ا. ش): لا أسمعُ صوتاً، وليس هُهنا «تلفون».

فاغتاظَ المجنونُ الآخرُ وقال: إنّك تَتَقحَّمُ على النوابغِ ولسْتَ من قدرِهم، وما عملُكَ إلّا أنْ تُنْكِر؛ والإنكارُ، ويلك، أيسرُ شيءٍ على المجانين وأشباه المجانين، والعامَّة وأشباه العامَّة؛ وقد أنكرْتَ نبوغَهُ آنفاً، وأراكَ الآنَ تُنكِرُ «تلفونه»...

قال (ا. ش): وأين «التلفون» وهذه هي الغرفةُ بأعيننا؟ فضحِك (نابغةُ القرن العشرين) وقال: صَهْ ـ ويْحكَ ـ لقد خلَّطْتَ عليّ؛ إنَّ الجرسَ يدقُّ مرةً أخرى، وأنا لا أريدُ أنْ أكلِّمَها حتى يطول انتظارُها، وحتى تدقَّ ثلاثَ مرات، وأخشى أنْ تكونَ قد دقَّتِ الثالثةَ وذهبَ رنينُها في صوتِك ولغَطِك...

---

(١) سيأتي هذا الفصل التمثيلي في مقال آخر.

قال المجنونُ الآخر: هي صاحبتُهُ التي يهواها وتهواه؛ وقدِ استَهَامَها وتَيَّمَها وحيَّرَها وخبَّلها، حتى لا صبرَ لها عنه، فوضعَتْ له تلفوناً في رأسِه.......

قال «النابغة»: وهذا التلفونُ لا يُسمعُني صوتَها فقط، بلْ هو يُنْشِقُني عِطرَها أيضاً. وقد تُكلِّمُني فيه الملائكةُ أحياناً، وأنا ساخطٌ على هذه الحبيبة فإنَّها غَيورٌ تُخْشَى سَطَواتُها على اللائي تَغار منهنّ، ولولا ذلك لكَلَّمَتْني في هذا التلفون إحدى الحُورِ العِينِ....

قلْنا: أوَ تَغارُ منها الحُورِ العِينِ؟

قال المجنونُ الثاني: بلِ الأمرُ فوقَ ذلك، فإنَّ الحُورَ العِينَ يشتُمْنَها ويلعنَّها؛ «فممَّا حفِظْناهُ» هذا الحديث: لا تؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا إلَّا قالتْ زوجتُه من الحُورِ العِين: لا تؤذيه قاتلكِ الله؛ فإنَّما هو عندَكِ دَخيلٌ يُوشِكُ أنْ يفارِقَكِ إلينا.

قال (نابغةُ القرن العشرين): ويْلي على المجنون إنَّهُ يُريدُ أنْ يخلوَ له موضعِي فهو يتمنّى هلاكي وانتقالي وَشيكاً من هذه الدنيا. وهو يقولُ بغير عِلْم لأنَّهُ أحمقُ ليس له عُقدةٌ من العقلِ، فيزعمُ أنَّها تُؤذيني، ولو هي آذتْني لغضِبَتْ قبل ذلك، ولو غضِبَتْ لرفَعتِ التلفون. صَهْ إنَّ الجرسَ يدقّ.

* * *

قال ا.ش: إنَّ لِلنوابغِ لشأناً عجباً، ففي مديريَّة الشرقيَّة رجلٌ نابغةٌ ماتَتْ زوجتُهُ وترَكتْ له غلاماً، فَتزوجَ أخرى وهو يعيشُ في دارِ أبيه. فلمَّا كان عيدُ الأضحى سأل أباهُ مالاً يبتاعُ به الأضحيَّةَ فلم يُعطِه. وهو رجلٌ يحفظُ القرآن، فذكرَ إبراهيمَ (عليه السلام) ورؤياهُ في المنام أنَّهُ يذبحُ ابنَه، فخُيِّل إليه أنَّ هذا بابٌ إلى النبوَّة، وأنَّ الله قد أوحى إليه، فأخَذَ الغلامَ في صبيحة العيدِ وهمَّ بذبحِه، ولولا أنْ صرخَ الغلامُ فأدركَهُ الناسُ فاستنقذوه....

قال (نابغةُ القرن العشرينِ): هذا مجنونٌ وليس بنابغة؛ بلْ هذا من جُهلاءِ المجانين؛ بلْ هو مجنونٌ على حِدَتِه. وقد رأيْتُهُ في البيمارستان في حين كنْتُ أنا في المستشفى... فكان يزعُمُ أنَّهُ ائتمرَ في ذبحِ غلامِه بإرادة الله. ولو كانَتْ إرادةَ الله لنفذَتْ بِالذبحِ، ولو كان الأمرُ وحياً لنزل عليه من السماءِ كبشٌ يذبحُه... وهكذا أنا في المنطِقِ (نابغةُ القرن العشرين).

ثُمَّ إنَّهُ أشارَ إلى المجنون الثاني وقال: وأنا أتقدَّمُ هذا في النبوغِ بأكثر من عِلْم العلماءِ في خمسٍ وستينَ سنةً كاملة.

قلْتُ: ولكنَّك ذكرْتَ هذا من قبلُ فلِمَ عُدْتَ فيه الآن؟

قال: إنَّ السببَ قد تَغيَّر فتغيرَ معنى الكلام؛ وقد بدا لي أنَّهُ يتمنَّى هلاكي لِيكونَ هو نابغةَ القرن العشرين. فمعنى الكلام الآن: أنَّهُ لو عاشَ خمساً وستينَ سنة «يحفظُ المتن» لمَا بلغَ مبلغي من العِلْم. هذا رجلٌ نِصفُهُ ميتٌ جنوناً موتاً حقيقيًا، ونصفُهُ الآخرُ ميتٌ جهلاً بِالموتِ المعنويّ.

قال ا. ش: حسبُهُ أنْ يقلِّدَكَ تقليدَ العامِّيِّ لِإمامِه في الصلاة وعسى ألَّا تستكثرَ عليه هذا فإنَّهُ تِلميذُك.

قال المجنونُ الثاني «مِمَّا حفظْناه»: لو صُوِّرَ العقلُ لأضاءَ معهُ الليل، ولو صُوِّرَ الجهلُ لأظلَمَ معهُ النهار... ونابغةُ القرن العشرينَ هذا لا يعرفُ كيف يُصلِّي، فقد وقفَ منذُ أيَّام يُصلي بِالشعر... ولمَّا رأيتُهُ ناسياً فذكرْتُهُ ونبهْتُهُ أنَّ الصلاةَ لا تجوزُ بِالشعر، اِلْتَفَتَ إليَّ وهو راكعٌ فسبَّني وشتمني وصرخَ فيَّ وقال: ما شأنُك بي؟ هلْ أنا أصلي لك أنت...؟

فغضِبَ «النابغةُ» وقال: ـ والله ـ إنْ تحسبونني إلَّا مجنوناً فتُريدونَ أنْ يقلدني هذا الأحمقُ الذي ليس له رأيٌ يُمسكُه. ولولا ذلك لمَا اعتقدْتُم أنَّ تقليدي من السهلِ الممكن، ولعرفْتُم أنَّ نابغةَ القرن العشرينَ نفسَهُ لم يستطِعْ تقليدَ نابغة القرن العشرين.

قلْنا: هذا عجيب، وكيف كان ذلك؟

فضحِكَ وقال: لا أعدُّكم من الأذكياءِ إلَّا إذا عقلْتُم كيف كان ذلك؟ قال ا.ش: هذا لم يُعْرَفْ مثلُهُ فكيف نعرفُه؟ ولم يتوهمْهُ أحد، فكيف نتوهمُه؟

قال: لو لم تكنْ أستاذَ نابغةِ القرن العشرينَ لمَا عرفْتَها؛ وهذا نصفُ الصَّواب؛ وما دُمْتَ أستاذي، فلو أنَّنا اختلفْنا في رأيٍ لكان خِلافُك لي صواباً لأنَّهُ منك، وكان خِلافي لك صواباً لأنَّهُ منّي؛ فأنت (غيرُ مخطىءٍ) وأنا مُصيب، وإذا أسقطْنا كلمةَ (غيز) أظلُّ أنا مصيباً وتكونُ أنت مخطئاً...

أنا لم أرَ (نابغةَ القرن العشرين) في الرؤيا، ولكنِّي رأيْتُهُ في المِرآة عند الحلَّاق... ورأيتُهُ يُقلِّدُني في كلِّ شيءٍ حتى في الإشارة والقَوْمة والقَعْدة ولكنِّي صرخْتُ فيه وسبَبْتُهُ ففتحَ فَمهُ، ثُمَّ خافني ولم يتكلَّم...

وأومأ إلى المجنون الآخرِ وقال: وأنا أتقدمُ هذا في النبوغِ بأكثَر من عِلْم العلماءِ في خمسٍ وستينَ سنة.

قال ا. ش: لقد قُلْتَها مرتين كِلتاهما بمعنًى واحد، فما معناكَ في هذه الثالثة؟

قال: هذا الغِرُّ يزعمُ أنّي لا أعرفُ كيفَ أصلّي، ويستدلُّ لذلك بأنّي صليْتُ بِالشعرِ وأنّي شتمْتُهُ وأنا راكع؛ ولو كان عاقِلاً لعَلِمَ أنَّ شتمي إياه وأنا راكعٌ ثوابٌ له... ولو كان نابغةً لعَلِمَ أنَّ الشعرَ كان في مدحِ دولة النحاسِ باشا وأولي النُّهى.

قلْنا: ولكنَّ الشعرَ على كلِّ حالٍ لا تجوزُ به الصلاةُ ولو في مدحِ دولة النحاس باشا.

قال: لم أصَلِّ به، ولكنْ خطرَ لي وأنا أصلِّي أنّي نسيْتَ القصيدَة فأردْتُ أنْ أتحقَّقَ أنّي لم أنسَها... فإذا أنا نابغةُ القرن العشرينَ في الحفظ، وهي ستةُ أبيات. لا كهذا المعتوه الذي صَبر على المتن صبرَ الغريبِ على الغُربة الطويلة، ومع ذلك لم يحفظْه.

قال ا. ش: فأمْلِ علينا هذا الشعر. فأملى عليه(١).

يا حليفَ السُّهْدِ قلْ لي — أينَ مَنْ في الدهرِ خالْ
إنْ تكُنْ تهوى غزالا — أكحل العينين مالْ
أنا أهواها ولكنْ — لا سبيل إلى الوِصالْ
منذُ ولَّتْ قُلْتُ مهلاً — منذُ غابَتْ في خيالْ
أنا مجنونٌ بليلى — ليل يا ليلى! تعالْ

قلْنا: ولكنْ ليس هذا مدحاً، فضحِكَ وقال: أردْتُ أنْ تعرفوا أنّي أقولُ في الغزَل، أمَّا المديح فهو:

شغفَ الورى بمناصِبٍ وأماني — وشُغِفْتَ يا نحاسُ بِالأوطانِ
حسبوا الحياةَ تفاخراً وتنعُّماً — وحسبْتَها لِلّه والأوطانِ

ثم أرْتجَ عليه فسكتَ. قال المجنونُ الآخر: إنَّها ستةُ أبيات، وقد نسيْتُ أربعة، ولسْتُ أريدُ أنْ أذكُرَك:

فقال (النابغة): أظنُّهُ قد حانَ وقتُ الصلاة وأريدُ أنْ أصلي... ونظرَ إلى اللاشيءِ في الفضاء، ثُمَّ قال. والبيتُ الأخير:

لا أبتغي في المدحِ غيرَ أولي النُّهى — أوِ صادقٍ(٢) أو شوقي أو مطرانِ

---

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه.

(٢) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين.

ثُمَّ أمر ا. ش. أنْ يقرأ عليه الشعرَ فقرأه، فقال: أحسنْت، انظرْ إلى فوق. فنظر، ثُمَّ قال: انظرْ إلى تحت. فنظرَ ثُمَّ سكت.

قال ا. ش: وبعدُ؟ قال: وبعدُ فإنَّ الناسَ ينظرون إمَّا إلى فوقُ وإما إلى تحت...

* * *

وكان الضجرُ قد نال مِنّي، فرجوْتُ ا. ش. أنْ يلبثَ مَعهما وأذنْتُ لِنابغة القرن العشرين أنْ يلقاني في النديّ وانصرَفْت..

قال ا. ش. وهو يُنبِّئني: فما غبْتَ عنّا حتى أخذَ المجنونُ يشكو ويتوجَّعُ ويقول: لقد حاقَ بِيَ الظُّلم، وإنَّ (الرافعيّ) رجلٌ عَسُوفٌ ظالم، لأنِّي أكتبُ له كلَّ مقالاتِه التي ينشرُها في (الرسالة)... وأجمعُ نفسي لها، وأجهدُ في بَيانِها، وأذيبُ عقلي فيها، وهو مستريحٌ وادعٌ، وليس إلَّا أنْ ينتحِلها ويضعَ توقيعَهُ عليها، ويَبعَثَ بها إلى المجلَّة، ثُمَّ هو يقبضُ فيها الذهبَ وينالُ الشهرة، ولا يدفعُ لي عن كلِّ مقالةٍ إلَّا قرشين[١]...

قال ا. ش: فما يمنعُكَ أنْ تُرسل أنت هذه المقالاتِ إلى المجلة فتقبضَ فيها الذهب؟ قال: إنَّ هناك أسراراً أنا مُحْصِنُها وكاتمُها، ولا ينبغي أنْ يعلمَها أحدٌ فإنَّها أسرار... قال له: فدعِ (الرافعيّ) واكتبْ لي أنا هذه المقالاتِ، وأنا أعطيكَ في كلِّ مقالةٍ ذهبين لا قرشين.

قال هذه أسرارٌ ولا أستطيعُ أنْ أكتبَ إلَّا للرافعيّ، لأنَّ (نابغةَ القرن العشرينَ) لا يجوزُ أنْ يدَّعيَّ كلامَهُ إلَّا أستاذُ نابغة القرن العشرين، ولو ادَّعاهُ غيرُهُ لكان هذا حطًّا من قدرِ نابغة القرن العشرين، وهذا بعضُ الأسرارِ لا كلُّ الأسرار..

قلْت: ثُمَّ جاءَ المجنونان في العشِيَّة إلى النديّ.

---

(١) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدَّعي أنه هو الذي يكتب لنا هذه المقالات، غير أنه رفع القيمة أخيراً؛ فجعلها عشرين قرشاً.........

المجنون

(٣)

وكنَّا في النَّديّ ثلاثةً: أنا، وا. ش. وس[*]. ع؛ وقد هيَّأتُ تدبيراً تَوافَقْنا عليه لِتحريكِ هذين المجنونين، وتدوين ما يجيءُ منهما. فلَّما أقبلا تْحفَّيْنا بِهِما وألْطَفْنَاهُما، وقُمْنا ثلاثتنا ببَسْطِهِما وإكرامِهِما، حتى حَسِبَا أنَّ في كلمة «مجنون» معنى كلمة أميرٍ أو أميرة. . ورأيْتُ في عيني «نابغة القرن العشرين» ـ وهو أعْيَنُ أنجلُ[١] ـ ما لو ترجمْتُهُ لمَا كانَتِ العِبارةُ عنه إلَّا أنَّهُ يعتقدُ أنَّ له نفساً أنثى أعشقُها أنا. . فكان مُسَدَّداً فَكِهَ اللسانِ، تُسْتَمْلحُ له النادرةُ، وتُسْتطْرَفُ منهُ الحركة.

ولمَّا تمكَّنَ منهُ الغرورُ، واحتاجَ الجنونُ كما يحتاجُ الجمالُ إلى كِبريائِه إذا حاطتْهُ الأعينُ ـ أدارَ بَصَرَهُ في المكان، ثُمَّ قال: أفٍّ لكم ولِمَا تصبرونَ عليه من هذا النديّ في ضَوْضائِه ورُعاعِه وغوغائِهِ. إنْ هؤلاءِ إلَّا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة. هذا الجالسُ هناك. هذا الواقفُ هنالك. هذا المسْتَوفِز. هذان المتقابلانِ. هؤلاءِ المتجمِّعون. هذا كلُّهُ خيالُ حقيقةٍ في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

هذا التصايُحُ المنكَر. هذا الضربُ بحجارة النَّرد. هذه الزَّحمةُ التي انغمْسنا فيها. هذا المكانُ الهائجُ من حولِنا. هذا كلُّهُ خيالُ حقيقةٍ في رأسي. هي، هي، هي.

فانزعجَ المجنونُ الآخر، ووَقعَ في تهاويلِ خيالِه، ونظرَ إلينا تدورُ عيناه، وتَوجَّسَ شرًّا، ثُمَّ زاغَ بصرُهُ إلى الباب، واسْتَوْفَزَ وجمع نفسَهُ لِلْقِيام؛ فلمَّا رأى صاحبُهُ ما نزل به، قَهقَهَ وأمْعَنَ في الضحكِ وقال: إنَّما خوَّفتُهُ الصبيانَ والضرْبَ لِيُثبتَ لكم أنَّهُ مجنون. .

فحرِدَ الآخرُ واغتاظَ وجعل يُتمتِمُ بينَهُ وبين نفسِه.

قال «النابغةُ»: ما كلامٌ تَطِنّ به طنينَ الذبابة أيُّها الخبيث؟

(*) س ع هو الصديق سعيد العريان.

(١) أي واسع العين أنجلها، وقد مرّ وصفه في المقالة الأولى.

قال: «مِمَّا حفظْنَاهُ»: أنَّ من علاماتِ الأحمقِ أنَّهُ إذا استُنْطِقَ تَجلَّفَ، وإذا بكى خار، وإذا ضَحِكَ نَهقَ. كما فعلْتَ أنت الساعةَ، تقول: هاءْ، هُوءْ، هِيءْ...

فتغيَّرَ وجهُ «النابغةِ»، ونظرَ إليه نظرةً منكرة، وهمَّ أنْ يقتَحِمَ عليه، وقال: أيُّها المجنون، لِماذا تُضطرُّني إلى أنْ أجيبَكَ جوابَ مجنون... لا نجوْتُ إنْ نجوْتَ منّي!

فأسرع ا. ش، وأمسكَ به؛ واعترضَ مِنْ دونِه س. ع، وقال لهُ: أنت بدأتَهُ والبادئُ أظلم.

قال: ولكن ـ ويحَهُ ـ كيف قال هذا؟ كيفَ لم يقلْ إلّا هذا؟ كيف لم يجدْ إلّا هذا يقولُهُ؟ أنابغةُ القرن العشرين أحمق، وقد أوْحدَهُ الله في القرن العشرين؟ لهَمَمْتُ ـ والله ـ أنْ أكسِرَ الذي فيه عيناه؛ فما يقولُ إلّا أنّي أحمقُ القرن العشرين...

* * *

قلْتُ: إنْ كان هذا هوَ الذي أغضبَك منه؛ ففي الحديثِ الشريف: «ليس من أحدٍ إلّا وفيه حَمْقَةٌ، فَبِها يعيش». والحياةُ نفسُها حماقةٌ منظَّمةٌ تنظيماً عاقلاً؛ وما يُقبلُ الإنسانُ على شيءٍ من لذاتِها إلّا هو مقبلٌ على شيءٍ من حماقاتِه، وأمتعُ اللّذة ما طاشَ فيه العقلُ وخرجَ من قانونِه؛ ولولا هذا الحمقُ في طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعةَ الحياة، أليس يُخيَّلُ إليكَ أنَّ أكثرَكَ غائبٌ عن الدنيا وأقلّكَ حاضرٌ فيها، وأنَّ يَقَظتَكَ الحقيقيةَ إنَّما هي في الحُلْم وما يُشبهُ الحُلْم، كأنَّكَ خُلِقْتَ في كوكبٍ وهبطْتَ منه إلى كوكبِنا هذا، فما فيك لِلأرضِ ولا فيها لك إلّا القليلُ يلتئِمُ بعضُه ببعضِه، وأكثرُكما مُتَنَافِرٌ أو متناقِضٌ أو متراجِع؟

قال: بلى.

قلْتُ: فهذا القليلُ هوَ الحمقةُ التي بها تعيش، وهو أرضيَّةُ الأرضِ فيك؛ أما سماويةُ السماءِ فبعيدةٌ لا تحتملُها طبيعةُ الأرض؛ ولِهذا يعيشُ أهلُ الحقيقة عيشَ المجانين في رأي المغرورينَ الذين غرَّتْهمُ الحياةُ الفانية، أوِ المخدوعين الذين خدعَتْهُم الظواهرُ الكاذبة؛ فكلّما أتَوْا عملاً من الأعمالِ السامية انتهى إلى الحَمْقَى معكوساً أو مُحوَّلاً أو معدولاً به؛ ولعلَّ هذا أصحُّ تفسيرٍ لِلحديثِ الشريف: «أكثرُ أهلِ الجنة البُلْه».

قال المجنونُ الآخر: «مِمَّا حفظْناه»: أكثرُ أهلِ الجنة البُله.

فقال (النابغة): المصيبةُ فيك أنَّكَ أنت هو أنت؛ ألا فلْتعلمْ أنَّك من بُلهاءِ البيمارستان لا من بُلْه الجنة. . .

قلْتُ: ثمَّ إنَّ الموتَ لا بدَّ آت على الناس جميعاً، فيسلبُهُم كلَّ ما نالوهُ من الدنيا، ويُلْحِقُ مَنْ نال بِمَنْ لم ينل؛ فمَنْ ذا الذي يُسَرُّ بأنْ ينال ما لا يبقى له، إلَّا أنْ يكونَ سرورُهُ من حماقتِهِ؟ ومَنْ ذا الذي يحزَنُ على أنْ يفوتَهُ ما لا يبقى له، إلَّا أنْ يكونَ حُزنُهُ حماقةً أخرى؟ وأيُّ شيءٍ في الحُبِّ بعدَ أنْ ينقضيَ الحُبُّ إلَّا أنَّهُ كان حماقةً ضرَبَتْ في الحواسِّ كلِّها ملأتِ النفس؛ ثُمَّ ملأتِ النفسَ حتى فاضَتْ على الزمن؛ ثُمَّ فاضتْ على الزمن حتى خبَّلتِ العاشقَ تخبيلاً لذيذاً تصغُرُ فيه الأشياءُ وتكبُر، ويجعلُ الواقعَ في النفسِ غيرَ الواقعِ في دنياها؟ يُشبِّهُ كلُّ عاشقٍ حبيبَتَهُ بالقمر: فهَبِ القمرَ سمع هذا وفَهِمَهُ وعَنَاهُ أنْ يُجيبَ عنه، فماذا عساهُ يقولُ إلَّا أنْ يُعْجَبَ من هذا الحمقِ في هذا التشبيه؟

* * *

فهدأ (النابغةُ) وسكنَ غضبُهُ وقال: صدقْت، ولِهذا أنا لا أشبِّهُ حبيبتي بالقمر.

قلْت: فبماذا تُشبِّهها؟

قال: لا أقولُ لك حتى أعلمَ بماذا تُشبِّهُ أنت حبيبتَك. قلْت: وأنا كذلك لا أشبهُها بالقمر.

قال: فبماذا تُشبهها؟ قلْت: حتى أعلمَ بماذا تُشبِّهُ أنت. .

قال: هذا لا يُرضَى منك وأنت أستاذُ (نابغة القرن العشرين)، ولك حبائبُ كثيراتٌ عدَدَ كتبِك، وقد أعجبَتْني منهنَّ تلك التي في (أوراق الورد)، وأظنُّكَ أحبَبْتَها في شهرِ مايو من سنة. . من سنة. .

قال المجنونُ الآخر: من سنة ١٩٣٥؛ ها أنذا قد نبَّهتُك.

قال: يا ويلك! إنَّ (أوراقَ الوردِ) ظهرَتْ من بضعِ سنين، إنَّما أنت من بُلهاءِ البيمارستان لا من بُلْه أوراقِ الورد. . ماذا كنْتُ أقولُ؟

قال ا. ش: كنْتَ تقول: هذا لا يُرضَى منك ولك حبائبُ كثيرات.

قال: نعم، لأنَّكَ إذا شبَّهْتَ واحدةً منهنَّ بالقمر، انتهى القمرُ وفرغَ التشبيهُ فيظلُّ الأخرياتُ بلا قمر. . ثُمَّ إنَّ كلمةَ القمرِ لا تُعجبُني، فلونُها أدكنُ مُغْبَرٌّ[1]

---

(١) الدكنة: لون بين الحمرة والسواد.

يَضرِبُ أحياناً إلى السواد. . . فإذا عشِقْتُ زَنجيَّةً فهٰهنا محلُّ التشبيه بالقمر. . أمَّا البيضُ الرَّعابِيبُ فتشبيههُنَّ بالقمرِ من فسادِ الذوق.

قال س. ع: ولِلألفاظِ ألوانٌ عندَك؟

قال: لو كنْتَ نابغةً لأَبصرْتَ في داخلِكَ أخْيِلةً من الجنَّة؛ ألمْ يقلْ أستاذُنا آنفاً عن (نابغة القرن العشرين): إنَّهُ هبطَ من كوكبٍ إلى كوكب؟ ففي كوكبِنا الأولِ يكون لنا سَمْعٌ ملوَّن؛ وحِسٌّ ملوَّنٌ نسمعُ قرعَ الطَبلِ أزرق، ونفْخَ البوقِ أحمر، ورنينَ النغَم الحُلوِ أخضر[1]، والوجودُ كلُّهُ صُوَرٌ ملَّونةٌ، سواءٌ منه ما يُرَى وما يُحَسّ، وما هو مُسْتَخْفٍ وما هو ظاهر.

ثُمَّ أومأ إلى المجنون الآخرِ وقال: واسمُ هذا الأبله كلفظِ الحِبر: لا أسمعُهُ إلَّا أسود. .

* * *

وسكَتَ «النابغةُ» وسكتْنا؛ فقال له س. ع. ما لكَ لا تتكلَّم؟ قال: لأنِّي أريدُ السكوت. قال: فلِماذا تُريدُ السكوت؟ قال: لأنِّي لا أريدُ أنْ أتكلَّم. .

وتحركَ في نفسِه الغيظُ من المجنون الآخر، فرمى بعينِه الفضاءَ ينظرُ اللَّاشيءَ وقال: إذا أصبحَ كلُّ النساءِ ذواتِ لِحَى أصبحَ هذا عاقلاً. فدقَّ الآخرُ برجلِه دقات معدودة؛ فثارَ (النابغةُ) وقال: مَن هذا يشتُمُني؟

قال: س. ع: لم يشتمْك أحد، هذا خَفْقُ رِجلٍ على الأرض.

قال: بلْ شتمَني هذا الخبيثُ، وسَمْعي لا يَكْذِبُني أبداً، وأنا رجلٌ ظَنُونٌ، أسيءُ الظنَّ بكلِّ أحد، وعلامةُ الحازم «العاقلِ» سوءُ ظَنِّهُ بالناس. فهبْهُ كما قلْتَ قد خفَقَ بنعلِه، أو خبَطَ برجلِه؛ فهو ما يعني من ذلك، وأنا أسمعُ ما يعنيه. لقد طفحَ الشعرُ على قلبي فلا بدَّ لي من هجائه، ولا بدَّ لي أنْ أذبَحَهُ ولو بالكلام، فإنِّي إذا هجَوتُهُ رأيْتُ دمَهُ في كلماتي، وأريدُ أنْ أجعلهُ كالعَنْزِ التي كانَتْ عندَنا وذبحناها.

ثُمَّ انتزعَ قلم س. ع، وقال: هذه هي السكيّن. ولكنْ أسألُك يا أستاذي أنْ تذبحَهُ أنت بكلمتين وتصفَ له جنونَه، فقد عزَبَ عنّي الشعر... إنَّ خَفقَةَ رِجلٍ

---

(١) هذا واقع وليس من الخيال؛ فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات فهو يصبغها.

على الأرض تستطيرُ الأرانبَ فزَعاً؛ فيَنفرْنَ إلى أجْحَارِهِنَّ ويتَهَارَبْن، وما كانَتْ أبياتُ الشعرِ في ذِهني إلّا أرانب. .

أنتم لا تعرفون أنَّ مَنْ كان حَصِيفاً ثَبِيتاً مثلي، كان دقيقَ الحِسّ؛ ومَنْ كان فَدْماً غبيًّا مثل هذا، كان بليدَ الحِسِّ غليظاً كثيفاً؛ فإذا أنا استشعرْتُ البردَ رأيْتَني قد سافرْتُ إلى القُطْبِ الشّمالي؛ أما هذا المجنونُ فهو إذا استشعرَ برداً سافرَ إلى عباءتِه أو لِحافِه. . إذ هو لا يعرفُ جغرافيا، ولا يدري ما طَحَاها.

قلْت: هذا منك أظرفُ من نادرة أبي الحارث. قال: وما نادرةُ أبي الحارث؟ وهلْ هو نابغة؟

قلْت: جلسَ يتغدّى مَعَ الرشيدِ وعيسى بن جعفر. فأتِيَ بخِوانٍ عليه ثلاثةُ أرغفة، فأكل أبو الحارثِ رغيفَهُ قبلهما، والرشيدُ ملكٌ عظيمٌ: لا يأكلُ أكل الجائع، وإنّما هو التّشعيثُ من هنا وهناك؛ فكان رغيفُهُ لا يزالُ باقياً؛ فصاحَ أبو الحارث فجأةً: يا غلام، فَرَسي. ففزعَ الرشيدُ وقال: ويلك ما لكَ؟ قال: أريدُ أنْ أركبَ إلى هذا الرغيف الذي بين يديك. .

قال (النابغة): ولكنّ فرقاً بين أبي الحارثِ وبين (نابغة القرن العشرين)، فإنَّ منَ العجائبِ أنّي ربما نظرْتُ إلى الرجلِ وهو يأكلُ فأجدُ الشّبَعَ، حتى كأنَّهُ يأكلُ ببطني لا ببطنِه، ولكن من العجائبِ أنَّ هذا لا يتَّفِقُ لي أبداً حينَ أكونُ جائعاً. . .

أمَّا هذا المجنونُ الذي أمامَنا، فربَّما أبصرَ الحِمارَ على ظهرِه الحِمْلُ، فيشعرُ كأنَّ الحِمْل على ظهرِه هو لا على ظهرِ الحمار.

قال الآخر: «مِمَّا حفظناه»: أنَّه سُرِقَ لأعِرابيّ حِمار، فقيل له أسُرِقَ حمارُك؟ قال: نعم، وأحمدُ الله. فقيل له: على ماذا تحمدُه؟ قال: على أنّي لم أكنْ عليه حينَ سُرِق. . فأنا إذا رأيْتُ حِماراً مثقَل الظهرِ، حمدَتُ الله على أنَّ الحِمْل لم يكنْ عليّ، لا كما يقولُ هذا. ثُمَّ دقّ برجلِه دقات. .

فاستشاطَ (النابغة) وقال: أسمعْتُم كيف يقولُ إنّي مجنون، ثُمَّ لا يكتفي بهذا بلْ يقولُ إنّي حِمارٌ على ظهرِه الحِمل؟

قلْت: ينبغي أنْ تتكافًا، وهذا لا يَعيبُك منه ولا يعيبُهُ منك، فإنَّ من تواضُع «النوابغ» أنْ يشعروا ببؤسِ الحيوان، فإذا شعروا ببؤسِه دخلَتْهمُ الرقةُ له، فإذَا دخلَتهمُ الرقةُ صارَ خيالُ الحِملِ حِمْلاً على قلوبِهمُ الرقيقة؛ وقد يصنعون أكثرَ من ذلك: حكى الجاحظُ عن ثُمامةَ قال: كان (نابغةٌ) يأتي ساقيةَ لنا سَحَراً؛ فلا يزالُ

يمشي مع دابَّتِه ذاهباً وراجعاً في شِدّة الحرّ أيامَ الحرّ، وفي البردِ أيامَ البرد، فإذا أمسى توضأ وقال: اللهمّ اجعلْ لنا من هذا الهمّ فَرَجاً ومَخرجاً. فكان كذلك إلى أنْ مات!

قال المجنونُ الآخر: «مِمَّا حفظْناه»: ثمرةُ الدنيا السرورُ، ولا سرورَ لِلعقلاء، فلو لم يكنْ هذا أعقل العقلاءِ لمَا مُحِقَ سرورُهُ في الدنيا هذا المحْقَ إلى أنْ ماتَ غمًّا، رحمهُ الله!

* * *

قال: س. ع: فاعفُ الآنَ عن صاحبِك ولا تذبحْهُ بالهِجاء.

قال: لقد ذكَّرْتَني من نِسيان، وهذا المجنونُ يرى نِسياني من مرضٍ عقلي، وكان الوجهُ ـ لو تَهَدَّى إلى الحقيقة ـ أنْ يراهُ شذوذاً في العقل، أي نبوغاً عظيماً كنبوغِ ذلكَ الفيلسوف الذي أرادَ أنْ يَتَثَبَّتَ في كم من الزمن تُسلقُ البيضة؛ فأخذَ بيدِه الساعةَ وبيدِه الأخرى بيضة، ثُمَّ نسِيَ نسيانَ النبوغ، فألقى الساعةَ في الماءِ على النار، وثَبَتَتْ عينُهُ على البيضة ينظرُ فيها على أنَّها هي الساعة. ولو قد رآهُ هذا الأبلهُ لزعمَهُ مجنوناً كما يزْعمُني، فإنَّ المجانينَ يَرَوْنَ العُقلاءَ مرضَى بمواهبِهِم وأعمالِهِمُ التي يعملونها.

وأنا فليس تُهيجُني شيءٌ ما تُهيجني كلماتٌ ثلاث: أنْ يقُال لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمَنْ رغِبَ في صُحْبَتي فلْيتجنَّبْ هذه الثلاثَ كما يتجنَّبُ الكُفرَ والكفرَ والكفر...

قال ا. ش: فإذا قيل لك مثلاً. مثلاً. أي على التمثيل: مغفَّل.

فحكَّ رأسَهُ قليلاً وقال: لا، هذه ليسَتْ من قدري[1]...

قلْت: فبعضُ الكلماتِ إذا قُطِعَتْ عندَك غيَّرتِ الحقائق، كذلك القرن الذي قُطعَ فَرَدّ البقرةَ فرساً؟

قال: وكيف كان ذلك؟

قلْت: زعموا أنَّ أعرابيًّا خرجَ إخوتُه يشترونَ خيلاً، فخرجَ معهم فجاءَ بعجلٍ يقودُه؛ فقيل له: ما هذا؟ قال: فرسٌ اشتريْتُه. قالوا: يا مائقُ هذه بقرة، أما ترى قرنيها؟

---

(١) نص عبارته: «دي مش أدّي»...

فرجعَ إلى منزله فقطعَ قرنيها، ثُمَّ قادَها إليهم وقال لهم: قد أعدْتُها فرساً كما تُريدون..

قال (النابغة): هذا غيرُ بعيد، فقدْ رأيْتُنا حينَ ذبحْنَا العنَزَ وكسرْنَا قرنيَها أعدناها كلبةً سوداء، فتقذَّرْتُها وعِفْتُ لحمَها ولم أطعمْ منها.

ثُمَّ أومأ إلى الآخرِ وقال: هذا لا يدري ما طَحَاها، وهو مثل العَنز: تحسبُ قرنيها لِلقتالِ والنِّطاحِ ومنهما تُمسَكُ لِلذبح؛ فقلْ في هذا يا أستاذَ (نابغة القرن العشرين).

قلْت لِلآخَر: أيُرضيكَ أنْ أقول في المعنى لا فيك أنت...؟ قال: نعم. فكتبْتُ هذه الأبياتَ على ما يُريدُ النابغة:

قُلْ لِعَنزٍ نَاطِحَاها ... لِقتالٍ سَلَّحَاها
ما لها قد طَرَحَاها ... في يَدَينِ ذَبَحَاها؟

* * *

شِيمةٌ مِنِّي نَحاهَا ... عقلُ غِرٌّ فَلحَاهَا
ليس يدري ما طَحَاها ... بلْ يَرى شمسَ ضُحَاها
حَجَراً مثلَ رَحَاهَا ... ويَرى الليلَ مَحَاها
ظُلماً طالتْ لِحَاها

* * *

وسُرَّ (النابغةُ) وازدهى، وجعل يقول: طالتْ لِحَاها، طالتْ لِحَاها. وما كان هذا إلّا السرورَ الأصغر؛ أمّا سرورُهُ الأكبرُ فمجيءُ ساعي (البريدِ المستعجلِ) إلى النديّ، وفي يدِه رِسالةٌ عنوانُها: نابغةُ القرن العشرين فلان، بنديِّ كذا.

وجعل الرجلُ يهتفُ بالعنوان يسألُ عن صاحبِه؛ فتطاولتْ أعناقُ الناس، ورفعوا أبصارَهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدَّ يدَهُ يتناولُ الرسالةَ وكأنَّهُ مَلِكٌ من القدماءِ أسْقِطَ له كتابٌ بالفَتحِ العظيم وبضمِّ دولةٍ إلى دولتهِ.

ثُمَّ تركَ الرسالةَ بين أصابعِه يقلِّبُها ولا يُفضُّها ونحن في دهشةٍ من أمره؛ فنظرَ فيها المجنونُ وقال له: هذا عجيبٌ يا أخي، كيف هذا؟ إنَّ هذا لا يُصدَّق؛ إنَّكَ لمْ تُلقِها في صندوقِ البريدِ إلّا منذُ ساعة..

المجنون

(٤)

وضاقَ «نابغةُ القرن العشرين» بحُمقِ المجنون الآخر؛ ورآهُ داهيةَ دَواهٍ، كلَّما تَعاقَل أو تَحاذَقَ لم يأتِ له ذلك إلَّا بأنْ يكشِفَ عن جنونِه هو: فلا يبرَحُ يُجرِّعُهُ الغيظَ مرةً بعدَ مرة، ولا يزالُ كأنَّهُ يَسُبُّهُ في عقلِه؛ فأرادَ أنْ يحتال لِصرفِه عن المجلس، فدفعَ إليه الرسالةَ التي جاءَ بها (البريدُ المستعجَلُ) وقال له: خذْ هذه فاذهبْ فألقِها في دارِ البريد، فسيجيءُ بها الساعي مرةً أخرى، ثُمَّ تذهبُ الثانيةَ فتُلقيها، ويعودُ فيجيءُ بها، وتكونُ أنت تذهبُ ويكون هو يجيء، فنضحكُ منه ويضحكون.

قال س. ع: ولكن كم يذهبُ هذا وكم يجيءُ ذاك؟

فغمزَهُ (النابغة) بعينِه أن اسكتْ؛ فتَغَافَل س. ع، وقال: كم تُريدُ أنْ يجيءَ الساعي لِيهتفَ بنابغة القرن العشرين؟

قال المجنونُ الآخر: هذا هو الرأي، فلسْتُ قائماً حتى أعرفَ كم مرةً أذهب؛ فإن الساعيَ لا يجيءُ إلَّا راكباً، وأنا لا أذهبُ إلَّا راجلاً، وإنَّ لي رِجلَيْ إنسانٍ لا رِجلَيْ دابة..

قال (النابغة): سبحانَ الله؟ بقليلٍ من الجنون يخرُجُ منَ الإنسان مجنونٌ كاملٌ مُسْتَلبُ العقل. بَيْدَ أنَّهُ لا يأتي النابغةُ إلَّا من كثيرٍ وكثير، ومنَ النبوغ كلِّه بجميع وسائلِه وأسبابِه على تعدُّدِها وتفرّقِها وصعوبة اجتماعِها لإنسانٍ واحدٍ (كنابغة القرن العشرين)، فهو الذي توافَتْ إليه كلُّ هذه الأسباب، وتوازَنَتْ فيه كلُّ تلكَ الخِلال. إنَّهُ ليس الشأنُ في العِلْمِ ولا في التعليم؛ ولكنَّما الشأنُ في الموهِبَة التي تُبدِعُ الابتكارَ، كموهبة (نابغة القرن العشرين)، فبها تجيءُ أعمالُهُ منسَجِمَةً دالَّةً بنفسِها على نفسِها؛ ومتميِّزةً مع كونِها منسجمةً دالةً بنفسِها على نفسِها؛ ومتلائمةً مع كونِها متميزةً دالةً بنفسِها على نفسِها...

هذا س. ع، كان الأولَ بين خرِّيجي مدرسة دارِ العلومِ، مدرسة الأدبِ

والعربية، والمنطقِ والتحذلُق، وبلاغة اللسان وصِحَّة النظر؛ وهو يعرفُ أنَّ الكتابَ يُلقى في البريدِ وعليه طابعٌ واحد، فيصلُ إلى غايتِه بهذا الطابع، ثم يَرى بعيني رأسِه أربعةَ طوابعِ على هذه الرسالة المُعَنْوَنَة باسم (نابغة القرن العشرين)، فلا يُدرك بعقلِه أنَّ معنًى ذلك أنَّ من حقِّ هذه الرسالة أنْ تصِل إليَّ أنا أربعَ مرات..

فطرِبَ المجنونُ الآخرُ، واهتزَّ في مجلسِهِ، وصفَّقَ بيديه، وقال: «مِمَّا حفظْناه» هذا الحديث: «يُحاسِبُ الله الناسَ على قدرِ عقولِهم». فلا تؤاخذْ س. ع، فإنَّ مدرسةَ دارِ العلوم تعلِّمُهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثةُ أقوال، وفيها أربعةُ أوجه، ولكنَّها لا تعلِّمُهم فيها أربعةُ طوابع..

ثُمَّ التفتَ إلى س. ع، وقال له: لا عليك، فأنا صاحبُهُ وخَلِيطُه، وحامِلُ عِلْمِه وراويةُ أدبِه، وأكبرُ دُعاتِه وثِقَاتِهِ، وما علمْتُ هذه الحِكمةَ منه إلَّا في هذه الساعة.

قال ا. ش: فإذا كان هذا، فإنَّ لِقائلٍ أنْ يقول: لِماذا لم يضعْ على كتابِه عشرةً من الطوابع، فيجيءَ به الساعي عشرَ مرات.

قال (النابغة): وهذا أيضاً...؟

«وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرٍو بصاحبِك الذي لا تصحبينَ»؛ إنَّ الشمعةَ في يدِ العاقلِ تكونُ لِلضوءِ فقط، ولكنَّها في يدِ المجنون لِلضوءِ ولإِحراقِ أصابعِه. كم الساعةُ الآن؟

قلْنا: هي التاسعة.

قال: ومتى ينصرفُ أهلُ هذا النديّ؟

قلْنا: لِتمام الثانيةَ عشْرة.

قال: فإذا كان الساعي يتردّدُ في كلِّ ساعةٍ مرة، فهي أربعُ مرات إلى أن ينفضَّ المجتمعون هنا، وبين ذلك ما يكون قد ذهبَ قومٌ عرفوا (نابغة القرن العشرين)، وجاء قومٌ غيرُهم فيعرفونه. وأمَّا بعدَ ذلك فلا يجدُ الساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدةٌ من مجيئِهِ.

فصفَّقَ المجنونُ الآخرُ وقال: هذا وأبيكَ هو التَّهدِّي إلى وجه الرأي وسَدادِه، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذي يقومُ على أصولِ الحساب والجغرافيا.. «ومِمَّا حفظْناه» هذا الحديث: «لا مال أعْوَدُ من العقل». فأربعةُ طوابع، لأربعِ مرات، في أربعِ ساعات؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير؛ ولا مال أعودُ من العقل..

* * *

ورضِيَ (النابغةُ) عن صاحبِه وقال له: لئِنْ كانَتْ فيك ضَعْفةٌ إنَّ فيك لبقيَّةً تعقِلُ بها. . . ثُمَّ أخذَ منهُ الرسالةَ ودسَّها في ثوبِه. قلْنا: ولكنْ ألا تَفُضُّها لِنعرفَ ما فيها؟

فضحكَ وقال: أئِنْ جارَيْتُكم في بابِ المُطايَبة والنادرة، وجارَيْتُ هذا الأبلهَ في بابِ جُنونِه وحُمقِه ـ تحسبون أنَّ الأمرَ على ذلك، وأنَّ الرسالةَ فارغةٌ إلا من عنوانِها، وأنَّ نابغةَ القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين، كما قال سعد باشا: (جورج الخامس يُفاوضُ جورجَ الخامس). . . ؟ لـحَقٌّ ـ واللهِ ـ أنَّ العقل الكبيرَ الذي يأبى الصغائرَ، هو الذي تأتي منهُ الصغائرُ أحياناً لِتُثبِتَ أنَّهُ عقلٌ كبير، وهكذا تَسَخَرُ الحقيقةُ من كِبارِ العقولِ (كنابغة القرن العشرين). .

فغضبَ المجنونُ الآخرُ وهمَّ أنْ يتكلَّم: فقال له (النابغة): أنت كاذِبٌ فيما ستقولُه.

قلْنا: ولكنَّهُ لم يقلْ شيئاً بعدُ، فكما يجوزُ أنْ يكونَ كاذباً يجوزُ أنْ يكونَ صادقاً.

قال: وسيُخطىءُ في رأيه الذي يُبديه. .

قلْنا: ولم يُبدِ شيئاً من رأيه. .

قال: ولا يعرفُ الحقيقةَ التي سيتكلَّمُ عنها.

قلْنا: ويحك، أدخَلْتَ في عقلِ الرجلِ أم تَعْلمُ الغيبَ؟

قال: لا هذا ولا ذاك، ولكنَّهُ قِياسٌ منطقيٌّ يُتوَهَّمُ اطرادُه. إنَّهُ سيقول: إنِّي مجنون. .

فأخرجَ الآخرُ لِسانَه. . قال: (النابغة): تباً لك، لقد رأيْتُ الكلمةَ في لِسانِكَ كأنَّها مكتوبةٌ بحروف المطبعة. ويحكَ يا مَرْقَعان[1]، ألا تعرفُ أنَّ لك دِماغاً مخروقاً تسقطُ منه أفكارُك قبلَ أنْ تتكلَّمَ بها، ولولا أنَّهُ مخروقٌ لحفظْتَ المتن! إنَّ كلَّ تخطئةٍ لي منك هي اعترافٌ لي منك بصواب.

فنظرَ الآخرُ إليه نظرةً كان تفسيرُها في حواجبه، إذْ مطّ حواجبَهُ[2] ورقَّصَها. فقال (النابغة): ونظراتُهُ خبيثةٌ مِلْحَةُ الطعم، مَزْعُوقَةٌ كَمَاءِ البحرِ المرُّ أُخِذَ من البحرِ وأضيفَ إلى مِلْحِه الطبيعيِّ مِلْح، أكادُ أتهوَّعُ من هذه النظرة فأقيء.

الآنَ فهمتُ معنى قولِهِم: «مِلحةٌ في عين الحسود». فإنَّ الملحَ لا يغلبُهُ إلَّا المِلْح، كالحديدِ بالحديد يُفْلحُ. هاتوا كأساً من مُعتَّقة الخمر، ثُمَّ لينظرْ فيها

---

(١) المرقعان والمرقع: الأحمق الذي يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له.

(٢) هما حاجبان. ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا، وهو كثير في العربية.

الخبيثُ هذه النظرة، فإنَّ الخمرَ لا بدَّ مستحيلةٌ «شربة ملح إنجليزي»... هذا الأبلهُ ثقيلُ الدم كأنَّ دمَهُ مأخوذٌ من مستنقع... أهذا الذي لا يستطيعُ أنْ يقول لِشيءٍ في الدنيا: هُوَ لي، إلَّا الفقرَ والجنونَ والخرافة ـ يُكذِّبُ ما في الرسالة التي جاءَ بها البريدُ المستعجَلُ، ولا يُصدِّقُ أنها مرسَلةٌ إلى نابغة القرن العشرينَ من صاحبِ السموِّ الأمير؟

هذا الذاهبُ العقلِ هو كالجبان المنقطعِ في وَحْشة القَفْر، في ظلام الليل: إذا تَوجَّسَ حركةً ضعيفةً انقلبَتْ في وهمِه قصَّةَ جريمةٍ ماؤُها الرعبُ وفيها القتلُ والذبح؛ ولِهذا يخشى ما في الرسالة التي جاءَتْ من صديقي صاحبِ السموّ. هاؤُمُ اقرؤوا الرسالة.

وفضضْنَا الغِلاف، فإذا ورقتان ممهورتان بتوقيعِ أميرٍ معروف، إحداهما صكٌّ بألف جنيهٍ تُدفَع (لنابغة القرن العشرين)، والثانيةُ أمرٌ بالقبضِ على المجنون الآخر.. وإرسالِه إلى المارستان...

* * *

وذهبْتُ أُصْلِحُ بينهما صُلْحاً فقلْت: إنَّ في الحديثِ الشريف: «بينما رسولُ الله ﷺ في أصحابِه إذْ مرَّ به رجلٌ، فقال بعضُ القوْم: هذا مجنون. فقال رسولُ الله ﷺ: هذا مُصاب؛ إنَّما المجنونُ المقيمُ على معصية الله».

فقال صاحبُ المتن: «مِمَّا حفظناه» إنَّما المجنونُ المقيمُ على معصية الله.

قلْت: وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله...

قال المجنون: «مِمَّا حفظْناه»: وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله...

قلْت: هذا ليس من الحديثِ ولكنَّه من كلامي...

قال (النابغة): أنبأتُكم أنَّ هذا الأبلهَ يَضِلُّ في دارِه كما يضلُّ الأعرابيُّ في الصحراء؛ وأنَّ الأُسطول الإنجليزيَّ لوِ استقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثَوْرٌ، لكان ذلك أقربَ إلى التصديقِ مِن استقرارِ العقلِ في رأس هذا الأبله؟...

فاحْتَدَمَ الآخرُ وهمَّ أنْ يقول: «مِمَّا حفظْناه»، ولكنِّي أسكتُّهُ وقلْتُ (لِلنابغة): إنَّك دائماً في ذروة العالَم، فلا غَرْوَ أنْ ترى المحيطَ الأعظمَ ساقية. «والنوابغُ» هم في أنفسِهم نوابغ، ولكنَّهم في رأيِ الناسِ مَرْضَى بمرضِ الصعودِ الخياليِّ إلى ذِروة العالم. ومن هذا يكون المجانينُ همُ المرضى بمرضِ النزولِ الحقيقيِّ إلى حضيضِ الآدميَّة؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالِهم، ثُمَّ تكونُ عقولُهُم من

أفكارِهِم، فيكون هذا هو الجنونَ في عقولِهِم، وذلك معنى الحديث: «إنَّما المجنونُ المقيمُ على معصية الله».

قال (النابغة): لعَمْرِي إنَّ هذا هو الحقّ؛ فنبوغُ العقلِ مَرضٌ من أمراضِ السموِّ فيه؛ فالشاعرُ العظيمُ مجنونٌ بِالكون الذي يتخيَّلُهُ في فكرِه، والعاشقُ مجنونٌ بكونٍ آخرَ له عينان مكحولتان؛ والفيلسوفُ مجنونٌ بالكوْن الذي يَدأبُ في معرفتِه؛ ونابغةُ القرن العشرين مجنون... لا. لا. قد نسينا ا. ش، فهو مجنون، وس. ع فهو مجنون.

وكلُّ الناسِ مجنونٌ بليلى وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكَ

ومن حقِّ ليلى ألّا تقرَّ لهم، إذْ هي لا تقرُّ إلّا لِنابغة القرن العشرينَ وحدَه؛ وما أعجبَ سِحرَ المرأة في الكون النفسانيّ لِلرجال! أمّا في الكون الحقيقيّ فهي أنثى كإناثِ البهائم ليس غير. وأعقلُ الرجال مَنْ كان كالحِمارِ أوِ الثورِ أو غيرِهما من ذكورِ البهائم. فالحِمارُ لا يعرفُ الحِمارةَ إلّا أنها حِمارة، والثورُ لا يعرفُ البقرةَ إلّا أنَّها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً، ولا يكتبون «أوراق الورد»... وإناثُ البهائم أمّاتٌ[1] لا غير، ولكنَّ العجيبَ أنَّ ذكورتَها ليسَتْ آباءً؛ فهذه الذكورةُ طُفَيليةٌ في الدنيا، والطفيليُّ لا يأكلُ إلّا بحيلةٍ يحتالُ بها، فيكون صاحبَ نوادرَ وأضاحِيكَ وأكاذيب. ولِهذا كان عِشقُ الرجالِ لِلنساءِ ضُروباً من الخِداعِ والأكاذيبِ والأضاحيكِ والحِيَلِ والغَفْلة والبلاهة؛ وإذا نظرْنا إليه من أولِه فهو عِشقٌ، أمّا آخرُهُ فهو آخرُ الحِيْلة والأُكذوبة، وهو قولُ الطفَيليّ: قد شبعْتُ وقد رَوِيت.. ويْحَكم، أين أولُ الكلام؟

قلْنا: أولُهُ ما أعجبَ سِحرَ المرأة في الكون النفسانيِّ للرجال!.

قال: نعم هذا هو. إنَّهُ سِحرٌ لا أعجبَ منه في هذا الكون النفسانيِّ إلّا سحْرُ الذهب؛ فلو مُسِخَتِ المرأةُ الجميلةُ شيئاً من الأشياءِ لكانَتْ سبيكةً ذهبيةً تلمع؛ ولِهذا يُوجِدُ الذهبُ اللصوصَ في الدنيا، وتُوجِد المرأةُ الجميلةُ لصوصاً آخرين، فيجبُ أنْ يُصَانَ الذهبُ وأنْ تُصانَ المرأة.

قلْت: ولكنْ أليس من المالِ فِضّةٌ، وهي تُوجِدُ اللصوصَ كالذهب؟

قال: نعم، وفي النساءِ كذلك فِضّةٌ، وفيهن النُّحاس؛ ولو أنتَ ألقيْتَ ريالاً

---

(١) يقال في غير العاقل: أمات، وفي العاقل: أمهات.

في الطريقِ لأحدثَتَ معركةً يختصِمُ فيها رجلان، ثُمَّ لا يذهبُ بِالريالِ إلَّا الأقوى، ولو تركْتَ قِرشاً لتَضاربَ عليه طِفلان، ثُمَّ لا يفوزُ به إلَّا مَنْ عَضَّ الآخر. . .

ولكنَّ (فُورد) الغنيَّ الأمريكيَّ العظيمَ الذي يجمعُ يدَهُ على أربعمائة مليون جنيه، لا يتكلمُ عن القِرش؛ و(نابغة القرن العشرين) الذي يملِك (ليلى)، لا يتكلَّمُ عن غيرِها من قروشِ النساء. . .

قلْت: فإنِّي أحسُبك أعلمْتَني أنّ اسمَها فاطمةُ لا ليلى.

قال: هل يستقيمُ الشعرُ إذا قلْت: وكلُّ الناسِ مجنونٌ بفاطمة، وفاطمُ لا تقرُّ لهم؟ قلْت: لا.

قال: إذن فهي (ليلى) لِيستقيمَ الشعر. . . أمَّا حين أقول: أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلّل، فهي فاطمة لِيصحَّ الوزن.

قلْت: يُشْبِهُ ـ والله ـ ألَّا يكونَ اسمُها ليلى ولا فاطمة؛ وإنَّما هي تسمى حَسَبَ الوزن والبحر، فاسمُها فَعُولُنْ أو مُفَاعَلتنْ. . .

* * *

ثُمَّ قلْنا له: فما رأيُك في الحبّ، فإنَّهُ ليُقال: إنَّكَ أعشقُ الناسِ وأغزلُ الناس؟

قال: إنَّ ذلك ليقالُ (وهو الأصح)، ثُمَّ أطرقَ يفكِّر. وبدا عليه أنَّهُ مَدهوشٌ ذاهبُ العقل، كأنَّهُ من قلبِه على مسافةٍ أبعدَ من المسافة التي بينَهُ وبين عقلِه. وخُيل إليَّ أنَّ النساءَ قد حُشِرْنَ جميعاً في رأسِه، ومرَّتْ كلُّ واحدة تعرضُ مفاتِنَها وغَزلها، وتُلائِمُ هَذَيَانَهُ بهذيانٍ من جمالِها، فهو يرى ويسمعُ ويَغرضُ ويَتخيَّرُ. ثُمَّ اضطربَ كالذي يُحاولُ أن يُمسكَ بشيءٍ أفلتَ منه؛ فلم ينبِّهْهُ إلَّا قولُ المجنون الآخر: «مِمَّا حفظْناه» أنَّ أعرابيةً سئلتْ عن العشقِ فقالتْ: إنَّهُ داءٌ وجنون. . .

قال: اسكتْ يا ويلكَ لقد أطفأتَ الأنوارَ بكلمتِكَ المجنونة. كان في رأسي مرقصٌ عظيمٌ تسطعُ الأنوارُ فيه بين الأحمرِ والأخضرِ والأبيض؛ وترقُصُ فيه الجميلاتُ من الطويلة والقصيرة والممشوقة والبادِنة، فجئْتَ بالداءِ والجنون ـ قَبحَك الله ـ فأخرجْتَني عنهنَّ إليك. أحسبُ أنّك لوِ انتحرْتَ لصَلُحَ العالمُ أو صلُحْتُ أنا على الأقل. . . فإذا أردْتَ أنْ تشنُقَ نفسَكَ فأنا آتيكَ بالحبلِ الذي كنْتُ مقيَّداً فيه أي الحبلِ الذي عندي في الدار. . على أنَّ رأسَك الفارغَ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدري.

قال الآخر: ما أنت مُنذُ اليوم إلَّا في شنقي وتعذيبي أو في شنقِ عقلي (على

الأصح). «ومِمَّا حفظْناه» قولُ الأحنفِ بن قَيس: إنِّي لأُجالِسُ الأحمقَ ساعةً فأتَبَيَّنُ ذلك في «عقلي»...

فلم يَرُعْنا إلَّا قِيامُ المجنون مُسَلَّحاً بحذائِه في يدِه... وهو حِذاءٌ عتيقٌ غليظٌ يقتلُ بضربةٍ واحدة؛ فحُلْنا بينَهما وأثبتْناهُ في مكانِه. وقُلْنا: هذا رجلٌ قد غُلِبَ على عقلِه فلا يدري ما يقول؛ فإذا هو دلَّ على أنَّهُ مجنون، أفلا تَدُلُّ أنت على أنَّكَ عاقل؟ ما سألنَاكَ في انتحارِه وجنونِه، بلْ سألْنَاكَ رأيَكَ في الحبّ؛ وما نشُكُّ أنَّك قد أطلْتَ التفكيرَ لِيكونَ الجوابُ دقيقاً، فإنَّك (نابغةُ القرن العشرين)، فانظرْ أنْ يكونَ الجوابُ كذلك.

قال: نعم إنَّ العاقل إذا وَرَدَ عليه السؤالُ أطال الفكرَ في الجواب. فاكتبْ يا فلان (س. ع):

(جلس نابغةُ القرن العشرينَ مجلسَ الإملاءِ مُرتجِلاً فقال[1]: قصةُ الحبِّ هي قصةُ آدم، خلقَ الله المرأةَ من ضِلْعِه. فأولُ علامات الحُبِّ أنْ يشعرَ الرجلُ بالألم كأنَّ المرأةَ التي أحبَّها كسَرَتْ له ضِلْعاً... وكلُّ قديم في الحُبِّ هو قديمٌ بمعنًى غير معقول، وكلُّ جديدٍ فيه هو جديدٌ بمعنًى غير مَفهوم؛ فغيرُ المعقولِ وغيرُ المفهوم هو الحُبّ.

والجمرةُ الحمراءُ إذا قِيل إنَّها انطفأتْ وبقيَتْ جمرةً فذلك أقربُ إلى الصدقِ من بقاءِ الحُبِّ حيًّا بمعناهُ الأولِ إذا انطفأ أو بَرَدَ.

والعاشقُ مجنون. وجنونُهُ مجنونٌ أيضاً، فهو كالذي يرى الجمرةَ منطفئةً، ويرى مع ذلك أنَّها لا تزالُ حمراء، ثُمَّ يُمْعِنُ في خيالِه فيراها وردةً من الورد... وإذا سألْتَهُ أنْ يصِفَ الجمالَ الذي يهواهُ كان في ذلك أيضاً مجنونَ الجنونِ، كالذي يرى قمرَ السماءِ أنَّهُ قد تفتَّتَ وتناثَرَ ووقَعَ في الروضةِ، فكان نِثارُهُ هو الياسمينَ الأبيضَ الجميلَ الذكي..

والمجنونُ يرى الدنيا بجنونِه والعاقلُ يراها بعقلِه؛ ولكنَّ العاشقَ المخبول لا ينظرُ مَنْ يهواهُ إلَّا ببقيَّةٍ من هذا وبقيَّةٍ من ذلك، فلا يخلُصُ مع حبيبه إلى جنونٍ ولا عقل.

(والمجهولُ) إذا أرادَ أنْ يَظهرَ في دِماغٍ بشَريٍّ لم يسعْهُ إلَّا أحدُ رأسين: رأسِ المجنون ورأسِ العاشق...

---

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخليط.

ولا صعوبةَ في الحكم على شيءٍ بأنَّهُ خيرٌ أو شرٌ إلَّا حينَ يكون الخيرُ والشرُّ امرأةً معشوقة. أمَّا أوصافُ الشعراءِ والكُتَّابِ لِلجمالِ والحُبِّ فهي كلُّها تقليدٌ قد توسَّعوا فيه؛ والأصلُ أن ثوْراً أحبَّ بقرةً فكان يقولُ لها: يا نجمةَ القُطْبِ التي نزلتْ مِن السماءِ لتدورَ في الساقية كما دارَتْ في الفَلك.

قال (النابغة): هذا رأيي في حبِّ العاشقين؛ أمَّا حُبِّي أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعُهُ قولُك: فلّ، ورد، زهر...

قلْنا ما هذه الألغاز؟ وهلْ لِلحُبِّ مَتْنٌ كقولِهم: حروفُ القَلْقَلة يجمعُها قولُك (قطْبُ جَدٍ)، وحروفُ الزيادة يجمعُها قولك (سألتمونيها)؟

فتضاحَكَ (النابغة)، وقال: تكاثَرَتِ الظِّباءُ على خَراش، فلكيلا ننسى... إنَّ كلَّ حرفٍ هو بدءُ اسم، الفاء فاطمة، واللام ليلى، والواو وردة، والراء رباب، والدال دلال، والزاي زكيَّة، والهاء هِنْد، والراء رَباب...

قلْنا: ربابُ قد مضَتْ في (ورد).

قال: كنَّا تَهاجَرْنا مدةً ثُمَّ اصطلحْنا بعَد هند...

* * *

قلْت: هكذا «النوابغ» فإنَّ رجلاً أديباً كانَتْ كُنيتُه (أبا العباس) فلما «نبغ» صَيَّرها (أبا العَيْر)[1] وفَتقَ له نبوغُهُ أنْ يجعلها تاريخاً يَعرفُ منها عمرَه. قالوا فكان يزيدُ فيها كلَّ سنةٍ حرفاً حتى ماتَ وهي هكذا:

أبو العَيرِ طَرَدَ طِيل طَلِيري بَك بَك بَك...

* * *

(١) العير: الحمار وتكنّى بعض الحمقى (أبو البقر) قياساً على (أبو العير).

المجنون

(٥)

ثمَّ إنَّ (نابغةَ القرن العشرين) استخفَّهُ الطربُ لِذكرِ صواحبه وجميلاتِه من فاطمةَ إلى رَباب؛ ومن طبعِ المجنون أنَّهُ إذا كَذَبَ صَدَّقَ نفسَه، فإنَّ قوَّةَ الضبطِ في عقلِه إمَّا معدومةٌ وإما مختلَّة؛ وكلُّ وجهٍ تَخيَّلَ منه خَيالا فهو وجهٌ من وجوه العِلْم عندَه، إذْ كان عالمُهُ أكثرُهُ في داخلِه لا في العالم، فإذا توهَّمَ أو أحسَّ أو شَعَرَ، فإنَّما يكون ذلك بطريقتِه هو لا بِطريقة الناسِ العُقلاء؛ فليس يَحتملُ عقلُهُ إلَّا فِكْرةً واحدةً تمضي منفردَةً بنفسِها مستقلةً بمعناها كأنَّها قَدَرٌ غالبٌ على جميعِ أفكارِه الأخرى، فلا شأنَ لها بالواقع، ولا شأنَ لِلواقعِ بها، وإنَّما هي تُحقِّقُ معناها كما تَخْطُرُ له، لا كما تتمثَّلُ فيما حوله.

فبين كلِّ مجنونٍ وبين ما حولهُ دِماغُهُ المُتَدجِّي بالغُيوم العقليَّة، لا تزالُ تَعرِضُ له الغيمةُ بعدَ الغيمة مِن اختلالِ بعضِ المراكزِ العصبيَّة فيه، وفسادِ أعمالِها بهذا الاختلال، وقِيام الطبيعة فيها على هذا الفساد.

ومن ذلك تنقلبُ الكلمةُ من الكلام، وإنَّها لحادثةٌ تامَّةٌ في عقلِ المجنون كالقصة الواقعة لها زمانٌ ومكانٌ، وبَدْءٌ ونِهاية، لا يُخامِرُهُ فيها الشَّكّ، ولا يَعتريها التكذيب؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذِهنِه من وراءِ سمعِه وبصرِه قيامَ الحقيقة في الأبصارِ والأسماع؟

ولِحواسِّ المجنون جِهتَان في العمل، لأنَّها بين كَوْنَين؛ أحدُهما الكونُ الخَربُ الذي في دِماغِه؛ وفي هذا يقول (نابغةُ القرن العشرين): إنَّ في داخلِ عينيه مِنظاراً يرى به الأشياءَ في غير حقائقِها، أي في حقائِقها..

وحدَّثنا الدكتورُ محمدٌ الرافعيُّ قال: إنَّ في دارِ المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغةً كنابغة القرن العشرين، ذُكِرَتْ أمامَهُ قيصرةُ روسيا وخَبَرُ مقتلِها، فأحفظَهُ هذا وأرْمَضَهُ وقال يا ويْحَهم! كَذَبوا عليها وعليَّ. فسألهُ الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصرة أنَّها رأتْني فأحبَّتْني، وعَلِمَتْ من كلِّ وجهٍ يُمكنُ

أنْ يُعْلمَ منه قلبُها أنّي أنا رجلُها لا القيصر؛ فما زالتْ بعدَها تُناكِدُ القيصرَ وتَلْتَوِي عليه ولا تصلُحُ له في شيءٍ حتى يَئِسَ منها فطلَّقها، فحملتْ كنوزَها وحِلاها ولجأتْ إلى حبيبها، ثُمَّ تَبِعَتْها نفسُ القيصرِ ولم يُطِقِ العيشَ بعدَها فانتحر... ثُمَّ طَلَبَها الشيوعيون لِمَا معها من كنوزٍ، فأخفاها هو في مكانٍ حريزٍ لا يعلمُهُ إلَّا هو؛ ثُمَّ إنَّهُ هو لا يصلُ إلى هذا المكان الذي أحرزَها فيه إلَّا إذا نام.. كيلا يراهُ أحدٌ من الشيوعيِّين فيتعقَّبَهُ فيعلمَ مقرَّها؛ ولِهذا كان من الحِكمة أنْ ينسى المكان إذا استيقظ.. فقد يَزِلُّ مرةً فيُخبِرُ به أو يغلبُهُ الشوقُ مرةً على «عقلِه».. فيذهبُ إليه؛ فعسى أنْ يراهُ مَنْ يَنِمُّ بذلك، فتُفتَضحُ الحبيبةُ وتُؤخَذُ منه.

قال: وإنَّ القيصرةَ هي تحتاطُ أيضاً مثل ذلك فتُراسلُهُ كلَّ يوم باللاسلكيِّ رسائل تقعُ من الجوِّ في دِماغِه فيقرؤُها وحدَه، وإنَّ أخوفَ ما يخافُهُ أنْ يغلبَها جنونُ الحُبِّ يوماً فتطيشَ طيشَ المرأة، فتزورَهُ في هذا المارستان... فقد تُقتَلُ إذا رآها الشيوعيون.

قال الدكتور: وهاكَ (نابغةٌ) آخرُ ثبتَ في ذِهنِه أنَّ امرأةً من أجملِ النساءِ قدِ استهامَتْ به وأنَّها مُبتلاةٌ في حُبِّها إياهُ بجنون الغَيْرة، وقد تَناهَتْ فيه حتى أنَّها لتقتلُ نفسَها إذا عَلِمَتْ أنَّ لِصاحِبِها هوًى في امرأةٍ أخرى. وخبَّلَتْهُ هذه الفكرةُ، فاعتقدَ أنَّ حبيبتَهُ من جنون غيرتِها واقعةٌ بين السلامة والتلفْ؛ ثُمَّ توهَّمَ ذاتَ يوم أنَّ واشياً قد أعلمَها أنَّ النساء افتُتِنَّ بِهِ؛ فطارَ صوابُها، فهي آتيةٌ إليه في المارستان لِتوبِّخَهُ وتشفِيَ غيظَها منه، ثُمَّ تنتحرَ أمامَ عينيه... وأدارَ (النابغةُ) الفكرَ في إقناعِها لِتَعْلمَ أنَّهُ لم يَخُنْها بالغيب.. فلم يهتدِ إلى مَقْنَعٍ تَسْتَيْقِنُ به المرأةُ أنْ لا أرَبَ لِلنساءِ فيه إلَّا أنْ... ففعل وَجَبَّ خِصْيَتيه بيدِه لِيقدِّمَهما بُرهاناً أنَّهُ لها وحدَها....

* * *

قلْنا: وطَرِبَ (نابغةُ القرن العشرين) لِذكرِ صواحبِه وجميلاتِه، فجعل يترنَّمُ بهذا الشعر:

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تهوَى فقلْتُ لهمْ   ما لذَّةُ العيشِ إلَّا لِلمجانينِ

فقال المجنونُ الآخر: «مِمَّا حفظْناه»: ما لذَّةُ «الخبز» إلَّا لِلمجانين...

فضحكَ (النابغة): وقال: ما أسخَفَكَ مِنْ أحمق. إذا كان هذا هو المعنى فَقُلْ: ما لذَّةُ (الكعكِ). ألم أقلْ لكم إنَّ هذا الأبلهَ لو تَهَجَّأَ كلمةَ خبزٍ قال إنَّها ل. ح. م. ولو تهجأ كلمةَ لحمٍ لقال ف. و. ل...

إنَّهُ طِفلٌ عُمرُهُ ثلاثونَ سنةً وفيه دائماً غضبُ الطفلِ ونَزَقُهُ وحماقتُه، وفيه كذلك سُرورُ الطفلِ وطيشُهُ وأحلامُه؛ غيرَ أنَّهُ ليس فيه عقلُ الطفل.. وهو من الضعف، وشِدَّة الحاجة إلى العِناية في حياطتِه وسياستِه والبِرِّ به كطفلٍ صغير - بحيث يُخيَّلُ إليَّ أحياناً أنّني أمُّه..

قلْنا: وتنَسى في هذِه الحالة أنَّك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تتَّهمونني بالنسيان، وهو شَرْعاً جِهةٌ مُلزِمَةٌ لِلْحكم بالجنون فما النسيانُ إلَّا الكلمةُ الأخرى لِمعنى ضعف العقل؛ وضعفُ العقلِ هوَ اللفظُ الآخرُ لِمعنى جنوني؛ وقد أعلمْتُكم ما أكرَهُ من الكلام.

قلْتُ: لا، النسيانَ لا يكون منكَ نسياناً بمعناهُ في المجانين، بلْ بمعناهُ فيك أنت من تواثُبِ الأفكارِ النابغة وتزاحُمِها في تَوارُدِها على العقل. فإذا تواثَبتْ وتزاحمَتْ كان أمرُها إلى أنْ يُنسي بعضُها بعضاً، فلا ينطلقُ منها إلّا القويُّ النابغُ حقَّ نبوغِه، فيجيءُ كالمنقطعِ مِمَّا قبله؛ فيُحْسَبُ ذلك نِسياناً وما هو بِهِ. وقد تصطلِحُ الأفكارُ في هذه المعركة الذهنيَّة إذا كان النابغةُ مسروراً مَحبوراً يرقصُ طرَباً.. فيكون أمرُها إلى أنْ تجيءَ كلُّها معاً على اختلاف معانيها وتناقضِها؛ فيُحسَبُ ذلك ضَرْباً من الذهولِ عند مَنْ يجهلُ العِلَّة «النبوغيَّة»؛ وعذرُهُ جهلُ هذه العِلَّة، وهي في دلالة العقلِ ليسَتْ نِسياناً ولا ذُهولاً.

قال: فأعْلِمني كيف نِسيانُ المجانين، فقد خَفِيَ عليَّ أنْ أدرِكَ هذا الأمرَ العجيبَ فيهم، ولسْتُ أدري كيف يفوتُهم ما استدنى لهم من الفكرِ بعدَ أنْ يكونَ قدِ استقرَّ وحَصَل في عقولِهم؟

قلْت: لا يكون النسيانُ تُهمةً بِالجنون إلَّا في أحوالٍ ثلاثٍ، جاءَتْ بكلِّها الروايةُ الصحيحةُ المحفوظة:

فأمَّا الأولى: فما يُروَى عن رجلٍ كان سَرِيًّا غنيًّا وعُمِّرَ حتى أدركَهُ الخرَف؛ فجاءَهُ كاتبُهُ يوماً يستعينُهُ على تجهيزِ أمِّه وقد ماتت، فدفعَ إلى غلام له دنانيرَ يشتري بها كفناً، ودنانيرَ أخرى يتصدَّقُ بها على القبر، ثُمَّ قال لغلام آخر؛ اِمضِ إلى صاحبِنا وغاسِلِ موتانا فلانٍ فادْعُهُ يغسِّلُها. قال الكاتب: فاستحييْتُ منه وقلْت: يا سيدي اِبعثْ خلفَ فلانةٍ وهي جارَةٌ لنا تغسِّلُها. قال: يا فلان: ما تدعُ عقلكَ في حزْنٍ ولا فرح. كيف نُدخِلُ عليها مَنْ لا نعرفُه؟

قال الكاتب: نعم تأذَنُ بذلك. قال: لا - والله - ما يغسلُها إلَّا فلان.

فضاقَ الكاتبُ بهذا الحمقِ وقال: يا سيدي كيف يغسلُ رجلٌ امرأة؟

قال: وإنَّما أمُّك امرأة؟. . ـ والله ـ لقد أُنسِيْت. .

وأمَّا الحالةُ الثانية: فما يُروى عن رجلٍ كان نائماً في ليلةٍ باردةٍ فخرجَتْ يدُهُ من الفراش فبردَتْ، فأدناها إلى جسدِه وهو نائم فأحسَّ بردَها فأيقظتْه، فانتبهَ فَزِعاً فقبضَ عليها بيدِه الأخرى وصاح: اللصوص. اللصوص. . هذا اللصُّ قد قبضْتُ عليه، أدركوني لِئلَّا تكونَ في يدِه حديدةٌ يضرِبُني بها، فجاؤوا بِالسراجِ فوجدُوهُ قابضاً بيدِه على يدِه وقد نسيَ أنَّها يدُه. . .

وأمَّا الثالثةُ: فهي روايةٌ عن رجلٍ قد وَرِثَ نِصْفَ دار، ففكَّرَ طويلاً كيف تخلُصُ الدارُ كلُّها له ثمَّ اهتدى إلى الوسيلة؛ فذهبَ إلى رجلٍ وقال له: أريدُ أنْ أبيعَكَ حِصَّتي من الدارِ وأشتريَ بثمنِها النصفَ الباقي لِتصيرَ الدارُ كلّها لي. . .

* * *

قال (النابغة): لعَمْري إنَّ هذا لهو الجنون، وما يُذْكَرُ مع هؤلاءِ مجنونُ المتن ولا «غيرُه». . .

فقال الآخر: تالله لولا أنَّ (نابغةَ القرن العشرين) يرفعُ نفسَهُ عن الجنون لجاءَ في الجنون بِما يُذهِلُ «العقول». . .

ثُمَّ نظرَ فإذا النابغةُ يتحفَّزُ له. . . فأسرعَ يقول: «مِمَّا حفظْناهُ» كُنْ حذراً كأنَّك غِرٌّ، وكُنْ ذاكراً كأنَّكَ ناسٍ. فهذا هو نِسيانُ نابغة القرن العشرين، نِسيانُ حكماءَ لا نِسيانُ مجانين.

قال (النابغة): ولكنْ قدْ فسدَ قولُ الشاعر: ما لذَّةُ العيشِ إلَّا لِلمجانين؛ فما بقيَتْ مَعَ الجنون لذَّة.

قلْت: إنَّ الشاعرَ لا يُريدُ المجانينَ الذين هم مجانينُ بالمرض، وإنَّما يُريدُ العشاقَ المجانينَ بالجمال؛ وجنونُ العاشقِ في هذا البابِ كعيوبِ العظماءِ من أهلِ الفنّ، وهي عيوبٌ تُدافِعُ عن نفسِها بحَسَنَاتِ العظمة، فليسَتْ كغيرِها من العيوب.

قال: فيجبُ أنْ أصنعَ بيتاً آخرَ يفسِّرُ ذلك الشعرَ لِيستقيمَ لِيَ التمثُّلُ بهِ، ثُمَّ فكَّرَ وهمْهمَ، ثُمَّ كتبَ في ورقةٍ ثُمَّ طواها وقال: اِصنعْ أنت أولُ، وسأئتمنُ س. ع. على شعري ودفعَ إليه الورقة:

فنظرْتُ وقلْتُ: يجبُ أنْ يكونَ الشعرُ هكذا:

قالوا: جُنِنْتَ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم ما لذَّةُ العَيشِ إلَّا لِلْمجانينِ
العَقلُ إنْ حَكمَ العُشَّاقَ أثقلُ من فقرٍ تحكَّمَ في رِزْقِ المساكينِ

ونشر س. ع. الورقةَ فإذا فيها:

قالوا: جننْتَ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم ما لذَّةُ العيشِ إلَّا لِلْمجانينِ
إنَّ العيوبَ عن المجنون دافعةٌ بأنَّهُ «نابغٌ في القرن العشرين»...

وضحكْنا جميعاً؛ فقال النابغة: أبعدَكَ الله يا س. ع. إنَّ مَن ائتمنَ المجنونَ على سرٍّ وقال له اكتمْهُ فكأنما قال له: انشرْه...

ثُمَّ قال: وَدِدْتُ ـ والله ـ أنْ يكونَ س. ع. هذا «نابغة»، ولكنِّي سأجعلُهُ نابغة، فقد صارَ له عَليَّ حقُّ الصديقِ وهو حقٌّ لا أضيِّعُهُ ولا أُخِلُّ بِهِ. فإذا احتجْتَ يا س. ع. إلى خِطابٍ رنانٍ تُلقيه في حَفْلٍ عظيم، أو قصيدةٍ تمدحُ بها وزيرَ المعارف، فالجأ إليَّ فإنِّي مَلْجأ لك. ومتى انتحلْتَ شِعرِي كنْتَ عند الناسِ المتنبي أوِ البحتري. أوِ ابنَ الرومي، فإنَّ هؤلاءِ القُدامى لم ينفعْهم إلَّا أنَّني لم أكنْ فيهم، ولمَّا لم أكنْ فيهم أعجبوا الناس إذ إنَّني لم أكنْ فيهم...

قلْنا فما حُكمُك عليهم في الأدب؟

قال: إذا حكمْتُ عليهم فقدْ جعلْتُ نفسي بينهم، فمن الطبيعيِّ ألَّا يُعجبَني منهم أحد. إنَّ «نابغةَ القرن العشرين» لا يقولُ لِمعنًى هذا أحسنُ، فإنَّهُ هو فوقَ الأحسن، ولا يقولُ عن نابغةٍ هذا أشهر، فإنَّهُ هو فوقَ الأشهر.

قلْت: كأنَّ الدنيا تحتَ قدميك وأنت فيها الزاهدُ العظيمُ الذي لا يقولُ في حُسنِ هذا أحسنُ لِأنَّهُ فوقَ الشهوة، ولا في نعيم هذا أطيبُ لِأنَّهُ فوقَ الطمع، ولا في مالِ هذا أكثرُ لِأنَّهُ فوقَ الحِرْص. وأحسُبك لو كُنْتَ تَرعى غنماً لكنْتَ الحقيقَ في عصرِنا بقولِ تلك الراعية الزاهدة: أصلحْتُ شأني بيني وبينَهُ فأصلح بين الذئبِ والغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلْت: حُكِيَ عن بعضِ الصالحينَ أنَّهُ فكَّرَ ذاتَ ليلةٍ فقال في نفسِه: يا ربِّ. مَنْ زوجتي في الجنَّة؟ فأرِيَ في منامِه ثلاثَ ليالٍ أنَّها جاريةٌ سوداءُ في أرضِ كذا. فجاءَ تلكَ الأرضَ فسأل عن الجارية، فقال له رجلٌ ما هذا؟ تسألُ عن جاريةٍ سوداءَ مجنونةٍ كانَتْ لي فأعتقْتُها؟ قال وماذا رأيْتُم من جنونِها؟ قال: كانَتْ تصومُ النهارَ فإذا أعطيْنَاها فَطُورَها تصدقَتْ بِهِ، وكانَتْ لا تهدأ الليلَ ولا تنامُ فضجرْنا منها.

قال: فأين هي؟ قال ترعى غنماً لِلْقوْم في الصحراء:

فذهبَ إلى الصحراءِ فإذا هي قائمةٌ في صلاتِها، ونظرَ إلى الغنم فإذا ذئبٌ يدلُّها على المرعى وذئبٌ يسوقُها. فلمَّا فرغَتْ من صلاتِها سلَّمَ عليها فأنبأتْهُ أنَّهُ زوجُها في الجنَّة وأنبأها أنَّهُ بُشِّرَ بها؛ ثُمَّ سألها ما هذه الذئابُ مَعَ الأغنام؟ قالت: نعمْ أصلحْتُ شأني بيني وبينَهُ فأصلحَ بين الذئبِ والغنم.

قال (النابغة): هذا كذبٌ لِأنَّهُ عجيب، وهو عجيبٌ لِأنَّهُ كُذب.

قلْت: وأيُّ عجيبٍ في هذا؟ إنَّ الذئبَ والشاةَ، والأسدَ والغزال، والثعبانَ والعُصفور، وكلَّ آكِلٍ ومأكولٍ من الأحياء، لو هي دخلتْ في دائرة الصلاة الحقيقيَّة لانْتظمَتْ كلُّها صَفًّا واحداً يركَعُ ويسجد. فهذه الجاريةُ نشرَتْ رُوحَ الصلاة والتقوى على كلِّ ما حولها من قلبِها الطاهرِ المطمئنِّ بالإيمان فوقعَ الذئبُ منها في دائرةِ مغناطيسيَّة، فسُلِبَ وحشيَّتَهُ ورجعَ مُسَخَّراً لِفكرة الصلاحِ والخيرِ إذْ تجانَسَتْ فيه الحياةُ بما حولها، وانسجمَ النوعُ والنوعُ في حركةٍ متجاوبةٍ انسجامَ الرجُلِ المغناطيسيِّ هو ومَنْ ينوِّمُهُ في إرادةٍ واحدةٍ وفكرةٍ واحدة.

قال (النابغة): فإذا دخل الذئبُ مسجداً يَرْتجُّ بالمصلِّين، أتُراهُ يَصُفُّ أرْبعتَهُ ويقفُ بينَهم لِلصلاة، أم يُصلِّي صلاتَهُ الذئبيَّةَ في لحومِهِم؟

قلْت: وأين همُ الذين يُصلُّون بحقيقة الصلاة، فيخرجون بها من النفسِ إلى الكوْن، ومن الزمن إلى الأبد، ومن الأسبابِ إلى مُسبِّبِها، ومِمَّا في القلْبِ إلى ما فوقَ القلب؟ إنَّ هؤلاءِ جميعاً يُصلّون بجوارحِهِم وبينَهم وبين أرواحِهِم طولُ الدنيا وعرضُها؛ وما منهم إلَّا مَنْ يتَّصِلُ فكرُهُ بما يَغلبُ عليه، كما يتَّصلُ فكرُ اللصِّ بيدِه، وفكرُ العاشقِ بعينِه، وفكرُ الطفيْليِّ بمَعدتِهِ. فاسمُها عندهُمُ الصلاة، وحقيقتُها عند الله كما ترى.

قال (النابغة): ولكنَّهُ ذئبٌ من طبيعتِه أنْ يأكل الشاةَ لا أنْ يرعاها، فلا أفهمُ شيئاً.

وقال الآخر: «مِمَّا حفظْناه» رتَعَ الذئبُ في الغنم، ولم يقولوا صلَّى الذئبُ في الغنم، فلا أفهمُ شيئاً.

قلْت: سأزيدُكما عَدَمَ فهم... إنَّ قلبَ تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصلٌ بِالله، وليسِ فيه شيءٌ من طِباعِها الإنسانيَّة ولا ظلٌّ من ظِلالِ الدنيا؛ وقد تجلَّى فيه سرُّ الحياة، وهو السرُّ الذي لا يطعمُ ولا يشربُ ولا يلبسُ ولا يشتهي ولا يَطمعُ

في شيءٍ ولا يُحرزُ شيئاً، وإنّما طبيعتُهُ أشواقُهُ الكونيَّة، واتصالُهُ بَنَفحاتِ القوَّة الأزليَّة المسخَّرة لِلوجودِ كلِّه. فانتشرتْ هذه الموجةُ الكهربائيَّةُ الأثيريَّةُ حول الجارية من قلبِها، وجاءَ الذئبُ فَالتَجَّ فيها وغمرتْهُ الروحانيَّةُ الغالبةُ، فإذا هو يفتحُ عينَهُ على كونٍ غريبٍ قد تجلّى السلامُ عليه، فليس فيه إلّا قوةٌ آمرةٌ أمرَها بائتلاف كلِّ شيءٍ مع كلِّ شيء، واجتماعِ المتنافرَيْنَ في حالةٍ معروفةٍ لا في حالة إنكار. فصارَ الذئبُ مستيقِظاً، ولكنَّهُ في رُوحِ النوم، وشُلَّتْ فيه الذئبيَّةُ الطبيعيَّةُ، فإذا هو يحملُ الأنيابَ والأظافرَ وقد أنسيَ استعمالَها؛ وبقيَتْ حركتُهُ الحيوانيَّةُ، ولكنْ تعطَّلتْ بواعثُها فبَطَل معناها.

ومن كلِّ ذلك اختفى الذئبُ الذي هو في الذئب، وبقيَ الحيوانُ حيًّا ككلِّ الأحياء، فناسَبَ الشاةَ وفزعَ إليها إذْ لم تكن العَلاقةُ بينهما علاقةَ جِسم الآكلِ بجسم الأكيلة، بلْ علاقةَ الروحِ الحيِّ بروحِ حيٍّ مثلِه[1].

* * *

قال (النابغة): أمَّا أنا فقد فهمْتُ ولكنَّ هذا المجنونَ لم يفهم. أكْتُبْ يا س.

ع: جلسَ نابغةُ القرن العشرينَ مجلسَهُ لِلفلسفة على غير إعدادٍ ولا تمكّن، وبدون كُتبٍ ألبتة... وكان هذا أجمع لِرأيه وأذهَنَ له وأدعى لِأنْ يتوفَّرَ على الإملاءِ بكلِّ «مواهبِه العقليَّة»؛ ولمَّا أنْ فكرَ النابغةُ أعطى النظرَ حقَّهُ وجمع في عقلِه الفذِّ جَزالةَ الرأي إلى قوَّة التفنّن والابتكار، قال مرتجِلاً: إنَّ فلسفةَ الذئبِ والشاة حينَ لم

---

(١) روت الصحف في هذه الأيام قصة حاكم إنجليزي كان قد اقتنص ذئباً هنغارياً وشده في سلسلة وجعله في حديقة داره إلى أن يرى فيه رأياً؛ وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشي فتربص إلى الليل، فلما استثقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئاً من معنى هذه الوحشية، ولم يكن في نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك؛ ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيده الصغيرتين ويعبث به، والذئب مدهوش ذاهل، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمي؛ وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده في فراشه، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه في غرف الدار، ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائماً ورأسه على الذئب، وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكي على صديقه الوفي...

هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها، ولكن أين مثل هذا اليقين في مثل هذه الحالة؟ وكل مروضي الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم، وأن هذا هو وحده سلاح النفس في النفس.

يأكلُها ولم تَنْطِحه، هي بِالنصِّ وبِالحرف كما قال أستاذُ نابغة القرن العشرين.

(حاشية) وإنَّ مجنونَ المتن لم يفهمْ هذه الفلسفة.

فامتعضَ الآخرُ وقال «مِمَّا حفظناه»:

وبـاتَ يـقـدحُ طـول الـلـيـلِ فِـكْـرَتَـهُ وفـسَّـرَ الـمـاءَ بـعـدَ الـجُـهْـدِ بِـالـمـاءِ

فقال (النابغة): ويلكَ يا أبله! أمَا ـ والله ـ لو كنتَ نَفْطَوَيْه أو سيبوَيْه لمَا كُنْتَ عندي إلَّا جَحْشَوَيْه أو بَغْلَوَيه...

لقد كنتُ أرى الكلامَ في تلك الفلسفة طريقاً نَزِهاً جميلاً حفَّتْهُ الأشجارُ والأزهارُ عن جانبيه، واندفعَتْ في سَوَائِه (تُمبيلاتُ) الأفكارِ خاطفةً كالبرق. فلمَّا تكلمْتَ أنت انتهيْنا من سخافتِك إلى طريقٍ حجريّ تُقَعْقِعُ فيه عرباتُ النقلِ تجرُّها البِغالُ البطيئة.

فقال الآخرُ وهو يعتذرُ إليه: ما أردْتُ والله مَسَاءَتَكَ ولو أردْتُها لقلْتُ وفسرَ الماءَ بعدَ الجهدِ بِالسبرتو... فهذا هو الخطأ، أمَّا تفسيرُ الماءِ بعدَ الجهدِ بِالماءِ فهو صحيح.

قال (النابغة): ولكنَّهُ تفسيرٌ مُفْرطُ السقوطِ كتفسيرِ المجانين، فهو يقولُ إنِّي مجنون.

قلْت: كلا، إنَّ تفسيرَ المجانين يكون على غير هذا الوجهِ، كالذي حكاهُ الجاحظُ قال: سمعْتُ رجلاً يقول لِآخر: ضربْنا الساعةَ زِنديقاً. قال الآخر: وأيُّ شيءٍ الزنديقاً؟ قال الذي يُقَطِّعُ المزّيقاً. قال: وكيف عَلِمْتَ أنَّهُ يقطِّعُ المزّيقاً؟

قال: رأيْتُهُ يأكلُ التينَ بِالخلِّ...

* * *

المجنون

(٦)

تتمة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين، والكلامُ على أنحائِه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ في معنًى إلى معنى؛ فأردْتُ أنْ أبلغَ به إلى الغاية التي جمعْتُ من أجلِها بين هذين المجنونين، بعدَ ما انطلقْنا في القولِ وانفتحَ القُفلُ الموضوعُ على عقلِ كلٍّ منهما.

وكان قدْ مرّ في النديّ بائعُ روايات مترجمةٍ «بوليسيَّةٍ وغراميَّةٍ ولصوصيَّة!» يحملُ الرجلُ منها مَزْبَلةَ أخلاقٍ أوروبّيّةٍ كاملةٍ لِينفضَها في نفوسِ الأحداثِ من فِتيانِنا وفِتياتنا، فقلْتُ (لِنابغة القرن العشرين): أتقرأ الروايات؟ قال: لا، إلَّا مرةً واحدةً ثُمَّ لم أعاوِدْ، إذْ جعلتْني الروايةُ روايةً مثلها.

قلْنا: هذا أعجبُ ما مرّ بنا منذُ اليوم، فكيف صِرْتَ رواية؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعةَ النوابغ، إذْ ليس لكم حِسُّهُمُ المرهَفُ، ولا طبعُهُمُ المستحْكِم، ولا خصائصُهُمُ الغيبيَّة، ولا خواطرُهُمُ المتعلِّقةُ بما فوقَ الطبيعة.

قلْت: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابغة) إلَّا وهو بين عالمين على طرَفٍ مِمَّا هنا وطرفٍ مِمَّا هناك، فهو خرَّاجٌ ولَّاجٌ بين العالمين؛ ولهُ نفسٌ مركَّبةٌ تركيبَها على نواميس معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهي تأخذُ من الظاهرِ والباطن معاً، ويحصرُها المكانُ مرةً ويُفلتُها مرة، وتكونُ أحياناً في زمان الأرض، وأحياناً في زمن الكواكبِ من القمرِ فصاعداً... ولكن...

فقطعَ عليَّ وقال: أضفْ إلى ذلك أنَّ هذه العقول التي تَحصرُ مَنْ يسمونَهُمُ العقلاءَ في الزمان والمكان، لا تُوجِدُ أهلها إلَّا الهمومَ والأحزانَ، والمطامع السافلة، والأفعال الدنيئة، فإنَّهم يعيشونَ فوقَ التراب.

قلْت: نعم، وإذا عاشوا فوقَ الترابِ فباضطرارٍ أنْ تكونَ معاني الترابِ فوقَهم

وتحتَهم ومِنْ حولِهِم وبين أيديهِم، فليسوا يقطعونَ على هذه الأرضِ إلَّا عمراً ترابيًا في كلِّ معانيه ولكن. . .

قال: وزِدْ على ذلك أنَّهم مقيَّدون تقييدَ المجانين، غيرَ أنَّ حِبالَهُم وسلاسلَهُم عقليَّةٌ غيرُ منظورة؛ وبتَغْليلِهِم تغليل المجانين يسمُّونَ أنفسَهُم عُقَلاء، وأعقلُهم أثقلُهُم قيوداً، وهذا من الغرابة كما ترى.

قلْت: نعم، أمَّا العقلاءُ بحقيقة العقلِ، فهمُ الذين يضحكونَ على هؤلاءِ ويسخَرونَ منهم، إذْ كانوا في حالٍ كحالِ المنطلِقِ من المقيَّد، وفي موضعٍ كموضعِ المعافَى من المُبتلى ولكن. . .

قال: وفوقَ هذا وذاك، إنَّهم لا يملكونَ السعادةَ، إذْ ليس لهمُ العقلُ الضاحكُ الساخرُ العابثُ الذي خُصَّ به النوابغُ وكان الأوحدُ فيه (نابغةَ القرن العشرين).

قلْت: نعم، وإذا ملكوا السعادةَ لم يشعروا بها، أمَّا (النوابغ) فقد لا يملكونها، ولكنْ لا يفوتُهمُ الشعورُ بها أبداً فيجيئُهُمُ الفرحُ من أسبابِه ومن غير أسبابِه ما دامَ لهُمُ العقلُ الضاحكُ الساخرُ العابثُ الذي دأبُهُ أبداً أنْ ينسى لِيضحك، ولا قانونَ له إلَّا إرادةُ صاحبِه، على مشيئة صاحبِه، لِمنفعة صاحبِه. ولكن. . .

قال: والذي هو أهمُّ من كلِّ ما سبق؛ أنَّ أعظمَ خصائصِ هذا العقلِ الضاحكِ الساخرِ العابثِ أنْ يطردَ عن صاحبِه ما لا يُحبُّ ويجنِّبَهُ أن يخسرَ شيئاً من نفسِه؛ فهو لِذلك يجعلُ حِسابَهُ مع الأشياءِ حِساباً يهوديًا لا بدَّ فيه من ربحِ خمسينَ في المائة. .

قلْت: نعم، وهو دائماً كالطفل؛ وما أظرفَ بلاهةَ الطفلِ وما أجداها عليه، إذ يضعُ بلاهتَهُ دائماً في أرواحِ الأشياءِ وأسرارِها فتخرجُ بلهاءَ مثله، وتنقلبُ له الدنيا كأنَّها أمٌّ تُضاحِكُ ابنَها وتُلاعبُهُ ولكن. . .

قال: ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغُهُ الإنسانيَّةُ إلَّا شذوذاً في أفرادِها من جبابرة العقولِ (كنابغة القرن العشرين).

قلْت: نعم (ولكن) كيف صارَ (نابغةُ القرن العشرين) روايةً حينَ قرأ الرواية!

قال: هذه نكتةُ النبوغ؛ فلو أنَّ مؤلفَها كان نابغةً مثلنا يتلقَّى في نفسِه وحيَ الأثيرِ وإشاراتِ الروحِ الأعظم؛ لعَلِمَ من الغيبِ أن (نابغةَ القرن العشرين) سيقرأ روايتَه، فكان يتحرَّى معانيَ غيرَ معانيه ويتوخَّى بهذه القصة وضعاً آخرَ لا تكونُ فيه حبيبةٌ خائنة، ولا لِصٌّ عارم، ولا قاتلٌ سفَّاح، ولا سِجنٌ مظلم، ولا محكمةٌ تقولُ حيثُ وحيث. . .

قلْت: وما عليك من حبيبةٍ خائنةٍ في الورقِ، ولِصّ بين الحروف المطبعيّة وقاتلٍ لا يقتلُ إلّا كلاماً، وسجنٍ ومحكمةٍ على الصحيفة لا على الأرض؟

قال: هذه نكتةُ النبوغ، فما استوعَبْتُ القصةَ حتى عمرَتْني أشخاصُها، وأقْحِمْتُ منها على هَوْلٍ هائل، فخانَتْني الخائنةُ لعنَها الله.. ولولا خوفُ السجن والمحكمة لقَتلْتُها أشنعَ قِتْلة، ومثَّلْتُ بها أقبحَ تمثيل. ويْحَ الخائنة كيف استمالها ذلك الدميمُ الطويلُ العِملاقُ المشبوحُ العِظام المفتولُ العضَل؟ ولكنّي لسْتُ عملاقاً ولا مَبْنيًا بناءَ الحائط، ثُمَّ كان مجنوناً بشهواتِه جنونَ الفيلِ الهائج، وكنْتُ في شهواتي عاقلاً عقل الإنسان، ثُمَّ كان غنيًا غِنَى الجُهَّال، وكنْتُ فقيراً فقرَ العلماء. والنساءُ؛ قبحَ الله النساء. إنَّهُنَّ زينةٌ تطلبُ زينةً مثلها وإنَّ المرأةَ لتمنحُ وجهَها لِلقردِ يُقبِّلُهُ إذا كان الذهبُ يتساقطُ من قُبُلاتِه. أمَّا مَنْ كان مثلي، أموالُهُ الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغ، فهو مُفلسٌ عندهُنَّ إفلاسَ القِرْدِ في الغابة، فهو عندهُنَّ قِرْدٌ لِهذِه المُشابهة.

قلْت: هذا ليس عجيباً فإنَّ اللغويينَ يُجرون على الشيء اسمَ ما يُقاربُهُ في المعنى.

قال المجنونُ الآخر: «مِمَّا حفظْناه» أنَّ اللغويين يُجرونَ على الشيءِ اسمَ ما يقاربُهُ في المعنى...

فتربَّدَ وجهُ (النابغة) غضباً وقال: أبي يلعبُ هذا المجنون؟ إنَّهُ يزعمُ أنَّ اللغويين يسمونني قِرْداً، فهاتوا القواميس كلَّها وارجعوا إلى مادة (قَرَد) ومادة (نابغة)... سَوْأَةً عليك أيُّها الصبيُّ المعمَّر.. ألَا فدعوني أؤدِّبْهُ أدبَ الصِّبيان فإنَّ اللطمةَ القويَّةَ على وجه الطفلِ المُكابرِ في حقيقةٍ تُلمِسُهُ الحقيقةَ التي يُكابرُ فيها إذْ تُدخِلُها إلى عقلِه من أقربِ طريق..

قال ا. ش: أنت قلْت، لا هو. على أنَّكَ لسْتَ قِرْداً أبداً إلّا عند امرأةٍ جميلةٍ فاتنةٍ متخيّلةٍ متماجنةٍ، قد تضعُ البرذَعةَ على ظهرِ الأميرِ وتجعلُهُ حِمارَها، فيُعْجَبُ الأميرُ أنْ يكونَ حِمارَها. ولسْتُ قِرْداً مع قَرَّادٍ إلى جانبِ عنزٍ وكلب.

قال: الآن علمْتُ السبب، فإنَّ الخائنةَ كانَتْ متخيِّلةً مؤَلِّفةَ كُتبٍ وروايات، والمرأةُ التي تُؤلِّفُ الكتب، غيرُ بعيدٍ أنْ تؤلفَ الرجُل أيضاً، وتجعلهُ قصةً هو فيها قِرْد.. وهذا إنْ كانَتْ جميلةً كامرأة الرواية. أمَّا إنْ كانَتْ دميمةً مجموعةً من المتناقضات، أو عجوزاً مجموعةً من السنين؛ فهذه وهذه كلُّ أيامِها كيوم الأحدِ عند النصارى... يومٌ لِلعُطلة لا بيعَ فيه ولا شراءَ ولا مساومة. هذه وهذه كِلتاهما

تجعلُ الرجل كالماءِ في سبيلِ التجمد. . لا يشتعل، فضلاً عَنْ أنْ يَسْتَعِر، فضلاً عن أنْ يحترق.

ومؤلفةُ الكتبِ لا يكون وجهُها إلّا إحدى وثيقتين: فإمّا جميلةٌ، فوجهُها وثيقةٌ بأنَّ لها دُيوناً على الرجال؛ وإمّا غيرُ جميلة، فوجهُها (مُخالصةٌ) من كلِّ الديون. . .

قلْنا: هذا في الخائنة. فكيفَ سرقَكَ اللصُّ ولسْتَ غنيًّا؟

قال: هذه هي نكتةُ النبوغ؛ وفي النبوغِ أشياءُ لا ينكشفُ تفسيرُها، وليس في جهلِها مضرَّةٌ على أحد، وجهلٌ لا يضرُّ هو عِلْمٌ لا ينفع، لكنَّهُ عِلْم. والبحثُ في بعضِ أعمالِ (النابغةِ) هو كالبحثِ عن سرِّ الحياة فيه، إذْ يعملُ أعمالَهُ تلك بسرّ الحياة لا بسرِّ العقل، أي بالعقلِ النابغِ الخاصِّ به وحدَهُ لا بِالعقلِ الطبيعيِّ المشتركِ بين الناس.

* * *

قلْت: ومن عجائبكَ أنَّك لا تقرأ الروايات، ولكنَّكَ مع ذلك تُؤلِّفُها. . .

قال: إنَّ ذلك ليكون، وإنْ لم أؤلِّفها أنا تألفَتْ هي لي. فإذا تقدَّمَ الليلُ ونامَ الناسُ جميعاً انتبهْتُ أنا وحدي لِرواية العالم فأرى ما شِئْتُ أنْ أرى. وفي ضوءِ النهارِ أجدُ الناسَ عقلاءَ ولكنِّي في ظلمة الليلِ أبصرُهم مجانين. فهذا الليلُ برهانُ الطبيعة على جنون الناسِ وضَعْف عُقولِهم إذْ هو يُثبتُ حاجةَ هذه العقولِ إلى ضَرْبٍ من النسيان الأبله التامّ لولاهُ ما عقلتْ في نَهارِها ولا استقامَ لها أمر.

يُصْرَعُ الناسُ في الليلِ صُرْعَةَ المجانين فيُغمضونَ أعينَهم ولا يرونَ شيئاً. أمّا أنا فأرى العالمَ في الليلِ مسرحاً هزليًّا يَضِجُّ بِالضحكِ من الإنسان الأحمقِ الذي يقطعُ سَرَاةَ نهارِه، وهو معتقدٌ أنَّهُ قابضٌ على الوجودِ بالأعين والآذان والأناف. . أئنْ رأيتَ الأسدَ بعينِكَ أيُّها الأحمقُ وسمِعْتَ في أذنيك زئيرَه، ادّعيْتَ الدَّعوى العريضة، وزعمْتَ أنَّك ملكتَهُ وقبضْتَ عليه، ولا تدري في هذا أنَّكَ كالمعتوه إذا قبضَ على الظِّلِّ بيدِه، وصاحَ هاتوا الحبل لِأُقيِّدَهُ لا يُفْلِت؟. . .

قلْت: فإذا كان العالمُ كلُّهُ روايتَك فأخرجْ لنا فصلاً من الرواية.

قال: أيُّما أحبُّ إليكم، أنْ أكتبَ أو أمثِّل؟

قلْنا: بلِ التمثيلُ أحبُّ إلينا. فنظرَ إلى المجنون الآخرِ وقال: إنَّ المجنونَ في طبيعتِه ينبوعٌ من الأشخاصِ يفيضُ حالاً بعد حال، كينبوعِ الماءِ يَسُحُّ الدفعة

بعدَ الدفعة، فهنا المسرحُ، والروايةُ الآنَ روايةُ الطبيبِ والمجنون. . .

* * *

أنت يا س. ع. عمُّ هذا المجنون. فإذا قال لك يا عمّ. قلْ له: أنا لسْتُ عمَّكَ ولكني أخو أبيك. . . لِننظرْ أيتنبَّهُ على الفرقِ بين الصيغتين أم لا؛ فإنَّهُ فَرْقٌ عقليٌّ دقيقٌ تُمتحَنُ به العقول. .

تعال أيُّها المريضُ فإنِّي أرجو أنْ يكونَ شِفَاؤُك على يدي، وفي يدي هذه لمسةٌ من لمَساتِ المسيح، لأنَّ (نابغةَ القرن العشرين) هوَ الآنَ طبيبُ القرن العشرين. . .

اِتَّقوا أنْ تغضبُوهُ أو تُخيفُوه، وأقيموا له كلَّ ما يحتاجُ إليه، وتحرَّوا مسرتَهُ دائماً، فإنَّ إدخال بعْضِ السرورِ إلى نفسِ المجنون هو إدخالُ بعضِ العقلِ إلى رأسِه.

متى أنكرْتَ يا س. ع عقل ابن أخيك وما كان السببُ؟ وكيف غُلبَ على عقلِه؟ وهل ا. ش. هو خالُه أو أخو أمِّه؟

لطَف الله لك أيُّها المِسكين. قل لي: أتتذكرُ أمسِ؟ أتتذكرُ غداً؟. . إنَّ الأمسَ والغدَ ساقطان جميعاً من حسابِ المجانين؛ ومن الرحمة بهم أنَّ الدنيا تبدأ لهم كلَّ يوم فقدِ استراحوا من ثُلُثَيْ هموم الزمن في العقلاء. وهم لا يصلحون أنْ ينفعوا الناسَ كالعقلاء، غيرَ أنَّهم صالحون أكثرَ من العقلاءِ للانتفاعِ بأنفسِهم في الضحكِ والمرحِ والطرب، وهذا حَسْبُهم من النعمة عليهم.

قلْ لي أيُّها المجنون: أتُحِسُّ أنَّ الدنيا تَصنعُ لك نفسَك، أمْ نفسُك هي تصنعُ لك الدنيا؟ إنَّ هذه مسألةٌ يحلّها كلُّ مجنونٍ على طريقتِه الخاصَّة به، فما هي طريقتُك في حلِّها؟

ما لكَ لا تُجيبُ أيُّها الأبلهُ؟ (هذا من جهةٍ ومن جهةٍ) أعطوهُ قِرشاً لِينطلِقَ لِسانَهُ، وآتوا الطبيبَ أجرَهُ وافياً وهو لا يَقِلُّ عن قِرشين. . .

ثُمَّ مال (النابغةُ) على مجنون المتن وسارَّهُ بشيء. فقلْنا ما أمرُ المالِ بسِرّ؛ هذا قِرشٌ لِلْمريضِ وهذان قِرشان لِلطبيب.

فقال المجنون: «مِمَّا حفظْناه» كفى بِالسلامة داءَ.

قال «الطبيب»: هذا مريضٌ بنوعٍ من الجنون اسمُهُ «مِمَّا حفظْناه» وهو جنونُ النسيان الذي يضعُ في مكان العقل كلمةً ثابتةً لا يتذكَّرُ المجنونُ إلَّا بها؛ ومن أعراضِه جنونُ الشَّكِّ فكلُّ ما حول المريضِ مشكوكٌ فيه، وقد يترامَى إلى جنون اللَّمْس، فلو لمَسْتَهُ بإصبعِكَ توهَّمَها عقرباً فخافَ من الإصبعِ تلمسُهُ خوفَهُ من العقربِ تلدغُه،

ولكنْ بقيَتْ أشياءُ لا بُدَّ من التدقيقِ في فحصِها، فليس هذا من مجانين العبقريَّة التي انحرفَتْ عن طريقِها أو شذّتْ في قوّتِها؛ ولا هو مِمَّنْ يَتَجانُّ ويتحامقُ التماساً لِلرزقِ والعَيْشِ كما قال بعضُهم: حماقةٌ تَعولُني خيرٌ من عقلٍ أعولُه.

فقال المجنون: «مِمَّا حفظْناهُ» حماقةٌ تعولُني..

فضحكَ (النابغةُ) وقال: هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنون (مِمَّا حفظْناه) وهو أقلُّ الجنون وأهونُه، وعِلاجُهُ البَسْطُ والسرورُ والقِرْش؛ والضرْبُ أحياناً.. فإذا ثابرَ عليه الداءُ تحوَّل إلى جنونِ (مِمَّا ضَربْناه).. فيعتدي المصابُ على كلِّ مَنْ يراهُ أو يُوقِعُ به ضرْباً، وعلاجُهُ حينئذٍ القميصُ المرقوم[1]؛ فإذا فَدَحَتِ العِلَّةُ انقلبَ المرضُ إلى جنونِ (مِمَّا قتلْناه). وعِلَاجُهُ يومئذٍ السلاسلُ والأغلال.

والحقَّ أقولُ لكم إنَّ آخرَ ما انتهَتْ إليه فلسفةُ الطِّبِّ في القرن العشرينَ أنَّ الناسَ جميعاً مجانينُ ولكنَّ بعضَهم أوفرُ قِسْطاً من بعض. كأنَّ سلْبَ العقلِ هو أيضاً حظوظٌ كحظوظِ موهبة العقل. وأهلُ المريخِ من أجلِ ذلك يسمونَ الأرضَ بيمارستانَ الفَلَك.

ولكنْ بقيَتْ أشياءُ لا بدَّ من التدقيقِ في فحصِها؛ وعندي في الدارِ عاطُوسٌ إذا أشممْتُهُ هذا المجنونَ عَطَسَ به عطسةً قويَّةً فخرجَ جنونُهُ من أنفِه... قلْ لي أيُّها المسكين: أتخافُ إذا سِرْتَ وحدَك في ميدانٍ واسعٍ كأنَّ الميدانَ سيلتفُّ عليك؟ أتضطربُ إذا مشيْتَ في مَضيقٍ كأنَّ المكان سينطبقُ عليك؟ وإذا كنْتَ في عربة القِطارِ فهل يُخيَّلُ إليكَ أنَّ البيمارستانَ قد جرَّهُ القِطارُ وانطلقَ به هارِباً؟ وهلْ شعرْتَ مرةً أنَّهُ أوحَى إليكَ أنْ تنتحِر؟

أرني هذا القِرشَ الذي في يدِك. فمدّ إليه المجنونُ يَدَهُ بالقرش.

قال (النابغة): انظرِ الآنَ هل تُحدِّثُك نفسُكَ أنْ تَغصِبَنِي هذا القِرشَ أو تسرِقَهُ منِّي؟ قال: نعم.

قال (النابغة): إذن يجبُ أنْ أحرِزَهُ في جيبي.. وأسرعَ فأخفاهُ في جيبِه...

* * *

فصاحَ الآخرُ وشَغَبَ، وقال سلبَني ونَهَبَني. قلْنا لا ينبغي أنْ يتَّصِل بينَكما

---

(١) القميص المرقوم قميص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذي يسمى اليوم (النمرة) وقد كان هذا معروفاً في التمدن الإسلامي.

شرٌّ في تمثيلِ الرواية فهذا قِرشٌ آخر، ولكنْ أفي الفلسفة عند (النابغةِ) إباحةُ السرقة والغضَب؟

قال: فالروايةُ الآنَ هي روايةُ الفيلسوف العظيم أفلاطونَ وتلميذِه أرسطو.

قلْ لي ويحَكَ يا أرسطو. أعلمْتَ أنَّ في المجانينِ أغنياءَ يسرقونَ الشيءَ القليلَ لا قِيمةَ له وهم أغنياءُ وليسَتْ بهم حاجةٌ إليه. فما عِلَّةُ ذلك عندَك وما وجهُهُ في مَقُولة الجنون؟

أعجزْتَ عن الجواب؟ إذن فاعلمْ يا أرسطو أنَّ المُصابَ بهذا الضَّربِ من الجنون إذا اشترى هذا الشيءَ بدرهمٍ كانَتْ قيمتُهُ من الدرهم وحدَه، وهو غنيٌّ لا قِيمةَ لِلدرهم في مالِه فلا يَحفِلُ بالشِّراءِ بَيْدَ أنَّهُ إذا سرقَه كانَتْ قِيمتُهُ عندَهُ من عقلِه وحيلتِه فيجيئُهُ بلذةٍ لا تشتريها كلُّ أموالِه ولا كلُّ أموالِ الدنيا. فهذا جنونٌ باللذَّة لا بالسرقة، وهو بذلك ضَربٌ من العِشْقِ يجعلُ الشيءَ إذا لم يُسرقْ كأنَّهُ المرأةُ المعشوقةُ الممتنعةُ على عاشِقها.

والْجِياعُ إذا سرقوا لِيأكلُوا ويُمسِكُوا الرمقَ على أنفسِهِم، لا يُقالُ في لغة الفلسفة إنَّهم سرقوا بلْ أخذوا.. فباضطرارٍ جاعوا وباضطرارٍ مثلِه أكلوا، والسارقُ هنا هو الغنيُّ الذي منعُهُمُ الإحسانَ والمعونة..

فالدنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعُها يا أرسطو، ولوِ استقامَتْ هذه الأوضاعُ لوُجدَتِ السعادةُ في الأرضِ لأِهلِ الأرضِ جميعاً. وكيف لك بالسعادة والناسُ مخلوقون بِعيُوبِهِم؟ ويا ليْتَهُم مخلوقون بعيوبِهِم فقط، ولكنَّ الطامَّةَ الكبرى أنَّ عيوبَهم تعملُ دائماً على أنْ ترى في الآخرينَ عُيُوباً مثلها.

كلُّ حِمارٍ فهو يُريدُ أنْ يملأَ جوفَهُ تِبْناً وفولاً وشعيراً، غيرَ أنِّي لم أرَ حِماراً قطُّ يُريدُ أن يملأَ لِنفسِه الإصطبل؛ فإذا وُجِدَ حِمارٌ هذه هِمَّتُهُ وهذا عملُهُ فاسمُهُ إنسانٌ لا حِمار.

يا أرسطو إنَّ مُعضِلةَ المعضلاتِ أنْ يُحاول إنسانٌ حلَّ مشكلةٍ داخليَّةٍ محضةٍ قائمةٍ في نفسِ حِمارٍ أو ثابتةٍ في ذِهنِه الحِماريّ... ومثلُ هذا أنْ يُحاول حِمارٌ حلَّ مُشكلةٍ نفسيَّةٍ في ذِهْنِ إنسانٍ أو في قلبِه، فلا حلَّ لِمشاكلِ العالم أبداً ما دامَ كلُّ إنسانٍ مع غيرِه كحِمارٍ مع إنسان...

والمعضلاتُ النفسيَّةُ من عملِ الشياطين، فكان ينبغي أنْ تجيءَ الملائكةُ لِتُحارِبَ الشياطينَ بِالبرقِ والرعدِ دِفاعاً عن الإنسانيَّة؛ ولكنَّ الله ـ تعالى ـ منعَها، وأرسل لِلإنسان

ملائكةً أخرى إنْ شاءَ هذا الإنسانُ عمِلتْ، وإنْ شاءَ عجِزَتْ؛ وهي فضائلُ الأديان المنزَلةِ. فإذا منحَها الإنسانُ إرادتَهُ وقوَّتَه، فعملتْ عملها كان الإنسانُ هوَ المَلكَ بل فوقَ المَلكِ، وإذا أضعفَها ومَحَقَها كان الإنسانُ هو الشيطانَ وأسفل من الشيطان.

يا أرسطو[1]: «هذا العالمُ عندي كُتلةٌ من العدم اتَّفقَتْ على الظهورِ وستختفي. والعالمُ عندي ضعفٌ رُكِّبَ وقوَّةٌ ركِّبَتْ. والعالمُ عندي لا شيء. والعالمُ بَيْنُ بَيْن. والعالمُ قِسمان: منهمُ الفلاحُ الزراعيُّ وذلك أفضلُ فلسفةٍ طبيعيَّة. والعالمُ في حاجةٍ إلى الموتِ والموتُ في حاجةٍ إليه. والأدبُ هو الحياةُ ولا حياةَ بِلا أدب. والأدبُ ضربانِ: أدبٌ نفسانيٌّ وأدبٌ مكتسَب، وقد يكون طبيعيًا كما هو عند نابغة القرن العشرين. ومَنْ هو نابغةُ القرن العشرين؟ هو شخصٌ ماتَ بلا موت، ويحيا بلا حياة».

أتُريدُ يا أرسطو أنْ تعرفَ سرَّ تركيبِ العالَمَ؟ الأمرُ يسيرٌ غيرُ عسير، فإنَّ سرَّ تركيبِه كسرُ تركيبِ القِرْشِ الذي في يدكِ، فدعْني أظهرُكَ على هذه الحقيقة ومُدَّ يدَكَ بِالقِرْشِ لأبيِّنَ لك سِرَّ التركيبِ فيه...

* * *

ولكنَّ المجنونَ الآخرَ أسرعَ فغيَّبَ القِرْشَ في جيبِه. فقال (النابغة): هذا سياسيٌّ داهيةٌ خبيث. والروايةُ الآنَ روايةُ سياسيِّ القرن العشرين.

ليس في حقيقة السياسة إلَّا الرَّذْلُ من أفعالِ السياسيِّن. والألفاظُ السياسيَّةُ التي تحملُ أكثرَ من معنًى هي التي لا تحملُ معنًى. فلْيحذرِ الشرقُ من كلِّ لفظٍ سياسيٍّ يحتملُ معنيين، أو معنًى ونصفَ معنًى، أو معنًى وشِبْهَ معنًى؛ فإنْ قالوا لنا (أحمر) قُلْنا لهمُ اكتبُوهُ بهذا اللفظ؛ فإذا كتبوُهُ قلْنا لهم: ارسموا إلى جانبِه معناهُ باللون الأحمرِ لِتشهدَ الطبيعةُ نفسُها على أنَّ معناهُ أحمرُ لا غير.. وعلى هذه الطريقة يجبُ أنْ تُكتَبَ المعاهداتُ السياسيَّةَ بين أوروبّا والشرق...

إنَّهم يكتبون لنَا جريدةً بأسماءِ الأطعمة ثُمَّ يقولون: أكلْتُم وشبِعْتُم... ولقد رأيْتُ (مظاهرات) كثيرةً ولا كالمظاهرة التي أتمنَّاها؛ فما أتمنَّى إلَّا أنْ يخرجَ كلُّ المجانين في مظاهرة..

---

(١) هذه الأسطر التي وضعناها بين القوسين هي من كلام المجنون بالنص، وكنا سألناه أن يكتب رأيه في العالمِ والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط، وتندر فيها كلمات كأعمق ما تجيء به مذاهب الفلسفة.

وهذا الأبلهُ الذي أمامَنا ليس وطنيًا ولا فيه ذرةٌ من الوطنيّة؛ فإنْ كان وطنيًا أو زعمَ أنّهُ وطنيٌّ، فلْيُخرج القِرْشَ الذي في جيبِه... لِيكونَ فألاً حسناً لِخروجِ جيشِ الاحتلالِ من مصر...

* * *

ولكنَّ المجنونَ لم يخرجِ القِرْشَ وتركَ جيشَ الاحتلالِ في مكانِه.

فقال (النابغة): الروايةُ الآنَ روايةُ الشرطيِّ واللصّ. وبحقٍّ من القانون يكون لِلشرطيِّ أنْ يُفتّشَ هذا اللصَّ لِيُخرجَ القِرْشَ من جيبِه...

* * *

غيرَ أنَّ المجنونَ امتنعَ. فقال (النابغة): كلُّ ذلك لا يُجدِي مَعَ هذا الخبيث، فالروايةُ الآنَ روايةُ هارون الرشيدِ مَعَ البرامكة. ويجبُ أنْ يَنكُبَ الرشيدُ هؤلاءِ البرامكةَ ليَستَصْفيَ القرش..

* * *

بيدَ أنّنا منعناهُ أنْ ينكُبَ «البرامكة» فقال: الروايةُ الآنَ روايةُ العاشقِ والمعشوقة، ونظرَ طويلاً في المجنون وصعَّدَ فيه عينَهُ وصوَّبَ فلم يرَ إلّا ما يُذكِّرُ بأنّهُ رجل، فتهدَّى إلى رأيٍ عجيب. فوقعَ على قدميه وتوهَّمَهُ امرأةً في حذائها... وجعل يُناجي الحِذَاء بهذه المناجاة:

إنَّ سخافات الحُبِّ هي أقوى الدليل عند أهلِه على أنَّ الحبَّ غيرُ سخيف؛ فكلُّ فكرةٍ في الحُبِّ مهما كانَتْ سخيفةً، عليها جَلالُ الحبّ؛ ولِلحذاءِ في قدميكِ يا حبيبتي جمالُ الصندوقِ المملوءِ ذهباً في نظرِ البخيل، وكلُّ شيءٍ منكِ أنتِ فيه سرُّ جمالِكِ أنتِ. والحذاءُ في قدميكِ ليس حذاءً، ولكنّهُ بعضُ حُدودِ جسمِكِ الجميل، فلا أكونُ كلَّ العاشقِ حتى أحيطَ بكلِّ حُدودِكِ إلى الحذاء..

إنَّ جسمَكِ يا حبيبتي كالماءِ الجاري العذْب؛ في كلِّ موضع منه روحُ الماءِ كلِّه؛ وحيثما وقعتِ القُبلةُ من جِسمِكِ كان فيها روحُ شفتيكِ الورديتين، هذه قُبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتي؛ وهذه قُبلةٌ على ساقِكِ؛ وهذه قُبلةٌ على ثوبِكِ وهذه قُبلةٌ على جَيبِك..

وكادَتْ يدُ (النابغة) تخرجُ بِالقِرْش؛ فعضَّهُ المجنونُ في كتفِه عضةً وحشيَّةً، فجاءَهُ الخوفُ منها فطارَ صوابُه؛ فصرخَ صرخةً عظيمةً دوَّى لها المكانُ وترددَتْ كصَرْصَرَةِ البازيّ في الجوّ، ثُمّ اعتراهُ الطَّيف، وأطبقَ عليه الجنونُ فاختلطَ وتخبَّطَ..

(والروايةُ الآن)؟... روايةُ عربة الإسعاف...

فهرس الموضوعات

الإشراقُ الإلهي وفلسفة الإسلام ٣
حقيقة المسلم ٩
وحيُ الهجرة ١٤
فلسفةُ قصة ١٩
فوقَ الآدمية الإسراءُ والمعراج ٢٥
الإنسانية العليا ٣٢
سمُوُّ الفقرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم (١) ٣٩
سموُ الفقرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم (٢) ٤٤
درسٌ منَ النبوة ٥٠
شهرٌ لِلثورة فلسفة الصيام ٥٦
ثباتُ الأخلاق ٦٢
قُلْتُ لِنفسي وقالتْ لي. ٦٨
الانتحار (١) ٧٥
الانتحار (٢) ٨٣
الانتحار (٣) ٩١
الانتحار (٤) ٩٨
الانتحار (٥) ١٠٥
الانتحار (٦) ١١٣
وحي القبور ١٢١
عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرِها (١) ١٢٥
موت أمّ ١٣٠
قصة أب ١٣٤
السّمكة ١٤٠

الزاهدان (٢) ١٤٨
إبليسُ يُعلّم. . . (٣) ١٥٤
الدنيا والدرهم (٤) ١٦٠
دُعابةُ إبليس ١٦٦
الشيطان. ١٧٣
تاريخٌ يتكلّم. ١٨٢
المجلدُ الأول ١٨٥
المجلدُ الثاني ١٨٦
المجلدُ الثالث ١٨٧
المجلدُ الرابع ١٨٧
المجلدُ الخامس ١٨٨
المجلدُ السادس ١٨٨
المجلدُ السابع ١٨٩
المجلدُ الثامن ١٨٩
المجلدُ التاسع ١٩٠
المجلدُ العاشر ١٩٠
كُفرُ الذُّبابة. ١٩٢
يا شبابَ العرب! ٢٠٠
لـوْ. . .! ٢٠٤
في محنة فلسطين ٢٠٩
أيُّها المسلمون! ٢٠٩
قصةُ الأيدي المتوضّئة. ٢١٣
نجوى التمثال ٢١٩
فاتحُ الجوِّ المصريّ ٢٢٢
أجنحةُ المدافعِ المصرية ٢٢٦
أحاديث الباشاَ ٢٣٠
الطماطمُ السياسي. ٢٣٠
البك والباشا ٢٣٤
ساكنو الثياب. ٢٣٧

الأخلاقُ المحاربة ٢٤١
خضعَ يخضع ٢٤٥
فلْنتعصبْ . . . ! ٢٤٩
وزْنُ الماضي ٢٥٤
المعجمُ السياسيّ ٢٥٨
اللسانُ المُرَقَّع ٢٦١
سرُّ القُبَّعَة ٢٦٤
سعد زغلول ٢٦٨
حماسةُ الشعب ٢٧١
الجمهور ٢٧٤
المجنون (١) ٢٧٨
المجنون (٢) ٢٨٥
المجنون (٣) ٢٩٢
المجنون (٤) ٢٩٩
المجنون (٥) ٣٠٧
المجنون (٦) ٣١٥